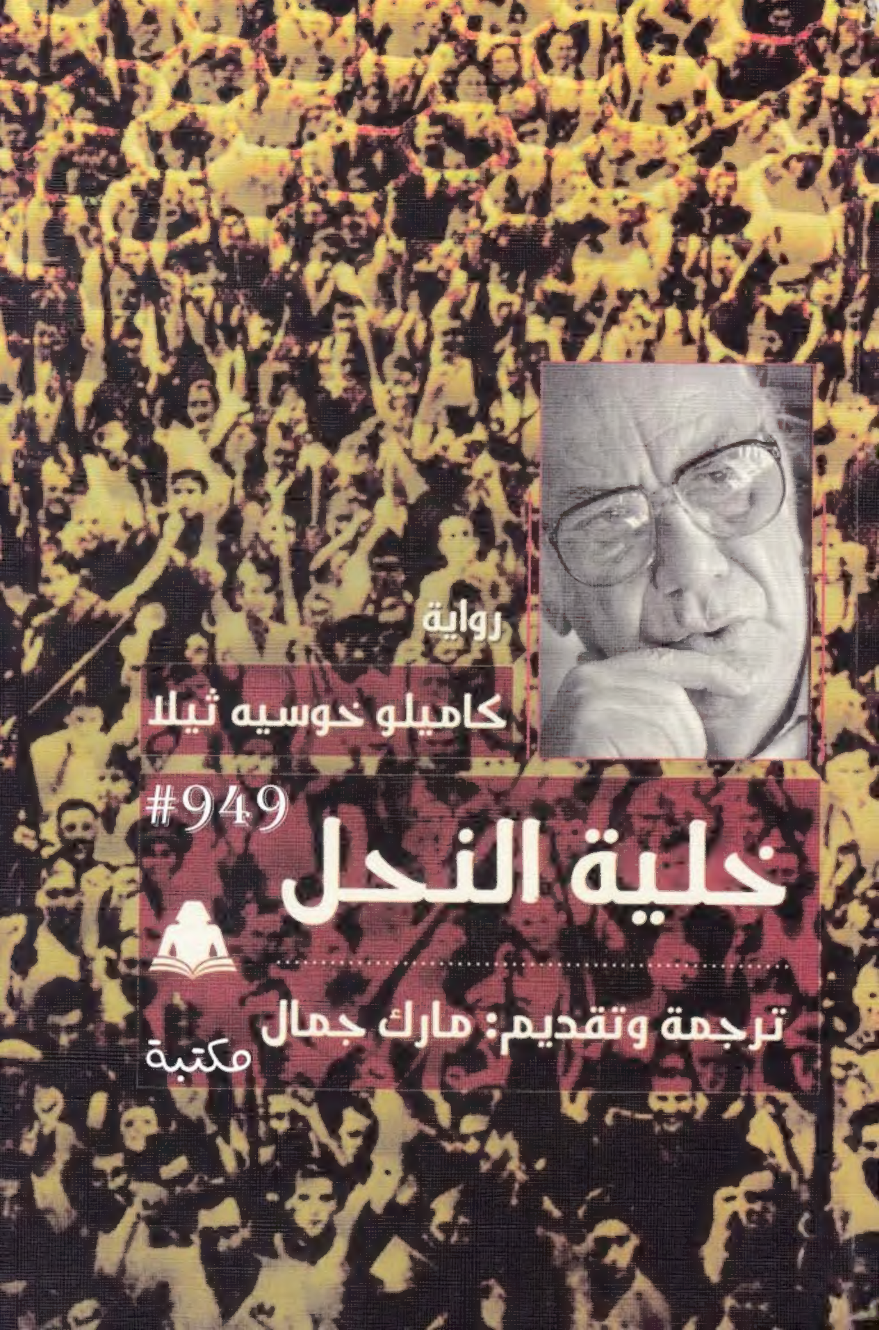

رواية
كاميلو خوسيه ثيلا
#949
خلية النحل
ترجمة وتقديم: مارك جمال
مكتبة

خلية النحل



الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. هيثم الحاج علي
رئيس الإدارة المركزية للنشر
د. سهير المصادفة
الإخراج الفني
عصام محمود محمد
الإشراف الفني
عصام المرسي
التصحيح اللغوي
طلعت الجندي
المتابعة
سحر محجوب

خلية النحل

تأليف / كاميلو خوسيه ثيلا

ترجمة وتقديم / مارك جمال

الطبعة الأولى: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٨

ص.ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدي: ١١٧٩٤
تليفون: ٢٥٧٧٥١٠٩(٢٠٢) داخلي ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦(٢٠٢)

GENERAL EGYPTIAN BOOK ORGANIZATION
P.O.Box: 235 Ramses.
1194 Cornich El Nil - Boulac - Cairo
P.C.: 11794
Tel.: +(202) 25775109 Ext. 149
Fax: +(202) 25764276

website: www.egyptianbook.org.eg
E-mail: ketabgebo@gmail.com
www.gebo.gov.eg

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ثيلا، كاميلو خوسيه، ١٩١٦ ـ ٢٠٠٢
خلية النحل: رواية / كاميلو خوسيه ثيلا
ترجمة مارك جمال. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٨
٤٢٢ص؛ ٢٣ سم.
تدمك ٥ ١٨٩٢ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ـ القصص الإسبانية.
أ ـ جمال، مارك. (مترجم)
ب ـ العنوان
رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٧٣٩/ ٢٠١٨
I. S. B. N 978 - 977 - 91 - 1892 - 5
ديوي ٨٦٣



خلية النحل

مكتبة | سُر مَن قرأ

رواية

كاميلو خوسيه ثيلا

ترجمة وتقديم:

مارك جمال

#949


الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٨

• الكتاب: خلية النحل.

La Colmena

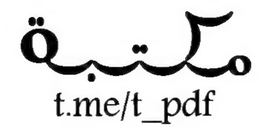
• تأليف: كاميلو خوسيه ثيلا.

Camilo José Cela

• ترجمة وتقديم: مارك جمال.

• الطبعة الأولى: 2018.

• طبع في مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.



إلى أخي "خوان كارلوس"

الطالب بالأكاديمية البحرية الإسبانية.



مقدمة الطبعة الأولى

إن روايتي "خلية النحل" الكتاب الأول في سلسلة "طُرُق حائرة" لا تعدو أن تكون انعكاسًا شاحبًا، ظلاً متواضعًا للواقع اليومي، القاسي، الحميمي، الأليم.

ويكذب أولئك الراغبون في إلباس الحياة قناع الأدب المجنون، ذلك أن الشر الذي ينخر في النفوس، الشر الذي له من الأسماء بمقدار ما نرغب في تسميته، لا يمكن التصدّي له بكمّادات الامتثالية الدافئة، أو بضمادات البلاغة والشاعرية.

أما روايتي هذي فلا تطمح إلى كونها أكثر - أو أقل، بطبيعة الحال - من شذرة حياةٍ تُروَى خطوة بخطوة، في غير تحفُّظات، في غير تراچيديا غريبة، في غير شفقة، كما تجري الحياة، تحديدًا كما تجري الحياة. شئنا أم أبينا. والحياة هي ما يعيش، في سرائرنا أو خارجنا. أما نحن فلسنا بأكثر من مَرْكَبة لها، لسنا بأكثر من سَوّاغ (*) لها على حد قول الصيادلة.

(*) السّواغ: ما يضاف إلى دواء ليصبح سائغًا، وهو مادة غير فعالة علاجيًا يمزج بها عقار بكمية معينة لاستساغته.

وبحسب اعتقادي، فلم يعُد من الممكن في يومنا هذا كتابة رواية على نحوٍ آخر - سواء أكان أفضل أم أسوأ - بخلاف ذلك الذي نحَوْتُه. ولو رأيت غير ذلك، لبدَّلت مهنتي.

ولأسباب خاصة تصدر روايتي في جمهورية الأرجنتين، حيث الأجواء الجديدة - الجديدة بالنسبة لي - نافعة للأدب المطبوع وفق ما أرى.

إن روايتي ذات بناء مُعقَّد، وقد شقَّ عليَّ إنجازها كثيرًا. هذا ومن الجليّ أن تلك المشقَّة قد يكون مردّها التعقيد الذي تنطوي عليه الرواية أو خَرَقٌ من جانبي.

أما فيما يتعلَّق بأحداث الرواية، فتدور في مدريد - خلال عام - 1942 وسط سيل جارف، أو خلية نحل، مؤلَّفة من أناس يسعدون حينًا، ولا يسعدون حينًا. وقد وضعني شخوصها المائة والستون على طريق الأسى خلال خمسة أعوام طوال، شخوصها الذين يتدفَّقون أسرابًا عبر صفحاتها (لا يركضون). وسواء أكنتُ مصيبًا بشأنهم أم مخطئًا، فذلك أمر ينبغي للقارئ البتُّ فيه.

لست أدري إن كانت الرواية واقعية أو مثالية أو طبيعية أو تقليدية أو أيًّا ما كانت... الأمر الذي لا يشغلني كثيرًا. ليَسِمْها كل قارئ بما يشاء، فقد اعتاد المرء كل شيء.

"ك. خ. ث".

مقدمة الطبعة الثانية

ما زلتُ أفكِّر في الأمر ذاته كما كنت أفعل منذ أربعة أعوام. ما زال يراودني الشعور ذاته، وما زلتُ أدعو إلى الأمر ذاته. جرت في العالم أمور غريبة (وإن لم تكُن أغرب مما ينبغي). وعلى الرغم من ذلك، فإن الرجل الذي ضُيِّق عليه الخناق، والطفل الذي يعيش كالأرانب، والمرأة التي يُقدَّم لها خبزها الفقير المرير، كل يوم، مُدلّى من قضيب مالك المتجر الصارم الحذِر (ذلك العمود المُشحَّم الخبيث)، والفتاة الخائبة في الحب، والشيخ القانط، وصاحب المرض العضال، صاحب المرض العضال المُتوسِّل السخيف، ما زالوا هناك. لم يزحْهم من مكانهم أحد. لم يمْحُهم أحد. بل وما كاد يرنو إليهم أحد.

أعرف حق المعرفة أن "خلية النحل" صرخة في البرِّية، بل وقد لا تكون بالصرخة المدوية أو التي ينفطر لها القلب. كما أنني لم أتعلَّق بآمال خادعة في هذا الصدد قط. ومع ذلك، فضميري راضٍ تمام الرضا على كل حال.

على مدار الأعوام الأربعة المنصرمة، ذهب الناس كل مذهب فيما قالوا عن "خلية النحل" فقيل عنها الحَسَن والغثُّ من القول. وعلى الرغم من ذلك، فلم يُقَل عنها سوى القليل مما ينطوي على حسن التمييز، بالتأكيد. وإنه لمن

المؤلم أن يلاحظ المرء أن الناس ما زالوا يحسبون الأدب - بالتأمُّل مليًا - وسيلةَ تسلية لا تؤذي أحدًا، شأنه شأن آلة الكمان على سبيل المثال، الأمر الذي يُعدُّ بمثابة كبوة من كبوات الأدب.

ومع ذلك، فالأمر لا يستحقُّ أن نسمح للحزن بمداهمتنا. فلا شيء قابل للإصلاح: وتلك حقيقة بديهية ينبغي للمرء أن يتجشَّمها بإذعان واشمئزاز. بل وبابتسامة مبهمة على الشفاه، كما يفعل أرقى مصارعي السيرك الروماني.

"ك. خ. ث"

من مقدمة الترجمة الرومانية

يسألني صديقي الأستاذ "خورجو خوردان" أن أكتب بضع كلمات لتصدير هذه الطبعة الجديدة من الكتاب. ولسوف أحاول النزول عند طلبه في مساحة لا تزيد عن اللازم، ذلك أن البطء يضرُّ بالصحة.

طبقًا لما يبدو، فإن "خلية النحل" ستصدر باللغة الرومانية بالفعل وأنا على ثقة من الامتنان الذي سيشعر به القارئ نحوي لو وفَّرتُ عليه الفقرات المعهودة عن اللغات الرومانسية بما فيها الرومانية، تلك اللغة الطليعية الشرقية، التي أبدت مقاومة بطولية وسط مجموعات اللغات السلافية والمجرية. كما لن أحدِّث القارئ عن الإمبراطور تراجان وفيالقه النائية المنتصرة، الإمبراطور الذي كان سيصبح إسبانيًا لو كان لإسبانيا وجود آنذاك. ليس المرء بعالِم لغة ولا مؤرِّخ في الأساس، بَيْد أننا في هذا المقام نقف إزاء نتاج لغة وتاريخ ما زالا على مقربة كبيرة منا: اللغة الإسبانية الشعبية، وتاريخ مدينة مدريد بين عامي 1940 و 1942 على وجه التقريب، أي منذ ربع قرن مضى.

لستُ أدري إن كانت "خلية النحل" رواية مُقيَّدة بقواعد كلاسيكيات اللون الأدبي أم أنها كومة من الصفحات تجري عبْرها حياة مدينة تفتقر إلى النظام، في غير نظام. بَيْد أني أميل إلى الافتراض بأن الرأي المرتاب

الثاني هو الصائب، وإن لم يكُن لذلك أهمية كبيرة فيما يتَّصل بالمسألة التي نحن بصدد تناولها اليوم.

إن الكتب تميل إلى الغموض أبدًا، قبل ميلادها وبعده. وبمعنًى ما، ربما لا يكون ضربًا من ضروب السخف تلاوة الكتب - عوضًا عن كتابتها - كيما تذرو كلماتها الرياح، أو تُشكِّلها على أقل تقدير؛ ذلك أن التقليد الشفهي ليس أقل شأنًا من التقليد الكتابي، والذي لا يعدو كونه تقليدًا شفهيًا مصحوبًا بمُلقِّن ورسائل تذكيرية، على نحوٍ ما.

لستُ أتصوَّر "خلية النحل" باللغة الرومانية، كما لست أرى أن إمكانية قراءتها بالفرنسية أو الإنجليزية أو الإيطالية أو السويدية أو الألمانية أو البرتغالية أو البولندية أمرٌ ينطوي على قدرٍ كبير من المنطق. إذ لا يُمكن التعبير عن الموقف نفسه، أو حالة مماثلة، أو مغامرة مطابقة، بأكثر من لغة على النحو ذاته. أقصد أن ما يُحكَى ليس هو نفسه على وجه التحديد، لأن كلمات لغة ما - مهما كانت تلك الكلمات من البدائية - ليست لها القيمة نفسها في لغة أخرى. وعلى سبيل المثال، فإن الكلمة الإسبانية silla [مقعد] يترجمها الفرنسيون إلى chaise أما الإنجليز فيترجمونها إلى chair ولكن بالتفكير في الأمر مليًا، فالكلمات silla وchaise و chair لا تُمثِّل الشيء نفسه، أو الغرض نفسه، بثلاثة مُسمَّيات مختلفة، في ثلاث لغات مختلفة، بل إنها ثلاثة أشياء مختلفة، سُمِّي كلٌّ منها كما ينبغي له أن يُسمَّى، على وجه الدقَّة. ضَعْ في اعتبارك أن المثال الذي أسوقه قد لا يكون صحيحًا تمام الصحة (وهو مثال مغاليً فيه بعض الشيء وينطوي على تناقضات). ولكن جرِّب القياس على المثال المذكور في أفكار مُجرَّدة (لا حاجة لأن تكون تلك الأفكار ساميةً أيضًا)، وسترى أنني لم أحِد عن الصواب كثيرًا في الرأي المرتاب الذي ذهبتُ إليه.

أقف بعيدًا كل البعد عن الانغلاق على الذات، بَيْد أني، ولأسباب بالغة الاختلاف والتعقيد، لم أعُد بعيدًا بالقدر نفسه عن الخلوص إلى أن الحكمة تقتضي أن يتجنَّب المرء إمكانية قراءة كتبي أو كتب غيري من المُؤلِّفين بلغة أخرى بخلاف اللغة التي وُلدَتْ بها. أما إشكالية الترجمة، فتقلقني بسبب

من الخداع الذي يفضي إليه "العَصيُّ على الترجمة" (أي روح العمل دومًا، بل وحتى الكلمة في بعض الأحيان) أكثر مما تقلقني بسبب من الاحتيال الذي ينطوي عليه "القابل للترجمة" (أي الكلمة، واحدة تلو الأخرى، وإن ليس دائمًا)، رغم أن قابلية الترجمة بالغة النسبية دائمًا. أعرف جيدًا أن مسلكي يصعب فهمه داخل الإطار المُحدَّد حيث وددتُ التعبير عنه، ولكني لستُ غافلاً عن ضرورة البدء من موضع ما.

أما الكُتَّاب، فهم طيور مكابرة تغويها الريشات الزاهية النادرة بوجه عام. وهم إذ وقعوا في إثم تلك الغواية. فمن عادتهم التكفير عن ذلك سعيًا وراء السرابات الأشد زيفًا. ولو كان حسن التمييز يسود العالم، لأصبحنا - نحن الكُتَّاب - أوَّل وأعتى المُنددِّين بترجمة أعمالنا، أي بذلك الثوب التنكري الذي يحجب أقرب الأشياء إلى قلوبنا. وعلى الرغم من ذلك، فقد دَرَج الكُتَّاب - تلك الحيوانات المتناقضة التي يملأ نفوسها الهواء - على الدفاع عن نقيض ذلك وتكريس طاقاتهم لقراءة أنفسهم بلغات أخرى (وإن كان لا يتسنَّى لهم ذلك إلا فيما نَدَر). أما أنا، فأجهل الدوافع وراء تلك المازوخية.

ولكن، دعونا لا نذهب أبعد مما ينبغي. فنحن الآن بصدد الاحتفاء بطبعة جديدة من "خلية النحل" ولا ينبغي لشيء أن يحيد بنا عن مقصدنا. ربما تسنَّى لي الإفصاح عن فكرة نزق الترجمة على نحوٍ أفضل مما دوَّنت هنا، حين تنضج الفكرة بداخلي.

أجل، سوف تصدر "خلية النحل" باللغة الرومانية. وانطلاقًا من افتراض مفاده أن الترجمة وافية تمامًا، فماذا سيجني كتابي من وراء جواز سفره الجديد؟ وماذا سيخسر؟

في "خلية النحل". مثلها كمثل أية رواية حديثة أخرى، تنشأ مجريات الأحداث عن سلسلة من الافتراضات المسبقة - كما تنطلق منها أيضًا - قد تجعلها مُربكة، إن لم تجعلها منيعة على غير المُطَّلعين على سرِّها وتقليدها الحميمي التاريخي (نظرًا لكونه قريبًا، ما زال يفتقر إلى الوضوح والجلاء). و"خلية النحل" لا تنتهي عند كلمات مُؤلِّفها، الذي هو أنا، وإنما تتجاوزها وصولاً إلى وجهتها قبل الأخيرة، كما هو الحال في روايات لا عدّ لها من

روايات هذا العصر. ومنذ الحرب الأوروبية الأولى على وجه التقريب، يُطالَب القارئ ـ لقاء نزر يسير أحيانًا - بأن يبذل جهدًا معينًا، جهدًا ليس بقليل في كثير من الأحيان، حتى يتسنَّى له الدخول إلى العالم الفريد لكل رواية: عالم مُتملِّص حيث لا تشير البوصلة إلى الشمال في كثير من الأوقات، بل تشير إلى جهة اختُرِعَتْ حديثًا وما زالت بلا اسم.

وفيما يلي سؤالي، والأمر الذي ارتبتُ بشأنه: هل من الطبيعي، ومن الجدير بالثناء، نقل ما جرى التعبير عنه بلغة معينة من دون سواها - لأسباب ضاربة في العمق وليست عارضة - إلى لغة أخرى؟ بدأتُ أفكِّر بأن الإجابة: كلا. وتُعدُّ أشعار "عزرا پاوند" [1] بما لها من أصوات إنجليزية وإيطالية وسنسكريتية وصينية، مُقدِّمةً لما يخبرني به حدسي وأسعى لقوله في هذا المقام. فربما كانت الوسيلة تكمن في خلق وعي فوق قومي يجري التعبير عنه من خلال الفونيمات [2] أو الفونيمات المُركَّبة - الإنجليزية أو الإيطالية أو السنسكريتية أو الصينية... إلخ - كلَّما كانت اللحظة مواتية (وأنا مُدركٌ تمام الإدراك أنها ليست بالوسيلة سهلة التحقيق). أما وقد نُحِّيَتْ نظرية المترادفات جانبًا لكونها مفتعلة وبائدة وعديمة النفع، فلربما حانت اللحظة لاستيعاب الأسماء بوصفها مترادفات - وبالتالي فهي مفتعلة وبائدة وعديمة النفع ويمكن تنحيتها جانبًا - وبذلك أعني الأسماء التي تسعى لمُجرَّد الإشارة إلى المفاهيم المتماثلة في الظاهر ليس إلاَّ، في كل لغة من اللغات، مثال: .window, fenêtre, ventana [3] أما الثقافات، فلا تشترك في المشهد نفسه، وليست لها آلية قابلة للمُبادَلة. بَيْد أننا - نحن الكُتَّاب - لا نحمل وزر تلك الحقيقة البديهية.

"كاميلو خوسيه ثيلا"

"پالما دي مايوركا"

٢ أكتوبر ١٩٦٥



---

(١) "عزرا پاوند" (١٨٨٥ ـ ١٩٧٢) شاعر وناقد أمريكي ومن الرموز البارزة في حركة الشعر الحداثي.

(٢) فونيم (فونيمات): وحدة الكلام الصغرى التي تساعد على تمييز نطق لفظة عن نطق لفظة أخرى.

(٣) وتعني نافذة باللغات الإسبانية والفرنسية والإنجليزية.

مقدمة المترجم

لقد «ذهب الناس كل مذهب فيما قالوا عن "خلية النحل"» على حد قول مؤلِّفها الذي قدَّمها بنفسه غير مرة، وعاد إليها في أكثر من مناسبة. ومن بين كل ما كتب "كاميلو خوسيه ثيلا" عن روايته، اخترنا أن نورد في نسختها العربية مُقدّمتي الطبعتين الأولى والثانية، بالإضافة إلى مُقدِّمة كتبها خصيصًا بمناسبة صدور الترجمة الرومانية، عام 1965. ونرى أن المؤلِّف، فيما أوردناه له، قد تطرَّق بإيجاز إلى جُلِّ ما يهمُّ قارئ الرواية، بما في ذلك رأيه بشأن نقل أعماله إلى لغات أخرى والترجمة بوجه عام. وعليه، فالنقاط التي نشير إليها فيما يلي لا تعدو أن تكون ملاحظات استوقفتنا خلال مراحل الترجمة المختلفة، قد تلقي بعض الضوء على النسخة العربية من "خلية النحل".

الرقابة وطبعات الرواية:

مُنعَت "خلية النحل" من الصدور في إسبانيا بأمرٍ من الرقيب، مما حدا بالكاتب إلى نشرها أولاً في "بوينوس آيرس" عام 1951 وإن أصرَّت الرقابة الأرجنتينية على حذف عدة مقاطع من الرواية. وعلى الرغم من صدور أكثر من طبعة في إسبانيا لاحقًا، ابتداءً من عام 1955 فلم تُنشر الرواية بنصِّها

الكامل وفي شكلها النهائي حتى عام 1962 ضمن المجلد الأول من الأعمال الكاملة للمؤلِّف [١]، حيث يؤكِّد "ثيلا" قائلاً: أعتبر النُّسَخ التي أقدِّمها اليوم نهائية، وأرجو من مُحرِّري ومترجمي أعمالي الاستناد إليها من الآن فصاعدًا. وهي الرغبة التي احترمها القائمون على وضع الطبعة التذكارية الصادرة عن " الأكاديمية الملكية الإسبانية" و"اتحاد أكاديميات اللغة الإسبانية"[٢] في أكتوبر من عام 2016 بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد المؤلِّف؛ الطبعة التي استندنا إليها باعتبارها مرجعًا رئيسيًا في هذه الترجمة.

وفي السياق نفسه، تجدر الإشارة إلى صدور بعض الطبعات الأولى بالعنوان الفرعي "طُرُق حائرة" الذي اختاره المؤلِّف لمشروع سلسلة من الروايات، كما رأينا في مُقدِّمة الطبعة الأولى. وعلى الرغم من ذلك، فلم يكتمل المشروع قط، بل اكتفى منه المؤلف بالجزء الأول فحسب.

مستويات اللغة:

من الصعوبات التي تفرضها "خلية النحل" على مترجمها تعدُّد الأصوات وتباين مستويات اللغة واختلافها باختلاف المُتحدِّث والسياق. فنجد فقرات نثرية على لسان الراوي، وأخرى مفعمة بالرطانة (كخُطبة دون "إبرايم") وأحاديث دارجة تبلغ حدَّ السوقية (كبعض المشادات الكلامية على سبيل المثال)... إلخ.

ومن الحلول المطروحة دائمًا لترجمة الأحاديث الدارجة والألفاظ السوقية: اللجوء إلى العامية. الحلّ الذي لا نرفضه من حيث المبدأ، لا سيما أن العامية قد تكون الأوفى والأقرب في تلك الحالة، بَيْد أنها تضع المترجم أمام الإشكاليات المعتادة نفسها كلما أُثيرت المسألة، ومن بينها ما يلي:

---

(1) Cela, Camilo José. Obra completa, tomo I, Barcelona, Destino, 1962.

(2) Cela, Camilo José. La colmena (Edición conmemorativa de la RAE y la ASALE). RAE, 2016.

أيًّا كانت العامية التي يلجأ إليها المترجم، وبغضِّ النظر عن مدى انتشارها أو عدد الناطقين بها، فهي ليست بالضرورة مفهومة عند سائر القُرَّاء باللغة العربية. زِدْ على ذلك أنها غالبًا ما تكون مرتبطة في ذهن القارئ بسياق مُعيَّن، قد يصعُب فصلها عنه. ونقصد بذلك أن العامية غالبًا ما تستحضر صورًا بعينها، مرتبطة بمكان بعينه، في سياق بعينه... على نحو قد يتعذَّر معه على القارئ أن يتصوَّر سياقًا مغايرًا.

ومن أمثلة ذلك ما جاء على لسان والدة "بيكتوريتا" خلال المشادة الكلامية التي دبَّت بينها وبين ابنتها [1]، واخترنا ترجمته كما يلي:

- أنتِ؟ وما أدراكِ؟ ما أنتِ بأكثر من طفلة ساذجة لا تعرف الألف من العصا[2].

نرى أن ترجمة العبارة بالفصحى المعاصرة على النحو المُشار إليه تؤدِّي المعنى، إلا أنها أقرب إلى "الرسمية" وتفتقر إلى التلقائية التي يُفترَض أنها تغلب على الحديث. وعلى الرغم من ذلك، يُلاحَظ أنها ترجمة لا تفرض على القارئ سياقًا بعينه، بل تسمح له بأن يتصوَّر الموقف في سياقه الأجنبي من دون مشقَّة.

أما لو عمدنا إلى ترجمة العبارة نفسها إلى العامية المصرية، على سبيل المثال، لكانت النتيجة أشبه بما يلي:

- إنتِ؟ وإيش عرَّفِك؟ إنتِ حتَّة عَيِّلة متعرفش الألف من كوز الدرة!

من ناحية، نرى أن العبارة العامية أقرب إلى الأصل من حيث الواقعية والدلالة. كما أنها تتَّسم بالتلقائية، أو "الحميميَّة" إن جاز التعبير، بما يلائم الموقف إلى حد كبير. ومن ناحية أخرى، نرى أن العبارة من شأنها استحضار سياق بعينه دون سواه، كما أشرنا آنفًا. فيتعذَّر على القارئ أن

(1) Cela, Camilo José. La colmena (Edición conmemorativa de la RAE y la ASALE). RAE, 2016. P. 189

(٢) انظر مقطع ١٢١.

يتصوَّر مشادَّة تدور بين أمٍّ إسبانية وابنتها في قلب العاصمة مدريد. فضلاً عن ذلك، فقد يشقُّ على القارئ غير المُلِمّ بالعامية المصرية فهم العبارة، ناهيك عن الوقوف على دقائق المعنى المُراد بالتحديد.

وعليه، فقد وُجِد أنه مَن الأفضل استخدام الفصحى المعاصرة (العربية المعيارية الحديثة) نظرًا لما تفسحه لمخيلة القارئ من مساحة، حيث يتسنَّى لها التحليق بحرية والانتقال من سياق إلى آخر في سلاسة ويسر.

وبخلاف ذلك، فثمة مواضع رأينا أنها تستدعي بعض التصرُّف من جانب المترجم، مثال أبيات الشاعر الشاب التي تنطوي على قدر من الركاكة المُتعمَّدة، حرص المؤلِّف من خلالها على رصد المحاولات المُبكِّرة للشاعر[١]. وفي تلك الحالة، رأينا ضرورة المحافظة على الوزن والقافية قدر المستطاع، حتى وإن ترتَّب على ذلك إدخال تغييرات طفيفة على المعنى. على سبيل المثال لا الحصر، فقد آثرنا استخدام "أنهار" بدلاً من "نهر"[٢] حتى تستقيم القافية.

الألقاب والأسماء:

سعينا إلى المحافظة على الطابع الأصلي للرواية بقدر الإمكان. الأمر الذي قد يلمسه القارئ في مظاهر عدَّة، من بينها نقل الألقاب الاجتماعية (سنيور، سنيوريتو، سنيورا، سنيوريتا...) والأسماء كما جاءت في الأصل الإسباني. فعلى الرغم من إمكانية ترجمة الألقاب بما يقابلها في العربية، وُجِد أنه من الأفضل نقلها كما وردت في النص الأصلي (مع استثناءات قليلة اقتضاها السياق)، وذلك لما تنطوي عليه من دلالات واعتبارات في هذا العمل على وجه التحديد، ولا سيما أن الكاتب يولي المكانة الاجتماعية أهمية قصوى. زِدْ على ذلك أنها ليست بغريبة على القارئ باللغة العربية ولن تمثِّل عقبة تعرقل انسيابية النص بأية حال.

---

(1) Cela, Camilo José. La colmena (Edición conmemorativa de la RAE y la ASALE). RAE, 2016. P. 62, 63

(٢) انظر مقطع ٢٩.

ومن الجدير بالذكر أن الألقاب المُشار إليها كانت عنوانًا على الوجاهة الاجتماعية أو المهنية أو الاقتصادية، ولا سيما في حقبة ما بعد الحرب الأهلية.

أما فيما يتعلَّق بأسماء الشخوص والأمكنة، فبدلاً من ردِّها إلى مماثلاتها أو أصولها في التراث العربي روعي نقلها بأقرب ما يكون من الأصل طبقًا للنظام الصوتي الإسباني. على سبيل المثال، استخدمنا "پيدرو" وليس "بطرس" "ماركو" وليس "مرقص" "إبرايم" وليس "إبراهيم"... وبالمثل فيما يتعلَّق بأسماء المدن والأمكنة: مدريد وليس "مجريط" ، "كاستيًّا" وليس "قشتالة" "ثاراجوثا" وليس "سرقسطة"... باستثناء المدن والأمكنة المُتعارَف عليها في الوقت الراهن بأسمائها العربية، مثال: "إشبيلية"، "الأندلس"... إلخ.

وربما كان استخدام المقابل أو الأصل العربي لتلك الأسماء له ما يبرِّره لو كنا بصدد سياق تراثي، الأمر الذي نرى أنه لا يتوافق وطبيعة "خلية النحل".

وفي سياق مُتَّصل، روعي الحفاظ على تصغير الأسماء كما جاء في النص الأصلي. وصيغة التصغير شائعة كتابةً وقولاً في اللغة الإسبانية، ولها أكثر من دلالة تختلف باختلاف السياق. يعنينا منها في هذا الصدد: إظهار المودَّة، أو الألفة، أو ما إلى ذلك. وتكون صياغته بعدَّة طرق، يُعدُّ أكثرها شيوعًا على الإطلاق إضافة مقطع "يتو" (للمذكَّر) أو "يتا" (للمؤنَّث) إلى الاسم أو اللفظ، مع حذف الآخر ما لم يكُن حرفًا ساكنًا. على سبيل المثال، نجد المؤلِّف يشير إلى إحدى شخصيات الرواية باسم "إلبيرا" حينًا و"إلبيريتا" حينًا، بحسب ما يراه ملائمًا لكل مقام.

وحفاظًا على أصالة النص وموسيقاه، وُجِد أنه من الأفضل نقل تصغير الأسماء بالصيغة الإسبانية، عوضًا عن اللجوء إلى حلول أخرى كانت مطروحة خلال الترجمة، كإضافة "صغيري/صغيرتي" أو "عزيزي/عزيزتي" قبل الاسم، على سبيل المثال لا الحصر.

الهوامش والفهرس:

نظرًا لخصوصية الرواية وخلفيتها التاريخية، فقد رأينا إضافة الحد الأدنى من الهوامش والإحالات، واضعين نصب أعيننا مدى مفهومية النص عند القارئ باللغة الأصلية، على نحو نأمل معه إيضاح المعنى المُراد من دون فرض رؤية المترجم. كما روعي وضع فهرس للشخصيات التاريخية والروائية على السواء، نظرًا لكثرتهم، يجده القارئ ملحقًا بمتن الرواية. وعمدنا إلى ترقيم المقاطع أو المشاهد، علمًا بأنها وردت في الأصل بلا أرقام، وذلك بهدف تيسير عملية الفهرسة.

سياق "خلية النحل":

تدور أحداث الرواية إبان سنوات ما بعد الحرب الأولى. وهي حقبة شنَّ خلالها نظام الجنرال "فرانثيسكو فرانكو" (الفريق المنتصر في الحرب الأهلية) حملة ملاحقة ضارية وممنهجة تستهدف الجمهوريين وأنصارهم وكل من يشتبَه في دعمه لهم (الفريق الخاسر). كما عمَّ حينها البؤس والظلم الاجتماعي والجوع؛ سمات سائدة في تلك الحقبة، استطاع الكاتب أن يرصدها برهافة واقتدار من خلال التفاصيل اليومية ودقائق الأمور. بَيْد أن الحديث عن سياق الرواية بموضوعية وإيجاز، من دون الوقوع في فخِّ الانحياز أو الاختزال، يكاد يكون أمرًا مستحيلاً، مع الأخذ في الحسبان أن الحرب الأهلية الإسبانية وما تلاها من أحداث مسألة أعقد من أن توفَّى حقها في فقرات أو صفحات قلائل، وأكثر تشعُّبًا من قدرة المرء على التطرُّق إلى أوجهها كافة بموضوعية في هذه المساحة الضيقة، ولا سيما أنها ما زالت محل جدال لم يتوقَّف حتى يومنا هذا. وعليه، نترك للقارئ المهتم حرية البحث والتعمُّق في سياق الرواية وخلفيتها.

وأخيرًا، فقد وضعنا نصب أعيننا، في كل الخيارات التي ذهبنا إليها، أن يكون النص مفهومًا وسلسًا ومحتفظًا بأصالته قدر المستطاع.

الفصل الأول

ـ ١ ـ

ـ دعونا لا نفقد منظورنا، لقد سئمتُ قولها، إنه الأمر الوحيد المهم.

دونيا "روسا" تروح وتغدو وسط طاولات المقهى، حيث تُعثِرُ الزبائن في سيرهم بمؤخرتها الهائلة. كثيرًا ما تقول دونيا "روسا" "سُحقًا" و"لقد طفح بنا الكيل" عند دونيا "روسا" العالم هو مقهاها، وكل ما عدا ذلك يدور حول مقهاها. ثمة من يقول إن عيني دونيا "روسا" الدقيقتيْن تبرقان عند مجيء الربيع، حين تبدأ الفتيات في ارتداء الثياب ذات الأكمام القصيرة. أما أنا فأعتقد أن كل ذلك لا يعدو كونه لغوًا، فما كانت دونيا "روسا" تفرِّط في قطعة نقود قط من أجل شيء في هذا العالم. لا في الربيع ولا في غيره. إن ما يروق لدونيا "روسا" جرّ أرطالها المُكدَّسة من بين الطاولات، هكذا، في غير داعي. تدخِّن سجائر "نوبيِنتا" حين تخلو إلى نفسها، وتحتسي شراب "الأوخين" كؤوسًا مُترَعَة من "الأوخين" منذ أن تستيقظ حتى تأوي إلى الفراش. ثم تسعل وتبتسم. أما حين يصفو مزاجها، فتجلس في المطبخ، على مقعد واطئ بلا مسند، حيث تقرأ الروايات والأعمال المنشورة في الصحف على حلقات، وكلما كانت أكثر دمويَّة كان أفضل: فكل ذلك

غذاء لها. عندئذ تهزأ من الناس وتحكي لهم جريمة شارع "بوردادوريس" أو جريمة قطار الأندلس السريع(١).

ـ ذهب والد "نابارّيتي" لمقابلة الجنرال دون "ميجيل پريمو دي ريبيرا"(٢) الذي كان صديقًا له، فجثا على ركبتيه قائلاً: "سيِّدي الجنرال، اُعْفُ عن ابني محبةً في الرب". أما دون "ميجيل"، ورغم أن له قلبًا من ذهب، فقد أجابه قائلاً: "يستحيل عليَّ ذلك يا صديقي. لا بد أن يُكفِّر ابنك عن جرمه على المشنقة".



يدور بخلد دونيا "روسا":

-أي رجال! أية جسارة!

تنتشر البقع في وجه دونيا "روسا" بكثافة، فيبدو أنها تبدِّل جلدها بصفة دائمة كالسحلية. عندما تستغرق في التفكير، تسهو وتنزع عن وجهها قشورًا، أحيانًا ما تكون طويلة كأشرطة الورق التي تُنثر في الحفلات. ثم تعود إلى الواقع حيث تتمشَّى مرة أخرى، جيئةً وذهابًا، فيما تبتسم إلى الزبائن، الذين تُضمِر لهم الكراهية في دخيلة نفسها، بأسنانها الدقيقة التي تميل إلى السواد وتغصُّ بالأوساخ.

ـ ٢ ـ

دون "ليوناردو ميلينديث" يدين بستة آلاف "دورو" (٣) لـ "سيجوندو سيجورا" ماسح الأحذية. أما ماسح الأحذية، وهو رجل جِلْف، جِلْف هزيل

---

(١) جريمتا قتل حقيقيتان، وقعت الأولى (جريمة شارع "بوردادوريس") عام ١٨٨٨ أما الثانية (جريمة قطار الأندلس السريع) فقد ارتُكِبَت عام ١٩٢٤ وحُكِم على المتورطين فيها كافة بالإعدام، بمن فيهم "نابارّيتي" المُشار إليه في الفقرة.

(٢) "ميجيل پريمو دي ريبيرا" (١٨٧٠ ـ ١٩٣٠): جنرال إسباني نجح في قيادة انقلاب عسكري وفرض الحُكم الديكتاتوري الذي استمرَّ من ١٩٢٣ وحتى ١٩٣٠.

(٣) في تلك الحقبة كان "الدورو" الواحد يساوي خمسة "پيسيتا" الذي كان يساوي مئة "سنت" بدوره. أما الريال الواحد فكانت قيمته تبلغ خمسة وعشرين "سنتًا".

ومُـتـخـشِّب، فـقـد ظلَّ يـدَّخـر أعـوامًـا طـوالاً، ثم أقـرض كل شيء لـدون "ليوناردو". يستحقُّ ما يجرى له. فدون "ليوناردو" محتال يعيش على مال غيره وعلى وضع مخططات لمشاريع تجارية لا ترى النور أبدًا. ليس الأمر أنها تفشل، كلا، بل إنها وببساطة لا ترى النور، فلا تلقى نجاحًا ولا فشلاً. دون "ليوناردو" يرتدي ربطات عنق زاهية للغاية ويضع مُثبِّت شعر، مُثبِّت شعر ذا عطر نفَّاذ تفوح رائحته عن بعد. يبدو بمظهر سنيور موقَّر، على قدر عظيم من الرصانة، رصانة رجل له من الحنكة الشيء الكثير. أما أنا فلا يبدو لي أنه على هذا القدر من الحنكة، ولكن الحقيقة أن له لفتات رجل لم تخلُ حافظته من النقود يومًا. يقابل الدائنين ركلاً بالأقدام، في حين يبتسم له الدائنون ويتطلَّعون إليه في إجلال، في ظاهر الأمر على الأقل. لم يخلُ الأمر ممن فكَّر في مقاضاته وتحرير محضر ضده، بَيْد أن أحدًا لم يفتح النيران حتى الآن. ثمة أمران يروق لدون »ليوناردو «التشدق بهما أكثر من أي شيء آخر: أولهما كلمات فرنسية مثل madame و cravate و rue (*) وثانيهما عبارة "نحن، آل "ميلينديث"...".

دون "ليوناردو" رجل مُثقَّف، رجل يُظهر معرفته بالكثير من الأمور. يلعب بضع مباريات "داما" يوميًا، ولا يحتسي أكثر من القهوة بالحليب أبدًا. إن لمح أحد الجالسين إلى الطاولات المجاورة يدخِّن السجائر الفاتحة، يقول له في كل رُقِي:

– هلا أعطيتني ورقة بفرة؟ كنت أودُّ أن ألفَّ سيجارة من التبغ السائب، ولكن ليس معي ورق بفرة.

عندئذ يصدِّقه الآخر، فيجيبه قائلاً:

– كلا، لا أستخدمه. ولكن، إذا كنت ترغب في سيجارة جاهزة...

فيرسم دون "ليوناردو" على وجهه تعبيرًا مُبهمًا ويستغرق بضع ثوانٍ في الرد:

(*) وتعني بالترتيب: "سيدة" و"ربطة عنق"، و"شارع".

- حسنًا، دعنا ندخِّن السجائر الفاتحة على سبيل التغيير. أنا لا أميل إلى التبغ الفاتح كثيرًا، صدِّقني.

أحيانًا لا يزيد الجالس إلى جواره على قوله:

- كلا، ليس معي ورق بفرة. أعتذر لأنني لا أستطيع تلبية طلبك.

عندئذٍ لا يتسنَّى لدون "ليوناردو" التدخين.

ـ ٣ ـ

فيما يتَّكئ الزبائن على الرخام العتيق، على رخام الطاولات الخشن، يرون مالكة المقهى تمرُّ من دون أن ينظروا إليها تقريبًا، بينما يتأمَّلون على نحو مبهم ذلك العالم الذي -آه!- لم يصبح ما كان يمكُن أن يصير إليه، ذلك العالم حيث راح كل شيء يُخفِق رويدًا رويدًا، من دون أن يفهمه أحد، ربما لسبب تافه عديم الأهمية. الكثير من ألواح الرخام الموضوعة على الطاولات كان عبارة عن شواهد قبور بالمدافن فيما مضى. بعضها ما زال مُحتفظًا بالحروف المنقوشة على نحو قد يستطيع معه أعمى، إن مرَّ بأنامله على لوح الرخام من أسفل الطاولة، أن يقرأ ما يلي: "هنا ترقد رفات سنيوريتا "إسبِرانثا ردِوندو"، التي رحلت في عمر الزهور. أو: فلترقد روحه بسلام. صاحب الفخامة سنيور دون "راميرو لوبيث بوينتي"، وكيل وزارة التنمية.

زبائن المقهى أناس يؤمنون بأن الأمور تجري هكذا، لمُجرَّد أنها تجري، وبأن الأمر لا يستحقُّ محاولة إصلاح أي شيء. في مقهى دونيا "روسا" الجميع يدخِّنون، والغالبية يتأمَّلون وحدهم الأمور البسيطة، السارة، الحميميَّة، التي تملأ حياتهم، أو تُفرِغها تمامًا. ثمة من يضفي على الصمت لفتةً حالمةً تنمُّ عن ذكرى غامضة، وثمة من يجترُّ ذكرياته بوجه شارد، بينما يرتسم على وجهه تعبير بهيمة بائسة، بهيمة حنون، مُتوسِّلة، تعِبة: مُسندًا جبينه إلى يده، ونظراته تفيض مرارةً كبحر يخيِّم عليه السكون.

ثمة أمسيات يحتضر فيها الحديث على طاولة إثر أخرى، حديث عن قطط وضعَتْ صغارها حديثًا، أو عن التموين، أو عن ذلك الطفل الذي قضى نحبه وهناك من لا يذكره، عن ذلك الطفل الذي قضى نحبه، ألا تذكره؟ كان له شعر أشقر، رائع الحُسن، وكان بالأحرى نحيلاً، يرتدي كنزة بيج مُطرَّزة دائمًا، لا بد أنه كان في الخامسة من عمره تقريبًا. في تلك الأمسيات، يَخفِقُ قلب المقهى وكأنه قلب مريض، خارج عن الإيقاع، ويصير الهواء وكأنه أكثر كثافةً، أكثر رماديةً، وإن تخلَّلته من آن إلى آخر نسمة أكثر دفئًا، كوميض البرق، لا يُعرَف من أين تهبّ، نسمة تفيض أملاً وتفتح في كل روح كُوَّة صغيرة لبضع ثوانٍ.

ـ ٤ ـ

دون "خايميه أرثيه" صاحب المظهر عظيم الوقار رغم كل شيء، يتلقَّى طلبات سداد الكمبيالات المُستحقَّة عليه بلا انقطاع. كل شيء يُعرَف في المقهى، وإن بدا غير ذلك. كان دون »خايميه «قد تقدَّم بطلب ائتمان مصرفي لدى أحد البنوك، فقوبل طلبه بالموافقة ووقَّع بعض الكمبيالات. ثم كان ما كان. إذ عقد صفقة تعرَّض فيها للنصب وأصبح لا يملك ريالاً واحدًا. وحين طولب بسداد الكمبيالات قال إنه عاجز عن السداد. مما لا شك فيه أن دون "خايميه أرثيه" رجل شريف ذو حظ عاثر، يلازمه النحس في مسألة النقود. أما من حيث الاجتهاد فليس له منه نصيب كبير، والحق يُقال. علاوةً على ذلك، لم يبتسم له الحظ على الإطلاق. فهناك آخرون على القدر نفسه من الخمول أو أكثر، ومع ذلك فقد ربحوا آلاف "الدورو" ببضع ضربات حظ، فسدَّدوا الكمبيالات، وأصبحوا الآن يدخِّنون السجائر الفاخرة ويقضون يومهم كاملاً في سيارات الأجرة. أما دون "خايميه أرثيه" فلم تسِر أموره على النحو ذاته، بل على العكس تمامًا. أصبح الآن يبحث عن عمل، فلا يجده. كان سيُقبِل على أي عمل كان، على أول فرصة عمل سانحة، ومع ذلك لم يتهيَّأ له شيء يستحقُّ العناء، فأصبح يقضي يومه في المقهى، مُتَّكئًا برأسه على مسند الكرسي المخملي، يطالع زخارف السقف

المُذهَّبة. في بعض الأحيان، كان يغنِّي مقطعًا أو آخر من أوبريتات "الثارثويلا"(*) بصوت خفيض، بينما يضبط الإيقاع بقدمه. لم يكُن من عادة دون »خايميه «التفكير في تعاسته. في واقع الأمر، لم يكُن من عادته التفكير في أي شيء قط. كان يرنو إلى المرايا ويتساءل:

- تُرَىَ، من يكون مخترع المرايا؟

ثم يحدق في أي شخص كان، بما يشبه الوقاحة:

- تُرَىَ، أيكون لتلك المرأة أبناء؟ ربما، فهي عجوز محتشمة.

- تُرَىَ، كم مريضًا بالسل في هذا المقهى الآن؟

كان دون »خايميه «يلفُّ سيجارة رفيعة، كالقشة، ثم يشعلها:

- هناك من يتفننّ في بري الأقلام الرصاص، فيجعل لها سنًّا ثاقبة كالإبرة، ولا يتلفونها أبدًا.

دون "خايميه" يبدِّل وضعية الجلوس بعد أن خدرت ساقه:

- أي سرّ غامض! تَك، تَك، تَك، تَك... وهكذا يدقُّ طوال العمر، نهارًا وليلاً، شتاءً وصيفًا: إنه القلب.

- ٥ -

ثمة سنيورا صموت من عادتها الجلوس في خلفية المقهى، على مقربة من الدّرَج المؤدِّي إلى صالة البلياردو، توفِّي ابنها منذ أقل من شهر واحد. كان الشاب يُدعَى "پاكو" وكان يستعد لاختبار قبول لشغل وظيفة لدى البريد. قيل في بادئ الأمر إنه قد أصيب بالشلل، ثم اتضح أن ما قيل عارٍ من الصحة، وأنه مصاب بالتهاب السحايا. لم يبقَ على قيد الحياة طويلاً،

(*) "ثارثويلا": من ألوان العروض الغنائية المسرحية. ظهر في إسبانيا خلال القرن السابع عشر، وشهد تطورات عديدة. قد تشتمل "الثارثويلا" على رقصات أو مقاطع تُتلَى غير مصحوبة بالموسيقى أحيانًا. ورغم أن "الثارثويلا" لا تندرج تحت فن الأوبريت على وجه التحديد، نفضِّل اللجوء إلى هذا التوصيف نظرًا للتشابه الكبير بينهما.

بل وسرعان ما غاب عن الوعي. كان يعرف عن ظهر قلب قُرَى "ليون" و"كاستِيًّا لا بييخا" و"كاستِيًّا لا نويبا" أضفْ إلى ذلك بعض أنحاء "بالِنثيا" ("كاستيّون"وما يقرب من نصف "أليكانتيه"). كان موته خسارة عظيمة. منذ أن تعرَّض للبلل في طفولته ذات شتاء، أصبح"پاكو" شبه مريض بصفة دائمة. بقت أمه وحيدة، ذلك أن ابنها الآخر والأكبر سنًا كان يجوب العالم من دون أن يُعرف له مكان على وجه التحديد. كانت تتردَّد على مقهى دونيا "روسا" مساءً، فتجلس عند قاعدة الدَّرَج حيث تلتمس الدفء في الساعات الضائعة. منذ أن توفِّي ابنها، أصبحت دونيا "روسا" تحنو عليها كثيرًا. هناك من يروق لهم أن يشملوا بعنايتهم أولئك الذين يمرُّون بفترة حداد. فيغتنمون الفرصة لإسداء النصح لهم أو توصيتهم بالتسليم للقدر أو رفع معنوياتهم، ويطيب لهم ذلك كثيرًا. من عادة دونيا "روسا" أن تقول لوالدة "پاكو" على سبيل التعزية إنه خير لابنها أن يأخذه الرب من أن يقضي بقية حياته أبله. فكانت الأم تنظر إليها بابتسامة إذعان ثم تقول لدونيا "روسا" إنها - بالتأمُّل في الأمر مليًا- مُحقَّة بالطبع. كانت أم "پاكو" تُدعَى "إيسابيل" دونيا "إيسابيل مونتيس" أرملة "سانث" وهي سنيورا ما زالت محتفظة بقدر من حسن المظهر، ترتدي رداء باليًا بعض الشيء، ويوحي مظهرها بكونها سليلة أسرة طيبة. من عادتهم بالمقهى أن يحترموا صمتها. في أحيان نادرة يقصدها أحد معارفها، وغالبًا ما تكون امرأة، في طريق العودة من دورة المياه. تتّكئ على طاولة دونيا "إيسابيل" لسؤالها:

ـ ما أخبار معنوياتك، في تحسُّن؟

فتبتسم دونيا "إيسابيل" ولا تكاد تحير جوابًا أبدًا. أما حين تكون معنوياتها أفضل بعض الشيء، فترفع رأسها وتنظر إلى صديقتها قائلة:

ـ ما أجملك اليوم يا فلانة!

ومع ذلك، فهي لا تكاد تنبس بكلمة أبدًا في أغلب الأوقات: إن هي إلا إيماءة بيدها عند الوداع، والسلام. دونيا "إيسابيل" تعرف أنها من طبقة أخرى، تعرف أنها مختلفة على نحو آخر، على الأقل.

- ٦ -

سنيوريتا تكاد تكون مُتقدِّمة في السن تنادي بائع التبغ:

- "پادِيًا"!

- أنا قادم، سنيوريتا "إلبيرا".

- سيجارة "تريتون".

تفتِّش السنيوريتا حقيبتها التي امتلأت بالرسائل الرقيقة، الخليعة، العتيقة، ثم تضع خمسة وثلاثين "سنتًا" على الطاولة.

- أشكركِ.

- الشكر لك.

تشعل السيجارة ثم تنفث سحابة طويلة من الدخان بنظرات شاردة. بعد وقت يسير، تعاود السنيوريتا مناداته:

- "پادِيًا"!

- أنا قادم، سنيوريتا "إلبيرا"!

- هل سلَّمته الرسالة؟

- أجل، سنيوريتا.

- وماذا قال لك؟

- لا شيء، لم يكُن بالبيت. طلبَتْ مني الخادمة أن أطمئن، فهي سوف تسلِّمها له على العشاء بكل تأكيد.

سنيوريتا "إلبيرا" تُطرق وتواصل التدخين. اليوم تشعر بوعكة خفيفة، تنتابها القشعريرة وتشعر بأن كل ما تراه يتراقص أمام عينيها. سنيوريتا "إلبيرا" تعيش حياة الكلاب، حياة لا تستحقُّ حتى عناء عيشها، بالتأمُّل في الأمر مليًا. صحيح أنها لا تفعل شيئًا، ولكن نظرًا لأنها لا تفعل شيئًا، فهي

لا تذوق حتى الطعام. تقرأ الروايات، تتردَّد على المقهى، تدخِّن بضع سجائر "تريتون" وتتلقَّف ما يقع بين يديها. السيئ في الأمر أنه لا يقع بين يديها شيء إلا كل حين ومين، وإن حدث فغالبًا ما يكون ذلك الشيء منبوذًا ومعيبًا.

ـ ٧ ـ

دون "خوسيه رودريجيث دي مدريد" فاز بجائزة اليانصيب الصغرى في السحب الأخير. يقول له أصدقاؤه:

- ابتسم لك الحظ، أليس كذلك؟

فتأتي إجابة دون "خوسيه" واحدة دائمًا، يبدو أنه يحفظها عن ظهر قلب:

- مممم! مجرد ثمانية "دورو" عديمة الفائدة.

- كلا يا رجل، لا تختلق الأعذار، فلن نطلب منك شيئًا.

دون "خوسيه" يعمل كاتبًا لدى إحدى المحاكم، ويبدو أن لديه بعض المدخرات. يُقال إنه قد تزوج من امرأة ثرية، شابة من قرية "لا مانتشا" سرعان ما توفِّيت تاركةً كل شيء لدون "خوسيه" كما يُقال إنه عجَّل كثيرًا ببيع بستاني الزيتون وبساتين العنب الأربعة التي تركَتْها له، مؤكِّدًا على أن هواء الريف يضرُّ بجهازه التنفسي، وأن عناية المرء بذاته تأتي في المقام الأول.

في مقهى دونيا "روسا" دائمًا ما يطلب دون "خوسيه" كأسًا من شراب "الأوخين" فلا هو مُتصنِّع ولا صعلوك من أولئك الذين يطلبون القهوة بالحليب. مالكة المقهى ترنو إليه بما يشبه الودّ، آخذةً في الاعتبار حبهما المشترك لشراب "الأوخين".

ـ إن خير ما في الدنيا "الأوخين" فهو يساعد على الهضم ويدرُّ البول وينشِّط، كما يساعد على تجديد الدم ويطرد شبح العجز الجنسي.

دون "خوسيه" يتحدَّث بكلام سديد للغاية دائمًا. ذات مرة، منذ بضعة أعوام خلَتْ، أي بعد نهاية الحرب الأهلية بزمن يسير، نشبت بينه وبين عازف الكمان مشادة. وفي حين أكد جميع الحضور تقريبًا أن العازف على حق، فما كان من دون "خوسيه" إلا أن نادى مالكة المقهى وقال لها:

- إما أن تطردي هذا الأحمر[1] الوقح عديم الاحترام ركلاً بالأقدام وإما أن لا تطأ قدمي هذا المكان مرة أخرى.

عندئذ ألقت دونيا "روسا" بعازف الكمان إلى الشارع، ولم يُعرف عنه شيء منذ ذلك الحين. أما الزبائن، فبعد وقوفهم في صف عازف الكمان، شرعوا يبدِّلون رأيهم، وفي النهاية قالوا إن دونيا "روسا" قد أحسنت صنعًا، فمن الضروري أن تتولَّى زمام الأمور بيد من حديد وأن تجعل منه عبرة:

- من يدري أين كان سينتهي بنا المطاف بسبب أولئك المتعجرفين!

يقولها الزبائن بنبرة جدِّية، حيادية، يشوبها القليل من الحرج. كان الزبائن يردِّدون على الطاولات:

- لا سبيل لعمل شيء ملائم أو شيء يستحقُّ العناء من دون انضباط.

-٨-

رجل مُتقدِّم في السن يحكي بأعلى صوته كيف هزأ من مدام "بيمينتون"[2] منذ قرابة نصف قرن.

- الحمقاء الكبيرة ظنَّت أنها سوف تغلبني. طبعًا، طبعًا... الداهية! دعوتُها على بضع كؤوس من النبيذ الأبيض، وفيما هي في طريقها إلى الخروج ارتطم وجهها بالباب. هاها! سالت دماؤها وكأنها ثور صغير. راحت تقول: "أوه لالا، أوه لالا!"، ثم غادرَتْ وهي تكاد تبصق أحشاءها. يا

---

(١) أحمر: لقب شاع استخدامه للإشارة إلى اليساريين، والشيوعيين على وجه التحديد.

(٢) مدام "بيمينتون": امرأة غريبة الأطوار عاشت في مدريد في مطلع القرن، كانت مثار إعجاب الكتاب في تلك الحقبة.

للبائسة المسكينة. كانت في حالة سكر دائم! بالتأمُّل في الأمر مليًا، كان الموقف يدعو إلى الضحك!

تطالعه بعض الوجوه على الطاولات المجاورة بما يشبه الحسد، وجوه أناس يبتسمون في سلام، بغبطة، في تلك اللحظات التي يبلغون خلالها حدَّ عدم التفكير في أي شيء، وهم يكادون لا يدركون ذلك. الناس مداهنون بدافع الغباء، ويبتسمون أحيانًا حتى وإن كانوا في دخيلة أنفسهم يشعرون بنفور عارم، نفور يكادون لا يملكون كبح جماحه. قد يصل المرء إلى حد القتل بدافع المداهنة، وأغلب الظن أن ثمة أكثر من جريمة قد ارتُكبت بقصد التودُّد إلى أحدهم، بقصد مداهنة أحدهم.

- هكذا ينبغي التعامل مع أولئك المحتالين، فليس في وسعنا، نحن الشرفاء، أن نسمح لهم بالاستهزاء بنا. وكما كان يقول أبي: "أتريد عنبًا؟ تعالَ واقطُف!" هاها! العاهرة الكبيرة لم تقرب المكان ثانيةً!

يمرُّ قط سمين عدوًا من بين الطاولات، قط مُتألِّق، قط يفيض صحةً ورخاءً، قط مختال ومتغطرس. يقحم نفسه بين ساقي سنيورا، أما هي فتفزع.

- أيها القط الملعون! اغرب عن وجهي!

فيبتسم لها الرجل صاحب القصة بعذوبة.

- ولكن، سنيورا... إنه قط مسكين! فيمَ آذاكِ؟

-٩-

في خضمّ الصخب العارم، شاب ذو شَعرٍ مُرسَل ينظم شعرًا. الشاب ذاهل عما حوله، لا ينتبه إلى شيء أيًا كان، وهو السبيل الوحيد كي يتسنَّى له أن ينظم شعرًا بديعًا. لو تلفَّت حوله لتملَّص منه الإلهام. لا بد أن ذلك الإلهام مثله كمثل فراشة صغيرة، عمياء، صماء، ورغم ذلك تشعُّ نورًا ساطعًا، وإلا لما أمكن تفسير الكثير من الأمور.

الشاعر الشاب ينظم قصيدة مطولة بعنوان "مصير". ساورته بعض الشكوك حول ما إذا كان يجدر به أن يسميها "المصير" ولكنه بدَّل رأيه في نهاية المطاف، بعد الرجوع إلى بعض الشعراء الأوسع خبرة، واستقرَّ على أنه من الأفضل تسميتها "مصير" ببساطة. كان ذلك أبسط، وأكثر تعبيرًا، وأكثر غموضًا. فضلاً عن ذلك، فهكذا، باختيار عنوان "مصير" تغدو القصيدة أكثر إيحاءً، وأكثر... كيف لنا أن نقولها؟ أكثر إبهامًا، أكثر شاعريةً. فهكذا لا يُعرَف ما إذا كان الشاعر يود التلميح إلى "المصير" أو "مصير ما" أو "مصير حائر" أو "مصير محتوم" أو "مصير سعيد" أو "مصير أزرق" أو "مصير بنفسجي" أما "المصير" فأكثر تقييدًا، إذ يترك مجالاً أضيق للخيال كي يحلِّق طليقًا، مُتحرِّرًا من كل قيد.

قضى الشاعر الشاب شهورًا عدة في نظم قصيدته. فصارت الآن تربو على ثلاثمائة بيت، كما وضع الشاعر رسمًا تخطيطيًا للطبعة المستقبلية بعناية، وقائمة تضمُّ أسماء مُشتركين محتملين في نيته أن يرسل إليهم المطبوعة في حينه، لعلَّهم يرغبون في الاشتراك. كما وقع اختياره بالفعل على حروف الطباعة المُزمع استخدامها (حروف بسيطة، واضحة، كلاسيكية، من الممكن قراءتها بهدوء: أي حروف الطباعة المُسماة "بودوني") وكَتَب مسوغات النشر بالفعل. وعلى الرغم من ذلك، كان ثمة تساؤلان ما زالا يؤرقان الشاعر الشاب: هل يُذيِّل بيانات النشر بعبارة "تمَّ بحمد الرب" أم لا؟ وهل يكتب نبذة عن المؤلف لوضعها على الغلاف الداخلي بنفسه، أم لا يكتبها بنفسه؟

- ١٠ -

في واقع الأمر، لم تكُن دونيا "روسا" بالمرأة التي جرت العادة على وصفها بالحساسة.

- وأنت على علم بما أقول لك بالفعل. لديَّ ما يكفي من الصعاليك، والفضل في ذلك يرجع لزوج أختي. يا له من عربيد! أما أنت فما زلت

غضًا، أتفهمني؟ هذا ما كان ينقصنا! متى رأيت رجلاً يفتقر إلى المبادئ والثقافة في المكان، يسعل ويخطو على الأرض بقوة كما لو كان سنيوريتو؟ لن أكون أنا التي تسمح بذلك، أقسم لك!

جعل العرق يتصبَّب من شارب دونيا "روسا" وجبينها.

– وأنت أيها المُغفَّل، في طريقك إلى شراء الجريدة! لا يوجد هنا احترام ولا شرف، تلك هي المشكلة! سوف أوسعكم ضربًا إن أثرتم حنقي يومًا! من رأى بعينيه أمرًا كهذا!

دونيا "روسا" تُنشِب عينيها الدقيقتين كعيني فأر في "بيبيه" النادل العجوز الذي جاء من "موندونييدو" منذ أربعين أو خمسة وأربعين عامًا مضت. وخلف عدستي النظارة الغليظة، تبدو عينا دونيا "روسا" الدقيقتان كعيني طائر مُحنَّط ذاهلتين.

– فيمَ تحدق! فيمَ تحدق! أبله! ما زلتَ كما كنت يوم وصولك! ولا حتى الرب ذاته قادر على أن ينسيكم أصلكم القروي الجلف! هيا، أفِقْ ودعْ الليلة تمرّ في سلام. لو كنتَ أكثر رجولة لألقيتُ بك إلى الشارع! أتفهمني؟ لقد طفح بنا الكيل!

دونيا "روسا" تتحسَّس بطنها وتوجِّه إليه الحديث ثانيةً، مع الاحتفاظ بالكلفة هذه المرة:

– هيا، هيا... فلينصرف كل واحد إلى عمله. كما تعلم حضرتك، ينبغي ألا يفقد أيٌّ منا المنظور، سُحقًا، ولا الاحترام، أتفهمني؟ ولا الاحترام.

دونيا "روسا" ترفع رأسها وتأخذ نفسًا عميقًا. ترتعش شعيرات شاربها في لفتة تحدٍّ، في لفتة اختيال، ووقار، وكأنها قرون سوداء دقيقة تطلُّ من رأس جدجد عاشق مكابر.

ـ ١١ ـ

يطفو في الهواء شعور كالأسى، ينفذ إلى القلوب. القلوب لا تتألَّم، وفي وسعها أن تتحمَّل، ساعةً تلو الأخرى، بل وعمرًا بأكمله، من دون أن يدرك أحدنا يومًا ماذا يجري على وجه التحديد.

سنيور ذو لحية دقيقة بيضاء يقدِّم قطعًا صغيرة من الكعك السويسري، مغموسة في القهوة بالحليب، لطفل تميل بشرته إلى السمرة جالس على ركبتيه. السنيور يُدعَى دون "ترينيداد جارثيا سوبرينو" ويعمل بالربا. دون "ترينيداد" عاش فترة شباب مضطربة، تغصُّ بالتعقيدات والنزوات، ولكن ما إن توفِّي والده حتى قال لنفسه:

ـ "ترينيداد" من الآن فصاعداً عليك أن تتوخَّى الحذر وإلا فشلت فشلاً ذريعًا.

فاشتغل بالتجارة واتَّبع نظامًا صارمًا حتى تحقَّق له الثراء في نهاية المطاف. كان الحلم الذي داعبه طيلة حياته أن يصل إلى المجلس. كان يرى أنه لا بأس إطلاقًا بأن يكون المرء واحداً ضمن خمسمائة نائب، من بين خمسة وعشرين مليون مواطن. ولأعوام عدة، ظلَّ دون "ترينيداد" يتودَّد إلى بعض السياسيين من الدرجة الثالثة في حزب "خِيل روبليس" [(١)] لعلَّهم يرشِّحونه للمجلس. لم يكُن المكان يهمّه في شيء، ولا كانت لديه دائرة انتخابية أثيرة. أنفق بعض النقود على العزائم، وساهم في الحملة الدعائية ماديًا، كما سمع بعض كلمات الثناء، بَيْد أن الحزب لم يرشِّحه عن أية دائرة في نهاية المطاف، ولا حتى دُعِي إلى جلسة رئيس الحزب. عاش دون "ترينيداد" لحظات عصيبة، مرَّ خلالها بأزمة معنوية خطيرة، وفي النهاية تحوَّل إلى حزب "أليخاندرو ليرّوكس" [(٢)] الراديكالي، حيث يبدو أنه قد أبلى بلاءً حسنًا إلى حد كبير. ولكن فيما هو على تلك الحال، اندلعت الحرب واضعةً نهاية مشواره السياسي غير المشرق الذي لم يمتدّ طويلاً. والآن يعيش دون "ترينيداد" بمعزل عن الشأن العام، على حد قول دون

---

(١) خوسيه ماريا خِيل روبليس (١٨٩٨ ـ ١٩٨٠): سياسي إسباني بارز تولَّى منصبِ وزير الحربية ورئيس الوزراء، كما أسَّس حزب "العمل الشعبي" وائتلاف الأحزاب الكاثوليكية واليمينية المُسمَّى "اتحاد اليمين المستقل الإسباني".

(٢) أليخاندرو ليرّوكس (١٨٦٤ ـ ١٩٤٩): سياسي إسباني مثير للجدل ذو توجهات جمهورية، رأس الحكومة في أكثر من مناسبة، كما أسَّس الحزب الجمهوري الراديكالي.

"أليخاندرو" في ذلك اليوم المشهود، وقنع بأن يتركوه يعيش في هدوء، من دون أن يُذكِّره أحد بالماضي، في حين تابع نشاطه المربح المُتمثِّل في الإقراض مقابل فوائد.

في المساء، كان يتردَّد مع حفيده على مقهى دونيا "روسا" حيث يقدِّم له وجبة مسائية خفيفة ويلزم الصمت فيما ينصت إلى الموسيقى أو يطالع الجريدة، فلا يتعرَّض لأحد أيًا كان.

ـ ١٢ ـ

دونيا "روسا" تتَّكئ على إحدى الطاولات وتبتسم:

ـ ما الأخبار، "إلبيريتا"؟

ـ كما ترين، سنيورا، القليل.

سنيوريتا "إلبيرا" تأخذ نفسًا من سيجارتها وتميل برأسها قليلاً. لها وجنتان ذابلتان وجفنان حمراوان، كأن بهما رهافة.

- هل تدبَّرتِ الأمر؟

- أي أمر؟

- المتعلق بـ...

- كلا، لم يسِر على ما يُرام. قضى معي ثلاثة أيام ثم أهداني قارورة مُثبِّت شعر.

سنيوريتا "إلبيرا" تبتسم. دونيا "روسا" تُغمِض عينيها نصف إغماضة، فيما تطلُّ منهما نظرة تفيض أسًى.

- هناك ناس بلا ضمير يا ابنتي!

- ممم... الأمر سواء!

تقترب منها دونيا "روسا" تتحدّث إليها شبه هامسة في سمعها.

- لمَ لا تتصالحين مع دون "پابلو"؟

ـ لأنني لا أريد. الواحدة منا لها كبرياؤها أيضًا، دونيا "روسا".

ـ لقد طفح بنا الكيل! لكل منا مواطن ضعفه! ولكن ما أقصده، "إلبيريتا" أن أحوالكِ كانت على ما يُرام مع دون "پابلو" وتعلمين جيدًا أنني أتمنَّى لكِ الأفضل دومًا.

– ليس إلى هذا الحد. فهو رجل مغالٍ في مطالبه، ويسيل لعابه على النساء. أصبحتُ أمقته في نهاية المطاف، بل وأنفر منه، فماذا تريدين مني فوق ذلك!

تقول دونيا "روسا" بالنبرة العذبة، نبرة النصح المُقنِعة:

– لا بد من التحلِّي بالمزيد من الصبر، "إلبيريتا"! فأنتِ ما زلتِ صبية!

– هل تظنِّين؟

سنيوريتا "إلبيريتا" تبصق أسفل الطاولة وتجفِّف فمها بطيَّة القفاز.

ـ ١٣ ـ

مالك مطبعة ثري يُدعَى "بيجا" دون "ماريو دي لا بيجا" يدخِّن سيجارًا عملاقًا، وكأنه سيجار في إعلان تجاري. يسعى الجالس إلى الطاولة المجاورة لأن يتودَّد إليه.

– إنه لسيجار فاخر ذلك الذي تدخِّنه يا صديقي!

"بيجا" يجيبه بوقار من دون أن يلتفت إليه:

– أجل، لا بأس به. كلَّفني "دورو" واحدًا من حُرِّ مالي.

أما الجالس إلى الطاولة المجاورة، وهو رجل هزيل باسم، فكان يودُّ لو قال شيئًا من قبيل: "ومَنْ مثلك!".

إلا أنه لم يجرؤ. من حسن الحظ أنه شعر بالحرج في الوقت المناسب. نظر إلى مالك المطبعة، وعاود الابتسام في تواضع قائلاً:

- "دورو" واحد، لا أكثر؟ يبدو أن تكلفته سبعة "پيسيتا" على الأقل.

- كلا، "دورو" واحد، وثلاثون "سنتًا" دفعتها على سبيل الإكرامية. وأنا راضٍ بهذا.

- مِنْ الجائز!

- يا رجل! لا أعتقد أنه من الضروري أن يكون المرء نبيلاً من آل كونت "رومانونيس" (*) حتى يدخِّن هذا السيجار.

- لم أعنِ ذلك. ولكني كما ترى، ليس بوسعي أن أدخِّن سيجارًا كهذا، شأن الكثيرين من الحضور هنا.

- أتريد أن تدخِّن واحدًا؟

- بالطبع يا رجل...!

يبتسم "بيجا" شبه نادم على ما سوف يتفوَّه به.

- إذن، فعليك بالعمل كما أعمل.

ثم أطلق مالك المطبعة قهقهة عنيفة، هائلة. أما الرجل الهزيل الباسم الجالس إلى الطاولة المجاورة، فقد كفَّ عن الابتسام. تضرَّج وجهه، وأحسَّ بحرارة تلفح أذنيه، في حين بدأت عيناه تلتهبان. خفض بصره لئلاَّ يرى روَّاد المقهى جميعًا وهم يحدقون فيه. أو على الأقل، خُيِّل إليه أن روَّاد المقهى جميعًا يحدقون فيه.

- ١٤ -

يبتسم دون "پابلو" البائس الذي يرى الأشياء معكوسة، بينما يحكي قصة مدام "پيمينتون" في حين تلقي سنيوريتا "إلبيرا" بعقب سيجارة وتدهسه. من آنٍ إلى آخر، تبدر عن سنيوريتا "إلبيرا" لفتات أميرة حقيقة.

(*) "البارو فيجيروا إي تورِّيس" أو كونت "رومانونيس" (١٨٦٣ - ١٩٥٠) نبيل وسياسي إسباني تولَّى رئاسة مجلس الوزراء أكثر من مرة وغيرها من المناصب رفيعة المستوى.

- فيمَ آذاكِ القط الصغير؟ يا قطي الصغير، يا قطي الصغير، تعالَ، تعالَ...!

دون "پابلو" ينظر إلى السنيورا.

- ما أذكى القطط! بل إنها أرجح عقلاً من البعض، فهي حيوانات صغيرة تُحسِن فهم كل شيء. يا قطي الصغير، يا قطي الصغير، تعالَ، تعالَ...!

يبتعد القط من دون أن يلتفت برأسه، ثم يدخل إلى المطبخ.

- لي صديق ذو مال ونفوذ عظيم، لا تحسبي أنني أحدّثكِ عن صعلوك، ولديه قط شيرازي يُدعَى "سلطان" قط معجزة.

- فعلاً؟

- بكل تأكيد! يناديه صديقي قائلاً: "سلطان"، تعالَ» فيجيء القط مُلوِّحًا بذيله البديع، الذي يبدو وكأنه منفضة من الريش. يقول له: "سلطان"، اذهب فيذهب سلطان كفارس نبيل. يتهادى في سيره على نحو لافت للأنظار، وله شعر يبدو كالحرير. لا أظن أن هناك قططًا كثيرة مثله، وكأنه بين القطط في منزلة دوق "ألبا" بين الناس. يحبُّه صديقي كما لو كان ابنًا له. بالطبع، فالقط جدير بالحب، والحق يُقال.

دون "پابلو" يُجيل بصره في أرجاء المقهى. ثمة لحظة تتعثَّر خلالها نظرتُه في نظرة سنيوريتا "إلبيرا" دون "پابلو" يرمش ويدير رأسه.

- وما أحنّ القطط أيضًا! هل لاحظتِ مدى حنان القطط؟ ما إن تتعلَّق القطط بأحدهم حتى تظلَّ مُتعلِّقة به طيلة العمر.

دون "پابلو" يتنحنح قليلاً ثم يقول بالنبرة الخطيرة، المهمة:

- يجب على الكثير من البشر الاقتداء بالقطط!

- حقًا.

دون "پابلو" يأخذ نفسًا عميقًا. يشعر بالرضا عن نفسه. والحقيقة أنه قد أبدع في قوله: "يجب على الكثير من البشر الاقتداء..."إلخ.

- ١٥ -

"پيپيه" النادل، يعود إلى ركنه من دون أن ينبس بكلمة. يبلغ إقليم نفوذه، فيتَّكئ بيده على مسند أحد الكراسي ويطالع صورته في المرايا، وكأنما يطالع شيئًا بالغ العجب، بالغ الغرابة. يرى وجهه في أقرب المرايا إليه، وظهره في المرآة القائمة بالخلفية، وجانبه في المرايا القائمة بالأركان.

- تلك الشمطاء، تستحقُّ أن يُشَجَّ رأسها في يوم من الأيام السعيدة. خنزيرة! ساقطة!

"پيپيه" رجل يتجاوز الأمور سريعًا. يكفيه أن يلقي بصوت خفيض بعض الشتائم التي ما كان يجرؤ على الجهر بها بصوت عالٍ قط.

- مرابية! قذرة! تأكلين مال الفقراء!

في اللحظات التي يتعكَّر خلالها مزاجه، يروق لـ "پيپيه" كثيرًا أن يردِّد عبارات رنَّانة. بعد ذلك ينشغل عن الإساءة شيئًا فشيئًا، وينتهي به المطاف وقد نسي الأمر برمته.

ثمة طفلان في الرابعة والخامسة من العمر يلعبان لعبة القطار وسط الطاولات، في ضجر، وبلا أدنى أثر للحماس. وفيما هما مُتَّجهان صوب خلفية المقهى، يتظاهر أحدهما بأنه القاطرة بينما يتظاهر الآخر بأنه العربة. ثم يتبادلان الأدوار في طريق العودة صوب الباب. لا أحد يعيرهما انتباهًا، غير أنهما يتابعان اللعب في غير اكتراث، في فتور، يذرعان المكان جيئة وذهابًا بجديّة هائلة. إنهما طفلان مثابران، يراعيان الضوابط بصرامة، طفلان يلعبان لعبة القطار حتى وإن ضجرا إلى حد النعاس، لأنهما قد اتَّخذا قرارهما بأن يتسلَّيا. وحتى يتسلَّى الطفلان، فقد اتَّخذا قرارهما بأن يلعبا لعبة القطار طوال المساء، مهما جرى. وإن لم ينجحا في مسعاهما، فما ذنبهما؟ إذ يفعل الطفلان كل ما في وسعهما.

"بيبيه" ينظر إليهما ثم يقول:

- سوف "تذهبان للسقوط" أرضًا...

"بيبيه" يتحدَّث الإسبانية، وإن كان له قرابة نصف قرن في "كاستِيًّا" وهو يترجم إلى الإسبانية ترجمة حرفية عن اللغة "الجاليثية".

يجيبه الطفلان:

- كلا، سنيور.

ويتابعان لعبة القطار في غير إيمان، في غير أمل، بل وفي غير رفق، وكأنما يؤدِّيان واجبًا شاقًا.

ـ ١٦ ـ

دونيا "روسا" تدلف إلى المطبخ.

ـ "جابرييل" كم أونصة أضفت من الشكولاتة؟

- أونصتين، سنيوريتا.

- أرأيت؟ أرأيت؟ ليس هناك من يقدر على تحمُّل ذلك! وفوق هذا تريدون تنفيذ لوائح العمل(*)، وما إلى ذلك! ألم أقُل لك بكل وضوح ألا تضيف أكثر من أونصة ونصف؟ لا جدوى من الحديث معكم بالإسبانية، فأنتم لا تريدون أن تفهموا.

دونيا "روسا" تلتقط أنفاسها ثم تستأنف الهجوم. تتنفس كالماكينة، لاهثةً، عَجِلة، بينما ينتفض جسدها كاملًا وينبعث من صدرها صفير مبحوح.

- وإن كان دون "پابلو" يرى أن الشكولاتة خفيفة للغاية، فليذهب مع زوجته إلى حيث يعطونه أفضل منها! هذا ما كان ينقصنا! من رأى بعينيه

(*) حظر نظام "فرانكو" النقابات العمالية أو النقابات المستقلة، واكتفى بتأسيس "التنظيم النقابي الإسباني" (أو ما عُرِف باسم "التنظيم النقابي العَمودي") الذي وضع بدوره لوائح عمل عامة يُحظر بموجبها الإضراب أو التجمهر.

أمرًا كهذا! ما لا يعرفه هذا النكِرة البائس أن ما يفيض عن حاجتنا في هذا المكان هم الزبائن والحمد للرب. أفهمت؟ وإن لم يعجبه فليذهب، وسنكون نحن الرابحين. أيحسبون أنفسهم ملوكًا! لقد ضقتُ ذرعًا بزوجته الأفعى. كم ضقتُ ذرعًا بتلك المدعوة دونيا "پورا"!

"جابرييل" يحذِّرها، كدأبه كل يوم:

- سوف يسمعونك، سنيوريتا!

- دعهم يسمعوا إن شاءوا، فلهذا أقولها! إن ما في قلبي على لساني! الأمر الذي لا أفهمه هو كيف تجرَّأ ذلك المخبول على هجر "إلبيريتا" مع أنها كالملائكة، عاشت لا تفكر سوى في إسعاده، وتصبر كالحملان على أذى دونيا "پورا" التي توقع بين الناس، الحية التي تضحك في الخفاء دومًا! على كل حال: "من عاش رأى!" كما كانت تقول أمي رحمها الرب.

"جابرييل" يسعى للخروج من الورطة:

- هل تريدين أن أخفِّفها قليلاً؟

- أنت أدرى بما يجب على رجل شريف عمله، أنت أدرى بما يجب على رجل عاقل وليس بلصٍّ. أنت تعلم جيدًا ما يجدر بك فعله، حين تريد ذلك!

- ١٧ -

"پادِيّا"، بائع التبغ، يتحدَّث مع زبون جديد اشترى منه علبة سجائر كاملة.

- أهي على تلك الحال دومًا؟

- دائمًا، ولكنها ليست شريرة. طباعها حادة بعض الشيء، ولكنها ليست شريرة في نهاية المطاف.

- ولكنها نعتت ذلك النادل بالأبله!

- يا رجل، هذا لا يهمّ! أحيانًا تنعتنا بالمُخنَّثين والحُمر أيضًا.

الزبون الجديد عاجز عن تصديق ما يراه.

- وماذا عنكم، هل تتقبَّلون الأمر بكل هدوء؟

- أجل، سنيور. نتقبَّله بكل هدوء.

الزبون الجديد يهزُّ كتفيه.

- حسنًا، حسنًا...

بائع التبغ يجوب الصالون في جولةٍ أخرى.

أما الزبون فيبقى مستغرقًا في التفكير.

- لا أعرف أيهما أشد بؤسًا، تلك الفقمة القذرة المُتَّشحة بالسواد، أم تلك الشلة من المُغفَّلين. لو اتَّفقوا جميعًا ذات يوم وانهالوا عليها ضربًا، لربما ثابت إلى رشدها. ولكن أولئك... أولئك لا يجرؤون! لعلَّهم يلعنون أباها طوال اليوم في دخيلة أنفسهم، أما في ظاهرهم، فكما نرى: "أيها الأبله، اغرب عن وجهي! أيها اللص، أيها البائس!" ويتقبَّلون الأمر بكل سرور: "أجل، سنيور. نتقبله بكل هدوء". بكل تأكيد! ما خطب أولئك الناس! شيء يدعو إلى السرور بحق!

الزبون يواصل التدخين. يُدعَى "ماوريثيو سيجوبيا" ويعمل موظفًا لدى شركة التليفونات. أقول ذلك لأنه ربما عاود الظهور لاحقًا. يبلغ من العمر ثمانية وثلاثين أو أربعين عامًا. له شعر أحمر ووجه ينتشر فيه النمش بكثافة. يعيش بعيدًا، في "أتوتشا" وجاء إلى هذا الحي على سبيل الصدفة، إذ جاء يقتفي أثر فتاة، وقبل أن يتَّخذ "ماوريثيو" قراره بأن يقول لها أي شيء، انعطفت الفتاة عند إحدى النواصي فجأةً ثم دلفت عبر أول بوابة قابلتها.

"سيجوندو" ماسح الأحذية، يصيح:

- سنيور "سواريث"! سنيور "سواريث"!

سنيور "سواريث" ليس من زبائن المقهى الدائمين هو الآخر. يقوم من مكانه ثم يتَّجه إلى الهاتف. يعرج في سيره، يعرج بالجزء العلوي من جسده وليس بقدمه. يرتدي بدلة فاتحة اللون على آخر صيحة، ونظارة تُثبَّت على الأنف. يوحي مظهره بأنه في الخمسين من عمره تقريبًا، ويبدو طبيب أسنان أو مُصفِّف شعر. وبالنظر مليًا، يبدو مندوب مبيعات منتجات كيميائية. كل ما يتعلَّق بمظهره يوحي بأنه رجل كثير المشاغل، من أولئك الذين يقولون في آن واحد:

- قهوة إسبرسُّو. نادِ على ماسح الأحذية. يا ولد، أحضر لي سيارة أجرة...

أولئك السادة من أصحاب المشاغل بالغة الكثرة، حين يذهبون إلى صالون الحلاقة، يغتنمون الفرصة لحلاقة الذقن وقص الشعر وتسوية أظفار الأيدي ومسح الأحذية وقراءة الصحف. وفي بعض الأحيان، عندما يودِّعون صديقًا لهم، ينبِّهونه بقولهم:

- من الساعة كذا حتى الساعة كذا سأكون بالمقهى، ثم أقوم بجولة في المكتب، ثم أمرُّ ببيت صهري في المساء. أرقام الهاتف في الدليل. والآن سأذهب، فما زالت عندي أكداس من المسائل الصغيرة كي أحلَّها.

على الفور يلاحظ المرء على أولئك السادة أنهم هم الظافرون، البارزون، أولئك الذين دَرَجوا على تلقين الأوامر.

عبر الهاتف، يتحدَّث سنيور "سواريث" بصوت خفيض، حاد، صوت مُخنَّث، مُفخَّم. معطفه قصير بعض الشيء، وسرواله ضيق، كأنه سروال مصارع ثيران.

- أهو أنت؟

- ...

- وقح، بل وأكثر من وقح! أنت مُتهتِّك!

- ...

- أجل... أجل... حسنًا، كما شئت.

- ...

- فهمت. حسنًا. اطمئن، فلن أتغيب.

- ...

- إلى اللقاء يا عزيزي.

- ...

- هاها! كعادتك دائمًا! إلى اللقاء يا عصفوري. سأمرُّ الآن لاصطحابك.

سنيور "سواريث" يعود إلى طاولته باسمًا، والآن تشوب عَرَجَه رجفةٌ خفيفة، شيء من الرعشة. الآن يشوب عَرَجَه ما يُشبه الشبق، الدلال، الخلاعة. يدفع حساب قهوته، يطلب سيارة أجرة، يحضرونها له فيقوم من جلسته ويغادر المكان. ينظر رافعًا جبينه كمصارع روماني، ويمضي مفعمًا بالرضا، مُشرِقًا بالنشوة.

يتابعه أحدهم بأنظاره حتى يبتلعه الباب الدوار. مما لا شك فيه أن البعض يلفتون الأنظار أكثر ممن عداهم. يتعرَّف المرء عليهم لأن لهم ما يشبه النجمة الصغيرة على جباههم.

- ١٩ -

مالكة المقهى تدور على عقبيها وتتَّجه نحو البار. ماكينةُ القهوة المطلية بالنيكل تَهدرُ وهي تَلِدُ فناجين الإسبرسُّو بلا انقطاع، في حين تدقُّ آلة

الكاشير باستمرار، آلة الكاشير التي بلغت من القِدَم حدًا اكتست معه باللون النحاسي.

ثمة نُدُل لهم وجوه رخوة، محزونة، صفراء، ينتظرون بأجساد مُعبَّأة في سُترات »السموكينج «الحائلة، واضعين حافة الصينية على الرخام، حتى يناولهم المدير الطلبات والفيشات الصغيرة الذهبية والفضية.

المدير يضع سماعة التليفون ثم يباشر توزيع ما يُطلب منه.

– أتعود للثرثرة مرة أخرى، كما لو لم يكُن لديك ما تفعله؟

– كنت أطلب المزيد من الحليب، سنيوريتا.

– طبعًا، المزيد من الحليب! كم أحضروا صباح اليوم؟

– كالعادة دائمًا، سنيوريتا، ستين لترًا.

– ألم يكُن ذلك كافيًا؟

– كلا، يبدو أنه لن يكفي.

– يا رجل، وكأننا في مستوصف ولادة! وكم طلبت؟

– عشرين لترًا أخرى.

– ألن يفيض ذلك عن الحاجة؟

– لا أعتقد.

– كيف "لا أعتقد"؟ لقد طفح بنا الكيل! وماذا لو فاض عن الحاجة؟ أجِبْ!

– كلا، لن يفيض. أعني، في رأيي!

– أجل، "في رأيي"، كالعادة دائمًا، "في رأيي" كم هذا مريح! وماذا لو فاض عن الحاجة؟

– كلا، سترين أنه لن يفيض. انظري إلى الصالون المزدحم.

– أجل، بالطبع، "انظري إلى الصالون المزدحم" "انظري إلى الصالون المزدحم". هذا كلام سابق لأوانه. الصالون مزدحم لأنني شريفة وأقدم

خدمة جيدة، وإلا لرأيت بنفسك إلى أين سيذهبون جميعًا! يا لهم من زبائن!

يشخص النُّدُل بأبصارهم إلى الأرض محاولين ألا يلفتوا إليهم الانتباه.

- وأنتم، لعلَّكم تُظهرون شيئًا من البهجة! أرى الكثير من فناجين القهوة فوق تلك الصواني! ألا يعلم الناس أن لدينا كعكًا سويسريًا وكعك "الموخيكون" و"التورتيل" لا يعلمون، أنا متأكدة من ذلك! فأنتم على استعداد ألاَّ تتفوَّهوا بحرف واحد عن عمد! تتمنَّون لي أن أعيش حياةً بائسة، وأن أعمل في بيع تذاكر اليانصيب كالمكفوفين! عشَم إبليس في الجنة! أنا أعرف جيدًا مع من أتعامل. يا لكم من حاذقين! هيا، تحرَّكوا، حرِّكوا سيقانكم وتضرَّعوا إلى أي قديس كي لا تغلي الدماء في رأسي.

أما النُّدُل فينصرفون عن البار حاملين الآنية، من دون أن يعيروها أدنى انتباه. لا ينظر أيٌّ منهم إلى دونيا "روسا"؟ أو يفكِّر أيٌّ منهم في دونيا "روسا".

- ٢٠ -

أحد أولئك الرجال المتَّكئين بمرفقهم على الطاولة، كما تعلمون، يسند جبينه الشاحب إلى راحة يده - تطلُّ من عينيه نظرة حزينة مريرة، وترتسم على وجهه أمارات القلق، وما يشبه الوجل- ويتحدَّث إلى النادل. يحاول الابتسام في عذوبة، يبدو وكأنه طفل مهجور يطلب ماءً من بيت في طريقه.

النادل يومئ برأسه وينادي ساقي القهوة(*).

"لويس" ساقي القهوة، يقترب من مالكة المقهى.

- سنيوريتا، "بيبيه" يقول إن ذلك السنيور لا يريد دفع الحساب.

- فليتدبَّر أمره كيفما استطاع حتى ينتزع منه النقود. تلك مسألة

(*) ساقي القهوة: نادل كانت مهمته تقتصر على صب القهوة والحليب. وقد اختفى هذا التخصص من مقاهي إسبانيا لاحقًا.

تخصُّه. وإن لم يفعل، فقُلْ له إن الحساب سوف يُخصَم من جيبه والسلام. لقد جاوز الأمر الحد!

مالكة المقهى تصلح نظارتها وتمعن النظر.

- أي زبون؟

- ذلك الزبون هناك، الذي يرتدي نظارة بإطار معدني.

- يا له من رجل! ذلك طريف حقًا! أية سحنة هذه! أخبرني، ولماذا لا يريد أن يدفع؟

- كما ترين... يقول إنه قد جاء بلا نقود.

- بالطبع! هذا ما كان ينقصنا! إن ما يفيض عن حاجتنا في هذا البلد هم المحتالون.

يتحدّث ساقي القهوة بصوت واهٍ، من دون أن ينظر إلى عيني دونيا "روسا":

- يقول إنه سوف يحضر ليدفع الحساب عندما يحصل على نقود.

تخرج الكلمات من حنجرة دونيا "روسا" وإذا بها ترنُّ كالنحاس:

- هذا ما يقوله الجميع، وفي النهاية يعود واحد فقط مقابل كل مائة مُتهرِّب يخرج ولا يرينا وجهه مُجددًا. إياك أن تفكِّر حتى في الأمر! إن أنت أكرمت الغربان اقتلعت عينيك! قُل لـ "بيبيه" إنه يعرف ما العمل: فليصحبه إلى الشارع برفق، وعندما يبلغان الرصيف، فليسدِّد له ركلتين بقوة حيثما اتفق. لقد طفح بنا الكيل!

همَّ ساقي القهوة بالانصراف، فاستأنفت دونيا "روسا" حديثها إليه قائلةً:

- اسمع! قُل لـ "بيبيه" أن يضع تركيزه في وجهه!

- وهو كذلك، سنيوريتا.

بقيتْ دونيا "روسا" في مكانها تراقب المشهد. "لويس" يذهب إلى "بيبيه" حاملاً أباريق الحليب كدأبه دائمًا، ويُسِرُّ إليه بشيء في سمعه.

- هذا كل ما قالت. أما من جانبي، فيعلم الرب أنني...!

"بيبيه" يقترب من الزبون الذي يقوم ببطء. الزبون رجل هزيل، شاحب، سقيم، على عينيه نظارة مصنوعة من سلك رخيص. يرتدي سترة بالية وسروالاً مهترئًا، ويعتمر قبعةً قابلة للطي ذات لون رمادي داكن، يحيط بها شريط قذر، ويتأبط كتابًا مُغلَّفًا بورق الجرائد.

- إن شئت، تركت لك الكتاب.

- كلا. هيا، إلى الشارع، لا تُثِرْ المتاعب.

يسير الرجل صوب الباب، ومن خلفه "بيبيه". يخرج كلاهما إلى الشارع. الجو بارد، والناس يمرّون على عجل. ينادي الباعة على الصحف المسائية. وعبر شارع "فوينكارّال" يمرّ ترام صاخب في حزن، في مأساوية، بل وفيما يشبه الكآبة.

ليس ذلك الزبون بنكرة، ليس مجرد واحد من بين الكثيرين، ليس مجرد رجل من العامة، ليس مجرد رجل من بين الجموع، أو مجرد كائن عادي. له وشم على ذراعه اليسرى وندبة عند ملتقى الفخذين. نال حظه من الدراسة ويُترجم عن الفرنسية قليلاً. تابَع بعناية المتغيرات التي مرَّتْ بها الحركة الفكرية والأدبية. يكاد يستطيع تلاوة بعض مقالات المنشورة في جريدة "إل سول"(١) من الذاكرة. حظي في شبابه بحبيبة سويسرية ونظم الأشعار "الأولترايستا"(٢).

ـ ٢١ ـ

ماسح الأحذية يتحدَّث إلى دون "ليوناردو". يقول له دون "ليوناردو":

ـ نحن، آل "ميليندِيث" بمثابة جذع عتيق وثيق الصلة بأعرق عائلات "كاستِيًّا" وكانت لنا فيما مضى سيادة على حيواتٍ وأراضٍ. أما اليوم، فكما ترى، نكاد نعيش على قارعة la rue!

---

(١) "إل سول" جريدة يومية معنية بالشؤون الثقافية والفكرية. صدرت في مدريد ما بين عامي ١٩١٧و ١٩٣٦.

(٢) "أولترايستا": حركة شعرية طليعية تأسَّست في العقد الثاني من القرن الماضي على أيدي مجموعة من الشعراء الشباب.

"سيجوندو سيجورا" يشعر بالإعجاب نحو دون "ليونادرو . وكون دون "ليوناردو" قد سلبه مدخراته، فذلك شيء يملؤه انبهارًا وولاءً، فيما يبدو. اليوم يميل دون "ليوناردو" إلى الثرثرة معه، أما هو فيغتنم الفرصة ويتقافز حوله مرحًا وكأنه جرو صغير. وعلى الرغم من ذلك، فثمة أيام يتعثَّر خلالها حظُّه ويلقاه دون "ليوناردو" ركلاً بالأقدام. في تلك الأيام التعيسة، يقترب منه ماسح الأحذية في خضوع، ويتحدَّث إليه باتِّضاع، بصوت خافت.

- ما الأخبار، سنيور؟

دون "ليوناردو"لا يجيب حتى على سؤاله. فلا يبالي ماسح الأحذية ويعاود المحاولة في إصرار:

- يوم قارس البرودة!

- صحيح.

عندئذ يبتسم ماسح الأحذية. يشعر بالسعادة، بل وكان على استعداد أن يدفع ستة آلاف "دورو" مرة أخرى عن طيب خاطر مقابل ردّ دون "ليوناردو".

ـ هل ألَمِّع حذاءك قليلاً؟

ماسح الأحذية يجثو على ركبتيه، أما دون "ليوناردو" الذي لم يكُن من عادته أن ينظر إليه إلا فيما نَدَر، فيضع قدمه على مسند القدم الحديدي المُثبَّت فوق الصندوق في غير اكتراث.

ولكن ليس اليوم. فاليوم يشعر دون "ليوناردو" بالسرور. الأرجح أنه يضع مسودَّة مشروع لتأسيس شركة محدودة ذات أهمية.

Oh, mon Dieu ! (*) في سابق عهدنا، كان يكفي أن يطلَّ أيٌّ منا على البورصة حتى يمسك الجميع عن البيع والشراء إلى أن يتحقَّقوا مما نحن فاعلون أولاً.

- عظيم، أليس كذلك؟

(*) "يا إلهي" بالفرنسية.

دون "ليوناردو" يزمُّ شفتيه في لفتة مبهمة، بينما يرسم بيده أشكالاً في الهواء. يسأل الجالس إلى الطاولة المجاورة:

– هل معك ورقة بفرة؟ كنت أود أن أدخِّن قليلاً من التبغ السائب، ولكن ليس معي ورق بفرة في هذه اللحظة.

يُطرق ماسح الأحذية ويتظاهر بأنه لم ينتبه إلى شيء. يعرف أن ذلك واجب عليه.

ـ ٢٢ ـ

دونيا "روسا" تقترب من طاولة "إلبيرا"، التي كانت تراقب مشهد النادل والرجل الذي لم يدفع حساب القهوة.

– أرأيتِ، "إلبيريتا"؟

سنيوريتا "إلبيرا" تستغرق بضع لحظات في الرد:

– فتى مسكين! ربما لم يأكل شيئًا طوال اليوم، دونيا "روسا".

ـ أتلعبين دور الرومانسية أنتِ أيضًا؟ غير معقول! أقسم لكِ بأنه ليس هناك من يفوقني في رقَّة القلب، ولكني لا أحتمل هذا الاستغلال!

"إلبيريتا" لا تدري بما تجيب. فالمسكينة عاطفية إلى الحد الذي باعت معه جسدها لئلاً تتضوَّر جوعًا حتى الموت (قبل الأوان على الأقل). لم يحدث يومًا أن عرفت كيف تفعل أي شيء، ثم إنها تفتقر إلى الجمال واللياقة. في بيتها، لم تلقَ خلال مرحلة الطفولة سوى الازدراء والمصائب. "إلبيرا" من "بورجوس" وهي ابنة مُحتال يجدر توخِّي الحذر في التعامل معه، كان يُدعَى في حياته "فيديل إرنانديث" قَتَل "فيديل إرنانديث" زوجتَه "إودوسيا" بمِخْرَزٍ يُستخدم في صناعة الأحذية، فحُكِم عليه بالإعدام شنقًا ونُفِّذ الحكمَ على يد "جريجوريو مايورال"(*) عام ١٩٠٩. كان "فيديل إرنانديث" يقول:

(*) "جريجوريو مايور" (١٨٦١ ـ ١٩٢٨): المُنفِّذ إعدام من "بورجوس" بإسبانيا، يُعتقَد أنه أدخل بعض التعديلات على أداة الإعدام. وقد تولَّى تنفيذ أحكام الإعدام في المتورطين بجريمة قطار الأندلس السريع آنفة الذكر.

- لو قتلتُها بوضع السُّلفات في حسائها لما كشف الأمر أحدٌ، ولا حتى الرب ذاته.

كانت "إلبيرا" في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها حين تيتَّمت، فذهبت إلى "بيَّالون" للعيش برفقة جدتها، التي كانت مسؤولة عن جمع التبرعات من المصلين في الأبرشية لصندوق عطاء "سان أنطونيو". كانت العجوز المسكينة تعيش حياةً عصيبة، وما إن نُفِّذ حكم الإعدام شنقًا في ابنها حتى بدأت تذوي، وما لبثت أن قضت نحبها. كان باقي فتيات البلدة يُشِرْنَ إلى المشنقة، ويقُلْنَ لـ "إلبيرا" هازئات:

- أبوكِ شُنِق على واحدة كهذه، أيتها المُقزِّزة!

ذات يوم لم تقوَ "إلبيرا" على احتمال المزيد، فولَّت هاربة مع رجل من "أستورياس" جاء يبيع اللوز المُغطّى بالسكر في مهرجان البلدة. قضَتْ معه عامين بالغي الطول. كان يكيل لها ضربًا مبرحًا، ولذا فبينما هما في "أورينسي" ذات يوم قالت له أن يغرب عن وجهها، ثم اشتغلت بالدعارة في البيت الذي تُديره "پيلونا" بشارع "بيَّار" وهناك تعرَّفت على إحدى بنات "ماراَّكا" جامعة الحطب بمرج "فرانثيلوس" في "ريبادابيا" والتي أنجبت اثنتي عشرة بنتًا، جميعهن بائعات هوى. ومنذ ذلك الحين، أصبح كل شيء عند "إلبيرا" هينًا يسيرًا، إن جاز التعبير.

كانت المسكينة تشعر بشيء من المرارة، وإن لم يكُن شعورًا جارفًا. أضِفْ إلى ذلك أنها كانت حسنة النوايا، ولا تزال مُكابرة قليلاً على الرغم من خجلها.

- ٢٣ -

دون "خايميه أرثيه" يجلس شاخص البصر إلى السقف، يفكِّر في ترهات، يشعر بالضجر كونه لا يفعل شيئًا على الإطلاق، فيرفع رأسه عن المسند ويقول شارحًا للسنيورا الثكلى الصموت، السنيورا التي تراقب الحياة تمرُّ من موضعها أسفل الدّرَج الحلزوني المؤدِّي إلى صالة البلياردو:

- هراء... سوء تنظيم... وأخطاء أيضًا، لا أنكر ذلك. صدِّقيني، فهذا كل ما هنالك. ثمة خلل في طريقة عمل البنوك، أما موظفو الشهر العقاري، فسرعان ما يتسبَّبون في فوضى عارمة ليس هناك من يستطيع فهمها، بكل ما لهم من رسميَّة.

يرتسم على وجه دون "خايميه" تعبير دنيوي ينمٌّ عن الإذعان.

- ثم يكون ما يكون: بروتستو عدم سداد الكمبيالات، ثم التعقيدات، ثم المهزلة.

دون "خايميه أرثيه" يتحدَّث بتؤدَّة، برويَّة، بل وبقدر من الوقار. يراعي الدقَّة في لفتاته، ويتوخَّى أن يترك الكلمات تتداعَى ببطء، وكأنما يرغب في رؤية الأثر الذي تُحدِثه في النفوس، وتقدير قياسه ووزنه. في دخيلة نفسه، لم يكُن يفتقر إلى قدر من الصدق أيضًا. أما السنيورا الثكلى، فهي كالبلهاء، لا تنبس بحرف. تُنصت وتفتح عينيها على نحو غريب، على نحو أشبه بمحاولة لطرد النعاس منه بالإنصات إلى مُحدِّثها.

- وهذا كل شيء، سنيورا. أما فيما عدا ذلك... أتعرفين رأيي؟ كل ما عدا ذلك مجرد ترهات.

دون "خايميه أرثيه" رجل مفوَّه، حتى وإن أقحم كلمات تفتقر إلى الرقيِّ في عبارات مُنمَّقة، على شاكلة "المهزلة" أو "الهياج" وكلمات أخرى من هذا القبيل.

السنيورا تتطلَّع إليه ولا تنبس بحرف. تكتفي بهزٍّ رأسها إلى الأمام وإلى الخلف، بإيماءة لا تعني شيئًا هي الأخرى.

- والآن، ترين ما يقوله الناس! لو عادت أمي المسكينة إلى الحياة!

أما السنيورا، أرملة "سانث" دونيا "إيسابيل مونتيس" فبينما كان دون "خايميه" يقول لها "أتعرفين رأيي" شرعت تفكِّر في زوجها الراحل، في الزمن الذي تعرَّفت عليه خلاله، وهو في الثالثة والعشرين من العمر،

وسيم، أنيق، ممشوق القوام للغاية، وله شارب مدهون. تصاعدت أبخرة السعادة إلى رأسها، على نحو مرتبك قليلاً، فانفرجت شفتا دونيا "إيسابيل" عن ابتسامة خافتة للغاية، دامت نصف ثانية. ثم تذكَّرت "پاكيتو" المسكين، تذكَّرت نظرة البلاهة التي ظهرت على وجهه عند مرضه بالتهاب السحايا، فخيَّم عليها الحزن على نحو مباغت، بل وعلى نحو عنيف.

أما دون "خايميه" فما كاد يفتح عينيه اللتين كان قد أغمضهما نصف إغماضة بغرض التشديد على قوله "لو عادت أمي المسكينة إلى الحياة!" حتى حدق في دونيا "إيسابيل" وقال لها رغبةً في مرضاتها:

- هل ألمَّ بكِ خطب، سنيورا؟ تبدين شاحبة قليلاً.

- كلا، لا شيء، شكرًا جزيلاً. مجرد أفكار تخطر للواحدة!

ـ ٢٤ ـ

دون "پابلو" دائمًا ما ينظر إلى سنيوريتا "إلبيرا" بطرف عينه قليلاً، في لفتة تكاد تكون غير مقصودة. ومع أن كل شيء قد انقضى، فهو غير قادر على نسيان الوقت الذي قضياه معًا. "إلبيرا" بالتأمُّل في الأمر مليًّا، كانت طيبة ووديعة وسلسة القياد. كان دون "پابلو" يتظاهر بازدرائها وينعتها بالعاهرة والمثيرة للاشمئزاز في ظاهر الأمر، أما في سريرته فالأمر يختلف. كان دون "پابلو" حين يرِقّ، يفكِّر بينه وبين نفسه هامسًا: "تلك مسائل لا تمتُّ للجنس بِصِلة، كلا، بل إنها نابعة من القلب".

ثم ينسى كل ذلك، وإذا به على استعداد أن يتركها تموت جوعًا أو بمرض الجذام، بكل هدوء. هكذا كان دون "پابلو".

ـ "لويس"، ما خطب ذلك الشاب؟

- لا شيء، دون "پابلو". لم يكُن في مزاج يسمح له بدفع حساب القهوة التي شربها!

- ليتك أخبرتني يا رجل. بدا لي فتًى طيبًا.

- لا تصدِّق ذلك، فهناك الكثيرون من المحتالين والمجرَّدين من الضمير.

ثم تقول دونيا "پورا"، زوجة دون "پابلو":

- بالطبع، هناك الكثيرون من المحتالين والمجرَّدين من الضمير، تلك هي الحقيقة. لو كان التمييز بينهم ممكنًا! إن ما يجب على الجميع فعله هو العمل كما قال الكتاب. أليس كذلك، "لويس"؟

- من الممكن. أجل، سنيورا.

- فعلاً، وعندئذ نقطع الشك باليقين. من يعمل فليتناول قهوته، بل والكعك السويسري إن شاء. أما من لا يعمل... فلا! من لا يعمل ليس جديرًا بالشفقة، فالباقون لا يكسبون رزقهم من الهواء.

دونيا "پورا" راضية كل الرضا عن خطابها، إذ أبدعت فيما قالت بحقّ.

دون "پابلو" يلتفت مرة أخرى ناحية السنيورا التي فزعت من القط:

- لا بد من توخِّي الحذر، كل الحذر، من أولئك الذين لا يدفعون حساب القهوة. فالمرء لا يعرف فيمن يتعثَّر أبدًا. ذلك الذي ألقوا به إلى الشارع لتوِّهم، ربما كان شخصًا عظيمًا، ممن يُطلَق عليهم نوابغ بحقّ، شأن "ثربانتس" و"إيساك پيرال"(*) وربما كان شخصًا في منتهى الوقاحة. من جانبي، كنت سأدفع عنه حساب القهوة. وما الفارق عندي إن زاد فنجان قهوة أو نقص؟

- بالطبع.

دون "پابلو" يبتسم كمن اكتشف فجأةً أنه مُحقٌّ تمامًا.

- ولكنكِ لا تجدين ذلك في الكائنات غير العاقلة. فالكائنات غير

(*) "ميجيل دي ثربانتس" (١٥٤٧ ـ ١٦١٦): روائي وكاتب من رواد الأدب الإسباني. أشهر أعماله "دون كيخوته" الذي يُعدُّ واحدًا من أعظم الأعمال الروائية في التاريخ.

"إيساك پيرال" (١٨٥١ ـ ١٨٩٥): عالم بحري ذو خلفية عسكرية، ومخترع الغواصة المعروفة باسم "غواصة پيرال".

العاقلة أعظم نُبلاً ولا تخادع أبدًا. إن قطًا صغيرًا نبيلاً كذلك الذي أخافكِ كل هذا الخوف، هاها!، بمثابة كائن إلهي، لا يرغب سوى في اللعب، وليس أكثر من اللعب.

تعلو وجه دون "پابلو" ابتسامة غبطة. لو أمكن شقُّ صدره، لوجد المرء في صدره قلبًا داكنًا لزجًا كالقطران.

ـ ٢٥ ـ

"پيپيه" يعود إلى المقهى بعد لحظات قلائل. أما مالكة المقهى، التي دسَّت يديها في جيبي المريلة ومالت بكتفيها إلى الوراء وباعدت بين ساقيها، فتناديه بصوت جاف، أجش، بصوت يبدو وكأنه قرقعة جرس مشروخ:

- تعالَ إلى هنا.

"پيپيه" لا يكاد يجرؤ على النظر إليها.

- فيمَ ترغبين؟

- هل ركلته؟

- أجل، سنيوريتا.

- كم مرة؟

- مرتين.

مكتبة
t.me/t_pdf

مالكة المقهى تغمض عينيها الدقيقتين نصف إغماضة خلف عدستي النظارة، تخرج يديها من جيبيها وتتحسَّس وجهها، حيث تبرز شعيرات ذقنها التي لم تُخفِها مساحيق التجميل المصنوعة من الأرز تمامًا.

- وفي أي موضع ركلته؟

- حيث تسنَّى لي، في ساقيه.

- أحسنت صنعًا. حتى يتعلَّم! هكذا لن يرغب في سرقة مال الشرفاء مرة أخرى!

دونيا "روسا" بيديها الغليظتين اللتين أحاطتا ببطنها المنتفخ وكأنه قِرْبَة زيت، تُمثِّل صورة مُجسَّدة لانتقام الشبعانين من الجوعى.

- وقحون! كلاب!

وعلى أصابعها التي تشبه النقانق ينعكس بريق المصابيح بديعًا، يكاد يكون شهوانيًا.

أما "بيبيه" فبنظرة مُتَّضِعة يسير مبتعدًا عن مالكة المقهى. وفي سريرته يشعر براحة ضمير، حتى وإن لم يكُن مُدرِكًا لذلك تمام الإدراك.

ـ ٢٦ ـ

دون "خوسيه رودريجيث دي مدريد" يتحدَّث مع صديقين له يلعبان الداما.

- كما تريان، ثمانية "دورو" ثمانية "دورو" عديمة الفائدة. ومع ذلك فالناس لا يكفُّون عن الكلام.

يبتسم له أحد اللاعبين.

- أفضل من لا شيء، دون "خوسيه"!

ـ ممم! أفضل قليلاً. إلى أين يذهب المرء بثمانية "دورو"؟

ـ يا رجل، ليس هناك ما يُمكن عمله بثمانية "دورو" سوى القليل، والحق يُقال. ولكن في نهاية المطاف، أرى أن كل ما يأتي مُرحَّب به، ما لم يكُن صفعة على الوجه!

- أجل، أصبتَ في ذلك أيضًا. ورغم كل شيء، فقد ربحتُها بلا جهد يذكر...

كان عازف الكمان، الذي طُرِد إلى الشارع بعد أن ردَّ على دون "خوسيه" يستغرق ثمانية أيام في إنفاق ثمانية "دورو". صحيح أنه كان يتناول القليل والرديء من الطعام، ولم يكُن يدخِّن سوى ما يعطيه له الآخرون من

سجائر، إلا أنه كان ينجح في مدِّ عمر الثمانية "دورو" أسبوعًا كاملاً. وأغلب الظن أن هناك آخرين ممن يتدبَّرون أمورهم بأقل من ذلك.

ـ ٢٧ ـ

سنيوريتا "إلبيرا" تنادي بائع التبغ.

- "بادِيًّا"!

ـ أنا قادم، سنيوريتا "إلبيرا"!

ـ أعطني سيجارتي "تريتون"؟ وغدًا سوف أحاسبك.

- حسنًا.

أخرج "بادِيًّا" سيجارتي "تريتون" ووضعهما لسنيوريتا "إلبيرا" على الطاولة.

- أتعرف؟ سأدخِّن السيجارة الثانية لاحقًا، بعد العشاء.

- حسنًا. كما تعلمين، لديكِ هنا رصيد.

ابتسم بائع التبغ في لفتة شهامة. كما ابتسمت سنيوريتا "إلبيرا" هي الأخرى.

- "بادِيًّا"، هلا أبلغت "ماكاريو" برسالة مني؟

- أجل.

- قُل له أن يسديني معروفًا ويعزف أوبريت "لويسا فِرناندا"(*).

انصرف بائع التبغ يجرجر قدميه في طريقه إلى منصة العازفين. كان هناك سنيور يتبادل و"إلبيريتا" النظرات منذ بعض الوقت، ثم عقد العزم على كسر حاجز الصمت أخيرًا.

(*) "لويسا فِرناندا": أوبريت "ثارثويلا" كوميدي شعري من تأليف الموسيقار "فِدريكو مورينو" (١٨٩١ ـ ١٩٨٢) عُرِض لأول مرة عام ١٩٣٢.

- جميلة هي أوبريتات "الثارثويلا" أليس كذلك، سنيوريتا؟

أومأت سنيوريتا "إلبيرا" مُتجهِّمة. أما السنيور فلم تفتر همَّته، بل وفسَّر تجهُّمها على أنه علامة استلطاف.

- وعاطفية أيضًا، أليس كذلك؟

أغمضت سنيوريتا "إلبيرا" عينيها نصف إغماضة، فاستجمع السنيور قواه من جديد.

- هل تحبِّين المسرح؟

- أجل، المسرح جيد...

ضحك السنيور وكأنه يحتفي بواقعة غاية في الطرافة. تنحنح قليلاً، ثم قدَّم لسنيوريتا "إلبيرا" قداحة ليشعل سيجارتها وتابع حديثه:

- طبعًا، طبعًا. وماذا عن السينما؟ أتروق لكِ السينما أيضًا؟

- أحيانًا...

بذل السنيور جهدًا هائلاً، جهدًا احمَرَّ له وجهه تمامًا.

- صالات السينما المعتمة، أليس كذلك؟ ما قولكِ فيها؟

ظهر على سنيوريتا "إلبيرا" الشرف والارتياب.

- أنا لا أتردَّد على السينما سوى لمشاهدة الأفلام.

فتجاوب معها السنيور قائلاً:

- طبعًا، بطبيعة الحال، وأنا كذلك... إنما قصدت بقولي الشباب، طبعًا، العشاق الشباب. فجميعنا كنا شبابًا! سنيوريتا، لقد لاحظت أنكِ مُدخِّنة. وفي رأيي أن تدخين النساء أمر جيد جدًا، بالطبع جيد جدًا. ففي نهاية المطاف، ما الخطب في تدخين النساء؟ خير الأمور أن يعيش كل واحد حياته. ألا توافقينني الرأي؟ أقول قولي هذا لأنني، إذا سمحتِ لي بذلك، سوف أسعد بأن... أعني... بأن أقدِّم لكِ علبة "تريتون". والآن عليَّ

أن أنصرف، لأنني في عجلة شديدة من أمري، وسوف نلتقي في يوم لاحق لمتابعة حديثنا.

السنيور يتحدَّث في استعجال، في اضطراب. أما سنيوريتا »إلبيرا« فتجيبه بشيء من الازدراء، بلفتات أصحاب السطوة المطلقة.

- حسنًا، ولمَ لا؟ إذا كانت نفسك تهفو إلى ذلك!

نادى السنيور بائعَ التبغ، اشترى منه علبة، سلَّمها إلى سنيوريتا "إلبيرا" راسمًا على وجهه خير ما عنده من ابتسامات، ارتدى معطفه، أخذ قبعته، ثم غادر المكان. ولكن قبل أن يغادر، قال لسنيوريتا "إلبيرا":

ـ حسنًا، سنيوريتا. لي عظيم الشرف. "ليونثيو مايستري" في خدمتك. كما قلت لكِ، سوف نلتقي في يوم لاحق. وربما صرنا صديقين مُقرَّبين.

ـ ٢٨ ـ

مالكة المقهى تنادي المدير. والمدير يُدعَى "لوبيث"، "كونسورثيو لوبيث"، من مواليد "توميِّوسو" بمقاطعة "ثيوداد ريال" وهي بلدة ضخمة، رائعة الجمال، وواسعة الثراء. "لوبيث" شاب، وسيم، بل وأنيق، له يدان ضخمتان وجبين ضيِّق. "لوبيث" كسول قليلاً، ولا يعير مزاج دونيا "روسا" العكر أدنى اهتمام. من عادته أن يقول:

- إن أفضل ما يمكن عمله مع تلك المرأة تركها تتكلَّم، حتى تكفَّ من تلقاء نفسها.

"كونسورثيو لوبيث" فيلسوف عملي، والحقيقة أن فلسفته تعود عليه بنتائج طيبة.

ذات مرة في "توميِّوسو" قبل أن يأتي إلى مدريد بزمن يسير، منذ عشرة أعوام أو اثني عشر عامًا، قال له شقيقُ حبيبة حظي بها "كونسورثيو" ولم يرغب في الزواج بها بعد أن أنجب منها توأمين:

- إما تتزوَّج "ماروخيتا"؟ وإما أن أخصيك أينما وجدتك.

لم يكُن "كونسورثيو" يريد أن يصبح زوجًا أو خصيًا، فاستقلَّ القطار وجاء إلى مدريد. لا بد أن المسألة قد ذهبت أدراج النسيان شيئًا فشيئًا، لأن أحدًا لم يعاود التعرُّض له في حقيقة الأمر. "كونثورثيو" يحمل في حافظته صورتين للتوأمين دائمًا: التُقطِت الأولى وهما لا يزالان في الشهور الأولى، مستلقيين على وسادة، عاريين، أما الثانية فبمناسبة المناولة الأولى. أرسلَت إليه الصورتين حبيبته القديمة، "ماروخيتا رانيرو" أو مدام "جوتييريث" آنذاك.

وكما قُلنا، فقد نادت مالكةُ المقهى المدير.

- "لوبيث"!

-أنا قادم، سنيوريتا.

- ما أخبار شراب "الڤيرموت"؟

- على ما يرام، حتى الآن.

- وماذا عن "الأنيس"؟

- بين بين. تنقصنا بعض أصناف »الأنيس«

- فليشربوا غيره! لستُ في حالة تسمح لي بإنفاق النقود الآن، مزاجي لا يسمح لي بذلك. كم يغالون في مطالبهم! اسمع، هل اشتريتَ ما اتَّفقنا عليه؟

- السكر؟ (*)

- أجل.

- اشتريتُه، وسوف يحضرونه غدًا.

- بأربعة عشر "پيسيتا" وخمسين "سنتًا" أخيرًا؟

(*) شهدت حقبة ما بعد الحرب نقصًا حادًا في سلع كثيرة، ولا سيما السكر، مما أدَّى إلى زيادة الإقبال على شرائه في السوق السوداء.

- أجل. كانوا يريدون خمسة عشر، ولكننا اتَّفقنا على تخفيض السعر ريالين كونها طلبية بالجملة.

- حسنًا. وكما تعرف، كيس سكر صغير مع كل طلب، لا يزيد عليه أحد أيًا كان، ولا حتى الرب ذاته. اتَّفقنا؟

- أجل، سنيوريتا.

ـ ٢٩ ـ

الشاب صاحب الأشعار يضع القلمَ الرصاص بين شفتيه، شاخصًا ببصره إلى السقف. إنه شاعر ينظم أشعارًا "ذات مغزى" مساء اليوم، خطر له المغزى بالفعل، ولم يعُد ينقصه سوى القوافي. دَوَّنَ بعضها على الورقة بالفعل. والآن يفتِّش عن كلمة على وزن "أنهار" بحيث لا تكون "مغوار" ولا "إبهار". أخذ يحوم حوله كلٌّ من "حرية الاختيار"؟ وكذلك "صيف الأزهار".

ـ حَبِيسٌ أنا في جَوْف صَدَفة بَلِيدة، قَوْقَعَة رَجُلٍ سُوقِيّ. والصَبِيَّة ذات العَيْنَيْن الزَرْقاوَيْن... وَدَدْتُ... مع ذلك... وَدَدْتُ لو كُنْتُ قَوِيًا، شَدِيدَ البَأْس. ذات العَيْنَيْن الزَرْقاوَيْن الجَميلَتَيْن... إما أن يَقْضِي العَمَلُ على الرَجُلَ وإما أن يقْضِي الرَجُلُ على العَمَل. ذات الشّعْرِ الأشْقَر... المَوْت! المَوْتُ أبدًا... تارِكًا كُتَيِّبَ أشْعَار! ما أجْمَلها، ما أجْمَلها...!

الشاعر الشاب يبدو شاحبًا، شديد الشحوب، وتعلو وجنتيه حمرة دقيقة.

- الصَّبِيَّة ذات العَيْنَيْن الزرَّقاوَيْن... أنْهَار، أنْهَار، أنْهَار. ذات العَيْنَيْن الزَّرْقاوَيْن الجَميلَتَيْن... إبْهار، مغْوَار، إبْهار، مغْوَار. ذات الشّعْر الأشْقَر... حُرِّيَّة الاخْتيار... تَسْتَرِدُّ فجأةً حُرِّيَّة الاخْتيار. الصَّبِيَّة ذات العَيْنَيْن الزَرْقاوَيْن... يَرْتَجِفُ الجَسَدُ من فَرْط لَذَّة حُرِيَّة الاخْتيار. ذات العَيْنَيْن الزَّرْقاوَيْن الجَميلَتَيْن... تَسْكُبُ - دُفْعَةً واحدَة - حُرِيَّة الاخْتيار. الصَّبِيَّة ذات العَيْنَيْن الزَّرْقاوَيْن... والآن أصْبَحْتُ أمْتَلِكُ حُرِّيَّة الاخْتيار. الصَّبِيَّة

ذات العَيْنَيْن الزَرْقاوَيْن... تُوَلِّي وَجْهَهَا شطر صَيْف الأَزْهَار. الصَبِيَّة ذات العَيْنَيْن الزَّرْقاوَيْن... الصَّبِيّة ذات العَيْنَيْن... ما لَوْنُ عَيْنَي الصَّبِيَّة...؟ تَقْطُفُ ثِمارَ صَيْفِ الأَزْهَار. الصَبِيَّة... هل للصَبِيَّة عَيْنان...؟ تارا، تارا، تارا، تارا، صَيْفِ الأَزْهَار...

وبغتةً، يلاحظ الشاب أن المقهى يتلاشى أمام عينيه.

- ... وتُقبِّلُ الكَوْنَ في صَيْفِ الأَزْهَار. طريف هذا...

يترنَّح الشاب قليلاً، وكأنه طفل أخذ برأسه دوار، ويشعر بحرارة شديدة تندفع صعوداً إلى أن تبلغ صدغيه.

- أشْعُرُ بشَيء من... ربما كانَتْ أُمِّي... أجل، صَيْف الأَزْهَار، صَيْف الأَزْهَار... رجلٌ يُحَلِّقُ فوق امْرَأة عارِيَة... يا له من رَجُلٍ مِغْوَار... كلا، مِغْوَار، كلا... وعندئذ سأقولُ لها: أبداً! العَالَم، العَالَم... طريف فعلاً، طريف جداً...

- ٣٠ -

على إحدى طاولات القسم الخلفي، جلست امرأتان على المعاش، مُلطَّختان بمساحيق التجميل كالدُّمي، تتحدَّثان عن الموسيقيين.

- إنه فنان حقيقي، الاستماع إليه يبعث في نفسي السرور. وكما كان يقول المرحوم "رامون" رحمه الرب: "تأمَّلي يا "ماتيلديه" كيف يمسك بالكمان. هكذا هي الحياة، لو كان لهذا الفتى من يدعمه لطبق اسمه الآفاق.

دونيا "ماتيلديه" تدير عينيها في محجريهما. دونيا "ماتيلديه" بدينة، قذرة وكثيرة الادِّعاء. تفوح منها رائحة كريهة ولها بطن هائل الضخامة، ملآن بالماء عن آخره.

- إنه فنان حقيقي، فنان عظيم.

– أجل، حقًا. أقضي يومي كاملاً وأنا أفكِّر في هذه الساعة. أنا أيضًا أعتقد أنه فنان حقيقي. حين يعزف ڤالس "الأرملة الطروب"(*) كما لا يفعل أحد سواه، أشعر وكأنني امرأة أخرى.

دونيا "أسونثيون" لها مظهر خروف متعالٍ.

– لم تكُن تلك الموسيقى كغيرها من الموسيقى، أليس كذلك؟ كانت أكثر رقيًا، أليس كذلك؟ أكثر عاطفية.

دونيا "ماتيلديه" لها ابن منولوجست يعيش في "بالِنثيا".

أما دونيا "أسونثيون" فلها ابنتان: إحداهما مُتزوِّجة من موظف غير ذي شأن بوزارة الأشغال العامة يُدعَى "ميجيل كونتريراس" وهو رجل سِكِّير بعض الشيء. والأخرى غير مُتزوِّجة، فقد شبَّتْ مُتهوِّرة وتعيش في "بِلباو" برفقة أستاذ جامعي.

ـ ٣١ ـ

المرابي يمسح فم الطفل بمنديل. له عينان برَّاقتان، تطلُّ منهما المودَّة، ويبدو على قدرٍ من الأناقة حتى وإن لم يكُن يعني بنظافة بدنه كثيرًا. تناول الطفل فنجان قهوة "دوبل" بالحليب وقطعتين كاملتين من الكعك السويسري، من دون أن يرفَّ له جفن.

دون "ترينيداد جارثيا سوبرينو" لا يفكِّر ولا يتحرَّك. إنه رجل مسالم، رجل نظام، رجل يودُّ العيش في سلام. يبدو حفيده وكأنه غجريٌّ صغير، نحيل، أكرش. يعتمر قلنسوة مُطرَّزة وجورب مُطرَّز أيضًا. إنه طفل يرتدي ثيابًا ثقيلة جدًا.

– هل ألمَّ بك خطب يا فتي؟ ألستَ على ما يرام؟

الشاعر الشاب لا يحير جوابًا. عيناه مفتوحتان، ذاهلتان، يبدو وكأنه قد أصيب بالبكم. تتسدل إحدى خصلات شعره على جبينه.

(*) "الأرملة الطروب" ڤالس من أوبريت بالعنوان نفسه للموسيقار النمساوي المجري "فرانتس ليهار" (١٨٧١ ـ ١٩٤٨) قُدِّم لأول مرة في فيينا، في أواخر عام ١٩٠٥.

أجلس دون "ترينيداد" الطفلَ على الأريكة وأخذ بكتفي الشاعر.

- هل أنت مريض؟

التفتت بعض الرؤوس. أما الشاعر فابتسم بإيماءة بلهاء، ثقيلة.

- اسمعْ، ساعده معي على النهوض. يبدو أنه قد أصيب بوعكة.

زلقت قدما الشاعر وهوى جسمه أسفل الطاولة.

- أعينوني، فأنا لا أستطيع حمله وحدي.

هبَّ الناس وقوفًا، في حين أخذت دونيا »روسا «تراقب من مكانها عند البار.

- ما هي إلا رغبة في إثارة البلبلة...

تدحرج الفتى أسفل الطاولة فارتطم جبينه.

- فلنحمله إلى التواليت، لا بد أنه مصاب بدوَّار.

وفيما حمل دون "ترينيداد" وثلاثة أو أربعة زبائن آخرون، الشاعرَ إلى دورة المياه حتى يستردَّ وعيه قليلاً، أخذ حفيده يتلهَّى بأكل فتات الكعك السويسري المتبقي على الطاولة.

- سوف تُفيقه رائحة المطهرات، لا بد أن ما به دوارًا.

أما الشاعر فراح يبتسم في غبطة، جالسًا على المرحاض، مُتَّكئًا برأسه على الحائط. وفي دخيلة نفسه كان سعيدًا، حتى وإن لم يدرك ذلك.

عاد دون "ترينيداد" إلى طاولته.

- هل تحسَّن؟

- أجل، لم يكُن شيئًا ذا بال، مجرد دوار.

ـ ٣٢ ـ

ردَّتْ سنيوريتا "إلبيرا" سيجارتي "التريتون" إلى بائع التبغ.

- وفوقهما واحدة لك.

- أشكركِ. ابتسم لكِ الحظ، أليس كذلك؟

- ممم! أفضل من لا شيء...

ذات يوم، نعت "باديًا" أحد معجبي سنيوريتا "إلبيرا" بأنه "زبونها" فانزعجت سنيوريتا "إلبيرا". ومنذ ذلك الوقت، أصبح بائع التبغ يُبدي لها قدرًا أكبر من الاحترام.

ـ ٣٣ ـ

كاد الترام يقتل دون "ليونثيو مايستري".

ـ حمار!

ـ بل أنت الحمار، أيها البائس! فيمَ تفكر وأنت سائر؟

دون "ليونثيو مايستري" كان يفكِّر في "إلبيريتا".

ـ جميلة، أجل، جميلة جدًا. بكل تأكيد! وتبدو فتاة راقية... كلا، ليست بفتاة ليل. من يدري، فكل حياة رواية! تبدو فتاة من عائلة طيبة، دبَّ شجار بينها وبين عائلتها. ولعلها تعمل الآن بأحد المكاتب، لدى إحدى النقابات على الأرجح. لها قسمات حزينة ومرهفة، أغلب الظن أن ما يعوزها الحنان والكثير من التدليل، يعوزها أن يقضي أحدهم يومه كاملاً في تأمُّلها.

أخذ قلب دون "ليونثيو مايستري" يثِبُ أسفل قميصه.

- غدًا أعود. أجل، بلا أدنى شك. إذا كانت هناك، فتلك بشرى طيبة. وإلا... فسوف أبحث عنها!

رفع دون "ليونثيو مايستري" ياقة المعطف ثم وثبَ وثبتين قصيرتين.

- "إلبيرا"، سنيوريتا "إلبيرا" اسم جميل. أعتقد أن علبة "التريتون" قد

راقت لها. كلما دخَّنَتْ منها سيجارة، سوف تذكرني... وغدًا أردِّد اسمي على مسامعها. "ليونثيو"، "ليونثيو"، "ليونثيو". أما هي، فربما أطلقَتْ عليَّ اسمًا أكثر تدليلاً، مُشتقًا من "ليونثيو" على مثال "ليو" "أونثيو" "أونثيتي"... سأحتسي قدحًا من البيرة، لأن مزاجي يدعو إلى ذلك.

دلف دون "ليونثيو مايستري" إلى حانة حيث احتسى قدحًا من البيرة على البار. وإلى جواره، راحت تبتسم له فتاة جالسة على مقعد بلا مسند، فأولاها دون "ليونثيو" ظهره. كان مجرد التساهل مع تلك الابتسامة يبدو له بمثابة خيانة، الخيانة الأولى التي يقترفها في حق »إلبيريتا.«

ـ كلا، ليس "إلبيريتا" بل "إلبيرا". اسم بسيط، اسم رائع الجمال.

الفتاة الجالسة على المقعد بجواره تتحدَّث إليه من فوق كتفه.

- هلا أشعلتَ سيجارتي، أيها الرجل الجاد؟

فأشعل دون "ليونثيو" سيجارتها، يكاد يرتجف. دفع حساب قدح البيرة، ثم خرج إلى الشارع على عجل.

- "إلبيرا"... "إلبيرا"

ـ ٣٤ ـ

دونيا "روسا" تسأل المدير قبل أن تتصرف عنه:

- هل قدَّمت القهوة للعازفين؟

- كلا؟

- هيا إذن، قدِّم لهم القهوة حالاً. يبدو أنهم على وشك فقدان الوعي. يا لهم من أشقياء!

وفوق منصتهم، يجرجر العازفون آخر إيقاعات مقطع من أوبريت "لويسا فِرناندا"؟ ذلك المقطع البديع الذي مطلعه:

وَسطَ غاباتِ البَلُّوط

في "إكستريمادورا" العزيزة،

لي بَيْتٌ صَغِيرٌ

يَغْمُرُه الأمَانُ والسَّكِينة

قبل ذلك كانوا قد عزفوا "لحظة موسيقية" [1] وقبلها مقطع "مدريديَّة جميلة، زهرة المهرجان" من أوبريت "حاملة باقة الورود"[2]

دونيا "روسا" تقترب منهم.

– طلبتُ منهم أن يقدِّموا لكَ القهوة، "ماكاريو".

ـ شكرًا، دونيا "روسا".

– لا شكر على واجب. كما تعرف، الكلمة عهد إلى الأبد، وكلمتي واحدة لا أكثر.

– أعرف جيدًا، دونيا "روسا".

ـ وهو كذلك.

عازف الكمان يراقبها بعينيه الواسعتين الجاحظتين وكأنه ثور ضجِر، فيما يلفُّ سيجارة. يزمُّ شفتيه، بما يشبه الازدراء، بيدين ترتعشان.

– سيقدِّمون القهوة لكَ أيضًا، "سيوانيه".

ـ حسنًا.

– يا رجل، تبدو فظًّا بعض الشيء!

يتدخَّل "ماكاريو" لتهدئة النفوس.

ـ كل ما هنالك أنه يعاني من عسر هضم، دونيا "روسا".

---

(١) "لحظة موسيقية" من مؤلَّفات الموسيقار النمساوي شوبرت (١٧٩١ ـ ١٨٢٨).

(٢) "حاملة باقة الورود" أوبريت "ثارثويلا" درامي شعري، من تلحين الموسيقار "پابلو سوروثابال" (١٨٩٧ ـ ١٩٨٨) عُرِض لأول مرة عام ١٩٣٤.

ـ ولكن ليس ذلك مُبرِّرًا كي يخاطبني بهذا القدر من السماجة، في رأيي. ماذا جرى لتربية الناس! ما إن تقول لهم الواحدة منا كلمة حتى يجيبوها ركلاً بالأقدام، وبدلاً من أن يرضوا بالمعروف الذي تسديهم إياه، يقابلونه بقولهم "حسنًا"! كما لو كانوا من النبلاء. حقًّا!

"سيوانيه" يُطرق بينما يسترضي رفيقَه دونيا "روسا" السنيور الجالس إلى الطاولة المجاورة يستفسر:

- وماذا عن الفتى؟

- يتسردُّ وعيه في التواليت، لم يكُن ذلك شيئًا ذا بال.

ـ ٣٥ ـ

"بيجا" مالك المطبعة، يمدُّ علبة التبغ إلى المُداهن الجالس إلى الطاولة المجاورة.

- هيا، لفّ سيجارة ولا تتباكَ. كنتُ أسوأ منك حالاً، أتعرف ماذا فعلت؟ شرعت في العمل.

يبتسم الجالس إلى جواره وكأنه تلميذ ماثل بين يدي أستاذه، شاعرًا بتأنيب ضمير من دون أن يدرك ذلك، وهو أسوأ ما في الأمر.

- تستحقُّ ما وصلت إليه بجدارة!

- بالطبع يا رجل، بالطبع. ينبغي للمرء أن يعمل، وألاَّ يفكِّر في شيء بخلاف العمل. والآن، كما ترى، لا تعوزني سيجارتي ولا كأسي في المساء أبدًا.

يومئ الآخر برأسه، إيماءة لا تعني شيئًا.

- وماذا لو قلتُ لكَ إنني أريد أن أعمل ولكني لا أجد عملاً؟

- غير معقول! كل ما يحتاج إليه المرء الرغبة في العمل. هل أنت متأكد من رغبتك في العمل؟

- يا رجل، طبعًا!

- ولماذا لا تعمل حمَّالاً في المحطة؟

- ما كنت أستطيع، ولو فعلت لانقصم ظهري في اليوم الثالث... أنا خريج جامعي...

- وبمَ ينفعك ذلك؟

- في الحقيقة، بالقليل.

- إن مشكلتك يا صديقي، أنت والكثيرين، أنكم مرتاحون للغاية في المقهى، تضعون ساقًا على ساق، ولا تحرِّكون ساكنًا. وفي النهاية يجيء يومٌ تسقطون فيه مغشيًا عليكم، كذلك الطفل المُدلَّل الذي حملوه إلى الداخل.

الخريج الجامعي يردُّ له علبة التبغ ولا يختلف معه.

- أشكرك.

- لا شكر على واجب. هل أنت خريج جامعي حقًا؟

- أجل، سنيور. خريج نظام ١٩٠٣.

- حسنًا، سأمنحك فرصة إذن، حتى لا ينتهي بك المطاف في أحد الملاجئ أو الطوابير المُصطفَّة أمام الثكنات العسكرية(*). أتريد عملاً؟

- أجل، سنيور. قلتُها لك بالفعل.

- احضرْ غدًا لمقابلتي. إليك بطاقتي. احضرْ صباحًا، قبل الثانية عشرة، في حوالي الحادية عشرة والنصف. إن شئت وكنت مؤهلاً لذلك، سوف تعمل لديَّ مُصحِّحًا. صباح اليوم اضطررتُ لطرد المُصحِّح لأنه مُتلكِّئ. كان مُهمِلاً.

(*) في تلك الحقبة، كانت بعض الثكنات العسكرية توزِّع بقايا الطعام الفائض عن حاجة الجنود على الفقراء والمعوزين.

سنيوريتا "إلبيرا" ترمق دون "پابلو" بطرفِ عينها. أما دون "پابلو" فيشرح لشاب يافع على الطاولة المجاورة:

ـ "الكربوناتو" مفيد ولا يسبِّب أية أضرار. ومع ذلك فليس بوسع الأطباء وصفه، فلا أحد يذهب إلى الطبيب حتى يصف له "الكربوناتو".

الشاب يومئ من دون أن يوليه قدرًا كبيرًا من الاهتمام، ويلقي نظرة على ركبتي سنيوريتا "إلبيرا" المكشوفتين قليلاً أسفل الطاولة.

- لا تنظر إلى هناك، ولا تتصنَّع البلاهة! سوف أشرح لك لاحقًا، لا تُفسِدْ الأمر.

دونيا "پورا" زوجة دون "پابلو" تتحدَّث إلى صديقة لها مكتنزة، مُحمَّلة بالإكسسوارات، تُخلِّل أسنانها الذهبية بعود أسنان.

- لقد تعبتُ من تكرارها. ما دام للرجال والنساء وجود، ستظلُّ هناك علاقات غرامية دومًا. فالرجل والمرأة كالنار والبنزين، هكذا تجري الأمور! إن ما قلتُ لكِ بشأن واقعة ترام رقم ٤٩ هو عين الحقيقة! لا أعرف أين سينتهي بنا المطاف!

السنيورا المكتنزة تكسر عود الأسنان بين أصابعها في شرود.

- أجل، فأنا بدوري أرى أن الاحترام نادر الوجود. والسبب وراء ذلك حمامات السباحة. تأكدِّي من ذلك تمامًا، فلم نكُن هكذا فيما مضى... في الوقت الراهن، كلما تعرَّفت الواحدة منا على فتاة شابة وصافحتها بيدها، تستحوذ عليها الهواجس طيلة اليوم. فربما انتقلت إليها عدوى ما! أليس كذلك؟ وما أدراني أين دسَّتْ يدها!

- حقًا.

- وكذلك دور السينما، أعتقد أن جزءًا كبيرًا من اللائمة يقع عليها. فالاختلاط التام بين الجميع في الظلام الدامس لا يمكن أن يعود علينا بأي خير.

- أوافقكِ الرأي، دونيا "ماريا". يجب أن يتحلَّى الناس بقدر أكبر من الأخلاق، وإلا فقد ضِعنا نحن معشر النساء.

-٣٧-

دونيا "روسا" تلتقط أطراف الحديث من حيث تركته.

- وإن كانت معدته تؤلمه، فلماذا لا يطلب مني القليل من "الكربوناتو" متى أبَيْتُ أن أقدِّم لكَ القليل من "الكربوناتو" من رأى حالك قال إن لسانك قد انعقد عن الكلام!

دونيا "روسا" تلتفت فارضةً هيمنتها على كافة الأحاديث الدائرة في المقهى بصوتها الزاعق المُنفِّر:

- "لوبيث"! "لوبيث»! أحضِرْ "كربوناتو" لعازف الكمان!

يترك ساقي القهوة الأباريق على إحدى الطاولات ويُحضِر صحنًا وكوبًا ممتلئًا حتى نصفه بالماء، وملعقة صغيرة وسُكَّرية من النيكل الفضي حيث يحتفظون بـ "الكربوناتو".

ـ هل توقَّفتم عن استخدام الصواني؟

- سنيوريتا، هكذا ناولني إياه سنيور "لوبيث".

ـ هيا، هيا، ضعه هناك واغرب عن وجهي.

يضع ساقي القهوة كل شيء على البيانو ثم ينصرف. "سيوانيه" يملأ الملعقة بالمسحوق، يعود برأسه إلى الوراء، يفتح فمه... وإلى الداخل. يمضغه كما لو كان جوزًا ثم يتبعه بشربة ماء.

- أشكركِ، دونيا "روسا".

ـ أرأيت يا رجل؟ ما أسهل أن يكون المرء مُهذَّبًا! أنت تعاني من آلام بالمعدة، فأطلب أنا منهم أن يحضروا لكَ "كربوناتو" ونبقى جميعًا أصدقاء! نحن هنا كي يساعد أحدنا الآخر، ولكننا لا نستطيع لأننا لا نرغب في ذلك. هكذا هي الحياة.

توقَّف الطفلان اللذان كانا يلعبان لعبة القطار فجأةً. يقول لهما سنيور إنه يجب التحلِّي بقدر أكبر من التهذيب والهدوء، فيما يتطلَّع إليه الطفلان في فضول، وهما لا يعرفان ماذا يفعلان بيديهما.

أكبرهما سنًّا، ويُدعَى "بِرنابيه" يفكِّر في جارٍ له في عمره تقريبًا، ويُدعَى "تشوس" أما أصغرهما سنًّا، ويُدعَى "پاكيتو" فيخطر له أن رائحة فم ذلك السنيور كريهة.

- رائحة فمه كرائحة المطاط العَفِن.

"بِرنابيه" يضحك حين يفكِّر في تلك الواقعة بالغة الطرافة التي جرت بين "تشوس" وعمته.

ـ "تشوس" أنت قذر ولا تبدِّل ملابسك الداخلية حتى تصبح بُنيَّة اللون. ألا تخجل من نفسك؟

يكتم "بِرنابيه" ضحكته لئلاَّ تثور ثائرة ذلك السنيور.

- كلا يا عمتي، لا أخجل من نفسي، فبابا أيضًا لا يبدِّل ملابسه الداخلية حتى تصبح بُنيَّة اللون.

كان الموقف مضحكًا حتى الموت!

ظلَّ "پاكيتو" مستغرقًا في التفكير برهة.

- كلا، رائحة فم ذلك السنيور ليست كالمطاط العَفِن، بل كرائحة الكرنب الأحمر والأقدام. لو كنتُ مكان ذلك السنيور لوضعت شمعًا ذائبًا في أنفي. وعندئذ كنتُ سأتكلَّم كالمزكوم شأن "إميليتا" الخنفاء ابنة عمتي - ابنة "عَبَّتي" التي يجب أن تخضع لعملية جراحية في الحلق. ماما تقول إن نظرة البلاهة البادية على وجهها سوف تزول بعد العملية، ولن تعود إلى النوم فاغرةً فاها. ربما قضت نحبها في أثناء العملية. عندئذ ستوضع في صندوق أبيض، لأن صدرها لم يبرز ولأنها لم تنتعل الكعب العالي بعد.

تراقب المرأتان المُحالتان على المعاش دونيا "پورا"؟ مُتّكئتين على الأريكة.

ما زالت خواطر الببغاوين بشأن عازف الكمان طافيةً في الهواء، وكأنها فقاعات شاردة.

- كيف يُعقل أن تكون هناك نساء كتلك، أنا لا أدري! إنها أشبه بالضفدع. تقضي يومها كاملاً في النميمة على الجميع، ولا تنتبه إلى أن زوجها لا يطيقها سوى لأنها ما زالت تمتلك بعض النقود. إن ذلك المدعو دون "پابلو" محتال، رجل يجدر توخّي الحذر في التعامل معه. يحملق في الواحدة فيبدو وكأنه يجرّدها من ثيابها بعينيه.

- فعلاً، فعلاً.

- وتلك المدعوة "إلبيرا" فهي الأخرى وقحة لا تستحي. أقصد أنها لا تشبه صغيرتكِ "پاكيتا" في شيء، فابنتك تعيش حياةً شريفة على الرغم من كل شيء، حتى وإن لم تكُن أوراقها سليمة. أما تلك فهي تحوم حول المكان كالنحلة، تمتصُّ مالَ من وقعت عليه، أيًا كان، حتى تأكل بها الرديء من الطعام.

- دونيا "ماتيلديه"، علاوةً على ذلك، لا يمكنكِ أن تقارني بين ذلك الصعلوك المدعو دون "پابلو" وبين حبيب ابنتي، فهو أستاذ علم نفس ومنطق وأخلاق في الجامعة، ورجل نبيل بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ.

- لن أفعل بطبيعة الحال. حبيب ابنتك يحترمها ويسعدها، كما أن "پاكيتا" حسنة المظهر ولطيفة وجديرة بالحب. أما أولئك الموسات فلا ضمير لهن، ولا يُجِدْنَ فعل شيء سوى فتح أفواههن كي يطلبن المزيد. ليتهن يستحين!

ـ ٤٠ ـ

دونيا "روسا" تتابع حديثها مع العازفين. بدينة، ممتلئة، يرتجف بدنها المنتفخ من اللذَّة وهي تخطب، تبدو وكأنها عمدة مدينة.

- هل أنت تمرٍّ بضائقة؟ أخبرني إذن، وإن استطعت سوف أساعدك على الخروج من الضائقة. هل تعمل بجدٍّ وتعتلي المنصة وتعزف كما قال الكتاب؟ إذن، فما إن تحين ساعة إغلاق المقهى حتى أعطيك أجرك بنفسي، والسلام. ليس هناك أفضل من العلاقة الطيبة! لماذا تظن أنني أخوض حربًا شعواء ضد زوج أختي؟ لأنه صعلوك، يبحث عن اللهو أربعًا وعشرين ساعة في اليوم، ثم يعود إلى البيت ليجد كل شيء جاهزًا. أما أختي البلهاء التي تتحمَّله، فالمسكينة كانت على تلك الحال دومًا. آه، لو كنتُ مكانها! من أجل سواد عينيه كنت سأسمح له بقضاء يومه كاملاً في الإحماء مع الخادمات، حتى يعود بعد ذلك إلى البيت ليفرغ حمولته فوق زوجته المصون، بالطبع! هذا ما كان ينقصني! لو كان زوج أختي يعمل كما أعمل أنا، لو كان يمدُّ يد العون ويعود إلى البيت بشيء، لاختلف الأمر. إلا أن الرجل يفضِّل الضحك على "بيسي" الساذجة بمعسول الكلام والتمسُّك بالحياة المرفهة من دون أن يحرِّك ساكنًا.

- طبعًا، طبعًا.

- فعلاً. إن صاحبنا صعلوك عديم التربية، وُلد ليكون قوَّادًا. ولا تحسبني أقول ذلك من وراء ظهره، فمنذ أيام رشقته بالكلام نفسه في أمِّ رأسه.

- أحسنت صنعًا.

- بالطبع أحسنتُ صنعًا. من يخالنا ذلك الجوعان؟

ـ ٤١ ـ

ـ "پاديًّا"، أهذه الساعة مضبوطة؟

- أجل، سنيوريتا "إلبيرا".

ـ هلا أشعلت سيجارتي؟ ما زال الوقت مبكِّرًا.

بائع التبغ يشعل سيجارة سنيوريتا "إلبيرا".

ـ تبدين مسرورة، سنيوريتا.

- أتظنُّ ذلك؟

- أعني، يبدو لي ذلك. أرى أن روحكِ المعنوية مرتفعة مقارنةً بها في أمسيات أخرى.

- ممم! ليس كل ما يبرق ذهبًا.

يوحي مظهر سنيوريتا "إلبيرا" بالضعف، بالمرض، وبما يشبه الرذيلة. غير أن المسكينة لا تنال ما يكفي من الطعام كي تكون لها سمة الرذيلة أو الفضيلة.

ـ ٤٢ ـ

تقول المرأة الثكلى التي كان ابنها يستعدُّ لاختبار قبول لشغل وظيفة لدى البريد قبل وفاته:

- حسنًا، أنا ذاهبة.

دون "خايميه أرثيه" يهبُّ واقفًا بإجلال، فيما يقول باسمًا:

- خادمكِ المطيع، سنيورا. إلى اللقاء غدًا بمشيئة الرب.

السنيورا تزيح مقعدها.

- وداعًا، فلتصحبك السلامة.

- وأنتِ أيضًا، سنيورا. أنا رهن إشارتك.

دونيا "إيسابيل مونتيس" أرملة "سانث" تسير كملكة مُتوَّجة، برداء بالٍ، لسان حاله يقول: "أريد ولكني لا أستطيع" رداء بالٍ يجعل دونيا "إيسابيل" تبدو كفتاة هوى فاخرة استُهلكَت عن آخرها، عاشت حياتها كالجندب الذي آثر الغناء على العمل(*)، ولم تدَّخر شيئًا لحين يتقدَّم بها العمر. تعبر

(*) إشارة إلى خرافة "الجندب والنملة" الشهيرة، التي نُسِبَت في الأصل إلى الإغريقي "إيسوب" (٦٠٠ ق.م.ـ ٥٦٤ ق.م) ثم أعاد كتابتها الكاتب الفرنسي "لافونتين" (١٦٢١ ـ ١٦٩٥).

الصالون في صمت وتنسلُّ عبر الباب. يتابعها الناس بنظرة قد تحمِل كل شيء إلا عدم الاكتراث: قد تحمِل الإعجاب، أو الحسد، أو الودّ، أو الارتياب، أو الحنان، من يدري!

دون "خايميه أرثيه" لم يعُد يفكر لا في المرايا ولا في العجائز المحتشمات، ولا في مرضى السل بالمقهى (قرابة عشرة بالمائة من الموجودين)، ولا فيمن يبرون الأقلام الرصاص، ولا في الدورة الدموية. ففي الساعة الأخيرة من المساء، يجتاح دون "خايميه أرثيه" نعاسٌ يثقل رأسه.

- ما حاصل ضرب سبعة في أربعة؟ ثمانية وعشرون. وستة في تسعة؟ أربعة وخمسون. والجذر التربيعي للعدد تسعة؟ واحد وثمانون. أين ينبع نهر "إبرو"؟ في "رينوسا"؟ بمقاطعة "سانتاندير". أحسنت.

دون "خايميه أرثيه" يبتسم راضيًا عن تلك المراجعة، وفيما هو يحلُّ بضعة أعقاب سجائر، يردِّد بصوت خفيض:

- "أتاولفو"، "سيخيريكو" "واليا"، "تيودوريدو"، "توريسموندو"(*)... أتحدَّى إن كان ذلك الأحمق يعرفهم!

وبذلك الأحمق يعني الشاعر الشاب الذي خرج الآن شاحبًا بلون الكلس، بعد الراحة العلاجية التي قضاها في دورة المياه.

- وفي قَلْبِ المياه، تَنْسَلُّ خُيُوطُ صَيْفِ الأزْهَار...

- ٤٣ -

مُتَّشحة بالسواد، لا أحد يدري لماذا، منذ طفولتها تقريبًا، منذ أعوام طوال خلَتْ. قذرة، ولديها فائض من الألماس تُقدَّر قيمته بثروة طائلة. دونيا "روسا" تسمن شيئًا فشيئًا، كل عام، بالعجلة نفسها الذي تكدِّس بها النقود تقريبًا.

(*) من ملوك القوط. من الجدير بالذكر أن حفظ أسماء ملوك القوط عن ظهر قلب كان إلزاميًا على طلاب المدارس في تلك الحقبة.

دونيا "روسا" امرأة بالغة الثراء. فالبيت حيث يقوم المقهى ملك لها، وفي شوارع "أپوداكا" و"تشورّوكا" و"كامپوامور" و"فوينكارَّال" ترتعد فرائص العشرات من المستأجرين كتلاميذ المدارس في الأول من كل شهر.

من عادتها أن تقول:

- ما إن تثق الواحدة بهم حتى يستغلُّوها. ليسوا بأكثر من صعاليك، صعاليك بحق. لولا القضاء الشريف، لا أعرف ماذا كانت الواحدة منا ستفعل!

دونيا "روسا" لها أفكارها التي تخصُّها حول الشرف.

- الحسابات الواضحة، يا بنيّ، الحسابات الواضحة، ذلك أمر في غاية الجدية.

لم تسامح أحدًا في ريال واحد قط، ولم تسمح بأن يدفع لها أحد بالتقسيط قط. كانت تقول:

- وما نفع أحكام الإخلاء؟ هل نفعها ألاَّ يُنفَّذ القانون؟ في اعتقادي أن القانون قد وُضِع كي يحترمه الجميع، وأنا أولهم. وإلا فهي الثورة إذن!

دونيا "روسا" تمتلك أسهمًا في أحد البنوك، حيث تُفقِد جميع أعضاء مجلس الإدارة صوابهم. ووفقًا لما يُشاع عنها في الحي، فهي تحتفظ بصناديق ملؤها ذهب، مخفية عن الأنظار بإتقان إلى حد لم يُعثر معه للصناديق على أثر، ولا حتى إبان الحرب الأهلية.

ـ ٤٤ ـ

فرغ ماسح الأحذية من تنظيف حذاء دون "ليوناردو".

ـ في خدمتك.

دون "ليوناردو" ينظر إلى الحذاء ويناوله سيجارة "توبينتا".

ـ شكرًا جزيلاً.

دون "ليوناردو" لا يدفع نظير الخدمة، لا يدفع نظير الخدمة أبدًا. بل يتركه ينظِّف حذاءه مقابل لفتة. دون "ليوناردو" من الخِسَّة بحيث يثير موجات من الإعجاب بين المُغفَّلين.

كلما لَمَّع ماسح الأحذية حذاء دون "ليوناردو" يتذكَّر الستة آلاف "دورو" الخاصة به. في دخيلة نفسه، يشعر بسعادة جارفة كونه قد استطاع أن يُخرِجَ دون "ليوناردو" من ضائقة، أما فيما يظهر فهو يُبدي من التبرُّم القليل، أو لا شيء تقريبًا.

- السادة هم السادة، ذلك شيء أوضح من الشمس. أما الآن فقد اختلط الحابل بالنابل. وعلى الرغم من ذلك، فمن وُلِد سنيور يُمكن تمييزه في الحال.

لو كان "سيجوندو سيجورا" ماسح الأحذية مُثقَّفًا، لأصبح من قُرَّاء الكاتب "خوان باثكيث مِيًّا"(*) بلا أدنى شك.

ـ ٤٥ ـ

"ألفونسيتو" صبي المشاوير، يعود من الشارع حاملاً الجرائد.

- أخبرني أيها الظريف، إلى أين ذهبت لشراء الجرائد؟

"ألفونسيتو" طفل ضئيل الجسم، يبلغ من العمر اثني عشر أو ثلاثة عشر عامًا، له شعر أشقر ويسعل بلا توقف. توفِّي أبوه، الذي كان يعمل صحافيًّا، منذ عامين في مستشفى "إل راي" في حين أصبحت أمه تنظِّف بعض المكاتب بـ "جران بيا" وتأكل في "جمعية الإعانة الاجتماعية" بعد أن كانت سنيوريتا كثيرة التأنُّق قبل الزواج.

- كان هناك طابور، سنيوريتا.

- طابور، طبعًا، فقد أصبح الناس يصطفُّون من أجل شراء الجرائد، وكأنما ليس لديهم ما هو أكثر أهمية لعمله. هيا، ناولني الجريدة!

(*) "خوان باثكيث دي مِيًّا" (١٨٦١ ـ ١٩٢٨): أحد كُتَّاب الحركة التقليدية في إسبانيا، فضلاً عن كونه سياسيًّا ومُنظِّرًا بارزًا من مُنظِّري نظام "فرانكو".

- سنيوريتا، لقد نفدت جريدة "إنفورماثيونيس" فأحضرتُ لكِ جريدة "مدريد".

- سيَّان، فبالكاد يُمكن استخلاص أي شيء منهما! "سيوانيه" هل تفهم شيئًا من أمر كل تلك الحكومات المتفكِّكة في العالم؟

- ممم!

- كلا يا رجل، كلا. لا داعي للحديث على مضض. لا تتكلَّم ما لم ترِد. ما كل هذا الغموض!

"سيوانيه" يبتسم وعلى وجهه أمارات مرارة تليق بمريض يشعر بألم في المعدة، ويلزم الصمت، فما جدوى الحديث؟

- أنا أعلم جيدًا ما يجري هنا، والدافع وراء كل هذا الصمت والابتسام، أعلمُ تمام العلم... ألا تريدون الاقتناع بما أقول؟ أنتم أحرار! أقول لكم إن الأفعال تتحدَّث عن نفسها، وأيُّ حديث!

"ألفونسيتو" يوزِّع "مدريد" على بعض الطاولات.

يُبرز دون "پابلو" بعض الفكة.

- هل من جديد؟

- لا أدري، سترى بنفسك.

دون "پابلو" يبسط الجريدة فوق الطاولة ويطالع العناوين. بينما يحاول "پيپيه" الاطِّلاع على مجريات الأمور من فوق كتفه.

سنيوريتا "إلبيرا" تشير إلى الصبي.

- أعطني الجريدة الخاصة بالمقهى عندما تفرغ منها دونيا "روسا".

دونيا "ماتيلديه" تثرثر مع بائع التبغ، في حين ذهبت صديقتها دونيا "أسونثيون" إلى دورة المياه، فتقول مُعقِّبةً في ازدراء:

- أنا لا أعرف لماذا يرغبون في الاطِّلاع على كل ما يجري إلى هذا الحد، ما دمنا في سلام هنا! ألا توافقني الرأي؟

- أوافقك الرأي.

دونيا "روسا" تقرأ أخبار الحرب.

- يبدو لي أنهم تقهقروا كثيرًا... ولكن، لو وضعوا الأمور في نصابها في النهاية! "ماكاريو" هل تظنّ أنهم سيضعون الأمور في نصابها في النهاية؟

تبدو على عازف البيانو أمارات الشك.

- لا أدري، ربما... لو اخترعوا شيئًا فعّالاً!

دونيا "روسا" تحدق في مفاتيح البيانو. يوحي مظهرها بالحزن والشرود، تتحدّث إلى نفسها وكأنها تفكّر بصوت مسموع.

- كل ما هنالك أن الألمان - وهم فرسان كما قال الكتاب - قد وثقوا أكثر مما ينبغي بأولئك الإيطاليين - الأشدّ جُبنًا من الخراف- لا أكثر!

يتردَّد صوتها قاتمًا، أما عيناها فتبدوان خلف عدستي النظارة مُلبدّتين، شبه حالمتين.

- لو التقيتُ بـ "هتلر" لقلتُ له: "لا تثقْ بهم، ولا تكُن مُغفَّلاً، فأولئك جبناء ترتعد فرائصهم من الخوف!".

تندُّ عن دونيا "روسا" تنهيدة خفيفة.

- يا لي من بلهاء! فما كنت أجرؤ حتى على رفع صوتي أمام "هتلر"...

دونيا "روسا" قلِقة بشأن مصير القوات المُسلَّحة الألمانية. تقرأ بكل ما تملك من انتباه، يومًا بيوم، البيان الصادر عن مقر "الفوهرر" الرئيس، وتربط بين مصير قوات "الفيرماخت" النازية ومصير مقهاها عبر سلسلة من التوجسات المبهمة التي لا تجرؤ على محاولة تبيُّنها بوضوح.

"بيجا" يشتري الجريدة. يسأله جاره:

- أخبار سارة؟

"بيجا" من أنصار المذهب الانتقائي.

- هذا يتوقَّف على المُتلقِّي.

ما زال ساقي القهوة يقول "أنا قادم!" ويجرجر قدميه على أرضية المقهى.

- لو وقفتُ وجهًا لوجه أمام "هتلر" لمادت بي الأرض من فرط الرهبة. لا بد أنه رجل يبثُّ رهبة عظيمة في النفوس. تطلُّ من عينيه نظرة نمر.

دونيا "روسا" تعاود التنهُّد. صدرُها الهائل يغطِّي عنقَها لبضع لحظات.

- "هتلر" والبابا(*)، أعتقد أنهما الأكثر إشاعةً للرهبة في النفوس.

دونيا "روسا" تنقر على غطاء البيانو بأصابعها نقرة خفيفة.

- وعلى الرغم من كل شيء، فهو أدرى بما يفعل، وإلا فما نفع چنرالاته!

دونيا "روسا" تُطرق لوهلة وتبدِّل صوتها:

- حسنًا!

ثم ترفع رأسها وتنظر إلى »سيوانيه:«

ـ كيف حال زوجتك الآن؟

- تتحسَّن شيئًا فشيئًا. اليوم يبدو أنها أفضل حالاً بقليل.

- مسكينة "سونسوليس" ما أطيبها من امرأة!

- أجل، ولكنها تمرُّ بفترة عصيبة في حقيقة الأمر.

- هل أعطيتَها القطرات التي أوصاك بها دون "فرانثيسكو"؟

ـ أجل، وقد وضَعَتْها بالفعل. المشكلة أنه لا شيء يبقى في معدتها، فهي تتقيَّأ كل ما تتناوله.

- يا إلهي!

(*) إشارة إلى البابا "بيوس الثاني عشر"(١٨٧٦ ـ ١٩٥٨): رأس الكنيسة الكاثوليكية ما بين عامي ١٩٣٩و١٩٥٨ .عُرِف بتسامحه مع ألمانيا النازية وتأييده لنظام "فرانكو" في إسبانيا.

"ماكاريو" ينقر بنعومة على مفاتيح البيانو في حين يلتقط "سيوانيه" الكمان.

- ماذا نعزف الآن؟

- "مهرجان..."،(*) ما رأيك؟

- هيا بنا.

دونيا "روسا" تنصرف عن المنصة، أما عازف الكمان وعازف البيانو، فبلفتة إذعان تليق بتلميذين في المدرسة، يشقَّان جلبة المقهى بالإيقاعات العتيقة نفسها، التي طالما ترددت - آهٍ، يا إلهي! - مرارًا وتكرارًا.

"إلى أين أنتِ ذاهبة بوشاح "مانيلا"،

إلى أين أنتِ ذاهبة بثوبكِ المُلوَّن؟"

يعزفان بلا نوتة موسيقية. فلا حاجة بهما إليها.

أما "ماكاريو" الذي يعزف كالماكينات، فيدور بخلده:

- وعندئذ سأقول لها: »اسمعي يا امرأة، ليس هناك ما يُمكن عمله، فبـ "دورو" واحد في الصباح وآخر في المساء وفنجانين قهوة، أخبريني ماذا يُمكن عمله!" أما هي، فأغلب الظن أنها ستجيبني قائلة: "لا تكُن ساذجًا، سترى بنفسك، فبالاثنين "دورو" اللذين تجنيهما، بالإضافة إلى ما أجنيه من بعض الدروس..." بالتأمُّل مليًا، "ماتيلديه" كالملائكة، كالملائكة بحق.

"ماكاريو" يبتسم في دخيلة نفسه، أما فيما يظهر، فيكاد، يكاد يبتسم. "ماكاريو" عاطفي يعاني من سوء تغذية، أتمَّ عامه الثالث والأربعين تلك الأيام.

(*) أوبريت "ثارثويلا" بعنوان "مهرجان عذراء الحَمَام" من تلحين الموسيقار "توماس بريتون" (١٨٥٠ - ١٩٢٣) عُرِض لأول مرة عام ١٨٩٤.

"سيوانيه" ينظر إلى زبائن المقهى نظرةً مبهمة، لا يفكِّر في شيء. "سيوانيه" رجل يؤثر ألا يفكِّر. لا يريد سوى أن يمرَّ اليوم سريعًا، بأسرع ما يمكن، فضلاً عن شيء آخر.

ـ ٤٦ ـ

تدقُّ الساعة القديمة ذات الأرقام الدقيقة التي تبرق وكأنها من الذهب، معلنة التاسعة ونصف. والساعة عبارة عن قطعة أثاث شبه فاخرة جلبها ماركيز شاب من معرض باريس، ماركيز طائش ومفلس كان يتودَّد إلى دونيا «روسا «فيما مضى، عام ١٩٠٥ على وجه التقريب. الماركيز الشاب، الذي كان من نبلاء إسبانيا ويُدعَى "سانتياجو" توفِّي بداء السل في "إسكوريال" وهو في أوج شبابه لم يزَل. أما الساعة فظلَّت مُعلقَّة فوق بار المقهى، وكأنها ذكرى ساعات مضَتْ ولم تجلب لدونيا "روسا" رجلاً، أو تقدِّم الطعام الساخن للميِّت يومًا. إنها الحياة!

على الطرف الآخر من المكان، تنتهر دونيا "روسا" نادلاً وهي في ثورة عارمة. وفي المرايا يراقب باقي النُّدُل المشهدَ بما يشبه الخيانة، بما يشبه اللامبالاة.

ـ ٤٧ ـ

قبل مرور نصف ساعة سوف يخلو المقهى، مثله كمثل رجل انطمست ذاكرته بغتةً.



الفصل الثاني

ـ ٤٨ ـ

ـ هيا، اغرب عن وجهي.

- وداعًا، وشكرًا جزيلاً. ذلك لطف بالغ منك.

- عفوًا. والآن انصرف، فلا نريد رؤيتك مرة أخرى هنا.

النادل يحاول أن يتحدَّث بنبرة جادة، بنبرة توحي بالاحترام. بَيْد أن له لكنة "جاليثية" ثقيلة تُجرِّد كلماته من العنف والسطوة وتصبغ جديَّته بصبغة عذبة.

حين يُدفَع بالودعاء من الرجال إلى الجفاء، تختلج شفاههم العليا قليلاً، حتى ليبدو وكأن ذبابة خفية تحتكُّ بها.

- إن شئت، تركت لك الكتاب.

- كلا، خذه معك.

"مارتين ماركو" شاحبًا، هزيلاً، بسرواله المهترئ وسترته البالية، يودِّع النادل رافعًا يده إلى حافة قبعته الرمادية الحزينة المُشحَّمة.

- وداعًا، وشكرًا جزيلاً. ذلك لطف بالغ منك.

- عفوًا. والآن انصرف. ولا تقرب هذا المكان مرة أخرى.

"مارتين ماركو" ينظر إلى النادل، يودُّ لو قال قولاً بديعًا.

- سوف تجد فيَّ لكَ صديقًا.

- حسنًا.

- سوف أردُّ لكَ الجميل.

"مارتين ماركو" يصلح من وضع نظارته ذات الإطار المعدني ويشرع في السير. إلى جواره تمرُّ فتاة يبدو وجهها مألوفًا له.

- أهلاً.

تنظر إليه الفتاة لثانية ثم تتابع سيرها. الفتاة في مقتبل العمر، جذابة جدًا. تفتقر إلى الأناقة. لا بد أنها صانعة قبعات، فلصانعات القبعات جميعًا مظهر يكاد يكون مُميَّزًا. وكما أن المرضعات الممتازات عادةً ما يَكُنَّ من بلدة "پاسييجيريا" والطاهيات الماهرات عادةً ما يَكُنَّ من "بيسكايا" فالعاشقات الرائعات، اللائي يتسنَّى لهن التأنُّق ويمكن اصطحابهن إلى أي مكان، عادةً ما يكُنَّ صانعات قبعات.

"مارتين ماركو" يسير عبر الجادة سيرًا وئيدًا، صوب "سانتا باربارا".

النادل يقف لبرهة على الرصيف قبل أن يدفع الباب.

- ليس معه ريال واحد!

يمرُّ الناس على عجل، وقد أحكموا وضع معاطفهم، هربًا من البرد.

"مارتين ماركو" الرجل الذي لم يدفع حساب القهوة ويرنو إلى المدينة كطفل مريض عرضة للمضايقة، يدسُّ يديه في جيبي السروال.

تسطع أنوار الميدان ببريق جارح، يكاد يكون عدائيًا.

دون "روبرتو جونثاليث" يتحدَّث إلى مُستخدِمه رافعًا رأسه عن دفتر الحسابات السميك.

– هل تمانع لو تقاضيتُ ثلاثة "دورو" تحت الحساب؟ فغدًا عيد ميلاد زوجتي.

المُستخدِم رجل كريم الأصل، رجل شريف، يتاجر في السوق السوداء شأن كل من هبَّ ودبَّ، وإن كان رجلاً ليِّن الطباع.

– لا مانع يا رجل. وما الفارق عندي؟

– شكرًا جزيلاً، سنيور "رامون".

يُبرز مالك المخبز من جيبه حافظةً سميكة من جلد العجل ويناول دون "روبرتو" خمسة "دورو".

ـ "جونثاليث"، أنا سعيد جدًا بالعمل معك. حسابات المخبز تسير على أحسن وجه. اشترِ بالاثنين "دورو" الإضافيين شيئًا بسيطًا للأطفال.

سنيور "رامون" يطرق لوهلة، يحكُّ رأسه، ويخفض صوته قائلاً:

– لا تقُل شيئًا لـ "پاولينا".

ـ اطمئن.

سنيور "رامون" يحدق في طرف حذائه الجلدي.

– ليس ذلك شيئًا ذا بال، أتعرف ماذا أقصد؟ أنا أعرف أنك رجل كتوم لا ينفلت لسانه، ولكن ربما بدر منك شيء عَرَضًا، وعندئذ سوف نسمع ما لا يسرُّنا طيلة أسبوعين! كما تعلم، أنا الآمر الناهي هنا، ولكنك تعرف النساء...

– اطمئن، وشكرًا جزيلاً. لن أقول شيئًا، مراعاةً لمصلحتي الشخصية.

دون "روبرتو" يخفض صوته قائلاً:

– شكرًا جزيلاً...

– لا شكر على واجب. إن ما أريده منك أن تكون سعيدًا في عملك.

تمسُّ كلمات مالك المخبز نَفْسَ دون "روبرتو". لو كان مالك المخبز يُغدق عليه بكلماته الودودة، لعمل لديه محاسبًا من دون مقابل.

سنيور "رامون" يبلغ من العمر خمسين أو اثنين وخمسين عامًا تقريبًا، وهو رجل متين البنية، له شارب وبشرة مُتورِّدة، رجل صحيح معافى، قلبًا وقالبًا، يعيش حياةً أمينة، حياة حِرَفيّ عجوز، يصحو عند مطلع الفجر، ويحتسي النبيذ الأحمر، ويقرصُ الخادمات في مؤخراتهن. عندما جاء إلى مدريد في مطلع القرن، أتى حاملاً حذاءه الجلدي على عاتقه لئلا يتلفه.

سيرته الذاتية لا تزيد على خمسة أسطر. جاء إلى العاصمة في الثامنة أو العاشرة من العمر، التحق بالعمل في مخبز وظلَّ يدَّخر حتى بلغ الحادية والعشرين، وعندئذ التحق بالخدمة العسكرية. منذ وصوله إلى المدينة حتى رحيله عنها لم ينفق "سنتًا" واحدًا، بل ادَّخر كل شيء. كان الخبز طعامه والماء شرابه. كان ينام أسفل طاولة العرض، ولم يقرب امرأة قط. عندما ذهب لخدمة الملك أودع نقوده في حساب لدى البريد، وبانقضاء فترة الخدمة، سحب نقوده واشترى مخبزًا. على مدار اثني عشر عامًا ادَّخر أربعة وعشرين ألف ريال، كل ما جناه من نقود: أي ما يزيد قليلاً على "بيسيتا" واحدة يوميًا في المتوسط. وخلال الخدمة العسكرية تعلَّم القراءة والكتابة والحساب، وفقد براءته. افتتح المخبز، تزوَّج، أنجب اثني عشر ابنًا، ثم اشترى نتيجة وجلس يراقب الوقت يمرُّ أمام عينيه. لا بد أن الآباء القدامى كانوا يشبهون سنيور "رامون" إلى حد كبير.

ـ ٥٠ ـ

النادل يدلف إلى المقهى. يشعر فجأةً بحرارة تلفح وجهه، وبرغبة في أن يسعل، سعالاً خفيفًا بالأحرى، وكأنما لينتزعَ ذلك البلغم الذي ألقى به بردُ الشارع في حلقه. بعد ذلك يصير الحديث أيسر فيما يبدو. عند دخوله إلى المقهى لاحظ أن صدغيه يؤلمانه قليلاً، كما لاحظ بريقًا شهوانيًا يختلج على شارب دونيا "روسا" أو هكذا خُيِّل إليه.

- اسمع، تعالَ إلى هنا.

يقترب النادل منها.

- هل ركلته؟

- أجل، سنيوريتا.

- كم مرة؟

- مرتين.

- في أي موضع؟

- حيثما تسنَّى لي، في ساقيه.

- أحسنت صنعًا! يستحقُّ ذلك عن كونه لصًّا!

تسري قشعريرة في عموده الفقري. لو كان النادل رجلاً مقدامًا لكتم أنفاس مالكة المقهى، ولكنه ليس كذلك من حسن الحظ. تندُّ عن مالكة المقهى ضحكة قصيرة قاسية، بصوت خفيض. فمِنَ الناس مَنْ يتسلَّى بمشاهدة الآخرين في المصائب. وفي سبيل رؤيتها عن كثب، يعكفون على زيارة الأحياء البائسة، وتقديم أغراض بالية على اعتبارها هدايا لمن يعانون سكرات الموت، لمرضى السل المكوَّمين تحت أغطية رَثَّة، للأطفال مرضى الأنيميا من ذوي البطون المنتفخة والعظام اللينة، للصبايا اللائي أصبحن أمهات في الحادية عشرة من العمر، للعاهرات الأربعينيات اللائي تأكل أجسادهن البثور، العاهرات اللائي يشبهن زعماء قبائل الهنود الحمر المرضى بالجرب. دونيا "روسا" لا ترقى حتى إلى تلك الفئة. دونيا "روسا" تؤثر الإحساس بالتشويق في محلِّ سكنها، تؤثر تلك الاختلاجة...

ـ ٥١ ـ

دون "روبرتو" يبتسم في رضا. كان الرجل يخشى أن يحلَّ عيد ميلاد زوجته وليس في جيبه ريال واحد. لو حدث لكان ذلك حظًا عاثرًا. يفكِّر بينه وبين نفسه:

- غدًا أُهدي "فيلو" بعض الشكولاتة. إن "فيلو" تشبه طفلاً، تشبه طفلاً صغيرًا، طفلاً في السادسة من عمره... وبالعشرة "پيسيتا" الإضافية سأشتري شيئًا بسيطًا للأطفال وأحتسي كأسًا من "الڤيرموت". لعلَّ أكثر ما يروق لهم أن أهديهم كرة... بستة "پيسيتا" يُمكن شراء كرة جيدة إلى حد كبير...

مضى دون "روبرتو" يفكِّر في بطء، بل وفي جذل. كان رأسه يفيض بالنوايا الحسنة وبنقاط الحذف...

عبر كوَّة المخبز الصغيرة، عبر الزجاج والأخشاب، تسلَّلت نغمات فلامنكو شوارع، لاذعة، حادة، ناشزة. في بادئ الأمر، ما كان المرء يعرف إن كان المُغنِّي امرأة أو طفلاً. بلغ الحفل الموسيقي مسامع دون "روبرتو" فيما هو يحكُّ شفتيه بغطاء القلم.

وعلى الرصيف المقابل، وقف طفل على باب إحدى الحانات، وقد بحَّ صوته:

"بائسٌ ذلك الذي يأكُل

الخُبْزَ من أيْدي الآخرين،

ناظرًا إلى الوَجْهِ أبدًا،

سواء أكان باديًا عليه الخَيْرُ أم الشَرّ".

يلقي إليه زبائن الحانة ببعض الفكة وثلاث أو أربع حبات زيتون، يلتقطها الطفل من الأرض في عجلة بالغة. الطفل مفعم بالحياة كما لو كان حشرة... ضئيل الجسد، تميل بشرته إلى السمرة. يسير حافيًا، عاري الصدر، ويوحي مظهره بأنه في السادسة من العمر تقريبًا. يغنِّي وحيدًا، فيما يصفِّق بكفيه تشجيعًا لنفسه، ويهزُّ مؤخرته الضئيلة على إيقاع الأغنية.

دون "روبرتو" يوصد كوَّة السقف ويبقى واقفًا على قدميه في منتصف الحجرة. خطر له أن ينادي الطفل ويعطيه ريالاً.

- كلا...

ما إن فرض دون "روبرتو" على نفسه حُسن التمييز، حتى عاد إليه التفاؤل.

- أجل، بعض الشكولاتة... "فيلو" تشبه طفلاً، تشبه...

وعلى الرغم من حيازته الخمسة "دورو" في جيبه، فلم يهنأ دون "روبرتو" براحة الضمير التامة.

- إن هي إلا رغبة في رؤية الجانب المظلم من الأمور، أليس كذلك، "روبرتو"؟

هكذا قال له صوت خافت، خَجِل، وثَّاب، نابع من صدره.

- حسنًا.

ـ ٥٢ ـ

"مارتين ماركو" يقف أمام واجهات متجر أدوات صحية في شارع "ساجاستا". يبرق وكأنه متجر لبيع الحلي والمجوهرات أو كوافير في فندق فخم. أما الأحواض فتبدو وكأنها أحواض من عالم آخر، أحواض من الفردوس، بما لها من صنابير برَّاقة، وخزف أملس، ومرايا صافية، بالغة النقاء. هناك أحواض بيضاء، أحواض خضراء، وردية، صفراء، بنفسجية، سوداء، أحواض بالألوان كافة... يا لها من خاطرة! هناك حمامات بديعة الجمال تبرق كسوارٍ من الماس، ومراحيض شطف لها لوحات تحكُّم كالسيارات، ومراحيض فارهة لها غطاءان وبطون منتفخة، وصناديق طرد أنيقة وخفيضة حيث يُمكن الاتِّكاء بالمرفق على الأرجح، بل ويُمكن وضع بعض الكتب المُختارة بعناية، والمُجلَّدة على نحو جميل: "فريدرش هولدرلين" و"چون كيتس" و"پول ڤاليري" للحالات التي يحتاج فيها الإمساك إلى رفقة، أما "روبِن داريو" و"ستيفان مالارميه" ولا سيما "ستيفان مالارميه" فلحالات الإسهال. يا للقرف!

"مارتين ماركو" يبتسم، وكأنما يغفر لنفسه ما بدر منها، ويسير مبتعدًا عن واجهة المتجر. يفكِّر:

– هكذا هي الحياة. بما ينفقه البعض لقضاء حاجتهم هانئين، يُمكن للبقية أن يحصلوا على كفايتهم من الطعام لمدة عام. لقد جاوز الأمر الحد! يجب أن تُشَنَّ الحروب للحدِّ من أعداد أولئك الناس الذين يقضون حاجتهم هانئين، ويتسنَّى للبقية أن يأكلوا أفضل قليلاً. السيئ في الأمر أن أحدًا لا يدري لماذا نأكل، نحن المُثقَّفين، الرديء من الطعام ونقضي حاجتنا في المقاهي حتى وقتنا هذا. يا إلهي!

"مارتين ماركو" قلِقٌ بشأن المشكلة الاجتماعية. ليست له أفكار واضحة فيما يتَّصل بأي شيء، ومع ذلك فهو قلِقٌ بشأن المشكلة الاجتماعية. أحيانًا يقول:

– إن وجود فقراء وأثرياء أمر سيئ، الأفضل أن نكون جميعًا سواء، لا بالغي الفقر ولا بالغي الثراء، بل متوسطي الحال جميعًا. لا بد من إصلاح البشرية. يجب تكليف لجنة من الحكماء يتعهَّدون بتغيير البشرية. فيتكفَّلون بأشياء صغيرة في بادئ الأمر، كتلقين الناس نظام القياس العشري، على سبيل المثال، وبعدِ الإحماء يباشرون الأمور الأكثر أهمية، بل وربما تسنَّى لهم أن يأمروا بهدم المدن لإعادة بنائها مرة أخرى، جميعها على حدٍّ سواء، بشوارع تامة الاستقامة ونظام تدفئة في كل بيت. ربما كانت التكلفة باهظة. ومع ذلك، فلا بد أن البنوك تمتلك ما يفيض عن حاجتها من النقود.

تهبُّ دفقة من البرد عبر شارع "مانويل سيلبيلا" أما "مارتين ماركو" فيداهمه الشك بأنه يفكِّر في ترهات.

– اللعنة على تلك الأحواض!

وفيما هو يعبر الطريق، يضطرُّ قائد دراجة لدفعه بعيدًا عنه.

– أيها الغافل، تبدو كالعاجز عن الحركة!

تدفَّقت الدماء إلى رأس "مارتين".

ـ اسمع، اسمع!

التفت قائد الدراجة ولوَّح إليه بيده أن وداعًا.

ـ ٥٣ ـ

ثمة رجل يسير عبر شارع "جويا" وهو يطالع الجريدة، نُدركه عند مروره من أمام مكتبة صغيرة لبيع الكتب المستعملة تُدعَى "غَذِّ روحك". يصادف في طريقه خادمة.

- أهلاً، سنيوريتو "پاكو"!

يلتفت الرجل.

- آه! أنتِ؟ إلى أين أنتِ ذاهبة؟

- أنا في طريقي إلى البيت، سنيوريتو، عائدة من زيارة أختي المتزوجة.

- حسنًا جدًا.

يحدق الرجل في عينيها.

- ماذا؟ هل أصبح لديكِ حبيب الآن؟ لا يُمكن لشابة مثلكِ أن تبقى بلا حبيب...

تضحك الفتاة مُقهقهةً.

- حسنًا، سأذهب، فأنا في عجلة بالغة من أمري.

- إذن، فإلى اللقاء يا فتاة، ولا تضلّي طريقكِ. اسمعي، إذا التقيتِ بسنيوريتو "مارتين" فأخبريه أنني سأمرُّ بحانة "نارڤايث" في الثانية عشرة.

- حسنًا.

تذهب الفتاة في حين يتابعها "پاكو" بنظراته إلى أن تغيب وسط الناس.

- تتهادى كالغزال...

"پاكو"، سنيوريتو "پاكو"، يرى سائر النساء جميلات، ولا يُعرَف إن كان شَبِقًا أم عاطفيًا. الفتاة التي ألقت عليه التحية لتوِّها جميلة حقًا، حتى لو لم تكُن جميلة لما بدَّل ذلك شيئًا: فكلهن ملكات جمال إسبانيا في نظر "پاكو".

ـ كالغزال...

يلتفت الرجل ويفكِّر على نحو مبهم في أمه التي توفيت منذ أعوام خلَتْ. كانت أمه تلفُّ عنقها بشريط أسود من الحرير لئلاّ يتدلَّى لُغدها. كانت من حسن المظهر بحيث تبدو عراقة نسبها في الحال. كان جد "پاكو" يحمل لقبي جنرال وماركيز، إلا أنه لقي حتفه خلال مبارزة بالمسدسات في "بورجوس" إذ قتله نائب تقدُّمي يُدعَى دون "إدموندو پايث پاتشيكو" رجل ماسوني ذو أفكار هدَّامة.

أما الفتاة فتبرز انحناءات جسدها أسفل المعطف القطني الخفيف، في حين يبدو حذاؤها مشوهًا قليلاً بالفعل. كانت لها عينان صافيتان، خضراوان، تميلان إلى اللون الكستنائي، وبهما ميل طفيف.

- "عائدة من زيارة أختي المتزوجة". هاها... أختها المتزوجة، أتذكر، "پاكو"؟

دون "إدموندو پايث پاتشيكو" توفِّي مريضًا بالجدري، في "ألمريَّه"، خلال عام الفاجعة.

الفتاة، خلال حديثها إلى "پاكو" جعلت تحدق في عينيه.

ثمة امرأة تستجدي الصدقات، وعلى ذراعها طفل مُلتحِف بأسمال بالية، وغجرية بدينة تبيع تذاكر اليانصيب، وأزواج من العشاق يتحابون في خضمّ البرد، في وجه الريح والعقبات، وقد تشابكت أذرعهم بإحكام، ينشدون الدفء يدًا بيد.

ـ ٥٤ ـ

"ثيليستينو" يكلِّم نفسه، مُحاطًا بالقوارير الخاوية في المخزن الخلفي بحانته. "ثيليستينو". يكلِّم نفسه أحيانًا. كانت أمه تسأله في شبابه:

- ماذا؟

- لا شيء، كنت أكلّم نفسي.

- آهٍ، يا إلهي، سوف يذهب عقلك يا بنيّ!

أم "ثيليستينو" لم تكُن سنيورا بقدر ما كانته أم "پاكو".

"ثيليستينو" يكلِّم نفسه:

- إذن، فلن أعطيها لهم، سوف أحطِّمهما إلى شظايا، ولكني لن أعطيها لهم. إما أن يدفعوا لي قيمتها الحقيقية وإما أن لا يحصلوا عليها، لا أريد أن يضحكوا عليَّ، لستُ في مزاج يسمح لي بذلك، لا أحد يسرقني! إن ذلك... ذلك هو استغلال التجار! إما أن يكون المرء صاحب إرادة وإما أن لا يكون. بالطبع! إما أن يكون المرء رجلاً وإما أن لا يكون. إذا أردتم سرقة الناس، فاذهبوا إلى "سييرًا مورينا" (*)!

"ثيليستينو" يُحكِم وضع طاقم أسنانه ويبصق على الأرض في غضب عارم.

- هذا ما كان ينقصنا!

ـ ٥٥ ـ

"مارتين ماركو" يتابع سيره، سرعان ما ينسى واقعة الدراجة.

- لو كانت مسألة بؤس المُثقَّفين قد خطرت لـ "پاكو" يا إلهي! ولكن كلا، فـ "پاكو" سخيف، لم يعُد يخطر له أي شيء. منذ أن أُطلِق سراحه وهو هائم على وجهه كالمُغفَّلين، لا يفعل شيئًا صائبًا. فيما مضى، كان ينظم شيئًا من الشعر، ولكن إلى أين وصلت به الحال الآن! لقد سئمت قولها، لن أقولها له مُجدَّدًا. فهو حر! لو كان يحسب أنه بالتسكع والخمول سوف يبقى بمأمن، فهو واهم.

(*) "سييرًا مورينا"سلسلة جبلية في جنوب إسبانيا، اشتهرت باللصوص وقطَّاع الطرق.

تسري في جسده قشعريرة فيشتري بعشرين "سنتًا" كستناء -أربع حبات كستناء - عند فوَّهة المترو، على ناصية شارع "الأخوين ألبارِث كينتيرو" (*) تلك الفوَّهة المفتوحة عن آخرها، كفوَّهة الجالس على كرسي طبيب الأسنان، التي تبدو مُخصَّصة لمرور السيارات والشاحنات من خلالها.

يتَّكئ على الدرابزين ليأكل حبات الكستناء، وعلى ضوء مصابيح الغاز يقرأ اللافتة التي تحمل اسم الشارع في شرود.

- أما هذان فقد ابتسم لهما الحظ حقًا. ها هما... شارع باسمهما في وسط المدينة، وتمثال في منتزه "إل ريتيرو". وبعد كل ذلك نضحك منهما!

أحيانًا تداهم »مارتين «نوبات مبهمة من الإجلال والنزعة إلى المحافظة.

- سُحقًا! لا بد أنهما قد أنجزا شيئًا يستحقان عنه كل الشهرة التي نالاها، ولكن، أجل، أجل! من يجرؤ على البوح بذلك؟

وكالعثَّة، تحلَّق في رأسه أعواد قشٍّ ما زال ضميره مُتعلِّقًا بها.

- بالطبع، كان ذلك عصر من عصور المسرح الإسباني... مرحلة عزما على تقديمها ونجحا في ذلك... مسرح يعكس صورة وافية للعادات الصحية الأندلسية... ومع ذلك، يبدو لي أن التكريم الذي لقيه الأخوان "ألبارِث كينتيرو" كان بدافع الإحسان، وكأنه حملة جمع تبرعات للصليب الأحمر! ولكن، ما العمل! ليس هناك من يزيحهما من مكانهما قيد أنملة. ها هما! لن يزيحهما من مكانهما ولا حتى الرب ذاته!

"مارتين" يستاء لعدم وجود صرامة في تصنيف القيم الفكرية، أو قائمة بالعقول النيِّرة.

- تساوى الجميع، واختلط الحابل بالنابل.

من بين حبات الكستناء، كانت هناك حبتان باردتان، وحبتان مُتوهِّجتان.

(*) "سيرافين ألبارِث كينتيرو"(١٨٧١ ـ ١٩٣٨) و "خواكين ألبارِث كينتيرو" (١٨٧٣ ـ ١٩٤٤): مؤلفا مسرحيات زجلية من مواليد "إشبيلية" نالا حظًّا وافرًا من الشهرة.

"پابلو ألونسو" فتى في مقتبل العمر، له مظهر رياضي يليق برجل أعمال عصري، وله حبيبة تُدعَى "لاوريتا" منذ خمسة عشر يومًا.

"لاوريتا" جميلة. هي ابنة حارسة عقار في شارع "لاجاسكا" وتبلغ من العمر تسعة عشر عامًا. قبل ذلك لم تكُن تملك "دورو" واحدًا لتنفقه على التسلية، ناهيك عن خمسين "دورو" كي تشتري لنفسها حقيبة يد. مع حبيبها، ساعي البريد، لم تكُن تذهب إلى أي مكان. "لاوريتا" سئمت من الإصابة بالبرد في "روساليس" إذ راح الشَّرَثُ ينتشر على أصابعها وأذنيها بكثافة. أما صديقتها "إستريًّا" فقد أسكنها سنيور يتاجر في الزيوت(*) بشقة في شارع "مينينديث پيلايو".

"پابلو ألونسو" يرفع رأسه.

- كأس "مانهاتن".

- ليس لدينا ويسكي أمريكي، سنيور.

- أخبرهم على البار أنه لي.

- حسنًا.

"پابلو" يأخذ بيد الفتاة مرة أخرى.

- كما قلتُ لكِ، عزيزتي "لاوريتا" إنه فتى عظيم، يستحيل أن يكون هناك من هو خيرٌ منه. كل ما هنالك أنه يبدو فقيرًا رثَّ الهيئة، قميصه قذر لم يبدِّله منذ شهر، وقدماه تبرزان خارج الحذاء.

- فتى مسكين! ألا يفعل شيئًا؟

- لا شيء. يُقلِّب أموره داخل رأسه، ولكنه لا يفعل شيئًا في نهاية المطاف. ذلك شيء مؤسف، فهو ليس أبله.

(*) كانت الزيوت أيضًا من السلع التي شهدت نقصًا حادًا، مما أدَّى إلى زيادة الإقبال عليها في السوق السوداء إلى حد كبير.

– ألديه مكان ينام فيه؟

– أجل، في بيتي.

– في بيتك؟

– أجل، طلبتُ وضع سرير له في حجرة تغيير الثياب، وهناك ينام. على الأقل يجد الدفء ولا يتعرَّض للمطر.

أما الفتاة، التي عرفَتِ البؤس عن كثب، فتحدق في عيني "پابلو". وفي دخيلة نفسها، تشعر بشيء من التأثُّر.

– ما أطيبك، "پابلو"!

ـ كلا أيتها الساذجة! فهو صديق قديم، من قبل أن تندلع الحرب. يمرُّ الآن بفترة عصيبة، ولكنه لم ينعم بوقت طيب قط في حقيقة الأمر.

– أهو خريج جامعي؟

"پابلو" يضحك.

– أجل يا فتاة، إنه خريج جامعي. هيا، دعينا نتحدَّث عن شيء آخر.

وعلى سبيل التغيير، عادت "لاوريتا" إلى الأسطوانة المشروخة نفسها التي بدأت منذ خمسة عشر يومًا.

– هل تحبُّني جدًّا؟

– جدًّا.

– أكثر من أي شخص سواي؟

– أكثر من أي شخص سواكِ.

– هل ستحبُّني دائمًا؟

– دائمًا.

– ألن تتركني أبدًا؟

- أبدًا.

- حتى وإن صرتُ قذرة شأن صديقك؟

- لا تتفوَّهي بترهات.

أما النادل، فبينما هو ينحني لوضع الطلبات على الطاولة، ابتسم قائلاً:

- كانت لا تزال في قنينة الويسكي بقية.

- أرأيت؟

ـ ٥٧ ـ

تلقَّى الطفل مُغنِّي الفلامنكو ركلةً من مومس مخمورة. ولم يُدْلِ أحد بشيء حول ما جرى، إن هو إلا تعقيب بيوريتاني وحيد:

- يا إلهي، أهذا وقت مناسب للسُّكر! وماذا تركْتَ لما بعد؟

لم يسقط الطفل على الأرض، بل ارتطم أنفه بالجدار، فنعت المرأةَ بثلاث أو أربع حقائق من على بُعدٍ. بعد ذلك تحسَّس وجهه قليلاً، ثم تابع المسير. وعند باب حانة أخرى عاود الغناء:

"كان خيَّاطٌ مُعلِّم

يصْنَعُ سِرْوالاً،

فمرَّ به صَبِيٌّ غَجَرِيٌّ

يَبيعُ الروبيان:

أنصِت، سَيِّدي الخيَّاط،

اجْعَلْ السِرْوال ضيِّقًا

حتى يَنْظُرَ إليَّ سائر السَّادَة

وأنا في القُدَّاسِ الإلَهِيِّ".

ليس للطفل وجه شخص، بل وجه حيوان منزلي، وجه بهيمة قذرة، بهيمة مزرعة، بهيمة مُنحلَّة. سنوات عمره قليلة للغاية حتى يكون الألم قد ترك ندبة التشاؤمية - أو الإذعان - على وجهه. على وجهه ارتسم تعبير جميل، ساذج، غبي، تعبير يوشي بأنه لا يدرك مما يجري شيئًا. كل ما يجري يُعدُّ بمثابة معجزة عند الغجري الصغير، الذي وُلد بمعجزة، ويأكل بمعجزة، ويعيش بمعجزة، ويمتلك القوى اللازمة للغناء بمحض معجزة.

الأيام تتلوها الليالي، والليالي تتلوها الأيام. العام مؤلَّف من فصول أربعة: الربيع، الصيف، الخريف، الشتاء. ثمة حقائق يشعر بها المرء في أعماق جسمه، شأن الجوع أو الرغبة في التبوُّل.

ـ ٥٨ ـ

سرعان ما انتهت حبات الكستناء الأربع، فذهب "مارتين" إلى شارع "جويا" بالريال المتبقي له.

- إننا نمضي في طريقنا عدوًا أسفل الجالسين فوق المراحيض جميعًا... محطة مترو "كولون" طبقة راقية، نُبلاء، كُتَّاب عدل وبعض حراس دار سكِّ النقود. ما أبعدهم... وهم يقرءون الجريدة أو يتطلَّعون إلى ثنايا بطونهم! محطة "سيرَّانو" سادة وسيِّدات. أما السيِّدات فلا يخرجن ليلاً. هذا حي يستمر فيه كل شيء حتى العاشرة مساءً. لعلَّ سكانه يتناولون العشاء الآن. محطة "بيلاثكيث: المزيد من السيدات، ما أحسن ذلك! هذه المحطة في منتهى الرقيّ. "أنذهب إلى الأوبرا"؟ حسنًا "هل ذهبت إلى سباق الخيل يوم الأحد؟" "كلا". محطة "جويا": وهنا ينتهي كل ما سبق.

"مارتين" يتظاهر بالعَرَج على رصيف المترو، أحيانًا ما يفعل ذلك.

- ربما تناولتُ العشاء في بيت "فيلو" (لا داعي للتدافع، سنيورا، فلسنا في عجلة من أمرنا!)، وإن لم يكُن، فأنا لا آبه البتة.

"فيلو" أخت "مارتين" وزوجة دون "روبرتو جونثاليث" (أو "جونثاليث البهيمة كما كان ينعته أخو زوجته)، الموظف في مجلس المدينة والجمهوري من أنصار "ألكالاه ثامورا" [1].

يقطن الزوجان "جونثاليث" في نهاية شارع "إيبيثا" في شقة صغيرة من تلك التي أنشئت بموجب قانون "سالمون" [2] يتدبَّران حالهما وإن يكُن بمشقَّة يتصبَّب لها عرق جبينهما غزيرًا. فهي تعمل إلى أن تسقط أرضًا من الإعياء، ولها خمسة أطفال صغار وخادمة في الثامنة عشرة من العمر للعناية بهم. أما هو فيعمل كل الساعات الإضافية الممكنة، وحيثما تسنَّى له أن يعمل. يحالفه الحظ في الفترة الحالية، إذ عُهِد إليه بحسابات متجر عطور حيث يذهب مرتين شهريًا يتقاضى عنهما خمسة "دورو" فضلاً عن حسابات مخبز على قدر من الأهمية بشارع "سان بِرناردو" حيث يتقاضى ثلاثين "بيسيتا" وفي أحيان أخرى، حين يوليه الحظ ظهره ولا يجد عملاً إضافيًا يؤدِّيه في ساعات الفراغ، يحزن دون "روبرتو" وينطوي على ذاته، كما يتعكَّر مزاجه.

الصهران لا يحتملان حتى رؤية أحدهما الآخر، بسبب من تلك الأمور التي تجري. فـ "مارتين" يقول إن دون "روبرتو" خنزير شَرِه، أما دون "روبرتو" فيقول إن "مارتين" خنزير نافِر عديم التهذيب. ومن يدري أيهما على حق! الأمر الوحيد المؤكَّد أن "فيلو" المسكينة، بين المطرقة والسندان، تقضي عمرها في ابتكار أفضل السبلِ الممكنة لتجاوز العاصفة.

عندما لا يكون زوجها في البيت تُعِدُّ لأخيها بيضة مقلية أو تسخِّن له قليلًا من القهوة بالحليب، أما حين لا يتسنَّى لها ذلك (لأن دون "روبرتو"، بخفَّيْه وسترته القديمة، كان سيقيم الدنيا ويقعدها وينعت "مارتين"

---

(١) "ألكالاه ثامورا" (١٨٧٧ ـ ١٩٤٩) سياسي إسباني ذو توجه ليبرالي. تولَّى الرئاسة بين عامي ١٩٣١و ١٩٣٦.

(٢) وحدات سكنية أُنشئَت لصالح العمال محدودي الدخل.

بالمُتطفِّل الخامل في تلك الحالة)، تحتفظ "فيلو" ببقايا الطعام في علبة كعك قديمة من الصفيح، ثم ترسلها إليه مع الخادمة التي تناوله العلبة في الشارع.

- أهذا من العدل، "بيتريتا"؟

ـ كلا، سنيوريتو. ليس من العدل.

- آهٍ يا فتاة! لولا أنكِ تُضفين على هذا الهراء قليلاً من العذوبة!

تتورَّد وجنتا "بيتريتا".

ـ هيا، ناولني العلبة فالبرد قارس.

- جميعنا نحسُّ بالبرد، أيتها البائسة!

- معذرةً...

"مارتين" يتجاوب معها في الحال:

- لا تلقي إليَّ بالاً. أتعرفين أنكِ قد أصبحت امرأة ناضجة بالفعل؟

- كفى، اسكت.

- سوف أسكت! أتعرفين ماذا كنت سأفعل بكِ لو لم أكُن ذا ضمير يقظ؟

- اسكت!

- كنت سأفزعُكِ!

- اسكت!

تصادف عدم وجود زوج "فيلو" في البيت يومئذ، فتناول "مارتين" بيضته المقلية واحتسى فنجان قهوته.

- ليس لدينا خبز، بل وعلينا أن نشتري القليل من الخبز في السوق السوداء للأطفال.

- كل شيء على ما يُرام هكذا، أشكركِ. "فيلو" ما أطيبك، أنتِ قديسة حقيقية.

- لا تكُن ساذجًا.

تلبَّدت نظرات "مارتين" بالغيوم.

- أجل، قديسة. ولكنكِ قديسة متزوجة من رجل بائس. "فيلو"، زوجك رجل بائس.

- اسكت، بل إنه رجل شريف بحق.

- أنتِ حرة. رغم كل شيء، فقد أنجبتِ منه خمسة صغار.

تمرُّ لحظات صمت. وعلى الجانب الآخر من البيت يُسمَع صوت خافت لطفل يتلو الصلاة.

"فيلو" تبتسم.

- إنه "خابييرين" الصغير. "مارتين"، هل معك نقود؟

- كلا.

- إليك اثنين "بيسيتا".

- كلا. وما الجدوى؟ ما يُمكن عمله باثنين "بيسيتا"؟

- أنت مُحقّ. ولكن كما تعرف، من جاد بكل ما يملك...

- أعرف.

- ٥٩ -

- "لاوريتا"، هل طلبتِ الثياب كما قلتُ لكِ؟

- أجل، "پابلو" المعطف يلائمني جدًا، سترى كم أعجبك حين أرتديه.

"پابلو ألونسو" يبتسم ابتسامة ثور وديع، ابتسامة رجل يفوز بالنساء بحافظة نقوده وليس بقسمات وجهه.

- لا شك عندي في ذلك... "لاوريتا"، عليك أن تتدثري بالثقيل من الثياب في هذه الفترة من العام. فمن الممكن أن ترتدي النساء ثيابًا أنيقة وثقيلة في آن.

- بالطبع.

- لا تناقض بين الأمرين. يبدو لي أنكن ترتدين ثيابًا أخفّ مما ينبغي. وماذا لو أنكِ مرضتِ الآن!

- كلا، "پابلو". ليس الآن. فالآن يجب عليَّ الاعتناء بنفسي كثيرًا حتى يتسنَّى لنا أن نسعد كثيرًا معًا...

"پابلو" يسمح لها بأن تحبَّه.

- وددتُ لو كنتُ أجمل فتاة في مدريد حتى أعجبك أبدًا... ما أشد غيرتي!

- ٦٠ -

بائعة الكستناء تتحدَّث إلى سنيوريتا. سنيوريتا ذات وجنتين مُجعَّدتين وأجفان مُحمرَّة وكأن بها مرضًا.

- أي برد قارس!

- أجل، إنها ليلة عصيبة. أكاد أتخشَّب كعصفور مُتجمِّد.

تضع السنيوريتا في الحقيبة ما قيمته "پيسيتا" واحدة من الكستناء: إنه العشاء.

- أراكِ غدًا، سنيورا "ليوكاديا".

- وداعًا، سنيوريتا "إلبيرا". احصلي على قسط من الراحة.

تسير المرأة عبر الرصيف، في طريقها صوب ميدان "ألونسو مارتينيث" في إحدى نوافذ المقهى الكائن على ناصية الجادة، يتجاذب رجلان أطراف الحديث. رجلان في مقتبل العمر، أحدهما يبلغ من العمر عشرين ونيفًا

والآخر ثلاثين ونيفًا. يشي مظهر أكبرهما سنًا بكونه مُحَكِّمًا في مسابقة أدبية، أما أصغرهما سنًا، فله مظهر روائي. يبدو عليهما في الحال أن الحديث الدائر بينهما أشبه بما يلي:

- قَدَّمتُ الرواية بعنوان "تيريسا دي ثيپيدا"، وفيها أتناول بعضًا من الجوانب غير المطروقة للإشكالية الأزلية التي...

- حسنًا، حسنًا. هلا أعطيتني قليلاً من الماء، من فضلك؟

- لا داعي للاستئذان. راجعتُها عدة مرات وأعتقد أنه يمكنني القول، وبفخر، إن الرواية لا تشوبها نغمة ناشزة واحدة من أولها إلى آخرها.

- ذلك جدير بالاهتمام فعلاً.

- أعتقد ذلك. لا أعرف مدى جودة الأعمال المُقدَّمة من قِبَل زملائي. وعلى كل حال، أنا واثق في حسن تقدير ونزاهة...

- اطمئن، فنحن نؤدِّي كل مهامنا بجدية نموذجية.

- لا شك عندي في ذلك. ولا يهمُّ إطلاقًا أن يُمْنَى المرء بالهزيمة، في حال كانت جودة العمل الفائز لا يرقى إليها الشك، أما الأمر الذي يثبِّط الهمة...

تمرُّ سنيوريتا "إلبيرا"، فينفرج ثغرها عن ابتسامة: حُكْم العادة.

- ٦١ -

ساد صمت آخر بين الأخوين.

- هل ترتدي قميصًا داخليًا؟

- بالطبع أرتدي قميصًا داخليًا. من يسير في الشارع من دون قميص داخلي!

- هل مطبوع عليه پ. أ. (*)؟

(*) الحرف الأول والثاني من اسم "پابلو ألونسو" صديق "مارتين ماركو" الذي يشفق عليه ويسمح له بالإقامة في بيته.

- مطبوع عليه ما يحلو لي!

- معذرةً.

فرغ "مارتين" من لف سيجارة باستخدام التبغ الخاص بـ "روبرتو".

ـ اعتذارك مقبول، "فيلو"، ولكن لا تتحدثي إليَّ بهذا القدر من العطف، فالشفقة تمزِّقني.

شعرت "فيلو" بالجرأة فجأةً.

- أتعود إلى هذا الحديث ثانية؟

- كلا. أخبريني، ألم يأتِ "پاكو" إلى هنا؟ كان عليه أن يُحضِرَ لي طردًا.

- كلا، لم يأتِ. التقَتْ به "پيتريتا" في شارع "جويا" وأخبرها أنه سوف ينتظرك بحانة "نارباايث" في الحادية عشرة.

- وكم الساعة الآن؟

- لا أدري. لا بد أنها قد تجاوزت العاشرة بالفعل.

- وماذا عن "روبرتو"؟

ـ سيتأخَّر حتى وقت لاحق. فاليوم موعد ذهابه إلى المخبز ولن يعود حتى تتجاوز الساعة العاشرة والنصف.

تخيِّم على الأخوين لحظات صمت مفعمة باللين على نحو غير مُتوقَّع. "فيلو" تنظر إلى عيني "مارتين" وتقول بصوت حانٍ:

- هل تذكر أنني سأتمُّ عامي الرابع والثلاثين غدًا؟

- حقًّا!

- هل كنت تذكر؟

- كلا، وفيمَ الكذب! أحسنتِ صنعًا بإخباري، أريد أن أقدِّم لكِ هدية.

- لا تكُن ساذجًا، وكأن حالك تسمح بتقديم الهدايا!

- مجرد شيء بسيط، على سبيل التذكار.

تضع المرأة يديها على ركبتي الرجل.

- إن ما أريده أن تنظم من أجلي قصيدة، كما كنت تفعل منذ أعوام. أتذكر؟

- أجل...

"فيلو" تشخص بصرها إلى الطاولة، في حزن.

- في العام الماضي لم تهنئني لا أنت ولا "روبرتو" كلاكما نسي.

"فيلو" تقول بصوت مُتدلِّل (لو كانت ممثلة جيدة لقالتها بصوت مبهم):

- قضيتُ ليلتي باكيةً...

"مارتين" يُقبِّلها.

- لا تكوني ساذجة، يبدو وكأنكِ سوف تُتمِّين عامك الرابع عشر.

- كم تقدَّم بي العمر، أليس كذلك؟ انظر كيف انتشرت التجاعيد في وجهي. والآن، لم يبقَ أمامي سوى الانتظار حتى يكبر الأطفال، والتقدُّم في العمر، ثم الموت. كأمي، المسكينة.

ـ ٦٢ ـ

في المخبز يجفِّف دون "روبرتو" بعناية آخر المدخلات المُدوَّنة في دفتر الحسابات الخاص به. ثم يغلق الدفتر ويمزِّق بضع ورقات تشتمل على مسودَّة الحسابات.

في الشارع تتردَّد أغنية السروال الضيِّق والسادة حضور القداس الإلهي.

- وداعًا، سنيور "رامون"، إلى اللقاء في المرة القادمة.

- فلتصحبك السلامة، "جونثاليث". أراك في المرة القادمة. أتمنَّى لزوجتك وللجميع طول العمر ودوام الصحة.

- أشكرك، سنيور "رامون". في حياتك.

ـ ٦٣ ـ

عبر الأراضي الخلاء، حيث كانت ساحة مصارعة الثيران قديمًا، يمرُّ رجلان في طريق العودة إلى البيت.

- أكاد أتجمَّد. الجو قارس البرودة إلى حد تتجمَّد معه الدماء في الوريد.

- حقًا، حقًا.

ـ ٦٤ ـ

يتحدَّث الأخوان في المطبخ متناهي الصِّغر. وفوق موقد الفحم المطفأ، وُضِع موقد غاز مشتعل.

- الغاز لا يصل مطلقًا في هذه الساعة. هناك موقد غاز غير قانوني بالأسفل يستهلك كل الغاز.

على نيران موقد الغاز وُضِع قِدْرٌ ليس بالغ الضخامة. في حين وضعت على المائدة نصف دزينة من سمك الماكريل، في انتظار المقلاة.

- "روبرتو" يهوى الماكريل المقلي كثيرًا.

- أي ذوق ذلك...

- دعه وشأنه، فيمَ يضيرك؟ "مارتين" يا فتى، لماذا لا تطيقه؟

- لست أنا، بل إنه هو الذي لا يطيقني. أما أنا فألاحظ ما يبديه نحوي وأدافع عن نفسي. أعرف جيدا أن كلاً منا يتَّبع طريقًا مختلفة.

"مارتين" يتحدَّث بأسلوب بلاغي، يبدو كما لو كان أستاذًا.

- كل شيء عنده سواء، ويظنُّ أن خير الأمور أن يتدبَّر المرء حاله كيفما استطاع. أما أنا، فلا. أنا لا أعتقد أن الأمور كلها سواء، بأية حال. أعرف

أن هناك أمورًا طيبة وأخرى رديئة، أمورًا ينبغي فعلها وأخرى ينبغي تلافيها.

- مهلاً، لا تلقِ خطابًا!

- حقًا! هذا جزائي!

يرتجف ضوء المصباح هنيهةً، يُلَوِّح بإشارة مُضلِّلة للتمويه، ثم يرحل. أما شعلة الغاز الخَجِلة، الضاربة إلى الزرقة، فتلعق حواف القدر على مهل.

- بالطبع!

- ينقطع التيار في بعض الليالي، فالإضاءة رديئة جدًا في الوقت الراهن.

- يُفترَض بالإضاءة أن تعود إلى سابق عهدها الآن، ولكنها الشركة، لعلَّها تبغي رفع تعريفة الكهرباء! لن يعودوا لتوليد الكهرباء بانتظام حتى يرفعوا التعريفة، وسترين. كم تدفعين حاليًا مقابل استهلاك الكهرباء؟

- ما بين أربعة عشر وستة عشر "پيسيتا"، على حسب.

- ستدفعين ما بين عشرين وخمسة وعشرين مستقبلاً.

- وما العمل!

- أهكذا تنشدون إصلاح الأوضاع؟ أنتم على الطريق الصحيح!

"فيلو" تُطرِق بينما يلوح في رأس "مارتين" واحد من تلك الحلول التي لا تُكلَّل بالنجاح أبدًا. وعلى ضوء موقد الغاز الواهن الشارد، يبدو "مارتين" بمظهر مُنجِّم، مبهم وغامض.

ـ ٦٥ ـ

"ثيليستينو" يُفاجأ بانقطاع التيار فيما هو بالمخزن الخلفي.

- يا للحظ العاثر! أولئك الأوغاد عديمو الضمير على استعداد أن ينهبوا المكان.

الأوغاد عديمو الضمير هم الزبائن.

"ثيليستينو" يحاول أن يتحسَّس طريقه خارجًا، فيطيح بصندوق مياه غازية. ترتطم القوارير بالبلاط فتُحدِث ضجيجًا مُروِّعًا.

- اللعنة على الكهرباء!

يُسمع صوت آتٍ من ناحية الباب.

- ماذا جرى؟

- لا شيء! مالي وأنا حر في تحطيمه!

-٦٦-

دونيا "بيسيتاثيون" ترى أن واحدة من الطرق الأكثر فعالية لتحقيق تنمية الطبقة العاملة تكمن في قيام عضوات مجالس السيِّدات بتنظيم مسابقات في لعبة الأوراق المسماة "بيناكل". تفكِّر:

- العمال أيضًا يجب أن يأكلوا، حتى وإن كان الكثيرون منهم حُمرًا إلى درجة لا يستحقُّون معها هذا القدر من العناية.

دونيا "بيسيتاثيون" امرأة خَيِّرة، ولا تؤمن بوجوب قتل العمال جوعًا، شيئًا فشيئًا.

-٦٧-

بعد وقت يسير يعود التيار، فيُضفي على فتيل المصباح حُمرةً في بادئ الأمر، حتى يبدو للحظات وكأنه مصنوع من أوردة دماء دقيقة، ويتمدَّد بريق ساطع ليغمر أرجاء المطبخ بغتةً. الضوء أسطع وأنصع بياضًا من أي وقت مضى، فتبدو العبوات الصغيرة والفناجين والصحون الموضوعة فوق منضدة المطبخ بقدر أكبر من الوضوح، وكأنما قد تضخَّمت، وكأنما قد صُنِعَت لتوِّها.

- "فيلو"، يبدو كل شيء رائع الجمال.

- نقي...

- بالتأكيد!

"مارتين" يجيل بصره في أرجاء المطبخ بفضول، وكأنه لا يعرفه. ثم يهبُّ واقفًا ويأخذ قبعته. أطفأ عقب السيجارة في حوض الصحون ثم ألقى بها في سلة المهملات بقدر كبير من العناية.

- حسنًا، "فيلو" شكرًا جزيلاً. أنا ذاهب.

- وداعًا يا فتى، لا شكر على واجب. كنتُ أودُّ أن أعطيك المزيد... تلك البيضة كنت أحتفظ بها لنفسي، فقد أخبرني الطبيب بأن أتناول بيضتين يوميًا.

- معقول!

- دعك من ذلك، لا تقلق. فأنت في حاجة إليها بالقدر نفسه.

- حقًا.

- أي زمن نعيشه، "مارتين". أليس كذلك؟

- حقًا، "فيلو". أي زمن نعيشه! ولكن، سوف تنصلح الحال، عاجلاً أم آجلاً.

- أتظنُّ ذلك؟

- لا شك في ذلك، إنه شيء محتوم، شيء لا يُمكن الحيلولة دون حدوثه، شيء له قوة المد والجزر.

"مارتين" يتَّجه صوب الباب ويبدِّل صوته.

- على كلٍّ... ماذا عن "بيتريتا"؟

- ها أنت تعود إلى ذلك ثانيةً!

- كلا يا امرأة، كنت أريد أن أودِّعها.

- دعها وشأنها. إنها مع الصغار، فهم خائفون، وهي لا تتركهم وحدهم حتى يخلدوا إلى النوم.

"فيلو" تبتسم ثم تردف قائلةً:

- أنا أيضًا أخاف أحيانًا، ويُخيَّل إليَّ أنني سوف أقضي نحبي فجأةً...

فيما هو نازل على الدَّرَج، يصادف "مارتين" في طريقه زوج أخته الذي استقلَّ المصعد. دون "روبرتو" يطالع الجريدة. أما "مارتين" فتنازعه رغبة في أن يفتح باب المصعد ويترك زوج أخته عالقًا بين طابقين.

- ٦٨ -

جلس كلٌّ من "لاوريتا" و"پابلو" وجهًا لوجه، وبينهما مزهرية بداخلها ثلاث ورود صغيرة.

- أيروق لكِ المكان؟

- كثيرًا.

النادل يقترب. وهو نادل في مقتبل العمر، حسن الهندام، مجعد الشعر أسوده، حسن اللفتات. "لاوريتا" تحاول ألاّ تنظر إليه. "لاوريتا" لديها مفهوم مباشر وآني عن الحب والوفاء.

- أحضِرْ للسنيوريتا حساء وسمك موسى في الفرن وصدر دجاج "بيليروي" وأحضِرِ لي حساء وسمك قاروس مسلوقًا مع زيت وخلٍّ.

- ألن تأكل سوى هذا؟

- بالفعل يا صغيرتي، شهيتي ليست مفتوحة.

"پابلو" يلتفت إلى النادل.

- نصف قنينة من نبيذ "سوتيرن" ونصف قنينة أخرى من نبيذ "بورجندي". وكفى بذلك.

"لاوريتا" تربت على ركبة "پابلو" من أسفل الطاولة.

- هل تشعر بأنك لست على ما يرام؟

- كلا، كلا. بل كنت أعاني من عسر هضم طيلة المساء. أشعر بتحسُّن الآن، ولكني لا أريد للأمر أن يتكرَّر.

أخذ كلٌّ منهما ينظر إلى عيني الآخر وقد اتَّكئا بمرفقيهما على الطاولة، ثم نحَّيا المزهرية جانبًا وتشابكت أيديهما.

وفي رُكن جلس زوجان ما عادت أيديهما تتشابك، وجعلا يراقبان المشهد من دون أن يحاولا مداراة ذلك.

- من تكون عشيقة "پابلو" الجديدة؟

- لا أدري، تبدو خادمة. أتروق لك؟

- ممم، لا بأس بها...

- إذا كانت تروق لك، فاذهب معها إذن. لا أعتقد أن ذلك سوف يصعب عليك كثيرًا.

- ها أنتِ تُعيدين الكَرَّة!

- بل أنت الذي تُعيد الكَرَّة. حسبك أيها الظريف، دعني وشأني فلا رغبة بي في الشجار. ليست لدي أدنى رغبة في أن نصبح فُرجةً للناس الآن.

يشعل الرجل سيجارة.

- اسمعي، "ماري تيري" أتريدين معرفة رأيي؟ لن نحرز أي تقدم بهذه الطريقة.

- يا للوقاحة! اتركني إذا شئت، أليس هذا ما تسعى إليه؟ ما زال عندي من يسعد برؤية وجهي.

- اخفضي صوتك، لا ينبغي أن ننشر غسيلنا القذر أمام الناس.

- ٦٩ -

سنيوريتا "إلبيرا" تترك الرواية فوق الكومودينو ثم تطفئ النور. يخيِّم الظلام على "ألغاز باريس"(*) الموضوعة بجوار قدح ممتلئ حتى نصفه بالماء وزوج من الجوارب المستخدمة وأحمر شفاه في الرمق الأخير.

قبل أن تخلد إلى النوم، دائمًا ما تفكِّر سنيوريتا "إلبيرا" قليلاً.

- يُحتمل أن تكون دونيا "روسا" مُحقَّة. ربما كان من الأفضل أن أعود إلى الكهل. لا يمكنني أن أظل هكذا. مع أن لعابه يسيل على النساء، فلم يبقَ أمامي مُتَّسَع من الخيارات على الرغم من كل شيء.

سنيوريتا "إلبيرا" ترضى بالقليل، ومع ذلك فهي لا تنال ذلك القليل إلا فيما ندَر. استغرقَتْ زمنًا طويلاً حتى أدركت أمورًا، وحين أدركتها كانت التجاعيد قد أحاطت بعينيها، والسوس قد نخر في أسنانها المُسودَّة. أما الآن فهي راضية بكونها ليست مضطرة للذهاب إلى المستشفى، بكونها تستطيع الاستمرار في حجرتها المستأجرة البائسة. وخلال بضعة أعوام، ربما أصبح حلمها الذهبي سريرًا في المستشفى، على مقربة من المدفأة.

- ٧٠ -

على ضوء أحد مصابيح الشوارع، يحصي الغجري الصغير كومة من الفكة. لم يكُن يومًا سيئًا: جمع خلاله "دورو" وستين "سنتًا" بالغناء من الواحدة مساءً حتى الحادية عشرة ليلاً. في إمكانه أن يستبدل "الدورو" الفكة في أية حانة مقابل "دورو" وخمسين "سنتًا" فالحانات في حاجة دائمة إلى الفكة.

كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، يتناول الغجري الصغير عشاء مُكونًّا من صحن فاصوليا بيضاء وخبز وثمرة موز، يكلِّفه ثلاثة "پيسيتا" وعشرين

(*) "ألغاز باريس: رواية للكاتب الفرنسي "إيوچين سوب" (١٨٠٤ - ١٨٥٧).

"سنتًا" في حانة تقع خلف شارع "پريثيادوس" نزولاً عبر منحدر شارع "لوس أنخيليس".

الغجري الصغير يجلس، ينادي على النادل ويناوله ثلاثة "پيسيتا" وعشرين "سنتًا" ثم ينتظر أن يُقدَّم له الطعام.

بعد العشاء يتابع غناءه حتى الثانية صباحًا عبر شارع "إتشيجاراي" ثم يحاول التعلُّق بـ "سِبِنْسَة" الترام الأخير. الغجري الصغير (أعتقد أنه قد سبق لنا القول) يبلغ من العمر ستة أعوام تقريبًا.

ـ ٧١ ـ

في نهاية شارع "ناربايث" تقع الحانة حيث يلتقي "پاكو" بـ "مارتين" كدأبهما كل ليلة تقريبًا. إنها حانة صغيرة، على اليمين صعودًا، على مقربة من مرأب تابع للشرطة المسلحة. سبق لمالك الحانة، الذي يُدعَى "ثيليستينو أورتيث" أن حمل رتبة رائد تحت إمرة "ثيپريانو ميرا"(*) إبان الحرب. "ثيليستينو أورتيث" رجل يميل إلى طول القامة والنحول، يلتقي طرفا حاجبيه، وتبدو عليه بعض آثار الجدري. يضع في يده اليمنى خاتمًا غليظًا من الحديد، تتوسطه صورة لـ "ليو تولستوي" من الميناء الملون، طلب أن يُصنع له خصيصًا في شارع "لا كوليخياتا" ولديه طاقم أسنان يتركه فوق البار كلما اشتدَّ ضيقه به. منذ أعوام طوال يحتفظ "ثيليستينو أورتيث" بعناية بنسخة قذرة ومهترئة من كتاب "الفجر" لـ "نيتشه"كتابه المُقدَّس الذي لا يفارقه أبدًا. يطالعه في كل خطوة يخطوها، وفيه يجد حلاً لمشكلاته الروحية دائمًا. يقول:

- "الفجر" إنه تأمُّل في الأحكام الأخلاقية المُسبقة. أي عنوان بديع!

يتصدَّر غلافَ الكتابِ شكلٌ بيضاوي بداخله صورة المؤلِّف واسمه وعنوان الكتاب والسعر – أربعة ريالات – وبيانات النشر: "ف. "سيمپيري"

(*) "اثيبريانو ميراب" (١٨٩٧ ـ ١٩٧٥): قائد أناركي، تولَّى قيادة وحدة في الجيش الشعبي الجمهوري إبان الحرب الأهلية.

وشركاه، ناشرون، ١٠ شارع "پالومار"، "بالِنثيا" ٤ شارع "أولمو" فرع مدريد. ترجمة "پيدرو جونثاليث بلانكو".

أما الغلاف الداخلي فيُظهِر شعار الناشر، المتمثِّل في تمثال نصفي لسنيوريتا تعتمر قَلَنْسُوَة "فَريجِيَّة"،(١) يظهر أعلاه شعار "فن وحرية" وبالأسفل إكليل غار.

ثمة فقرات كاملة يحفظها "ثيليستينو" عن ظهر قلب. وحين يدلف أفراد الحرس المدني(٢) الملحقون بمرأب الشرطة إلى الحانة، يُواري "ثيليستينو أورتيث" الكتاب أسفل البار، فوق صندوق قوارير "الڤيرموت" الصغيرة. يقول لنفسه:

- إنهم أبناء الشعب مثلي، ولكن الاحتياط واجب!

"ثيليستينو" يعتقد، شأنه في ذلك شأن قساوسة البلدة، أن "نيتشه" يمثِّل خطورة مُحقَّقة.

عندما يخوض مواجهة مع الحرس، من عادته أن يتلو عليهم فقرات قصيرة من الكتاب، كالمازِح، من دون أن يطلعهم على مصدرها أبدًا.

- "إن الشفقة ترياق شافٍ من الانتحار، كونها شعورًا باعثًا على السرور، نجدُ فيه لذَّة الأفضليَّة بجرعاتٍ صغيرة".

يغرق الحرس في الضحك.

- "ثيليستينو" هل سبق لكَ أن كنت قسًّا في أحد الأيام؟

- إطلاقًا!

ثم يردف:

- "إن السعادة، أيًا كان كنهها، تمنحنا الهواء والنور وحريَّة الحركة".

يغرق الحرس في القهقهة.

(١) القَلَنْسُوَة - الفَريجِيَّة - شعار جمهوري فرنسي الأصل.

(٢) الحرس المدني: جهاز مُسلَّح ذو طابع عسكري تابع لوزارتيّ الداخلية والدفاع معًا.

- والمياه الجارية.

- والتدفئة المركزية.

"ثيليستينو" يتميَّز من الغيظ ويبصق عليهم بازدراء:

- ما أنتم بأكثر من جهلة مساكين!

من بين الزبائن الذين يرتادون الحانة جميعًا، ثمة حارس مدني من "جاليثيا"محافظ للغاية، تجمع بينه وبين "ثيليستينو"علاقة طيبة جدًا، ويدور بينهما الحديث بكلفة دومًا.

- قُلْ لي حضرتك، هل تتلو تلك الأقوال بالكلمات نفسها في كل مرة؟

- في كل مرة، "جارثيا". لا أخطئ ولا مرة واحدة.

- جدير بالإعجاب!

ـ ٧٢ ـ

سنيورا "ليوكاديا" تُبرز يدها خارج الوشاح الذي تكوَّمَتْ بداخله.

- تفضَّل، إليك ثماني حبات كستناء ممتلئة.

- وداعًا.

- هل معك ساعة، سنيوريتو؟

السنيوريتو يحلُّ أزرار معصمه ويتحقَّق من الوقت في ساعته الفضية الغليظة.

- أجل، إنها الحادية عشرة إلا قليلاً.

في الحادية عشرة يحضر ابنها لاصطحابها. أُصيب ابنها بعَرَج في الحرب ويعمل حاليًا في تقييد سجلّات العمالة اليومية بمشروع إنشاء المباني الوزارية الجديدة. ابنها، الطيب بحق، يساعدها على جمع أغراضها، ثم يذهبان وقد تشابكت أذرعهما بإحكام كي يأويا إلى الفراش.

يسيران عبر شارع "كوباروبياس" ثم ينعطفان عند شارع "نيكاسيو جاليجو" في حال تبقّت لهما بضع حبات كستناء يتناولانها، وإلا فيدلفان إلى أي مقهى لتناول قهوة بالحليب ساخنة. تُبقِي العجوز مشواة الفحم المصنوعة من الصفيح إلى جوار فراشها، فثمة جمرات تظلُّ مضطرمة حتى صباح اليوم التالي دومًا.

ـ ٧٣ ـ

"مارتين ماركو" يدلف إلى الحانة عند خروج الحرس المدني. "ثيليستينو" يقترب منه.

ـ "پاكو" لم يحضر بعد. كان هنا مساء اليوم وقال لي أن أطلب منك انتظاره.

"مارتين ماركو" يتّخذ أسلوبًا تهكّميًا، يليق بسنيور موقّر.

- حسنًا.

- طلباتك...؟

- قهوة.

ينهمك "أورتيث" في إعداد القهوة بالماكينة، يُعِدُّ السكارين(*)، الفنجان، الصحن، الملعقة الصغيرة، ثم يخرج من خلف البار. يضع كل شيء فوق الطاولة، ويشرع في الحديث. وفي عينيه اللتين تبرقان قليلاً، يتجلّى الجهد الكبير الذي بذله للبدء في الحديث.

- هل تقاضيتَ أجرك؟

"مارتين" يطالعه وكأنه يطالع كائنًا عجيبًا.

- كلا، لم أتقاضَ أجري. قلت لك بالفعل إنني أتقاضى أجري في الخامس وفي العشرين من كل شهر.

(*) شاع استخدام السكارين باعتباره بديلاً عن السكر في تلك الحقبة.

"ثيليستينو" يحكُّ عنقه.

- كل ما هنالك...

- ماذا!

- بهذه القهوة يبلغ حسابك اثنين وعشرين "پيسيتا".

-اثنين وعشرين "پيسيتا" سوف أعطيها لك. أعتقد أنني أفي بديني دومًا، كلما توفَّرت لديَّ النقود.

- أعرف.

- ما الخطب إذن؟

"مارتين" يقطِّب جبينه قليلاً ويُضفي على صوته جفاءً:

- لا يُعقل أن نختلف دائمًا على السبب نفسه، وكأنما لم تكُن هناك أمور كثيرة للغاية تجمع بيننا.

- حقًّا! على كلٍّ، معذرةً. لم أُرِد مضايقتك. ولكن، أتدري؟ لقد جاؤوا اليوم لتحصيل الضرائب.

"مارتين" يرفع رأسه بلفتة عميقة تشي بالكبرياء والازدراء، وينشب عينيه في بثرة بذقن "ثيليستينو".

"مارتين" يُضفي على صوته عذوبة، للحظة واحدة.

- ما هذا الذي في ذقنك؟

"ثيليستينو" يقع في حيرة من أمره.

- لا شيء، مجرد بثرة.

"مارتين" يقطِّب جبينه ثانيةً ويعود إلى صوته الفظ المتحفظ.

- أتريد أن تلقي عليَّ بلائمة الضرائب؟

- كلا يا رجل، لم أقُل هذا!

– قلتَ شيئًا مشابهًا جدًا يا صديقي. ألم نتحدَّث بما فيه الكفاية عن مشكلات توزيع الموارد الاقتصادية ونظام المساهمة؟

"ثيليستينو" يتذكَّر مُعلِّمَه في المدرسة ثم يُبْدِي عجرفةً في حديثه.

– ولكني لا أسدِّد الضرائب بالخُطَب.

– وهل أنت قلق بهذا الشأن؟ يا لك من فَرِيسِي عظيم!

"مارتين" يحدق فيه وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة نصفها اشمئزاز ونصفها شفقة.

– وهل تدَّعي بأنك تقرأ "نيتشه"؟ لم تتلقَّ عنه سوى أقل القليل. ما أنت بأكثر من برجوازي صغير بائس!

– "ماركو"!

"مارتين ماركو" يزأر كالأسد.

– تفضَّل، ارفع صوتك بالصياح، نادِ أصدقاءك أفراد الحرس المدني!

– الحرس ليسوا بأصدقائي!

– اضربني إن شئت، فلا يهمُّني! ليست معي نقود، أفهمت؟ ليست معي نقود! وليست تلك بوصمة عار بأية حال!

"مارتين" يهبُّ واقفًا ثم يخرج إلى الشارع بخطًى ظافرة. وعند الباب يلتفت إليه قائلاً:

– لا تنتحبْ أيها التاجر الشريف. ما إن أحصل على الاثنين وعشرين "بيسيتا" التي أدين بها لك حتى أحضرها كي تسدِّد الضرائب وتهدِّئ من روعك. سأتركك لضميرك! أما تلك القهوة، فدوِّنها في حسابي، وضعها حيثما وجدت لها مُتَّسَعًا، فأنا لا أريدها!

بهت "ثيليستينو" لا يدري ما العمل. يخطر له أن يحطِّم مضخة مياه صودا على رأس "مارتين" جزاءً عن وقاحته، إلا أنه يتذكر: "الاستسلام للغضب الأعمى دليل على دُنُوّ المرء من الحيوانيَّة".

يلتقط كتابَه من مكانه فوق القوارير الصغيرة ويضعه في الدُّرج. ثمة أيام يولِّي خلالها القديسون للمرء ظهورهم، بل وحتى "نيتشه" يبدو كما لو أنه قد عبر إلى الرصيف المقابل.

ـ ٧٤ ـ

طلب "پابلو" سيارة أجرة.

- الوقت مُبكِّر جدًا للذهاب إلى أي مكان. إن شئتِ يمكننا الذهاب إلى أية سينما لإضاعة بعض الوقت.

- كما شئت، "پابلو" أهم ما في الأمر أن يتسنَّى لنا البقاء جنبًا إلى جنب.

وصل الساعي. منذ اندلاع الحرب، لم يعُد السعاة يعتمرون القبعات إلا فيما ندَر.

- سيارة الأجرة، سنيور.

- شكرًا. هلا ذهبنا يا صغيرتي؟

"پابلو"يساعد "لاوريتا" على وضع معطفها. وبعد أن استقلا سيارة الأجرة، قالت له "لاوريتا" مُنبهةً:

- يا لهم من لصوص! تحقَّقْ من عداد سيارة الأجرة عندما نمرُّ بالقرب من مصباح الشارع. يشير إلى ستة "پيسيتا" بالفعل!

ـ ٧٥ ـ

عند بلوغه ناصية "أودونِل" يتعثَّر "مارتين" في "پاكو".

يتناهى إلى سمعه "أهلا!" في اللحظة التي يسير خلالها مُفكِّرًا:

- أجل، كان اللورد "بايرون"(*) على حق: إذا أنجبت طفلاً سوف أجعله يمتهن عملاً دنيويًا: محاميًا أو قرصانًا.

(*) لورد "چورج جوردون بايرون" (١٧٩٨ - ١٨٢٤): سياسي وشاعر إنجليزي من رموز الحركة الرومانسية.

"پاكو" يضع يده على كتف "مارتين".

ـ تبدو مُتقطِّع الأنفاس. لماذا لم تنتظرني؟

"مارتين" يبدو كمن يسير نائمًا، كالهاذي.

- كدتُ أقتله! إنه خنزير!

- من؟

- صاحب الحانة.

- صاحب الحانة؟ أي بائس مسكين! ماذا فعل؟

- ذكَّرني بديني له، وهو يعرف جيدًا أنني ما إن أحصل على نقود حتى أسدِّد ديني!

- ولكن، يا رجل، لعلّه في حاجة إليها!

- أجل، كي يسدِّد الضرائب. كلهم سواء!

شخص "مارتين" بصره إلى الأرض وخفض صوته.

- اليوم طُرِدت من مقهى آخر ركلاً بالأقدام.

- هل تعدَّوا عليك بالضرب؟

- كلا، لم يضربوني، ولكن نواياهم كانت غاية في الوضوح. لقد ضقتُ ذرعًا، "پاكو"!

ـ هيا، لا تنفعل، فالأمر لا يستحقّ. إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى الفراش.

- ذلك خير الأمور. هل تريد أن نلتقي غدًا؟

- كما تشاء. اترك لي رسالة في بيت "فيلو" وسأمرُّ من هناك.

- حسنًا.

- إليك الكتاب الذي كنت تريده. هل أحضرت لي الأوراق؟

- كلا، لم أستطع. ربما استطعتُ غداً.

ـ ٧٦ ـ

سنيوريتا "إلبيرا" تتقلَّب في فراشها مغمومة، من رآها قال إنها قد التهمت وجبة عشاء هائلة. تذكر طفولتها ومشنقة "بيَّالون" وتلك ذكرى تداهمها أحياناً. كي تبدِّدها، تشرع سنيوريتا "إلبيرا" في تلاوة صلاة قانون الإيمان حتى تخلد إلى النوم. ثمة ليالٍ - تكون الذكرى خلالها أشد إصراراً - يبلغ بها الحال أن تتلو قانون الإيمان مائة وخمسين أو مائتي مرة متتالية.

ـ ٧٧ ـ

"مارتين" يبيت لياليه في بيت صديقه "پابلو ألونسو" على فراش بلا مسند في حجرة تغيير الثياب. يحتفظ بنسخة من مفتاح البيت، وفي مقابل الضيافة ليس عليه سوى أن يراعي ثلاثة شروط: ألاَّ يطلب "پيسيتا" واحدة أبداً، ألاَّ يُحضِر أحداً أيّاً كان إلى الحجرة، وأن يغادر في التاسعة والنصف صباحاً على ألاَّ يعود حتى تتجاوز الساعة الحادية عشرة ليلاً. أما حالات المرض فلم تُؤخَذ في الاعتبار.

عند مغادرته بيت "ألونسو" كل صباح، يذهب "مارتين" إلى مقر البريد أو "بنك إسبانيا" حيث يجد المرء دفئاً ويتسنَّى له نظم أشعار على ظهر استمارات التليجراف واستمارات الإيداع في الحسابات الجارية.

كلما أعطاه "ألونسو" سترةً - يتنازل له عنها وهي في حالة شبه جديدة - يتجرأ "مارتين ماركو" على إلقاء نظرة على بهو "أوتيل پالاس" بعد موعد الغداء. لا يشعر بانجذاب شديد نحو الرفاهية، والحق يُقال، بَيْد أنه يسعى للتعرُّف على سائر الأجواء. يدور في خلد "مارتين":

ـ كلها تجارب.

جلس دون "ليونثيو مايستري" على صندوق وأشعل سيجارة. كان أسعد من أي وقت مضى، وفي دخيلة نفسه راح يغني "لا دونًا إيه موبيليه"(*) ولكن بتوزيع خاص به. في شبابه، فاز دون "ليونثيو مايستري" بجائزة "الزهرة الطبيعية" في مسابقة فنية أُقيمت بجزيرة "مينوركا" موطنه الصغير.

وبطبيعة الحال، كانت كلمات الأغنية التي راح دون "ليونثيو" يتغنّى بها في مديح سنيوريتا "إلبيرا" والثناء عليها. أما الأمر الذي شغل باله هو ضرورة تغيير موضع النبر في مطلع الأغنية على نحو لا يُمكن تفاديه. كان أمامه ثلاثة حلول:

١ ـ أوه، "إلبيرييتا" الجميلة!

٢ ـ أوه، "إلبيريتا" الجميييلة!

٣ ـ أوه، "إلبيرييتا" الجميييلة؟

لم يكُن أي منها مناسبًا، والحق يُقال. ومع ذلك فلا شك أن الحل الأول أفضلها جميعًا، على الأقل يحافظ على مواضع النبر الأصلية في أغنية :لا دونًا إيه موبيليه".

دون "ليونثيو" بعينيه المغمضتين نصف إغماضة، لم يكفّ عن التفكير في سنيوريتا "إلبيرا" لحظةً واحدة.

– صغيرتي المسكينة! كانت تشعر برغبة في التدخين. أعتقد أنك أدركت الهدف بإهدائها علبة السجائر، "ليونثيو"...

كان دون "ليونثيو" ثمِلاً بالذكرى الحبيبة إلى حد لم يلاحظ معه برودة الصفيح الذي يغطّي الصندوق أسفل أليتيْه.

(*)"الا دونًا إيه موبيليه": أغنية "المرأة هوائية"، للموسيقار الإيطالي افيرديب (١٨١٣ – ١٩٠١).

ترك سنيور "سواريث" سيارة الأجرة عند الباب. كان عَرَجُه قد اكتسب جذَلاً. أصلح من وضع النظارة التي تُثبَّت على الأنف ثم استقلَّ المصعد. سنيور "سواريث" كان يعيش مع أمه، الطاعنة في السن، التي تجمعه بها علاقة طيبة إلى حدٍّ كانت تذهب معه السنيورا إلى حجرته كل ليلة لكي تُدثِّره وتمنحه بركتها قبل أن تأوي إلى فراشها.

- هل أنت بخير يا بنيّ؟

- أنا بخير حال يا ماما الحبيبة.

- أراكَ غدًا بمشيئة الرب. تدثَّر ولا تعرِّض نفسك للبرد. نومًا هانئًا.

- أشكركِ يا ماما، ولكِ أيضًا. أعطيني قبلة.

- إليك قبلة يا بنيّ. لا تنسَ تلاوة صلواتك.

- لن أنسى يا ماما. تصبحين على خير.

سنيور "سواريث" يبلغ من العمر قرابة الخمسين عامًا، أما أمه فتكبره بعشرين أو اثنين وعشرين عامًا.

سنيور "سواريث" يصل إلى الطابق الثالث، شقة ج.، أبرز مفتاحه الصغير وفتح الباب. كان يفكِّر في تبديل ربطة عنقه، وتصفيف شعره جيدًا، ووضع القليل من الكولونيا، واختلاق أي عذر متعلق بالأعمال الخيرية، ثم المغادرة بأقصى سرعة في سيارة الأجرة مرة أخرى.

- ماما!

كلما دلف إلى البيت، كان صوت سنيور "سواريث" وهو ينادي أمه من مكانه عند الباب يحاكي قليلاً صوت سكان جبال "الألب" من ولاية "تيرول" النمساوية، أولئك الذين يظهرون في الأفلام.

- ماما!

بَيْد أن أحدًا لم يحرِ جوابًا من الحجرة الأمامية، المضاءة أنوارها.

- ماما! ماما!

بدأت أعصاب سنيور "سواريث" تتوتَّر.

- ماما! ماما! آهٍ، يا إله السماوات! آه، لن أدخل إلى الحجرة! ماما!

قطع سنيور "سواريث" الردهة، مدفوعًا بقوة غريبة قليلاً. والأرجح أن تلك القوة الغريبة قليلاً كانت في واقع الأمر فضولاً.

- ماما!

همَّ سنيور "سواريث" بوضع يده على مقبض الباب، إلا أنه تراجع ثم ولَّى هاربًا. ومن مكانه عند الباب راح يردِّد من جديد:

- ماما! ماما!

انتبه إلى أن قلبه يَخفِقُ بسرعة بالغة، ثم نزل الدَّرَج اثنتين اثنتين.

- خذني إلى شارع "كارِّيرا دي سان خيرونيمو"، أمام المجلس.

فحملته سيارة الأجرة إلى "كارِّيرا دي سان خيرونيمو"، أمام المجلس.

- ٨٠ -

حين ضجر "ماوريثيو سيجوبيا" برؤية دونيا "روسا" وسماعها فيما هي تسبُّ النُّدُل العاملين لديها، هبَّ واقفًا وغادر المقهى.

- أنا لا أعرف أيهما أشد بؤسًا، تلك الفقمة القذرة المُتَّشحة بالسواد أم شلة المُغفَّلين العاملين لديها. لو اتَّفقوا جميعًا ذات يوم وانهالوا عليها ضربًا!

"ماوريثيو سيجوبيا" رجل خَيِّر، شأنه في ذلك شأن ذوي الشعر الأحمر جميعًا، ولا يسعه احتمال الظلم. إن ذهب "ماوريثيو" إلى أن التعدِّي على دونيا "روسا" بالضرب المبرح هو خير ما يُمكن للنُّدُل فعله، فذلك لأنه قد لمس في دونيا "روسا" سوء المعاملة التي تبديها لهم. على الأقل بذلك تصبح

النتيجة تعادلاً - واحد مقابل واحد - ومن الممكن معاودة البدء في احتساب النقاط من جديد.

- الأمر برمته مسألة أعصاب: هناك من له أعصاب ضخمة رخوة كالبُزاق، وهناك من له أعصاب صلبة ضئيلة كحجر القداحة.

ـ ٨١ ـ

دون "إبرايم دي أوستولاثا إي بوفارول" يقف أمام صورته في المرآة، يرفع رأسه، يتحسَّس لحيته ويقول صائحًا:

- حضرات السادة الأكاديميين: لا أودُّ أن أشغل انتباهكم لوقت أطول، إلخ، إلخ، (أجل، ذلك قول سديد... إيماءة رأس مختالة... يجب الانتباه للقبضتين، فأحيانًا تلوِّحان أكثر مما ينبغي، حتى ليبدو وكأنهما ستحلِّقان في الهواء).

دون "إبرايم" يشعل غليونه ويبدأ في ذرع الحجرة جيئةً وذهابًا. واضعًا يدًا على مسند المقعد ورافعًا بالأخرى غليونه عاليًا - كالرقوق التي يحملها السادة أصحاب التماثيل عادةً - يتابع قائلاً:

- كيف الإقرار، طبقًا لما ذهب إليه سنيور "كليمينتيه دي دييجو"(*) بأن وضع اليد هو الوسيلة المتبعة لاكتساب الحقوق من خلال ممارستها؟ مما لا يخفى على العيان افتقار تلك الحجة إلى الاتِّساق، حضرات السادة الأكاديميين. اغفروا لي كوني كثير الإلحاح، وائذنوا لي بأن أعود، مرة أخرى، إلى دعوتي القديمة لانتهاج المنطق، علمًا بأنه لولا المنطق لما أصبح شيئًا ممكنًا في عالم الفكر (وهنا، يُرجَّح أن تسري همهمة تنمُّ عن الموافقة). أليس جليًا، سيدي العضو الموقَّر، أنه لا بد من امتلاك الشيء لاستخدامه؟ ألمح في عيونكم الموافقة. (وعندئذٍ، ربما قال أحد الحضور

(*) "فيليبيه كليمينتيه دي دييجو" (١٨٦٦ - ١٩٤٥): سياسي وأستاذ قانون مدني إسباني، تولَّى رئاسة القضاء العالي فضلاً عن مناصب أخرى.

بصوت خفيض: أمر جليّ، أمر جليّ). وبالأخذ في الاعتبار أنه لا بد من امتلاك الشيء لاستخدامه، في وسعنا - من خلال بناء العبارة السابقة للمجهول- الجزم بعدم إمكانية استخدام أي شيء ما لم يُمتَلَك مسبقًا.

دون "إبرايم" يمدُّ قدمًا نحو "أضواء خشبة المسرح" وبلفتة أنيقة يتحسَّس ياقة الروب، أو بمعنى أصح سترة "السموكينج" [1] ثم يبتسم.

- وهكذا، حضرات السادة الأكاديميين: ومثلما أنه لا بد من امتلاك الشيء لاستخدامه، فلا بد من اكتساب الشيء لامتلاكه. أما سند الملكيَّة فلا يهمُّ البتة. أنا لم أَزِد على قولي إنه لا بد من اكتسابه، مع الأخذ في الحسبان حقيقة عدم إمكانية امتلاك أي شيء، أي شيء على الإطلاق، ما لم يُكتسَب مسبقًا. (ربما قاطعني التصفيق. يجدر بي أن أكون مستعداً لذلك).

جاء صوت دون "إبرايم" وقورًا كصوت مزمار الزمخر[2]. وعلى الجانب الآخر من الحائط الفاصل بين الشقتين، زوج عاد لتوِّه من العمل يسأل زوجته:

- هل قضَتْ الصغيرة حاجتها؟

أحسَّ دون "إبرايم" بشيء من البرد فأحكم شد وشاحه قليلاً. وفي المرآة يُرَى البابيون الأسود الذي يرتديه على سترة "السموكينج" كل مساء.

- ٨٢ -

دون "ماريو دي لا بيجا" مالك المطبعة وصاحب السيجار، ذهب لتناول العشاء مع خريج نظام ١٩٠٣ الجامعي.

---

(١) يُفهَم من السياق أن دون "إبرايم" يتخيَّل نفسه وهو يلقي خطابًا أمام "الأكاديمية الملكية للتشريع" الجهة المعنية بالبحث في القانون والعلوم ذات الصلة بغرض المساهمة في تقدم التشريع.

(٢) الزَّمْخَر: مزمار ذو أنبوبة خشبية مزدوجة وفم معدنيّ مُلتوٍ.

- اسمع، أتريد أن تعرف رأيي؟ لا تحضرْ غدًا لمقابلتي، بل احضرْ للعمل. هكذا يروق لي القيام بالأمور، في أثناء المسير.

أما الآخر، فقد وقع في حيرة من أمره في بادئ الأمر. كان يودُّ لو قال إنه ربما كان من الأفضل البدء في العمل خلال بضعة أيام، كي يتسنَّى له الوقت اللازم لترتيب بعض الأمور، ولكن خطر له أنه قد يتعرَّض بذلك للرفض.

- فليكُن إذن. شكرًا جزيلاً، سوف أبذل كل ما في وسعي لتأدية عملي.

- وستكون أنت الرابح بذلك.

ابتسم دون "ماريو دي لا بيجا".

ـ اتَّفقنا إذن. والآن أدعوك على العشاء، حتى تكون بداية مُبشِّرة.

تلبَّدت نظرات الخريج الجامعي بالغيوم.

- يا رجل...

فقاطع مالك المطبعة حديثه قائلاً:

- أقصد، ما لم تكُن لديك أية التزامات أخرى، لا أريد أن أسبِّب لك أي إزعاج.

- كلا، كلا، اطمئن. فأنت لا تسبِّب لي أي إزعاج، بل على العكس تمامًا. ليست لديَّ أية التزامات أخرى.

استجمع الخريج الجامعي شجاعته وأردف قائلاً:

- ليست لدي أية التزامات الليلة، أنا تحت تصرفك.

كانا في الحانة بالفعل حين أوضح له دون "ماريو" بشيء من السماجة، كيف يجبُّ أن يحسن معاملة مرؤوسيه، ويجبُّ لمرؤوسيه أن يكونوا سعداء في عملهم، ويجبُّ لمرؤوسيه النجاح، ويجبُّ أن يجد فيه مرؤوسوه أبًا لهم، وأن يأنس مرؤوسوه بالمطبعة.

- لا سبيل لازدهار تجارة إلا بالتعاون بين الرئيس والمرؤوس. إذا ازدهرت التجارة، فذلك خير للجميع: للمالك وللمرؤوسين. انتظرْ لحظة، سوف أجري مكالمة، فعليَّ أن أترك رسالة.

أما الخريج الجامعي، فبعد الخطاب الذي ألقاه عليه مُستخدِمه الجديد، أدرك تمام الإدراك أن دوره يقتصر على المرؤوسيَّة. وتحسبًّا لكونه لم يدرك ذلك على أكمل وجه، فقد أضاف دون "ماريو" في منتصف العشاء:

- سوف تبدأ العمل بأجر قيمته ستة عشر "پيسيتا" أما عقد العمل، فلا تسألني عنه. مفهوم؟

- أجل، سنيور. مفهوم.

ـ ٨٣ ـ

ترجَّل سنيور "سواريث" عن سيارة الأجرة أمام المجلس، واتَّخذ شارع "إل پرادو" باحثًا عن المقهى حيث كان الآخر في انتظاره. آثر سنيور "سواريث" ألا يذهب بسيارة الأجرة حتى باب المقهى، لئلَّا يُظهِر لهفته أكثر مما ينبغي.

- آه يا فتى! أنا في حيرة من أمري! لا بد أن أمرًا مُروِّعًا يجري في بيتي، ماما لا تحير جوابًا.

جاء صوت سنيور "سواريث" عند دخوله إلى المقهى أكثر خلاعةً من المعتاد، فكاد يبدو وكأنه صوت عاهرة في حانة للنادلات.

- دعها وشأنها، ولا تقلق! لعلها قد استغرقت في النوم.

- آه، أتظنُّ؟

- بل أنا مُتأكِّد تمامًا. فسرعان ما تستغرق العجائز في النوم.

كان صديقه جريئًا، يشي مظهره بكونه قوَّادًا، يرتدي ربطة عنق خضراء وجوربًا مُقلَّمًا، وينتعل حذاءً قرمزيًّا. يُدعَى "خوسيه خيمينيث فيجيراس"، وعلى الرغم من مظهره المخيف، بلحيته الخشنة ونظراته العربية، كان يُلقَّب باسم "پيپيتو الشظية:.

ابتسم سنيور "سواريث" فيما كادت تتوردّ وجنتاه.

– ما أجملك اليوم، "بيبيه"!

ـ اصمت أيها البهيمة وإلا سمعك الناس!

– بهيمة، كم أنت حنون كعادتك دومًا!

ارتسم على وجه سنيور "سواريث" تعبير مُتجهِّم. ثم استغرق في التفكير.

– تُرَى، ماذا جرى لماما؟

– هلا لزمت الصمت؟

سنيور "خيمينيث فيجيراس"، الشهير بـ "الشظية" يلوي معصم سنيور "سواريث" الشهير بـ "المُصورِّة".

ـ اسمع، هل جئنا لقضاء وقت طيب أم جئنا لكي تصدِّع رأسي بقصة ماما الحبيبة؟

– آهٍ، "بيبيه" أنت مُحقّ. لا توبِّخني! كل ما هنالك أنني عاجز عن تمالك أعصابي!

ـ ٨٤ ـ

دون "ليونثيو مايستري" عقد العزم بشأن أمرين جوهريين. أولاً: من الواضح أن سنيوريتا "إلبيرا" ليست بنكرة، وذلك بادٍ على وجهها. بل إن سنيوريتا "إلبيرا" راقية، من عائلة طيبة، دبَّ خلافٌ بينها وبين عائلتها فولَّت هاربة، وحسنًا فعلَتْ. سحقًا! أمن العدل أن يقضي الأبناء حياتهم تحت أقدام الآباء، كما يظنُّ الكثيرون منهم؟ أغلب الظن أن سنيوريتا "إلبيرا" رحلت عن البيت لأن عائلتها جعلت حياتها مستحيلة لأعوامٍ طوال. يا للفتاة المسكينة! على كلٍّ...! كل حياة سرٌّ غامض، ومع ذلك، يظلُّ الوجه مرآة النفس.

- أي رأس يسعه التفكير بأن "إلبيرا" قد تكون عاهرة؟ يا رجل! يا إلهي!

شعر دون "ليونثيو مايستري" بالضيق من نفسه قليلاً.

أما الأمر الثاني فيتمثَّل في مرور دون "ليونثيو" بمقهى دونيا "روسا" مُجدَّدًا بعد العشاء، إذ ربما عادت سنيوريتا "إلبيرا".

- من يدري! فأولئك الفتيات الحزانى اللائي واجهن بعض المتاعب في البيت يشعرن بميل كبير إلى المقاهي حيث تُعزَف الموسيقى.

تناول دون "ليونثيو مايستري" عشاءه بأسرع ما يمكن، صفَّف شعره قليلاً، وضع معطفه واعتمر قبعته مرة أخرى، ثم غادر مُتَّجهًا إلى مقهى دونيا "روسا". أو خرج وفي نيته المرور بمقهى دونيا "روسا".

- ٨٥ -

ذهب "ماوريثيو سيجوبيا" لتناول العشاء مع أخيه "إرمينيخيلدو" الذي جاء إلى مدريد سعيًا وراء منصب أمين المركز القومي النقابي في بلدته.

- كيف تسير أحوالك؟

- تسير يا فتى... أعتقد أنها تسير على ما يرام...

- هل من أخبار جديدة؟

- أجل. مساء اليوم قابلتُ دون "خوسيه ماريا" من السكرتارية الخاصة بدون "روسيندو" وأخبرني بأنه سوف يؤيِّد المقترح بكل اهتمام. سنرى على أي قرار يستقرُّ الجميع. هل تظنُّ أنهم سوف يسندون إليَّ المنصب؟

- يا رجل، أعتقد كذلك. ولمَ لا؟

- لا أعرف يا فتى. أحيانًا يبدو لي أن المنصب بين يدي بالفعل، وأحيانًا يبدو لي أنهم لن يعطوني سوى ركلة بطرف الحذاء على مؤخرتي في النهاية. أسوأ شيء على الإطلاق أن يبقى المرء هكذا، مُعلَّقًا، لا يعرف إن كانت أوراقه رابحة أم خاسرة.

- لا تسمح بانخفاض روحك المعنوية، فقد جَبَلَنا الربُّ جميعًا من طينة واحدة. وكما تعلم، من طلب العلا سهر الليالي.

- أجل، أوافقك الرأي.

ثم تناول الأخوان العشاء في صمت طوال الوقت تقريبًا.

- يبدو أن الألمان في طريقهم إلى السقوط.

- أجل، بدأتُ أشتمُّ رائحة مريبة في الأمر.

- ٨٦ -

تظاهر دون "إبرايم دي أوستولاثا إي بوفارول" بأنه لم يسمع ما قيل بشأن قضاء طفلة الجيران حاجتها، فأحكم وضع الوشاح قليلاً من جديد، وعاود وضع يده على مسند المقعد، ثم تابع قائلاً:

- أجل يا حضرات السادة الأكاديميين. إنني، إذ أتشرَّف بالترافع أمام حضراتكم، أعتقد أن ما سُقتُ من حُجج لا غبار عليه. (ألن يبدو قولي "لا غبار عليه "شعبيًا أكثر مما ينبغي، وفظًا بعض الشيء؟). وبقياس نتائج القضية المنطقية سالفة الذكر على المفهوم الفقهي الذي يعنينا ("وبقياس نتائج القضية المنطقية سالفة الذكر على المفهوم الفقهي الذي يعنينا"ربما كانت العبارة تنطوي على شيء من الإطناب)، يسعنا الجزم بالآتي: بما أنه لا بد من امتلاك الشيء لاستخدامه، إذن، فلا بد من امتلاك الحق كذلك، أيًا كان ذلك الحق، لممارسته. (وقفة).

الجار يسأل عن لون براز الصغيرة. فتخبره زوجته بأن لونه طبيعي.

- حضرات السادة أعضاء هذا المحفل الموقَّر: ليس امتلاك الحق ممكنًا ما لم يُكتسَب مسبقًا. وأعتقد أن كلماتي جلية، في جلاء المياه المُتدفِّقة من نبع صاف. (أصوات: فعلاً، فعلاً). وبما أنه لا بد من اكتساب الحق لممارسته، بالأخذ في الاعتبار عدم إمكانية ممارسة الشيء ما لم يُمْتَلَك (بالطبع، بالطبع!)، فكيف يسعنا التفكير، من منظور علمي بحت، بوجود

سبيل للاكتساب من خلال الممارسة، وفقًا لما ذهب إليه البروفيسير سنيور "دي دييجو" صاحب الفكر الراقي، علمًا بأن ذلك القول ينطوي على الجزم بإمكانية ممارسة الشيء قبل اكتسابه، أي ممارسة الحق قبل امتلاكه؟ (همهمة متواصلة تتمُّ عن الموافقة).

الجار يسأل:

- هل اضطررتِ إلى وضع البقدونس للصغيرة (*)؟

- كلا، أعددتُ الوصفة بالفعل، ولكنها قضت حاجتها من تلقاء نفسها في النهاية. انظرُ، اضطررتُ لشراء علبة سردين، فقد أخبرتني أمك بأن زيت علب السردين أفضل لتلك الحالات.

- حسنًا، لا تقلقي، دعينا نتناول السردين على العشاء والسلام. أما وصفة زيت السردين فهي اختراع من اختراعات أمي.

تبادل الزوج والزوجة ابتسامة حانية، ثم عناقًا، ثم قبلة. ثمة أيام يسير فيها كل شيء على ما يرام. كان إمساك الصغيرة قد بدأ يشكلُ مصدر قلق.

خطر لدون "إبرايم" أنه لا بد من وقفة قصيرة إزاء همهمات التأييد المتواصلة، خافضًا جبينه، شاخصًا بصره إلى ملف الأوراق وقدح الماء، وكأنما في شرود.

- حضرات السادة الأكاديميين: من نافلةِ القول، بحسب اعتقادي، أنه لا مندوحة من الأخذ بعين الاعتبار كون استخدام الشيء - ولا أعني بذلك استخدام الحق أو ممارسة الحق في استخدام الشيء، على اعتبار عدم وجوده بعد- المفضي إلى امتلاكه بالتقادم، وإلى أحقية شاغله في سند الملكية، مسألة أمر واقع ولا تمتُّ للقانون بصلة البتة (عظيم).

دون "إبرايم" يبتسم ابتسامةً ظافرةً ولا يفكِّر في شيء لبضع لحظات. في دخيلة نفسه - وظاهرها أيضًا - كان دون "إبرايم" رجلاً في غاية السعادة. أفلا يعيرونه اهتمامًا؟ وفيمَ يهمُّ ذلك! وما جدوى التاريخ إذن؟

(*) وصفة شعبية لعلاج حالات الإمساك عند الأطفال.

- التاريخ منصف دائمًا وأبدًا في خاتمة المطاف. وإذا كان النوابغ لا يلقون ما يستحقونه من تقدير في هذا العالم المُتدنِّي، فيمَ الانشغال بذلك ما دامت الريح سوف تذرو خصلات شعرنا جميعًا في غضون مائة عام؟

انتزعَتْ دون "إبرايم" من تهويمه العذب دقات عنيفة، مُدوِّية، مُتقطِّعة، صادرة عن جرس الباب.

- يا للهمجية! أية طريقة في الإزعاج! ماذا جرى لتربية الناس! ويا حبذا لو كان الطارق مخطئًا في العنوان!

أما زوجة دون "إبرايم"، التي كانت تعمل حينئذ على قطعة من التريكو، جالسةً إلى جوار المجمر بينما يلقي زوجها خطابه، فقد هبَّتْ واقفة وذهبت لتفتح الباب.

أرهف دون "إبرايم" سمعه. كان جارهما القاطن في الطابق الرابع هو الطارق.

- هل زوجك موجود؟

- أجل، سنيور. إنه يتدرَّب على إلقاء خطابه.

- هل يستطيع مقابلتي؟

- أجل، بكل تأكيد.

رفعَتْ السنيورا صوتها:

- "إبرايم". إنه جارنا القاطن بالأعلى.

فأجابها دون "إبرايم":

- فليتفضَّل إلى الداخل يا امرأة، فليتفضَّل إلى الداخل. لا تتركيه واقفًا بالخارج.

دون "ليونثيو مايستري" يبدو ممتقعًا.

- دعنا نرَ يا جارنا العزيز، ماذا جاء بك إلى بيتنا المتواضع؟

جاء صوت دون "ليونثيو" مُرتعِشًا.

- لقد ماتَتْ!

- ها...؟

- أقول لكَ إنها ماتَتْ!

- ماذا؟

- أجل، سنيور. لقد ماتَتْ، تحسَّستُ جبينها فوجدت بشرتها باردة كالثلج.

فتحَتْ زوجة دون "إبرايم" عينيها عن آخرهما.

- من؟

- الساكنة في الشقة المجاورة.

- الساكنة في الشقة المجاورة؟

- أجل.

- دونيا "مارجوت"

- أجل.

فتدخَّل دون "إبرايم" قائلاً:

- أم المُخنَّث؟

وفي اللحظة نفسها حين أجابه دون "ليونثيو" بالإيجاب، قالت له زوجته:

- "إبرايم"، يا إلهي، لا تتفوَّه بمثل هذا الكلام!

- هل ماتَتْ، نهائيًّا؟

- أجل، دون "إبرايم". ماتَتْ وشبعت موتًا. قُتِلَتْ خنقًا بالمنشفة.

- خنقًا بالمنشفة؟

- أجل، سنيور. بمنشفة من القماش.

- أي شيء مُروِّع!

شرع دون "إبرايم" في إصدار الأوامر وذرع المكان جيئةً وذهابًا والتوصية بالمحافظة على الهدوء.

- "خينوبيبا" اتَّصلي بالشرطة عبر الهاتف.

- ما رقم الشرطة؟

- وما أدراني يا امرأة؟ ابحثي عنه في الدليل! وأنت يا صديقي "مايستري" عليك بحراسة الدَّرَج، لا تسمح لأحد أيًّا كان بالصعود أو النزول. سوف تجد عصا في خزانة الثياب. أما أنا فسوف أُخطِر الطبيب.

انفتح باب البيت حيث يسكُن الطبيب، عندئذ سأل دون "إبرايم" بمظهر ينمُّ عن هدوء عظيم:

- هل الدكتور موجود؟

- أجل، سنيور. انتظر لحظة.

كان دون "إبرايم" يعرف بوجود الطبيب في البيت بالفعل. وحين خرج الطبيب ليتحقَّق من الدافع وراء رغبة دون "إبرايم" في مقابلته، بادره الأخير بابتسامة، كمن لا يعرف من أين يبدأ:

- كيف حال الصغيرة؟ هل معدتها بخير الآن؟

- ٨٧ -

بعد العشاء، دعا دون "ماريو دي لا بيجا" خريجَ نظام ١٩٠٣ الجامعي، الذي يُدعَى "إيلوي روبيو أنتوفاجاستا" على فنجان من القهوة. كان من الجليّ أنه يريد استغلال الموقف.

- هل ترغب في سيجار؟

- أجل، سنيور. شكرًا جزيلاً.

- رويدك يا صديقي! ألا يفوتك شيء!

ابتسم "إيلوي روبيو أنتوفاجاستا" في اتِّضاع.

- كلا، سنيور.

ثم أردف قائلاً:

- كل ما هنالك أنني أشعر بسرور بالغ بالعمل الذي وجدتُه، أتعرف ما أقصد؟

- وبالعشاء الذي تناولتَه؟

- أجل، سنيور. وبالعشاء الذي تناولتُه أيضًا.

ـ ٨٨ ـ

كان سنيور "سواريث" يدخِّن سيجارًا أهداه إليه "بيبيه الشظية".

ـ آهٍ، ما أطيبه! إن له رائحتك الزكية.

سنيور "سواريث"ينظر إلى عيني صديقه.

- هلا ذهبنا لاحتساء بضع كؤوس من الشراب؟ لا أشعر برغبة في العشاء، فوجودي معك يفقدني شهيتي.

- حسنًا، هيا بنا.

- هلا سمحت لي بدعوتك؟

يذهب كلٌّ من "المصوِّرة" و"الشظية"، وقد تشابكت أذرعهما بإحكام، عبر شارع "إل پرادو" صعودًا، على الرصيف الأيسر، حيث توجد بضع صالات بلياردو. دارت بعض الرؤوس قليلاً لدى مرآهما.

- هلا دخلنا إلى هنا قليلاً لمشاهدة وقفات اللاعبين؟

- كلا، دعك من ذلك. فمنذ أيام كادوا يهشِّمون وجهي بعصا البلياردو.

- يا لهم من بهائم! ثمة رجال يفتقرون إلى التحضُّر، حقًا! يا للهمجية! لعلَّك كنت ترتعد من الخوف، أليس كذلك يا "شظية"

يتعكَّر مزاج "بيبيه الشظية".

- اسمع، تلك "الشظية" هي أمك!

فتنتاب سنيور "سواريث" نوبة هستيرية.

- آه، ماما العزيزة! آهٍ، تُرَى ماذا جرى لها! آهٍ، يا إلهي!

- هلا لزمت الصمت؟

- معذرةً، "بيبيه" لن أعود للحديث عن ماما. آه، يا للمسكينة! "بيبيه"، هلا اشتريتَ لي زهرة؟ أريدك أن تشتري لي زهرة كاميليا حمراء، خيرٌ لي أن أرفع لافتة "ممنوع" وأنا معك...

"بيبيه الشظية" يبتسم في اختيال عظيم ويشتري لسنيور "سواريث" زهرة كاميليا حمراء.

- ضعها في ياقة المعطف.

- سأضعها حيثما تشاء.

- ٨٩ -

تحقَّق الطبيب من أن السنيورا قد ماتَتْ وشبعت موتًا، ثم فحص دون "ليونثيو مايستري" إذ فقد المسكين أعصابه، وراح يركل بقدمه ذات اليمين وذات اليسار في غير وعي منه تقريبًا.

- آه، دكتور! وماذا لو مات هذا أيضًا؟

تملَّك من دونيا "خينوبيبا كوادرادو دي أوستالاثا" جزع عظيم.

- لا تقلقي، سنيورا. ليس به خطب. كل ما هنالك أنه ذُعِر بشدَّة، لا أكثر.

وفيما هو جالس على الأريكة، ابيَضَّت عينا دون "ليونثيو" وأخذ فمه يرغي. وفي تلك الأثناء، كان دون "إبرايم" قد تولَّى تنظيم الجيران.

- الهدوء، الهدوء التام فوق كل شيء. وليُجْرِ كل رب أسرة تفتيشًا شاملاً في محلِّ سكنه. دعونا نخدم العدالة بتقديم أكبر قدر ممكن من الدعم والتعاون.

- أجل، سنيور. أحسنت قولاً. فخير الأمور في هذه اللحظات أن يُصدر الأوامر شخصٌ واحد، وأن يطيعه الباقون.

ساهم سكان البيت حيث وقعت الجريمة (الذين كانوا جميعًا من الإسبان) كلٌّ بنصيبه من العبارات الرنانة.

- أما هذا، فأعدُّوا له قدحًا من التيليو.

- حاضر يا دكتور.

- ٩٠ -

اتَّفق دون "ماريو" والخريج الجامعي "إيلوي" على النوم مُبكِّرًا.

- حسنًا يا صديقي، وغدًا إلى العمل! أليس كذلك؟

- بلى، سنيور. سوف تسرُّ بعملي كثيرًا.

- آمل ذلك. غدًا في التاسعة سوف تسنح لك الفرصة كي تبدأ في إثبات ذلك. إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى البيت، وإلا فإلى أين أذهب؟ سوف آوي إلى الفراش. هل تنام مُبكِّرًا أنت أيضًا؟

- طيلة عمري. أنا رجل عادات منتظمة.

شعر "إيلوي روبيو أنتوفاجاستا" بميل إلى المُداهنة، أغلب الظن أنه كان يميل إلى المداهنة بطبعه.

- سنيور "بيجا" اسمح لي بأن أرافقك إلى بيتك أولاً، ما لم يكُن لديك مانع.

- كما تحبُّ يا صديقي "إيلوي" أغدو مُمتنًا لك. من الواضح أنك واثق تمام الثقة من حصولك على سيجار آخر!

- صدِّقني، سنيور "بيجا" ليس ذلك هو السبب.

- هيا يا رجل، لا تكُن ساذجًا، فقد فعلتها من قبلك!

شرع دون "ماريو" ومُصحِّح بروفات الطباعة الجديد يتجوَّلان، رغم كونها ليلة باردة بالأحرى، وقد رفع كل منهما ياقة معطفه. كان دون "ماريو" حين يُسمَح له بالحديث عما يروقه، يسترسل من دون أن يلويه عن ذلك لا برد ولا قيظ ولا جوع.

وبعد مسيرة طويلة إلى حد ما، وجد دون "ماريو" و"إيلوي روبيو أنتوفاجاستا" جمعًا من الناس وقوفًا عند فوَّهة الشارع، فضلاً عن فردين من أفراد الحرس المدني لم يسمحا لأحد بالمرور.

- هل وقع أمر ما؟

فالتفتَتْ امرأة:

- لا أعرف. يُقال إن جريمة قد ارتُكبت، وإن امرأتين مسنتين قد قُتِلتا طعنًا بالسكاكين.

- يا إلهي!

تدخَّل رجل في الحديث قائلاً:

- لا داعي للتهويل، سنيورا. فالضحية امرأة واحدة، لا امرأتان.

- هل يبدو لكَ ذلك بالشيء القليل؟

- كلا، سنيورا. بل يبدو لي أكثر مما ينبغي. ولو وقعت بدلاً من الضحية اثنتين، لأصبحت المصيبة أعظم.

اقترب من الجمع شاب في مقتبل العمر:

- ماذا يجري؟

فأوضحت له امرأة أخرى:

- يُقال إن جريمة قد ارتُكبت، إن فتاة قد قُتِلت خنقًا بمنشفة من القماش. يُقال إنها كانت فنانة.

- ٩١ -

اتَّفق الأخوان "ماوريثيو" و"إرمينيخيلدو" على عمل احتفال مُدوٍّ.

- أتريد أن تعرف رأيي؟ هذه ليلة عظيمة للهو الصاخب. دعنا نحتفل مُقدَّمًا تحسُّبًا لحصولك على ذلك المنصب. وإن لم يكُن، دعنا نُسَرِّ عن نفسينا ولا نأبه بشيء. سوف تقضي ليلتك وأنت تقلِّب الأمر في رأسك ما لم نخرج. لقد فعلتَ كل ما عليك فعله، وليس أمامك الآن سوى أن تنتظر أفعال الآخرين.

كان "إرمينيخيلدو" قلِقًا:

- أجل، أعتقد أنك على حق. فهكذا، بالتفكير في الأمر ذاته طوال اليوم، لن أجني سوى التوتُّر. لنذهب حيثما شئت، فأنت أدرى بمدريد.

- ما رأيك في الذهاب لاحتساء بضع كؤوس من الشراب؟

- حسنًا، هيا بنا. ولكن، أليس هناك من تُلطِّف الجو؟

- حالاً سنجد إحداهن. فعادةً ما يكون هناك فائض من الفتيات في مثل هذه الساعة.

ذهب "ماوريثيو سيجوبيا" وأخوه "إرمينيخيلدو" لاحتساء بضع كؤوس من الشراب، يتنقَّلان من حانة إلى أخرى عبر شارع "إتشيجاراي" حيث تولَّى "ماوريثيو" القيادة، أما "إرمينيخيلدو" فتبعه طائعًا وتولَّى دفع الحساب.

- لنفترض أننا نحتفل بحصولي على المنصب، دعني أدفع الحساب.

- حسنًا، وفي حال لم يتبقَّ لديك ما يكفي للعودة إلى البلدة، نبِّهني إلى ذلك حتى أمدَّ لكَ يد العون.

في إحدى الحانات الرخيصة بشارع "فِرنانديث إي جونثاليث" لكز "إرمينيخيلدو" أخاه "ماوريثيو" بمرفقه:

- انظر إلى هذين الغارقين في اللهو!

التفت "ماوريثيو":

ـ فعلاً، فعلاً. مع أن "غادة الكاميليا" المسكينة لا تبدو على ما يرام. انظر إلى زهرة الكاميليا الحمراء في ياقة المعطف. يا أخي، بالتأمُّل في الأمر مليًا، فالناس هنا تأخذ الدنيا غلابًا!

ومن أقصى المكان، زأر صوت أجش:

- لا تُسرفي في اللهو أيتها "المصوِّرة" وادَّخري شيئًا للمستقبل!

هبَّ "بيبيه الشظية" واقفًا:

- يبدو أن أحدهم سوف يُلقى به إلى الشارع!

ـ ٩٢ ـ

قال دون "إبرايم" لسيادة القاضي:

- كما ترى يا سيادة القاضي، فنحن لم نستطِع التحقُّق من أي شيء. أجرى كلٌّ من الجيران تفتيشًا في محلِّ سكنه، فلم نعثر على شيء لافت للانتباه.

أحد سكان الطابق الأول، ويُدعَى دون "فِرناندو كاثويلا" ويعمل مندوبًا لدى المحكمة، خفض بصره إلى الأرض، إذ إنه قد عثر على شيء بالفعل.

باشر القاضي استجواب دون "إبرايم":

ـ دعونا نتطرَّق إلى كل جزء على حدة. هل للمتوفاة أقارب؟

- أجل يا سيادة القاضي، لها ابن.

- وأين هو؟

- أف! ومن يدري يا سيادة القاضي! إنه فتى ذو عادات رديئة.

- أهو زير نساء؟

- كلا يا سيادة القاضي، ليس زير نساء.

- ربما كان مقامرًا إذن.

- كلا، ليس على حد علمي.

نظر القاضي إلى دون "إبرايم":

-أهو سكِّير؟

- كلا، كلا، ولا سكِّير.

رسم القاضي على وجهه ابتسامة مقتضبة تنمُّ عن قليل من الضيق.

- أخبرني إذن، ماذا تعني عادات رديئة في رأي حضرتك؟ جمع الطوابع؟

انزعج دون "إبرايم":

ـ كلا، سنيور. عادات رديئة في رأيي تعني أمورًا كثيرة، من بينها أن يكون المرء مُخنَّثًا على سبيل المثال.

- آه، فهمت! ابن المتوفاة مُخنَّث.

- أجل يا سيادة القاضي، مُخنَّث على نحو واضح وضوح الشمس.

- حسنًا أيها السادة، شكرًا جزيلاً للجميع. برجاء التفضُّل بالعودة إلى بيوتكم. في حال احتجت إليكم سوف أستدعيكم.

انصرف السكان إلى حجراتهم، طائعين. عند بلوغ دون "فِرناندو كاثويلا" شقته بالطابق الأول جهة اليمين، وجد دموع زوجته تنهمر بحارًا.

- آه، "فِرناندو"! اقتلني إذا شئت! ولكن لا تسمح بأن يعرف ابننا الصغير بأي شيء.

- كلا يا امرأة، كيف أقتلك والقضاء في بيتنا! هيا، اذهبي إلى فراشكِ. ليس ينقصنا الآن سوى أن يتضِّح كون عشيقك هو قاتل دونيا "مارجوت!".

- ٩٣ -

للتسرية عن الواقفين في الشارع، الذين بلغ عددهم بالفعل بضع مئات من الأشخاص، راح غجري صغير في السادسة من عمره تقريبًا يغنِّي فلامنكو، ويصفِّق براحتيه على إيقاع أغنيته. كان الغجري الصغير ظريفًا، بَيْد أن الناس قد شاهدوه بالفعل مرارًا وتكرارًا...

"كان خيَّاطٌ مُعلِّم

يصنَعُ سِرْوالاً،

فمرَّ به صَبِيٌّ غَجَرِيٌّ

يَبيعُ الروبيان..."

وعندما حملوا جثمان دونيا "مارجوت" خارجًا، في طريقهم إلى المشرحة، صمت الطفل في إجلال.

الفصل الثالث

ـ ٩٤ ـ

بعد الغداء، يتردَّد دون "پابلو" على مقهى هادئ بشارع "سان برناردو" كي يلعب مباراة شطرنج مع دون "فرانثيسكو روبليس إي لوپيث - پاتون" وفي حوالي الخامسة أو الخامسة والنصف يخرج للقاء دونيا "پورا" ثم يتجوَّلان حتى ينتهي بهما المطاف في مقهى دونيا "روسا" لتناول وجبتهما المسائية الخفيفة المؤلَّفة من الشكولاتة، والتي تبدو له خفيفة بعض الشيء دومًا.

على طاولة قريبة بجوار النافذة، أربعة رجال يلعبون الدومينو: دون "روكيه" ودون "إيميليو رودريجيث روندا" ودون "تيسيفونتيه أوبيخيرو" وسنيور "رامون".

دون "فرانثيسكو روبليس إي لوپيث - پاتون" طبيب أمراض سريَّة، له ابنة تُدعَى "أمپارو" متزوِّجة من دون "إيميليو رودريجيث روندا" الطبيب هو الآخر. أما دون "روكيه" فهو زوج دونيا "بيسي" أخت دونيا "روسا" دون "روكيه مويسيس باثكيث" وفقًا لقول أخت زوجته، واحد من أسوأ الأشخاص في العالم بأسره. أما دون "تيسيفونتيه أوبيخيرو إي سولانا" فهو طبيب بيطري برتبة كابتن، وسنيوريتو البلدة المتأنِّق، على قدر يسير

من الخجل، ويضع خاتمًا يتوسَّطه فصٌّ من الزمرد. وأخيرًا سنيور "رامون" يمتلك مخبزًا على قدر من الأهمية بالقرب من المكان.

يتَّسم الأصدقاء الستة الذين يلتقون كل مساء بالهدوء والرسميَّة، حتى وإن وقعوا في هفوات بلا أهمية من حين إلى آخر. تجمع بينهم علاقة طيبة، فلا يختلفون، بل يتجاذبون أطراف الحديث من طاولة إلى أخرى، وتتخلَّل أحاديثهم اللعبة التي لا يعيرونها اهتمامًا كبيرًا طيلة الوقت.

دون "فرانثيسكو" فَقدَ الفيل لتوِّه.

- لقد بدأ الوضع يسوء!

- يسوء! لو كنتُ مكانه لانسحبت من المباراة.

- أما أنا فلا.

دون "فرانثيسكو" يلتفت إلى زوج ابنته الذي يلعب مع الطبيب البيطري.

- خبِّرني، "إيميليو" كيف حال الصغيرة؟

"الصغيرة" هي ابنته "أمپارو".

- على ما يرام. أصبحت على ما يرام الآن، وغدًا أُقيمها من الفراش.

- حقًا، يسرُّني سماع ذلك! أمها ذاهبة إلى بيتكم مساء اليوم.

- عظيم. وهل ستأتي أنت أيضًا؟

- لا أعرف، سنرى إن استطعت.

حماة دون "إيميليو" تُدعَى دونيا "سوليداد" دونيا "سوليداد كاسترو دي روبليس".

استطاع سنيور "رامون" أن يلعب قطعة "الشيش بيش" التي كانت عالقة معه. فمازحه دون "تيسيفونتيه" بالنكتة المعتادة دائمًا:

- محظوظ في اللعب...

- وفي غير اللعب يا حضرة الكابتن، أنت تعرف ماذا أقصد.

دون "تيسيفونتيه" يتجهَّم بينما يضحك الأصدقاء. فدون "تيسيفونتيه" والحق يُقال، لا حظَّ له مع النساء أو الدومينو. يغلق بابه على نفسه طوال اليوم، ولا يخرج سوى كي يلعب مباراة سريعة.

أما دون "بابلو" الذي يعدُّ فوزه في تلك المباراة مؤكَّدًا، فهو شارد الذهن لا يعير الشطرنج انتباهًا.

- "روكيه" بالأمس كانت دونيا روسا، أخت زوجتك، في مزاج عكر.

دون "روكيه" يومئ أن كَفَى، وكأنه على دراية بكل شيء بالفعل.

- هكذا هي دائمًا، أعتقد أنها قد وُلِدَت في مزاج عكر. أخت زوجتي بهيمة كريهة! لولا الصغيرات لأوقفتُها عند حدها منذ زمن! ولكن على كل حال... فلنصبر على بلوانا! ليس من عادة البدينات السكِّيرات أن يعمِّرن طويلاً.

دون "روكيه" يعتقد أنه بالجلوس والانتظار، سيجيء يوم يؤول فيه إلى بناته مقهى "لا ديليثيا" فضلاً عن أكداس من الممتلكات. وبالتأمُّل في الأمر مليًّا، لم يكُن دون "روكيه" يعدم الأسباب التي تحدو به إلى ذلك، فالأمر يستحقُّ عناء التحمُّل بلا أدنى شك، حتى وإن طال انتظاره خمسين عامًا. فكما يقول المثل: إن باريس تستحقُّ قداسًا!

- ٩٥ -

بعد الغداء مباشرةً، تجتمع دونيا "ماتيلديه" ودونيا "أسونثيون" كل مساء في دكَّان ألبان(١) قائم بشارع "فوينكارَّال" حيث مالكة الدكَّان صديقة لهما. تُدعَى المالكة دونيا "رامونا براجادو" وهي عجوز ذات شعر مصبوغ، وإن كانت على قدر كبير من خفة الظل. كانت فنانة فيما مضى، في عهد الجنرال "بريم"(٢) وفي خضمِّ فضيحة شائنة، حصلت دونيا "رامونا" على

---

(١) منفذ لبيع منتجات الألبان وصنوف الكعك والحلوى، أو تقديمها للزبائن في المكان. وقد اختفت دكاكين الألبان من مدريد في يومنا هذا.

(٢) جنرال "بريم إي برات" (١٨١٤ - ١٨٧٠): جنرال إسباني لعب دورًا بارزًا في الحرب الإسبانية المغربية، أو ما يُعرف في إسبانيا باسم "حرب إفريقيا".

هبة قدرها عشرة آلاف "دورو" أوصى لها بها ماركيز "كاسا پينيا ثورانا" الذي سبق له أن شغل مقعداً في المجلس، كما شغل منصب وكيل وزارة المالية مرتين - بعد علاقة غرامية جمعته بها طيلة عشرين عامًا على الأقل. وبدلاً من تبديد المبلغ، تحلَّتْ المرأة بقدر من حسن التمييز، واشترت حق الانتفاع بالدكَّان الذي كانت تجارته رائجة إلى حد كبير، وله زبائن دائمون. علاوةً على ذلك، كانت دونيا "رامونا" التي لا يفوتها شيء، تغتنم أية فرصة سانحة وتنجح في كسب النقود من الهواء. ومن بين صنوف التجارة التي برعت فيها أكثر مما عداها خلف ستار دكَّان الألبان: الوساطة والدلالة. فكانت تهمس بأكاذيب معسولة ومحبوكة في سمع فتاة شابة ترغب في شراء حقيبة، ثم تضع يدها في جيوب سنيوريتو كسول، من أولئك الذين يؤثرون ألا يزعجوا أنفسهم وأن يُقدَّم لهم كل شيء جاهزًا. مِنْ الناس مَنْ يبرع في كل شيء.

عشية ذلك اليوم، كان اللقاء في دكَّان الألبان باعثًا على البهجة.

- دونيا "رامونا" أحضري بعض الكعك والحساب عندي.

- ولكن، يا امرأة! هل فُزتِ بجائزة اليانصيب؟

- لجوائز اليانصيب أشكال كثيرة، دونيا "رامونا!" تلقَّيتُ رسالة من "پاكيتا" أرسلَتْها إليَّ من "بيلباو" انظري ماذا تقول هنا.

- دعينا نرَ!

- اقرئي بنفسك، فنظري يضعف يومًا بعد يوم. اقرئي هذا الجزء بالأسفل.

دونيا "رامونا" تضع النظارة وتقرأ:

- "توفِّيتْ زوجة حبيبي مريضة بأنيميا حادة" يا إلهي! دونيا "أسونثيون" لا عجب أنكِ تشعرين بكل هذه السعادة!

- تابعي، تابعي.

- "ويقول حبيبي إننا لن نعاود استخدام وسائل منع الحمل، وإنه سوف يتزوَّجني إن حملتُ منه". يا امرأة، إنك الأسعد حظًّا!

- أجل، الشكر للرب، فقد حالفني حسن الحظ مع ابنتي هذه.

- هل حبيبها هو الأستاذ الجامعي؟

- أجل، دون "خوسيه ماريا دي ساماس" أستاذ علم نفس ومنطق وأخلاق.

- مبروك يا امرأة! أحسنتِ إعدادها!

- أجل، أمورها تسير على ما يُرام!

كانت دونيا "ماتيلديه" هي الأخرى تحمل خبرًا سارًا كي تزفَّه إليها. لم يكُن خبرًا مؤكَّدًا شأن ذلك المتعلِّق بـ "باكيتا" ولكنه خبر سار بلا أدنى شك. فقد حصل صغيرها "فلورينتينو دِل ماري نوستروم" على عقد يضمن له مزايا كثيرة للعمل لدى صالة عرض بجادة "باراليلو"(*) في برشلونة، حيث سيُقدِّم عرضًا مرموقًا بعنوان "أنغام العِرْق" من المُتوقَّع أن يحظى برعاية السلطات بالأخذ في الاعتبار خلفية العرض الوطنية.

- سوف أشعر بطمأنينة عظيمة حيال عمله بعاصمة كبرى، فالقُرَى تعاني من جهل شديد، وفيها يتعرَّض أولئك الفنانون للقذف بالحجارة أحيانًا. وكأنهم ليسوا كغيرهم! ذات مرة في "خادراكي" اضطُرَّ الحرس المدني إلى التدخُّل. ولولا وصولهم في الوقت المناسب لنجدة صغيري المسكين، لمزَّقته إربًا تلك الكائنات معدومة القلب والتحضُّر التي لا يروقها سوى الشجار والتفوُّه بالبذاءات في حق النجوم. ملاكي الصغير، يا للفزع الرهيب الذي عانى منه على أيديهم!

دونيا "رامونا" تومئ:

(*) "باراليلو": جادة حيويّة في برشلونة، تنتشر فيها المسارح وصالات العرض وقاعات الموسيقى.

- أجل، أجل، في عاصمة كبرى مثل برشلونة سيكون أفضل حالاً بكثير، فهناك سيَلقَى فنُّه تقديرًا أكبر، واحترامًا أكبر، وكل شيء!

- آه، فعلاً! فكلما أخبرني بأنه سيقوم بجولة في القُرَى يكاد قلبي ينخلع من مكانه. مسكين "فلورينتينو" الصغير، على الرغم من رهافة أحاسيسه المفرطة يضطَرُّ للعمل أمام جمهور على تلك الدرجة من الرجعية ولديه هذا القدر من الأحكام المسبقة، بحسب قوله! أي شيء مُروِّع!

- أجل، حقًا. ولكن، على كل حال... تسير الأمور على ما يُرام الآن...

- أجل، لو أنها تظلُّ هكذا!

ـ ٩٦ ـ

من عادة "لاوريتا" و"پابلو" تناول القهوة في حانة فخمة خلف جادة "جران بِيا" حيث يكاد العابرون بالشارع لا يجرؤون حتى على الدخول، وحيث الوصول إلى الطاولات - نصف دزينة من الطاولات بالكاد، فوق كل طاولة مفرش وتتوسَّطها مزهرية - يقتضي المرور أولاً بالبار شبه المهجور، إلا من بضع سيدات يَعْبُبن الكونياك، وأربعة أو خمسة شباب عاطلين يلعبون النرد ويراهنون بنقود آبائهم.

- أهلاً، "پابلو" ما عدتَ تخاطب أحدًا. بالطبع، فمنذ أن أصبحت عاشقًا...

- أهلاً، "ماري تيري" ماذا عن "ألفونسو"؟

ـ مع الأسرة يا فتى. لقد انصلحت حاله كثيرًا هذه الفترة.

"لاوريتا" تلوي شفتيها. وعند جلوسهما على الأريكة، لا تأخذ بيدي "پابلو" كدأبها. في دخيلة نفسه، يحسُّ "پابلو" بشيء من الراحة.

- أخبرني، من هي تلك الفتاة؟

- صديقة.

فتسأل "لاوريتا" في حزن، وهي تحاول تَسَقُّط هفواته:

- صديقة مثلي؟

- كلا يا فتاة.

- قلتَ إنها صديقة!

- حسنًا، إحدى معارفي.

- طبعًا، إحدى معارفك... اسمع، "پابلو...".

اغرورقت عينا "لاوريتا" بالدموع فجأةً.

- ماذا؟

- أنا مستاءة بشدة.

- لماذا؟

- بسبب تلك المرأة.

- اسمعي أيتها الطفلة، الزمي الصمت ولا تصدِّعي رأسي!

"لاوريتا" تتنهَّد:

- طبعًا! وفوق ذلك توبِّخني!

- كلا يا فتاة، لا فوق ذلك ولا تحت ذلك. لا تزعجيني أكثر مما ينبغي.

- أرأيت؟

- رأيت ماذا؟

- أرأيت كيف أنك توبِّخني؟

"پابلو" يبدِّل التَكْتِيك الذي يتبعه:

- كلا يا صغيرتي، لا أوبِّخكِ. كل ما هنالك أنني أضيق بمشاهد الغيرة تلك، ولكن ما العمل! هكذا كنتُ طيلة عمري.

- هكذا كنتَ مع كل حبيباتك؟

- كلا، "لاوريتا" فالأمر يتفاوت من واحدة إلى أخرى...

- ومعي؟

- أكثر كثيرًا من أية واحدة سواك.

- طبعًا! لأنك لا تحبُّني! فالمرء لا يشعر بالغيرة إلا عندما يحبُّ بقوة، حبًّا جارفًا، كما أحبُّك.

"پابلو" يحدق في "لاوريتا" كمن يحدق في كائن بالغ الغرابة. فتردف "لاوريتا" حانيةً:

- "پابليتو".

- لا تناديني "پابليتو". ماذا تريدين؟

- آه يا رجل، يا لك من حاد المزاج!

- أجل، ولكن لا تعودي إلى ذلك. عليكِ بالتغيير قليلاً، فقد ناداني بهذا الاسم عدد أكبر مما ينبغي من الأشخاص.

"لاوريتا" تبتسم.

- ولكن لا يهمُّني في شيء أن تكون حاد المزاج. فأنت تروقني هكذا، كما أنت. ولكن ما أشدّ غيرتي! قُلْ لي، "پابلو" هل ستخبرني إن توقَّفت عن الشعور بالحب نحوي ذات يوم؟

- أجل.

- ومن يصدِّقكم! جميعكم كاذبون!

أما "پابلو ألونسو" فبينما يرتشف القهوة، بدأ ينتبه إلى الشعور بالضجر الذي يعتريه وهو بجوار "لاوريتا".

- فائقة الحسن، فائقة الجاذبية، فائقة الحنان، فائقة الإخلاص، ولكنها تفتقر إلى التنويع تمامًا.

في مقهى دونيا "روسا" شأن المقاهي جميعًا، يختلف زبائن موعد القهوة عن زبائن موعد الوجبة المسائية الخفيفة. كلهم زبائن دائمون، في حقيقة الأمر، كلهم يجلسون على الأرائك نفسها، كلهم يشربون من الأقداح نفسها، يتناولون "الكربوناتو" نفسه، يدفعون حسابهم بالعملة نفسها، يتجشّمون وقاحات مالكة المقهى نفسها. وعلى الرغم من ذلك، فزبائن الثالثة مساءً لا يمتُّون لزبائن ما بعد السابعة والنصف بصلة، ربما كان ثمة من يعرف السبب. ربما كان الشيء الوحيد القادر على الجمع بينهم هي الفكرة التي يضمرونها جميعًا في أعماق أفئدتهم، والتي مفادها أن كل فريق منهم يمثِّل الحرس القدامى للمقهى بحق. أما الآخرون - زبائن قهوة ما بعد الغداء في رأي زبائن الوجبة المسائية الخفيفة، وزبائن الوجبة المسائية الخفيفة في رأيِ زبائن قهوة ما بعد الغداء- فليسوا بأكثر من دخلاء يتحمَّلهم المرء، بَيْد أنه لا يفكِّر فيهم مجرد تفكير. هذا ما كان ينقصنا! أعضاء كل فريق، فرادَى أو بوصفهم كيانًا واحدًا، لا يتوافقون وأعضاء الفريق الآخر. وفي حال خطر لأحد زبائن ساعة القهوة الانتظار قليلاً وإرجاء الرحيل، يحدِجه أولئك الآخذون في الوصول، أي زبائن الوجبة المسائية الخفيفة، بنظرات ممتعضة، ممتعضة بقدر النظرات التي يحدِج بها زبائنُ ساعة القهوة مَنْ يصل قبل موعده مِنْ زبائن الوجبة المسائية الخفيفة. في مقهى حسن التنظيم، في مقهى يشبه جمهورية "أفلاطون"، لا شك أن هدنةً مدتها ربع ساعة كانت ستُعقد، لئلاً يلتقي القادمون بالراحلين، ولا حتى عند الباب الدوار.

وبخلاف المالكة والعاملين، فالشخص الوحيد المعروف لدينا بمقهى دونيا "روسا" خلال ساعة ما بعد الغداء، هي سنيوريتا "إلبيرا" التي صارت بمثابة قطعة أثاث إضافية في واقع الأمر.

- كيف الحال، "إلبيريتا" هل نلتِ قسطًا من الراحة؟

- أجل، دونيا "روسا". وماذا عنكِ؟

- بين بين يا ابنتي، بين بين لا أكثر. قضيتُ ليلتي رائحةً غاديةً، من التواليت وإليه. لا بد أنني قد تناولت شيئًا سبَّب لي متاعب جسيمة بالمعدة.

- يا إلهي! وهل تشعرين بتحسُّن الآن؟

- أجل، يبدو كذلك. ولكني ما زلت أشعر بإعياء جسدي بالغ.

- لا عجب في ذلك، فالإسهال شيء يصيب بالوهن.

- وأي وهن! لقد فكَّرت في الأمر بالفعل، سوف أطلب من الطبيب زيارتي ما لم أتحسَّن بحلول الغد. فأنا لست قادرة على العمل أو فعل أي شيء وأنا على تلك الحال. وكما تعلمين، على الواحدة منا أن تكون يقظة في هذا المجال، وإلا...

- بالطبع.

"باديًا" بائع التبغ، يحاول إقناع سنيور ما بأن أحد صنوف السجائر المُزوَّدة بفلتر التي يبيعها ليس مصنوعًا من الأعقاب.

- انظر حضرتك، من الممكن التعرُّف على تبغ الأعقاب دائمًا، فمهما غُسل يبقى له مذاق غريب قليلاً. فضلاً عن ذلك، فرائحة الخل تفوح من تبغ الأعقاب على بعد مائة فرسخ. أما هذا التبغ، فيمكنك أن تدسَّ فيه أنفك ولن تلاحظ شيئًا غريبًا. لن أقسم لك بأن هذه السجائر مصنوعة من تبغ "خينير" الكوبي الفاخر، أنا لا أريد خداع زبائني. هذه السجائر مصنوعة من تبغ داكن، ولكنه منخول جيدًا وخالٍ من الشوائب. أما طريقة صنعها فكما ترى حضرتك، ليس فيها شيء مصنوع آليًا، بل كلها صناعة يدوية. تحسَّسها إن شئت.

"ألفونسيتو" صبي المشاوير، يتلقَّى تعليمات من سنيور كان قد صفَّ سيارته عند الباب.

- دعنا نرَ إن كنت قد فهمت. لا ينبغي لنا أن نخطئ. سوف تصعد إلى الشقة وتدقُّ الجرس ثم تنتظر. في حال فتحت لكَ الباب هذه السنيوريتا -

أمعن النظر في الصورة، فهي شقراء ممشوقة القوام- قُلْ لها: "نابليون بونابرت" احفظها جيدًا. وفي حال أجابتك هي قائلةً: "هُزم في واترلو" سلِّمها هذه الرسالة. هل فهمت جيدًا؟

- أجل، سنيور.

- حسنًا. دوِّن اسم "نابليون" والإجابة التي يجب أن تعطيها لك، ثم احفظهما في الطريق. بعد أن تقرأ هي الرسالة، سوف تخبرك بموعد، السابعة، السادسة، أيًا كان. تذكَّر الموعد جيدًا وسارعْ بالعودة كي تخبرني به. أفهمت؟

- أجل، سنيور.

- حسنًا، اذهب حالاً إذن. إذا سلَّمتَ الرسالة بنجاح سوف أعطيك "دورو".

- حسنًا، سنيور. ولكن ماذا لو فتح لي الباب شخص آخر بخلاف السنيوريتا؟

- آه، حقًا! لو فتح لك الباب شخص آخر، فقلْ له ببساطة إنك مخطئ في العنوان. اسأله: "هل يعيش هنا سنيور "بيريث"؟ سيجيبونك بالنفي، عندئذ سارعْ بالانصراف، والسلام. أهذا واضح؟

- أجل، سنيور.

- ٩٨ -

"كونسورثيو لوبيث" مدير المقهى، يتلقَّى اتصالاً هاتفيًا من "ماروخيتا رانيرو" وليس سواها - حبيبته القديمة وأم التوأمين.

- ولكن، ماذا تفعلين في مدريد؟

- جاء زوجي لإجراء عملية جراحية.

ذهل "لوبيث" قليلاً. كان رجلاً واسع الحيلة، بَيْد أن تلك المكالمة الهاتفية قد أخذته في غفلة منه، في حقيقة الأمر.

- وماذا عن الطفلين؟

- لقد كبرا الآن، وسيلتحقان بالمدرسة هذا العام.

- ما أسرع ما يمضي الوقت!

- فعلاً، فعلاً.

جاء صوت "ماروخيتا" يكاد يكون مرتجفًا:

- أخبرني...

- ماذا؟

- ألا تريد رؤيتي؟

- ولكن...

- طبعًا! لعلَّك تحسبني في حالة يُرثَى لها.

- كلا يا امرأة. يا لكِ من ساذجة! ولكنني الآن...

- كلا، ليس الآن، بل الليلة حين تغادر. فزوجي سيبقى في دار الرعاية، أما أنا فقد نزلتُ في بنسيون.

- أي بنسيون؟

- "لا كويَّادينسي" بشارع "لا ماجدالينا".

تردَّد دوي نيران في صدغي "لوبيث".

- أخبريني، كيف أدخل؟

- عبر الباب، فقد حجزت لك غرفة بالفعل، رقم٣.

- وكيف ألقاكِ؟

- هيا ولا تكن ساذجًا! سوف أمرُّ بك.

وضع "لوبيث" سماعة الهاتف مولِّيًا وجهه شطر البار مرة أخرى، فأطاح

مرفقه بمحتويات رف كامل، رف المشروبات الكحولية: "كوانترو"، "كاليساي" "بينيديكتيني" "كوراساو" "كريم دي كافيه" "كريم دي منث"... فقامت الدنيا ولم تقعد!

ـ ٩٩ ـ

مرَّت "بيتريتا" خادمة "فيلو" بحانة "ثيليستينو أورتيث" كي تُحضِر مضخَّة ماء الصودا لأن "خابييرين" الصغير مصاب بانتفاخ. فأحيانًا ما تنتفخ معدة الطفل المسكين بالغازات التي لا تزول عنه سوى بماء الصودا.

– "بيتريتا" هل تعلمين أن شقيق مُستخدِمتك قد أصبح سليط اللسان؟

– دعه وشأنه، سنيور "ثيليستينو" فالمسكين في حالة يُرثَى لها. أهو مدين لك بشيء؟

– أجل، باثنين وعشرين "بيسيتا".

اقتربت "بيتريتا" من المخزن الخلفي:

– سوف آخذ مضخَّة ماء الصودا، هلا أضأتَ المصباح؟

– تعرفين مكانه.

– كلا، أضئه أنت، فالمفتاح يؤدِّي إلى الإصابة بماس كهربائي أحيانًا.

دلف "ثيليستينو أورتيث" إلى المخزن الخلفي لإضاءة المصباح، فدنت منه "بيتريتا".

ـ قُلْ لي، ألا أساوي اثنين وعشرين "بيسيتا".

لم يستوعب "ثيليستينو أورتيث" السؤال.

– ها؟

– أسألك عما إذا كنت أساوي اثنين وعشرين "بيسيتا".

تتدفَّق الدماء إلى رأس "ثيليستينو أورتيث".

ـ أنتِ تساوين إمبراطورية!

– وماذا عن الاثنين وعشرين "بيسيتا".

انقضَّ "ثيليستينو أورتيث" على الفتاة.

– إليكَ حساب فناجين القهوة التي طلبها سنيوريتو "مارتين"!

وكأنما قد مرَّ ملاكٌ عبر المخزن الخلفي بحانة "ثيليستينو أورتيث" مثيرًا بجناحيه إعصارًا عاتيًا.

– وأنتِ، لماذا تفعلين ذلك من أجل سنيوريتو "مارتين"

ـ لأن مزاجي يملي عليَّ ذلك! ولأنني أحبُّه أكثر من أي شيء سواه في هذا العالم. وأقولها لكل من يريد أن يعرف، ولحبيبي قبل الجميع.

وبوجنتين متوردتين، وصدر خافق، وصوت مبحوح، وشعر مُبعثَر، وعينين ملؤهما بريق، بدت "بيتريتا" غريبة الجمال، كأنثى أسد تزوَّجَتْ حديثًا.

– وهل يبادلكِ الشعور؟

– لا أسمح له بذلك.

ـ ١٠٠ ـ

في الخامسة ينفضُّ اللقاء المُنعقِد بمقهى شارع "سان برناردو" وقرابة الخامسة والنصف، أو قبل ذلك، ينصرف كلٌّ إلى حال سبيله: دون "پابلو" ودون "روكيه" إلى بيتيهما، دون "فرانثيسكو" وزوج ابنته إلى العيادة، دون "تيسيفونتيه" إلى دراسته، أما سنيور "رامون" فيراقب كيف تُرفَع أبواب مخبزه، منجم الذهب الذي يمتلكه.

وفي المقهى، على طاولة منعزلة بعض الشيء، مكث رجلان مكانهما، يدخِّنان فيما يشبه الصمت. أحدهما يُدعَى "بينتورا أجوادو" ويدرس للالتحاق بعمل في الشهر العقاري.

- أعطني سيجارة.

- إليك.

"مارتين ماركو" يُشعِل السيجارة.

- اسمها "پوريتا" وهي امرأة فاتنة، رقيقة كطفلة، ومرهفة كأميرة. أية حياة تدعو للغثيان!

"پوريتا"، أي "پورا بارتولوميه"، تتناول في تلك الساعة وجبة مسائية خفيفة برفقة تاجر خردة ثري في مطعم رخيص بشارع "كوتشيِّروس".

"مارتين" يتذكَّر كلماتها الأخيرة له:

- وداعًا، "مارتين" كما تعلم، عادةً ما أكون في البنسيون كل مساء، ليس عليك أكثر من الاتصال بي عبر الهاتف. لا تتَّصل بي مساء اليوم، فعندي التزام مع صديق لي.

- حسنًا.

- وداعًا، أعطني قبلة.

- ولكن، هنا؟

- أجل أيها الساذج، سيخالنا الناس زوجين.

امتصَّ "مارتين ماركو" دخان سيجارته فيما يشبه السمو. ثم أخذ نفسًا عميقًا.

- على كلٍّ... "بينتورا" أعطني اثنين "دورو" فاليوم لم آكل شيئًا.

- ولكن يا رجل، لا يمكن للمرء أن يعيش هكذا!

- أنا خير من يعلم!

- ألم تجد فرص عمل متاحة؟

- لم أجد شيئًا... أتقاضى عن المقالين اللذين أكتبهما مائتي "پيسيتا" تُقتطع منها نسبة تسعة بالمائة.

- أنت في مأزق! حسنًا، إليك، قبل أن أنفق النقود! فقد أصبح أبي يشدُّ الحزام الآن. إليك خمسة، وإلا فما يمكنك عمله باثنين "دورو".

ـ شكرًا جزيلاً. اسمح لي بأن أدعوكَ على القهوة بنقودك.

نادى "مارتين ماركو" النادل:

- فنجانين من القهوة.

- الحساب ثلاثة "بيسيتا".

ـ تفضَّل الحساب.

دسَّ النادل يده في جيبه وأعطاه الباقي: اثنين وعشرين "بيسيتا".

"مارتين ماركو" و"بينتورا أجوادو" صديقان منذ زمن. كانا زميلين في كلية الحقوق، قبل الحرب.

- هيا بنا نذهب؟

- حسنًا، كما شئت. لم يعُد لدينا ما نفعله هنا.

- يا رجل، في حقيقة الأمر، ليس لدي ما أفعله لا هنا ولا في أي موضع آخر. إلى أين أنت ذاهب؟

- لا أعرف، سأتجوَّل قليلاً لإضاعة الوقت.

ابتسم "مارتين ماركو":

ـ انتظر حتى أتناول قليلاً من "الكربوناتو". فليس هناك ما هو خير من "الكربوناتو" لعلاج عسر الهضم.

ـ ١٠١ ـ

"خوليان سواريث سوبرون" الشهير بـ "المُصوِّرة" البالغ من العمر ثلاثة وخمسين عامًا، من مواليد "بيجاديو" بمقاطعة "أوبييدو" و"خوسيه خيمينيث فيجيراس" الشهير بـ "الشظية" البالغ من العمر ستة وأربعين

عامًا، من مواليد "پويرتو دي سانتا ماريا" بمقاطعة "قاديث" جلس كلٌّ منهما واضعًا يدًا على يد في قبو مقر الشرطة الرئيسي، في انتظار ترحيلهما إلى السجن.

- آهٍ، "پيپيه!" ما أحوجنا إلى فنجان صغير من القهوة في هذه الساعة!

- طبعًا، وكأس من شراب "الأنيس" المُعتَّق، اطلبْ منهم لعلَّهم يقدِّمون لك ما تريد.

سنيور "سواريث" أشدّ قلقًا من "پيپيه الشظية" فمن الواضح أن "خيمينيث فيجيراس" أكثر اعتيادًا على مثل هذه المواقف.

- تُرَى، لماذا يحتجزوننا في هذا المكان؟

- ليس لديَّ أدنى فكرة. لعلَّك هجرتَ سنيوريتا شريفة بعد أن غرَّرت بها وأنجبت منها ابنًا، أليس كذلك؟

- آهٍ، "پيپيه!" يبدو أن معنوياتك مرتفعة للغاية!

- يا فتى، لا فارق عندهم مهما حدث.

- أجل، أنت مُحقٌ في ذلك أيضًا. أشد ما يؤلمني عجزي عن إطلاع ماما على ما يجرى.

- أتعود إلى هذا الحديث؟

- كلا، كلا.

أُلقِيَ القبض على الصديقين في الليلة السابقة بحانة تقع في شارع "بينتورا دي لا بيجا". دلف إلى الحانة أفراد الشرطة الذين ذهبوا لتوقيفهما، ألقوا نظرة سريعة في أرجاء المكان، و"طاخ!" انطلقوا صوبهما كالرصاصة. أي رجال! وكم اعتادوا تلك الأمور!

- تفضلا بمرافقتنا.

- آهٍ! ولماذا يُلقَى القبض عليَّ؟ أنا مواطن شريف، لا أتعرَّض لأحد، وأوراقي سليمة.

- عظيم. يمكنك الإدلاء بكل هذا حين تُسأل عنه. انزع تلك الزهرة عن ياقتك.

- آهٍ! ولماذا؟ لستُ مُضطرًا لمرافقتكم، فأنا لم أرتكب أمرًا مخالفًا.

- لا داعي لإثارة البلبلة، من فضلك. انظر إلى هنا.

نظر سنيور "سواريث" ليجد الأصفاد المفضَّضة تطلُّ من جيب الشرطي.

كان "بيبيه الشظية" قد قام من جلسته بالفعل.

- "خوليان" فلنذهب مع أولئك السادة، وسوف ينجلي كل شيء.

- هيا، هيا. أي أسلوب هذا!

وفي مقر الشرطة، لم تقتضِ الضرورة فتح ملف لكل منهما، إذ كان لهما ملف بالفعل. فلم تدعُ الحاجة إلى أكثر من إضافة تاريخ اليوم وثلاث أو أربع كلمات عجزا عن قراءتها...

- لماذا أُلقِيَ القبض علينا؟

- ألا تعرف؟

- كلا، ليس لديَّ أدنى فكرة. وكيف لي أن أعرف؟

- سرعان ما يخبرونك بالسبب.

- ألا يمكنني إخبار أحد بأنني رهن الاعتقال؟

- غدًا، غدًا.

- ولكن ماما طاعنة في السن، والمسكينة سوف تقلق بشدة.

- والدتك؟

- أجل، تبلغ من العمر ستة وسبعين عامًا.

- حسنًا، ليس في وسعي أن أفعل شيئًا، أو أقول شيئًا. غدًا سوف تتجلي الأمور.

في بادئ الأمر، تعذَّرَتْ الرؤية تمامًا في الزنزانة حيث احتُجِزا، وهي عبارة عن حجرة شاسعة، مُربَّعة، ذات سقف خفيض، بالكاد يضيئها مصباح بسعة خمسة عشر وات يحيط به قفص من الأسلاك المعدنية. وبعد برهة، حين بدأت عيونهما تألف المكان، تبيَّن سنيور "سواريث" و"پيپيه الشظية" بعض الوجوه المألوفة: مُخنَّثين فقراء، لصوص، نشالين، محتالين محترفين، وأناس قضوا حياتهم يدورون حول أنفسهم كالنحلة الدوَّارة، فلم يعاودوا الخروج من تلك الدوامة قط.

- آهٍ، "پيپيه"! ما أحوجنا إلى فنجان صغير من القهوة في هذه الساعة!

وبالداخل، كان المكان معبأ برائحة كريهة للغاية، رائحة عطنة، نفاذة، تدغدغ الأنوف.

ـ ١٠٢ ـ

ـ أهلاً، جئتَ في وقت مُبكِّر للغاية اليوم. أين كنت؟

- كعادتي دائمًا، أحتسي القهوة مع أصدقائي.

دونيا "بيسي" تُقبِّل صلعة زوجها.

- لو أنك تعرف كم أُسَرُّ لمجيئك مُبكِّرًا!

- رويدكِ، لقد كبرنا على هذا الحديث!

دونيا "بيسي" تبتسم. دونيا "بيسي" المسكينة تبتسم دومًا.

- أتعرف من سيأتي مساء اليوم؟

- أحد الببغاوات الثرثارة، وأراهن على ذلك.

دونيا "بيسي" لا تشعر بالضيق أبدًا.

- كلاًّ، بل صديقتي "مونسيرَّات".

ـ شخصية طيبة!

- إنها طيبة حقًّا!

- ألم تقصّ عليكِ المزيد من معجزات ذلك القسِّ في "بيلباو".

ـ كفاكَ، ولا تكُن مهرطقًا! لماذا تصرُّ على التفوُّه بتلك الأمور دومًا، ما دمتَ لست مقتنعًا بها؟

- كما ترين.

دون "روكيه" لديه قناعة تترسَّخ يومًا بعد يوم بأن زوجته بلهاء.

- هل ستكون معنا؟

- كلا.

- يا رجل!

يدقُّ جرس البوابة وتدلف صديقة دونيا "بيسي" إلى البناية في اللحظة نفسها التي يتفوَّه خلالها ببغاء الطابق الثاني بألفاظ آثمة.

- "روكيه" لم يعُد احتمال هذا الوضع ممكنًا. سأقدِّم في هذا الببغاء بلاغًا ما لم يتأدَّب.

- ولكن يا امرأة، ألا تدركين المهزلة التي سوف تتسبَّبين فيها بقسم الشرطة حين يدركون أنك ذاهبة لتقديم بلاغ في ببغاء؟

ـ ١٠٣ ـ

الخادمة تطلب من دونيا "مونسيرَّات" الدخول إلى الصالة.

- سأُخطِر السنيوريتا بوصولك، تفضَّلي بالجلوس.

دونيا "بيسي" تهرول طائرةً لتحية صديقتها، أما دون "روكيه" فيلقي نظرة سريعة من خلف الأستار، ثم يجلس إلى جوار المجمر ويخرج الكوتشينة.

- لو جاء "الولد البستوني" ضمن الأوراق الخمس الأولى، فتلك بشرى طيبة. أما لو جاء "الآس" فذلك أكثر مما ينبغي. أنا لم أعُد فتى صغيرًا!

دون "روكيه" له قواعده الخاصة فيما يتعلّق بقراءة الكوتشينة.

جاء "الولد البستوني" بعد ورقتين.

- مسكينة "لولا!" تُرَى، ماذا يخبِّئ لكِ المستقبل! أشفق عليكِ أيتها الفتاة! على كلٍّ...

"لولا" هي أخت "خوسيفا لوبيث" خادمة عملَتْ فيما سبق لدى آل "روبليس" جمعت بينها وبين دون "روكيه" علاقة ما. أما الآن وقد اكتنزَتْ لحمًا وبلغت من العمر شتاءه، فقد خلعتها أختها الصغرى وحلَّت محلَّها. في الوقت الراهن، تتولَّى "لولا" كل شؤون بيت دونيا "ماتيلديه" المرأة المُحالة على المعاش وأم الفتى المنولوجست.

دونيا "بيسي" ودونيا "مونسيرَّات" تثرثران كالببغاوات. دونيا "بيسي" تشعر بسعادة جارفة، إذ ظهر اسمها وأسماء بناتها الثلاث في الصفحة الأخيرة من المجلة نصف الشهرية، "ملاك الكاروبيم (*) المُبشِّر".

ـ سوف ترين بعينيك أن تلك هي عين الحقيقة، وأنني لم أختلق شيئًا بنفسي. "روكيه"! "روكيه"!

ومن أقصى الطرف الآخر بالبيت، يصيح دون "روكيه".

ـ ماذا تريدين؟

- أرسل المجلة التي ورد بها خبر الصينيين مع الفتاة!

- ها؟

دونيا "بيسي" تُعقِّب قائلة لصديقتها:

(*) الكاروبيم: من طبقات الملائكة التي ورد ذكرها في غير موضع بالكتاب المقدس. ومن الجدير بالذكر أن المؤلِّف يلمح إلى مطبوعات حقيقية ذات طابع ديني، حتى وإن كان اسم المجلة الذي ورد ذكره من نسخ الخيال.

- آهٍ، يا إله السماوات! أولئك الرجال لا يسمعون شيئًا أبدًا.

رفعت صوتها مناديةً زوجها مرة أخرى:

- أرسلها مع الفتاة...! أتسمعني؟

- أجل!

- إذن، أرسل المجلة التي ورد بها خبر الصينيين مع الفتاة!

- أية مجلة؟

- التي ورد بها خبر الصينيين يا رجل، الأطفال الصينيين والإرساليات التبشيرية!

- ها؟ لم أسمع شيئًا. ماذا تقولين بشأن الصينيين؟

دونيا "بيسي" تبتسم لدونيا "مونسيرات".

- زوجي رجل طيب جدًا، ولكنه لا يدرك شيئًا مما يجري أبدًا. سأذهب بنفسي لإحضار المجلة، لن أستغرق نصف دقيقة. أستميحك عذرًا لحظةً واحدة.

دونيا "بيسي" تبلغ الحجرة حيث يلعب دون "روكيه" لعبة "سوليتير"، جالسًا إلى طاولة توضع أسفلها مدفأة صغيرة، فتسأله:

- يا رجل، ألم تسمعني؟

لم يرفع دون "روكيه" بصره عن الكوتشينة:

- لو حسبتِ أنني سأبرح مكاني من أجل الصينيين، فأنتِ مخطئة!

أخذت دونيا "بيسي" تُنقِّب في سلة أدوات الخياطة، حتى وجدت العدد الذي كانت تبحث عنه من مجلة "ملاك الكاروبيم المُبشِّر" ثم جعلت تغمغم بصوت خفيض وعادت إلى صالة الزوار الباردة إلى حد يكاد يجعل التواجد بها مستحيلاً.

بعد البحث المُتعجِّل الذي أجرته دونيا "بيسي" بقيت سلة أدوات الخياطة مفتوحة، ومن بين القطن المُخصَّص لرَفْو الثياب وعلبة الأزرار - علبة أقراص سعال أكل عليها الدهر وشرب - أطلَّ عدد آخر من مجلات دونيا "بيسي" على استحياء.

مال دون "روكيه" إلى الخلف في مقعده والتقط المجلة.

- ها هو ذلك الرجل.

كان "ذلك الرجل" هو القِسّ صاحب المعجزات في "بِلباو".

شرع دون "روكيه" يطالع المجلة:

"روساريو كيسادا" (من "خايين") من أجل شفاء أختها من التهاب حاد في القولون: تتبرَّع بخمسة "پيسيتا".

"رامون إرميدا" (من "لوجو") ، من أجل ما ناله من نِعَم كثيرة في نشاطه التجاري: يتبرَّع بعشرة "پيسيتا".

"ماريا لويسا دِل باييِّه" (من مدريد)، من أجل اختفاء تورُّم صغير في العين من دون الحاجة لزيارة طبيب العيون: تتبرَّع بخمسة "پيسيتا".

"جوادالوپيه جوتييريِّث" (من "ثيوداد ريال") من أجل شفاء طفل بعمر تسعة عشر شهرًا من جرح ناجم عن سقوطه من شرفة بالطابق الأوسط: تتبرَّع بخمسة وعشرين "پيسيتا".

"مارينا لوپيث أورتيجا" (من مدريد)، من أجل ترويض حيوان أليف: تتبرَّع بخمسة "پيسيتا".

أرملة عظيمة الورع والإيمان (من "بِلباو") من أجل عثورها على وثيقة تضم قائمة ممتلكات بعد أن فقدها عامل بالمنزل: تتبرَّع بخمسة وعشرين "پيسيتا".

يعتري دون "روكيه" القلق:

- لا أصدِّق، لا يُمكن أخذ ذلك على محمل الجد.

دونيا "بيسي" تشعر بأنها ملزمة بالاعتذار قليلاً أمام صديقتها:

- ألا تشعرين بالبرد، "مونسيرَّات" هناك أيام يتحوَّل خلالها هذا البيت إلى ثلاجة!

- يا إلهي! إطلاقًا، "بيسيتاثيون" فالجو هنا لطيف جدًا. لكم بيت رائع، ويشتمل على الكثير من وسائل الراحة، أو الـ comfort كما يقول الإنجليز.

- أشكرك، "مونسيرَّات" كم أنتِ دمثة الخلق كعهدي بكِ دومًا.

ابتسمت دونيا "بيسي" وشرعت تبحث عن اسمها في القائمة. أما دونيا "مونسيرَّات". وهي امرأة طويلة القوام، مسترجلة، ذات شارب وعظام بارزة، تفتقر إلى اللباقة، متثاقلة في حديثها بعض الشيء، وحسيرة البصر- فتضع نظارة تُثبَّت على الأنف.

وبالفعل، كما أكدَّتْ دونيا "بيسي" يظهر اسمها وأسماء بناتها الثلاث في الصفحة الأخيرة من مجلة "ملاك الكاروبيم المبشِّر":

دونيا "بيسيتاثيون ليكليرك دي مويسيس"، من أجل معمودية طفليْن صينييْن باسمي "إجناثيو" و"فرانثيسكو خابيير": تتبرَّع بعشرة "پيسيتا".

سنيوريتا "خوليتا مويسيس ليكليرك" من أجل معمودية طفل صيني باسم "بينتورا" تتبرَّع بخمسة "پيسيتا".

سنيوريتا "بيسيتاثيون مويسيس ليكليرك" من أجل معمودية طفل صيني باسم "مانويل" تتبرَّع بخمسة "پيسيتا".

سنيوريتا "إسپِرانثا مويسيس ليكليرك" من أجل معمودية طفل صيني باسم "أجوستين" تتبرَّع بخمسة "پيسيتا".

- ها؟ ما رأيك؟

دونيا "مونسيرَّات" تومئ برأسها مرضاةً لصديقتها:

- يبدو لي كل ذلك رائعًا، رائعًا بالتأكيد. ما أكثر العمل المطلوب! إن مجرد التفكير في ملايين الكفار الذين ما زالوا في حاجة إلى الهداية أمر يدعو إلى الفزع. فلا بد أن بلاد الكفار تغصّ بالناس كأعشاش النمل.

- صدقتِ القول! على الرغم من ظُرف الأطفال الصينيين! لولا أننا ضحينا بأشياء صغيرة من أجلهم، لذهبوا مباشرةً إلى "الليمبو"(*) وعلى الرغم من جهودنا المتواضعة، فلابد أن "الليمبو" يغصّ بأهل الصين، ألا تعتقدين؟

- فعلاً، فعلاً!

- إن مجرد التفكير في ذلك يقشعرّ له البدن. تصوَّري اللعنة المحدقة بالصينيين! كلهم هناك، محبوسون لا يدرون ما العمل...!

- إن ذلك شيء مُروِّع!

- وماذا عن الصغار يا امرأة؟ أولئك الذين لا يقدرون حتى على السير بعد، أيَعلَقونَ في الموضع نفسه أبدًا كالديدان الصغيرة؟

- حقًا.

- ينبغي لنا أن نشكر الرب جزيلاً لأننا وُلدنا إسبانيين. لو كنا قد وُلدنا في الصين لربما ذهب أبناؤنا إلى "الليمبو" من دون أن ينالوا المغفرة. أمن أجل هذا المصير يُرزق المرء بأبناء! رغم كل ما تتجشّمه الواحدة منا لإنجابهم، والحروب التي تخوضها للعناية بهم في الصِّغر!

دونيا "بيسي" تتنهَّد بعطف:

- يا لبناتي المسكينات! ما أعظم غفلتهن عن الخطر الذي كان يحدق بهن! من حسن الحظ أنهن ولدن في إسبانيا، ولكن تصوَّري لو كن قد ولدن في الصين! كان من الممكن أن يولدن في الصين، أليس كذلك؟

(*) "الليمبو": حيث تذهب الأرواح المحرومة من الدخول إلى الملكوت لغير ذنب اقترفته، كأرواح الأطفال غير المُعمَّدين على سبيل المثال، وفقًا لبعض العقائد المسيحية.

اجتمع جيران الراحلة دونيا "مارجوت" في بيت دون "إبرايم" لم يكُن ينقصهم سوى: دون "ليونثيو مايستري" الموقوف بأمرٍ من القاضي، ودون "أنطونيو خارينيو" القاطن في الشقة د. بالطابق الأوسط، الموظف لدى شركة "ڤاجون-لي" نظرًا لدواعي السفر، ودون "إجناثيو جالداكانو" القاطن في الشقة ب. بالطابق الثاني، نظرًا لأن المسكين مصاب بالجنون، وأخيرًا ابن الراحلة، دون "خوليان سواريث" الذي لا يُعرَف له مكان. في حين أن الشقة أ. بالطابق الأول لا يقطن بها أحد نظرًا لكونها مقرًا لأحد المراكز التعليمية. أما باقي السكان فلا ينقصهم أحد.

خيَّمت على الجميع دهشة عظيمة من جراء ما وقع، وفي الحال استجابوا لطلب دون "إبرايم" بتبادل الانطباعات بشأن الحادث.

كاد الحاضرون لا يجدون لهم مُتَّسَعًا في بيت دون "إبرايم" الذي لم يكُن ضخمًا، واضطُرَّ معظمهم إلى الوقوف متَّكئين على الحائط أو قطع الأثاث وكأنهم ساهرون على جثمان في قاعة الجنازة.

شرع دون "إبرايم" في الحديث قائلاً:

- أيها السادة، لقد سمحتُ لنفسي أن أناشدكم الحضور إلى هذا الاجتماع، نظرًا لوقوع حادث خارج عن حدود المألوف في البيت حيث نقطن.

قاطعَتْه دونيا "تيريسا كورَّاليس" وهي امرأة على المعاش تقطن في الشقة ب. بالطابق الرابع:

- الشكر للرب!

فأجابها دون "إبرايم" في وقار:

- الشكر والحمد له.

فأردف البعض بصوت خفيض:

- آمين.

تابع دون "إبرايم دي أوتسولاثا" قائلاً:

- بالأمس، حين أبلغني جارنا دون "ليونثيو مايستري" الذي نأمل أن تظهر براءته سريعًا، ساطعة ومبهرة كضياء الشمس...

- لا ينبغي لنا عرقلة سير العدالة!

هكذا صاح مُحتجًا دون "أنطونيو پيريث پالينثويلا" سنيور يعمل موظفًا بالنقابة ويقطن في الشقة ج. بالطابق الأول. ثم استطرد في حديثه:

- بل علينا الامتناع عن الإدلاء بآرائنا قبل الأوان! وبصفتي رئيس البناية(*)، فمن واجبي تلافي أي نوع من أنواع الضغط يمكن أن يُمارس على السلطة القضائية!

فقال له دون "كاميلو پيريث" اختصاصي العناية بالقدم، والقاطن في الشقة د. بالطابق الأول:

- اصمتْ يا رجل، ودعْ دون "إبرايم" يتابع.

- حسنًا، دون "إبرايم" تابع حديثك، لا أريد مقاطعة الاجتماع. إن كل ما أردتُه احترام السلطات القضائية الموقَّرة وتقدير جهودها بموجب قرار...

-صه...! صه...! دعه يتابع!

فسكت دون "أنطونيو پيريث پلانثويلا".

ـ كما كنت أقول، حين أبلغني دون "ليونثيو مايستري" البارحة بخبر الحادث المؤسف الذي راحت ضحيته دونيا "مارجوت سوبرون دي سواريث" فليسكنها الرب فسيح ملكوته، سارعتُ باللجوء إلى صديقنا المُقرَّب والحميم الدكتور دون "مانويل خوركيرا" الحاضر هنا، لأطلب منه موافاتنا بتشخيص دقيق ومُتقَن بشأن حالة جارتنا. فما كان من الدكتور "خوركيرا"

(*) خلال سنوات ما بعد الحرب الأهلية، كان يجري اختيار ساكن واحد في كل بناية لتنصيبه رئيسًا قائمًا على شؤون المكان ومسؤولاً عن مراقبة باقي السكان بأمر من النظام الحاكم.

إلا أن بادر بوضع نفسه تحت تصرُّفي بخطًى حثيثة، إن دلَّت على شيء فإنما تدلّ بوضوح على الحسِّ المهني الرفيع الذي يتَّسم به. ثم دلفنا معًا إلى محلِّ سكن الضحية.

أمعن دون "إبرايم" في تنميق أسلوبه الخطابي:

- وأسمح لنفسي بأن أطلب من حضراتكم تقديم آيات الشكر والعرفان لجارَيْنا اللذين نتشرَّف بحسن جوارهما: الدكتور الموقَّر "خوركيرا" والدكتور الموقَّر دون "رافاييل ماساسانا" الذي يكاد يتوارى في هذه اللحظة خلف الأستار، يحدوه إلى ذلك تواضعه.

- عظيم!

هكذا هتف في آن واحد كل من دون "إكسوپيريو إستريميرا" الكاهن القاطن في الشقة ج. بالطابق الرابع، ودون "لورينثو سوجيرو" مالك حانة "إل فونساجرادينو" القاطن بإحدى شقق الطابق الأرضي.

أخذت نظرات الحاضرين جميعًا تتنقَّل من طبيب إلى آخر، ملؤها المديح والثناء. كان الموقف أشبه بمصارعة الثيران، حين يُستدعَى المصارع الذي أبلى بلاء حسنًا إلى وسط الحلبة، فيأخذ معه الرفيق الذي لم يحالفه الحظ بالقدر نفسه في مواجهة القطيع، ولم يكُن أداؤه بالمستوى نفسه.

ثم أردف دون "إبرايم" مُعلنًا:

- حضرات السادة، رأيتُ إسعافات العِلم وقد وقفَتْ عاجزة إزاء الجريمة الوحشية المُقترَفة، فلم أنشغل سوى بمسألتين لا أكثر. وباعتباري رجلاً مؤمنًا، فقد فوَّضتُ أمرهما للرب: أولاً، ألاَّ يجد أي منا نفسه... (وآمل ألا يلمح عزيزي سنيور "پيريث پالينثويلا" في كلماتي أدنى أثر للشروع في ممارسة الضغط على أحدٍ أيًا كان)... ألاَّ يجد أي منا نفسه، كما كنت أقول، مُتَّهمًا باقتراف تلك الجريمة البشعة الشائنة. وثانيًا، ألاَّ

تُحرَم دونيا "مارجوت" من التشييع الجنائزي الكريم الذي يليق بها، والذي نتمنَّى مثله جميعًا لأنفسنا وذوينا والمُقرَّبين إلينا، يومَ تحين الساعة.

دون "فيديل أوتريرا" المساعد الطبي القاطن في الشقة أ. بالطابق الأوسط، وهو على قدر كبير من الصلف، كاد أن يهتف قائلاً: "برافو" وقفت الكلمة على طرف لسانه، ولكنه تمكَّن من كبحها لحسن الحظ.

– وبناءً على ما تقدَّم فإنني أقترح، يا جيراني الكرام، يا من غمرتم جدران بيتي المتواضع بالضياء والبهاء...

أما دونيا "خوانا إنترينا" أرملة "سيسِمون" وهي امرأة على المعاش وتقطن في الشقة ب. بالطابق الأول، فقد نظرت إلى دون "إبرايم" متفكِّرةً:

– أي أسلوب بديع في التعبير! أي جمال! أية دقة! يبدو كما لو كان كتابًا مفتوحًا!

تعثَّرت دونيا "خوانا" في نظرات سنيور "إبرايم دي أوستولاثا" فحوَّلت ناظريها إلى "فرانثيسكو لوبيث" الذي طالما ائتمنته على أسرارها وطالما كفكف دمعها، وهو مالك كوافير السيدات "كريستي آند كيكو" في الشقة ج. بالطابق الأوسط.

تلاقت النظرتان، فدار بينهما حوار وجيز، حوار آني:

– ها؟ كيف الحال؟



– عظيم، سنيورا!

بينما تابع دون "إبرايم" غير مبالٍ:

– ... أقترح أن نأخذ على عاتقنا ما يلي: أن نبتهل من أجل دونيا "مارجوت" في صلواتنا فرادى، وأن نتحمل نفقات إقامة جنازة على روحها مجتمعين.

فقال دون "خوسيه ليثينينا" مالك الشقة د. بالطابق الثاني:

- أنا موافق.

ثم أيَّد رأيه دون "خوسيه ماريا أوليبرا" الكابتن في سلاح الإمداد والتموين، القاطن في الشقة أ. بالطابق الأول:

- موافق تمامًا.

- هل يتَّفق الجميع في الرأي؟

فأجاب دون "أرتورو ريكوتيه" الموظف لدى بنك "إسپانو أميريكانو" والقاطن في الشقة د. بالطابق الرابع، بصوت أجش خافت:

- أجل، سنيور.

ثم أيَّده دون "خوليو مالويندا" بَحَّار تجاري متقاعد يقطن في الشقة ج. بالطابق الثاني، كان بيته أشبه بمخزن خردة مزدحم بالخرائط والنقوش ونماذج المراكب، فضلاً عن دون "رافاييل سايث" فني المساحة الشاب القاطن في الشقة د. بالطابق الثالث:

- أجل، أجل.

كما أدلى برأيه أيضًا دون "كارلوس لوكيه" التاجر مستأجر الشقة د. بالطابق الأول:

- مما لا شك فيه أن سنيور "إبرايم أوستولاثا" على حق، وينبغي لنا إقامة الصلاة على روح جارتنا المرحومة.

أما دون "پيدرو پابلو تاوستيه" مالك ورشة إصلاح الأحذية المسماة "عيادة الأحذية" فلم يرغب في السير عكس التيار:

- كل ما اتَّفق عليه الجميع يبدو لي عظيمًا.

كما تحدَّث دون "فِرناندو كاثويلا" المندوب لدى المحكمة، القاطن في الشقة ب. بالطابق الأول، والذي عثر في الليلة السابقة على عشيق زوجته مختبئًا في سلة الثياب المُتّسِخة، حيث قبع مترقِّبًا، خلال بحث سائر الجيران عن المجرم بموجب أوامر دون "إبرايم".

- إنها فكرة ملائمة ومقبولة، دعونا نؤيدها.

وأخيرًا دون "لويس نواليخو" مُمثِّل شركة "أرملة "كاسيميرو پونس وأولادها للمنسوجات"، القاطن في الشقة ج. بالطابق الأول:

- أوافقك القول.

- شكرًا جزيلاً يا حضرات السادة، أرى بالفعل أننا موافقون بالإجماع. لقد تحدَّثنا جميعًا وأعربنا عن وجهات نظرنا المتوافقة. والآن أتلقَّى دعمكم الكريم وأعهد به إلى جارنا، قداسة الأب الكاهن دون "إكسوپيريو إستريميرا" حتى يباشر تنظيم المراسم كافة بما له من معرفة مُتبحِّرة بوصفه رجل كهنوت.

فحانت من دون "إكسوپيريو" لفتة جديرة بالإعجاب:

- أقبل ما كلفتموني به من أوامر.

كان الأمر قد بلغ نهايته وبدأ الاجتماع ينفضُّ رويدًا رويدًا. كان بعض الجيران مشغولين. أما البعض الآخر، وهم أقلية، فقد رجَّحوا أن يكون دون "إبرايم" مشغولاً. وهناك من غادروا نظرًا للتعب الذي شعروا به بعد ساعة طويلة قضوها وقوفًا على أقدامهم (فللناس فيما يفعلون مذاهب).

أما دون "جومِرسيندو لوپيث" موظف شركة البترول القاطن في الشقة ج. بالطابق الأوسط، الوحيد الذي لم يتكلَّم من بين الحاضرين، فقد راح يتساءل مُتفكِّرًا وهو نازل على الدَّرَج:

- أمن أجل هذا طلبتُ الإذن من المكتب؟

ـ ١٠٥ ـ

دونيا "ماتيلديه" في طريق العودة من دكَّان الألبان المملوك لدونيا "رامونا" تتحدَّث إلى الخادمة:

- "لولا" أحضري كبدًا لتناوله ظهيرة الغد. يقول دون "تيسيفونتيه" إنه صحي للغاية.

دون "تيسيفونتيه" بمثابة وسيط روحاني بالنسبة لدونيا "ماتيلديه" فضلاً عن كونه نزيلها.

- فليكُن الكبد طريًا لإضافته إلى يخنة الكلى، مع قليل من النبيذ والبصل المخروط.

"لولا" تجيب بـ "نعم" على كل شيء، ثم تشتري أول ما تجد في السوق أو أيًا كان ما يمليه عليها مزاجها.

ـ ١٠٦ ـ

"سيوانيه" يغادر بيته. مساء كل يوم، في السادسة والنصف، يبدأ العزف على الكمان بمقهى دونيا "روسا" أما زوجته فتبقى بالمطبخ، حيث ترتق جوارب وقمصانًا. يعيش الزوجان في قبو بشارع "رويث" رطب وغير صحي، تبلغ قيمة إيجاره خمسة عشر "دورو". ومن حسن الحظ يقع على بعد خطوات من المقهى فلا يضطرٌ "سيوانيه" لإنفاق ريال واحد كي يستقلٌ الترام أبدًا.

- وداعًا، "سونسوليس". إلى اللقاء.

فلا ترفع المرأة حتى بصرها عن الخياطة.

- وداعًا، "ألفونسو"، أعطني قبلة.

"سونسوليس" تعاني من ضعف النظر، وفي أجفانها حمرة. دائمًا ما تبدو وكأنها قد فرغت من النحيب لتوٌها. المسكينة لا تلائمها مدريد. بعد الزواج مباشرةً، كانت بديعة الجمال، بضَّة الجسد، مشرقة، كان مرآها باعثًا على السرور، أما الآن فقد صارت حطامًا، رغم أنها لم تطعن في السن بعد. لم تُوفَّق المرأة في حساباتها، إذ كانت تحسب طرقات مدريد مفروشة بالورود، فتزوَّجت من رجل مدريدي. أما الآن وقد باتت الأمور عصية على الإصلاح، فقد أدركت أنها كانت مخطئة.

في بلدتها "نابارّيدونديًا" بمقاطعة "أبيلا" كانت "سونسوليس" سنيوريتا تأكل إلى حد التخمة. أما في مدريد، فليست بأكثر من تعيسة تأوي إلى الفراش من دون عشاء معظم الأيام.

ـ ١٠٧ ـ

جلس "ماكاريو" مع حبيبته، وقد أخذ كل منهما بيد الآخر بقوة، على أريكة في الجُحر الخاص بسنيورا "فروكتووسا" عمة "ماتيلديتا" وحارسة العقار بشارع "فِرناندو السادس".

ـ إلى الأبد...

يتهامس كل من "ماتيلديتا" و"ماكاريو":

ـ وداعًا يا عصفورتي الصغيرة، فأنا ذاهب إلى العمل.

- وداعًا يا حبيبي، أراك غدًا. سأفكّر فيك طوال الوقت.

"ماكاريو" يشدُّ على يد حبيبته طويلاً ثم يقوم من جلسته. وعبر عموده الفقري تسري رعدة.

- وداعًا، سنيورا "فروكتووسا"، شكرًا جزيلاً.

- وداعًا يا بنيّ. لا شكر على واجب.

"ماكاريو" فتى راقٍ جدًا، يشكر سنيورا "فروكتووسا" كل يوم.

"ماتيلديتا" لها شعر يبدو كالسنبلة، وبصر حسير بعض الشيء. ضئيلة الجسد وطريفة، وإن كانت تفتقر إلى الجمال قليلاً. تعطي بعض دروس البيانو كلما استطاعت. كما تُعلِّم البنات الصغيرات رقصات تانجو من الذاكرة، وذلك أمر له كبير الأثر.

في بيتها، دائمًا ما تمدُّ يد العون إلى أمها وأختها "خوانيتا" اللتين تعملان في التطريز بالطلب.

"ماتيلديتا" في التاسعة والثلاثين من العمر.

كما يعرف قُرَّاء مجلة "ملاك الكاروبيم المُبشِّر" بنات دونيا "بيسي" ودون "روكيه" ثلاث: ثلاثتهن في مقتبل العمر، ثلاثتهن حسناوات، ثلاثتهن طائشات، ومتهورات.

الكبرى تُدعَى "خوليتا" في الثانية والعشرين من العمر. "خوليتا" تصبغ شعرها باللون الأشقر فتبدو كالممثلة "چين هارلو" حين ينسدل شعرها متموِّجًا طليقًا.

والوسطى تُدعَى "بيسيتاثيون" على اسم أمها، في العشرين من عمرها، ولها شعر كستنائي وعينان عميقتان حالمتان.

أما الصغرى فتُدعَى "إسبِرانث"، لها خطيب بصفة رسمية، يزور البيت ويتجاذب أطراف الحديث مع الوالد بشأن السياسة. "إسبِرانثا" أتمَّتْ التاسعة عشرة لتوِّها، وبدأت في إعداد جهاز العروس بالفعل.

"خوليتا" الكبرى، مفتونة هذه الأيام برجل خلب عقلها، يستعدُّ لاختبار قبول لشغل وظيفة لدى الشهر العقاري. حبيبها يُدعَى "بينتورا أجوادو سانس" وهو يتقدَّم لاختبار القبول لدى الشهر العقاري منذ سبعة أعوام (بخلاف أعوام الحرب) من دون أن يحالفه أدنى نجاح.

من عادة أبيه - مُزارِعٍ لوز من "ريوديكولس" في "تارَّاجونا" أن يقول له:

- يا رجل، تقدَّم لامتحان السجلاَّت أيضًا.

- كلا يا بابا، لا مجال للمقارنة إطلاقًا.

- يا بني، ألا ترى أنك لن تحصل على الوظيفة في الشهر العقاري ولا حتى بمعجزة!

- لن أحصل على الوظيفة؟ بل سأحصل عليها وقتما شئت! كل ما هنالك أنها لا تستحقُّ العناء ما لم تكُن في مدريد أو برشلونة. بل إنني

أؤثر الانسحاب، فذلك أفضل دائمًا. الوجاهة شيء بالغ الأهمية في الشهر العقاري يا بابا.

- أجل، ولكن... ماذا عن "بالِنثيا" أو "إشبيلية" أو "ثاراجوثا" ربما كانت أماكن جيدة إلى حد كبير أيضًا، فيما أرى.

- كلا يا بابا، أنت تفقد التركيز. لديَّ فكرة محددة بالفعل. إن شئت سأنسحب...

- كلا يا رجل، لا داعي للتهويل في الأمر. استمرّ. على كلٍّ، بما أنك قد بدأت بالفعل...! أنت أدرى مني بتلك الأمور.

- أشكرك يا بابا، أنت رجل ذكي. من حسن حظي أنني ابنك.

- من الجائز. فلو كان لك أب آخر لقال لك أن تذهب إلى الجحيم منذ زمن. أما أنا فأتساءل إن كنت ستصبح كاتبًا في الشهر العقاري يومًا!

- روما لم تُبنَ في يومٍ واحد يا بابا.

- بالفعل يا بنيّ، ولكن أكثر من سبعة أعوام وقتٌ كافٍ لبناء روما أخرى بجوارها، أليس كذلك؟

"بينتورا" يبتسم.

- سوف أصبح كاتبًا في الشهر العقاري بمدريد يا بابا، لا تشكّ في ذلك. ما رأيك في واحدة "لاكي سترايك".

- ها؟

- سيجارة من التبغ الفاتح؟

- أف! كلا، دعك من هذا، أفضِّل سجائري.

دون "بينتورا أجوادو ديسپوچولس" يرى أن ابنه لن يصبح كاتبًا في الشهر العقاري أبدًا ما دام يدخِّن التبغ الفاتح وكأنه سنيوريتا. فكل كُتَّاب

الشهر العقاري الذين يعرفهم أشخاص يتَّسمون بالجدية والوقار والحذر، ولهم وزنهم، ويدخِّنون التبغ الداكن.

- هل حفظت كتاب "كاستان" في القانون؟

- كلا، لم أحفظه. فالحفظ له آثار سلبية.

- وماذا عن أحكام القانون المدني؟

- أجل، اسألني كما تشاء وفي أي موضع تشاء.

- كلا، كنت أسألك بدافع الفضول لا أكثر.

"بينتورا أجوادو سانس" يفعل بأبيه ما يشاء، يحيِّره بقوله إن "لديه فكرة بالفعل"، وإن أباه "يفقد تركيزه".

"بيستاثيون" ثانية بنات دونيا "بيسي" تشاجرت مؤخرًا مع حبيبها بعد أن جمعت بينهما علاقة دامت عامًا. حبيبها السابق يُدعَى "مانويل كورديل إستيبان" وهو طالب في كلية الطب. أما الآن، ومنذ أسبوع، فهي تخرج برفقة فتى آخر. طالب في كلية الطب أيضًا. مات الملك، عاش الملك!

"بيسي" الابنة لها حَدْسٌ عميق في الحب. في اليوم الأول سمحت لحبيبها الجديد أن يشدَّ على يدها بشيء من الهدوء عند الوداع على مقربة من باب البيت. كانا قد تناولا وجبة مسائية خفيفة من الشاي والكعك في صالون "جاريباي".

في اليوم الثاني، يومَ رقصا وشربا كوكتيل من "الچين" و"الڤيرموت" في قاعة "كاسابلانكا" تركَتْه يأخذ بذراعها لعبور الشارع.

في اليوم الثالث، يومَ ذهبا إلى مقهى "ماريا كريستينا" لسماع الموسيقى والنظر إلى أحدهما الآخر في صمت، تركَتْ له يدها التي أمسك بها طيلة الأمسية. وبعد أن فكَّر في الأمر مليًا، جرؤ على أن يقول:

- هكذا جرت العادة، كلما وقع رجل وامرأة في الحب...

في اليوم الرابع لم تُبدِ الفتاة مقاومة وتركته يأخذ بذراعها، متظاهرةً بأنها لم تلاحظ شيئًا.

- السينما؟ كلا، ليس اليوم. غدًا.

في اليوم الخامس طبع على يدها قبلة مختلسة في السينما.

في اليوم السادس، فيما هما بمنتزه "إل ريتيرو" والبرد مُروِّع، تعلّلتْ بعُذرٍ واهٍ، عُذر امرأة في طريقها لإرخاء الجسر المُتحرِّك المُفضي إليها:

- كلا، كلا، أرجوك، اتركني، أتوسَّل إليك، فلم أجلب معي أحمر الشفاه، ربما رآنا الناس...

كانت لاهثةً، يرتجف جناحا أنفها مع أنفاسها. شقَّ عليها كثيرًا أن تتمنَّع، ولكنها رأت أن ذلك أفضل، وأكثر أناقة.

في اليوم السابع، في بلكون بسينما "بِلباو" همس في سمعها وقد طوَّق خصرها بذراعه:

- نحن وحدنا، "بيسي"... حبيبتي، "بيسي"... يا حياتي.

أما هي، وفيما تركت رأسها يهوى على كتفه، فقد أجابته بصوت خافت، بصوت خافت نحيل، مُتهدِّج، مفعم بالمشاعر:

- أجل، "ألفريدو". كم أنا سعيدة!

اختلج صدغا "ألفريدو أنجولو إتشيباريّا" وقد مادت به الأرض، كما لو كان محمومًا، وشرع قلبه يَخفِقُ بسرعة غير معهودة.

- إنها الغدة الكظرية. إنها غدتي الكظرية تفرز الأدرينالين.

أما "إسبِرانثا" ثالث البنات، فهي خفيفة كالسنونو وخجولة كالحمام. لها أمورها التي تخصُّها شأن الجميع، ولكنها تعرف أن دور الزوجة المستقبلية يليق بها. "إسبِرانثا" قليلة الكلام، تقول للجميع بصوت ناعم:

- كما تشاء، سأفعل ما تشاء.

خطيبها "أجوستين رودريجيث سيليا" يكبرها بخمسة عشر عامًا ويمتلك متجر أدوية في شارع "مايور".

يشعر أبو الفتاة بسعادة جارفة، إذ يبدو له زوج ابنته المستقبلي نافعًا. وتشاركه الأم الشعور نفسه.

- صابون "لاجارتو" من ذلك الذي كان يُصنَع قبل الحرب ولم يعُد متوفِّرًا لدى أحد، وكل شيء، كل طلباتي يحضرِها مهرولاً من دون تأخير.

ترمقها صديقاتها بشيء من الحسد:

- يا لكِ من امرأة محظوظة! صابون "لاجارتو"!

ـ ١٠٩ ـ

دونيا "ثيليا" تكوي بضع ملاءات، وفيما هي على تلك الحال يدقُّ جرس الهاتف.

- ألو!

- دونيا "ثيليا" أنا دون "فرانثيسكو".

ـ أهلا، دون "فرانثيسكو!"ماذا لديك من أخبار سارة؟

- القليل كما ترين. هل ستكونين في البيت.

- أجل، أجل، فأنا لا أتحرَّك من هنا كما تعلم.

- حسنًا، سأحضر في التاسعة تقريبًا.

- احضرْ متى شئت. كما تعلم، فأنا رهن إشارتك. هل أتَّصل بـ...؟

- كلا، لا تتَّصلي بأحد.

- حسنًا، حسنًا.

وضعت دونيا "ثيليا" سماعة الهاتف، طرقعت أصابعها ودلفت إلى المطبخ لتتجرَّع كأسًا صغيرة من "الأنيس". ثمة أيام يسير خلالها كل شيء

على ما يرام. السيئ في الأمر أنه ثمة أيام أخرى تجيء، تلتوي فيها الأمور، فلا يجني المرء خلالها "سنتًا" واحدًا في نهاية المطاف.

ـ ١١٠ ـ

ما إن غادرت دونيا "ماتيلديه" ودونيا "أسونثيون" دكَّان الألبان حتى وضعت دونيا "رامونا براجادو" معطفها وذهبت إلى شارع "لا ماديرا" حيث كانت تسعى لاستدراج فتاة تعمل في التغليف لدى إحدى المطابع.

- "بيكتوريتا" موجودة؟

- أجل، هناك.

خلف منضدة طويلة، راحت "بيكتوريتا" تُعِدُّ بعض رزم الكتب.

- "بيكتوريتا"كيف حالكِ يا ابنتي! هلا مررتِ لاحقًا بدكَّان الألبان؟ ستحضر بنات أختي كي يلعبن الكوتشينة، لعبة "لا بريسكا" أعتقد أننا سوف نتسلَّى ونقضي وقتًا طيبًا.

تضرَّج وجه "بيكتوريتا".

ـ حسنًا، سنيورا. كما شئتِ.

كانت "بيكتوريتا" على شفير البكاء، فهي تعرف تمام المعرفة أين تزجُّ بنفسها. "بيكتوريتا" تبلغ من العمر نحو ثمانية عشر عامًا، إلا أنها ناضجة جدًا وتبدو امرأة في العشرين أو الثانية والعشرين. الفتاة لها حبيب سُرِّح من الجيش وأُعيد من الثكنة العسكرية نظرًا لإصابته بمرض السل. كان المسكين عاجزًا عن العمل، مما يضطرُّه لقضاء يومه كاملاً في الفراش، لا يقوى على شيء، في انتظار أن تذهب "بيكتوريتا" لرؤيته عند خروجها من العمل.

- كيف حالك؟

- أفضل.

وما إن تخرج أم حبيبها من المخدع، حتى تدنو "بيكتوريتا" من فراشه وتقبِّله.

- لا تقبِّليني لئلاَّ تصيبكِ العدوى.

- لا شيء يهمُّني إطلاقًا، "پاكو". ألا يروقك أن تقبِّلني؟

- بالطبع يا امرأة!

- إذن، فكل ما عدا ذلك لا يهمّ، ولا مانع عندي من عمل أي شيء من أجلك.

ذات يوم بدت "بيكتوريتا" ممتقعة، مجهدة. فسألها "پاكو":

ـ ماذا بكِ؟

- لا شيء، كنتُ أفكِّر.

- وفيمَ كنتِ تفكِّرين؟

- كنتُ أفكِّر أنك ستشفى من هذا المرض بالعلاج وبالأكل إلى حد التخمة.

- ربما. ولكن، كما ترين...!

- أستطيع الحصول على نقود.

- أنتِ؟

جاء صوت "بيكتوريتا" وقد غلب عليه الخنَف، كما لو كانت مخمورة:

- أنا، أجل. فالمرأة الشابة دائمًا ما تساوي نقودًا، مهما بلغت من القبح.

- ماذا تقولين؟

كانت "بيكتوريتا" في غاية الهدوء.

- ما سمعتَه. لو كان في ذلك شفاؤك لرافقتُ أول رجل ثري يتَّخذ مني لنفسه عشيقةً.

تضرَّج وجه "پاكو" قليلاً واختلجت أجفانه اختلاجة خفيفة. بهتَتْ "بيكتوريتا" قليلاً حين قال لها "پاكو":

ـ حسنًا.

ولكن في دخيلة نفسها، زاد حبُّها له قليلاً.

ـ ١١١ ـ

في المقهى، استشاطت دونيا "روسا" غضبًا. كانت الثورة التي اندلعت حين أطاح "لوپيث" بالقوارير أسطورية، فلم يكُن ذلك الصنف من نوبات الغضب شائعًا.

– هدِّئي من روعك، سنيورا. سوف أدفع ثمن القوارير.

– حقًّا؟ بالطبع! هذا ما كان ينقصني، أن أدفع ثمن القوارير من جيبي فوق ذلك! ولكن هذا ليس كل شيء. ماذا عن الفوضى العارمة التي أحدثتَها؟ وماذا عن الفزع الذي تسببتَ فيه للزبائن؟ وماذا عن الانطباع السلبي المترتِّب على رؤية كل القوارير تتدحرج على الأرض؟ ها؟ كيف تدفع ثمن ذلك؟ ومن يعوِّضني عن ذلك؟ أيها البهيمة! ما أنت بأكثر من بهيمة، وأحمر عديم الشرف، قوَّاد! أنا الملومة لأنني لم أبلغ عنكم جميعًا! ألم أُحسِن إليكم؟ أين عيناك؟ في أية مومس كنت تفكر؟ إنكم أشبه بالثيران! أنت والجميع! لا تعرفون أين تضعون أقدامكم!

أما "كونسورثيو لوپيث" الذي شحب وجهه حتى صار بلون الورقة البيضاء، فأخذ يحاول تهدئتها:

– كان حادثًا مشؤومًا، سنيورا، خطأ غير مقصود.

– يا رجل، طبعًا! لا ينقصنا سوى أن يكون ذلك خطأ مُتعمَّدًا! لكانت تلك هي القطرة التي أفاضت الكأس! أن يُقدِم مدير حقير من أمثالك على تحطيم الأشياء، في مقهاي وعلى مرأى ومسمع مني، لمجرد أن مزاجه يملي عليه ذلك! سوف ينحدر بنا الحال إلى تلك الدرجة! وأنا أعرف ذلك

تمام المعرفة! ولكنكم لن تشهدوا ذلك اليوم! يومَ ينفد صبري سوف يُزجُّ بكم جميعًا إلى السجن، الواحد تلو الآخر! وأنت أولهم، لأنك لست بأكثر من وغد! من حسن حظكم أنني لا أرغب في ذلك. لو كانت الضغائن تجري في دمي كما تجري في دمائكم...!

في أوج غضبة دونيا "روسا" وبينما أطرق كل من في المقهى، يتابعون صيحات المالكة بانتباه، دلفت إلى المكان سنيورا ممشوقة القوام، مكتنزة بعض الشيء، لم تكُن في مقتبل العمر وإن أوحى مظهرها بعنايتها الكبيرة بنفسها. كانت حسناء، على قدر من البهرجة. جلست إلى طاولة أمام البار. ما كاد "لوبيث" يلمحها حتى تبخَّرت الدماء القليلة المُتبقِّية في أوردته: كانت "ماروخيتا" بعد أن تقدَّم بها العمر عشرة أعوام، قد صارت امرأة رائعة، متألِّقة، مشرقة، تفيض صحةً ونضارةً. في الشارع يستطيع الناظر إليها، أيًّا كان، أن يشخِّص حالتها: كانت من أثرياء البلدة، موفَّقة في زواجها، تتناول الطيِّب من الطعام وترتدي الأنيق من الثياب، دَرَجَتْ على الأمر والنهي، وعلى أن تُنفَّذ رغباتها المُقدَّسة دائمًا.

نادت "ماروخيتا" نادلاً:

- أحضر لي قهوة.

- بالحليب؟

- كلا. من هي تلك السنيورا التي تصيح؟

- سيدة هذا المكان، أعني المالكة.

- قُلْ لها أن تتفضَّل بالحضور.

ارتعشت الصينية بين يدي النادل المسكين:

- ولكن، هل من الضروري أن أناديها حالاً؟

- أجل. أخبرها أن تحضر، وأنني أناديها.

أما النادل، فقد اقترب من البار بلفتات محكوم بالإعدام يسير نحو المشنقة.

- "لوبيث" أعدّ قهوة. سنيورا، بعد إذنكِ.

التفتتْ إليه دونيا "روسا":

ـ ماذا تريد!

- كلا، أنا لا أريد شيئًا، بل إنها تلك السنيورا، فهي تناديكِ.

- أية سنيورا؟

- تلك التي تضع في يدها خاتمًا، التي تنظر نحونا.

- أهي تناديني أنا؟

- أجل، قالت لي أن أنادي المالكة، ولا أعرف ماذا تريد. تبدو سنيورا ذات شأن، سنيورا مقتدرة. قالت لي: "قُلْ للمالكة أن تتفضَّل بالحضور".

دنَتْ دونيا "روسا" من طاولة "ماروخيتا" مُقطّبة الجبين. مسح "لوبيث" بيديه على عينيه.

- مساء الخير. هل كنتِ حضرتك تسألين عني؟

- حضرتك المالكة؟

- في خدمتك.

- بالفعل كنتُ أسأل عنكِ. اسمحي لي بأن أقدِّم نفسي: أنا سنيورا "جوتييريِّث" دونيا "ماريا رانيرو دي جوتييريْث" إليكِ بطاقتي، تجدين بها العنوان. أعيش وزوجي في "توميُّوسو" بمقاطعة "ثيوداد ريال" حيث العزبة الخاصة بنا... بضع مزارع نعيش على ريعها.

- حسنًا، حسنًا.

- أجل. ولكننا سئمنا البلدة، والآن نرغب في تصفية كل ما نملك والانتقال للعيش في مدريد. فالوضع هناك قد ساء كثيرًا منذ

اندلاع الحرب، إذ يعتمل الحسد والنوايا الخبيثة في النفوس دومًا، كما تعلمين.

- أجل، أجل.

- بالطبع. فضلاً عن ذلك فقد كبر الأولاد بالفعل. وكالعادة، نحن الآن في حيرة بشأن المدرسة، ثم الدراسة الجامعية: سوف نفقد الأولاد إلى الأبد ما لم نأتِ معهم إلى هنا.

- طبعًا، طبعًا. هل لكم أبناء كثيرون؟

كانت سنيورا "جوتييريِّث" تميل إلى الكذب بعض الشيء:

- فعلاً، لنا خمسة أبناء. سيتمُّ الولدان الأكبر سنًّا العاشرة، لقد كبرا بالفعل. هذان التوأمان من زوجي الأول، فلقد ترمَّلتُ وأنا في أوج شبابي. انظري إليهما.

بدا وجها الطفلين في صورة المناولة الأولى مألوفين لدونيا "روسا" وإن لم تستطع أن تتبيَّن بمن يذكِّرانها.

- وطبعًا، بمجيئنا إلى مدريد نريد رؤية الخيارات المتاحة قليلاً.

- حسنًا، حسنًا.

تسلَّل الهدوء إلى دونيا "روسا" شيئًا فشيئًا، ولم تعُد تبدو المرأة التي كانتها منذ دقائق. شأن المسرفين في الصياح جميعًا، تصبح دونيا "روسا" وديعة كالحملان بمجرد أن يستبقها أحدهم بخطوة.

- يرى زوجي أن فكرة امتلاك مقهى ربما لا تكون سيئة. فبالعمل الجاد، يبدو أن المقاهي تُدرُّ ربحًا.

- ها؟

- أجل، نحن نفكر في شراء مقهى، في حال كان مالكه معقولاً.

- أنا لن أبيع.

- سنيورا، لم يقُل لكِ أحد شيئًا من هذا القبيل. فضلاً عن ذلك، فتلك أمور لا يمكن الجزم فيها. كل شيء يتوقَّف على الطريقة. لن أقول لكِ سوى أن تفكِّري بالأمر. زوجي مريض حاليًا، سيخضع لعملية جراحية لاستئصال الناسور. ولكننا نرغب في قضاء بعض الوقت بمدريد. سوف يحضر للحديث إليك بنفسه عندما يتحسَّن. النقود ملك لكلٍّ منا، ولكن زوجي هو من يتولَّى الشؤون كافة. في تلك الأثناء، فكِّري في الأمر إن شئتِ. لستِ ملزمة بأي شيء، فلم يوقِّع أحدنا أية مستندات.

انتشر خبر رغبة تلك السنيورا في شراء المقهى كالنار في الهشيم، على الطاولات كافة.

- أية سنيورا؟

- تلك.

- تبدو امرأة ثرية.

- يا رجل، امرأة تريد شراء مقهى، لا يُعقل أن تكون على المعاش!

بلغ الخبر البار، فما كان من "لوبيث" الذي بات في حال يُرثَى لها، إلا أن أطاح بقنينة أخرى. دونيا "روسا" التفتَتْ بالكرسي وبكل شيء. دوَّى صوتها وكأنه قذيفة مدفع:

- حيوان! إنك لحيوان!

"ماروخيتا" اغتنمت الفرصة كي تبتسم لـ "لوبيث" قليلاً. كانت ابتسامتها من التحفُّظ بحيث لم يدركها أحد، والأرجح أن "لوبيث" لم يدرك شيئًا هو الآخر.

- تفضَّلي! إن أصبح لديكما مقهى يجدر بكِ وبزوجكِ أن تتوخَّيا الحذر من ذلك القطيع!

- هل يخرِّبون الكثير؟

- كل ما تضعين بين أيديهم. أنا متأكدة أنهم يفعلون ذلك عن عمد. إنه الحسد البغيض الذي يأكلهم أحياء...

ـ ١١٢ ـ

"مارتين" يتحدَّث إلى "ناتي روبليس" زميلته منذ عهد اتحاد الطلاب في الجامعة. التقى بها عند مفرق "سان لويس" كان "مارتين" يطالع واجهة متجر حلي في أثناء تواجد "ناتي" بالداخل، إذ ذهبت لإصلاح مشبك سوار لها. تبدو "ناتي" وكأنها امرأة لا يعرفها، امرأة أخرى. تلك الفتاة التي كانت في عهد الكلية تميل إلى الهزال، وتفتقر إلى الأناقة، وتبدو بمظهر المناديات بحقِّ المرأة في التصويت، وتنتعل الأحذية الخفيضة، ولا تضع الزينة، أصبحت الآن سنيوريتا هيفاء القوام، حسنة المظهر، ترتدي الأنيق من الثياب والأحذية، تتزيَّن بدلال، بل وتتفنَّن في ذلك. كانت هي من تعرَّفَتْ عليه.

- "ماركو"!.

نظر إليها "مارتين" وجِلاً. "مارتين" ينظر بشيء من الخوف إلى سائر الوجوه التي تبدو له مألوفة قليلاً ولكنه يعجز عن التعرُّف عليها. فالرجل دائم الظن بأن الناس على وشك الانقضاض عليه والتفوُّه بأمور بغيضة. لو كان يأكل على نحو أفضل، لما جرى له ذلك على الأرجح.

- أنا "روبليس" ألا تذكر؟ "ناتي روبليس".

تجمَّد "مارتين" في مكانه، ذاهلاً:

- أنتِ؟

- أجل يا رجل، أنا.

اجتاحت "مارتين" بهجة عارمة:

- "ناتي"، يا للروعة! ما كل هذا! تبدين دوقة!

ضحكت "ناتي".

ـ كلا يا فتى، لست دوقة. لا تحسب أنني لا أرغب في ذلك، ولكنني كما ترى، لا متزوجة ولا مخطوبة، كعادتي دائمًا! هل أنت في عجلة من أمرك؟

تردَّد "مارتين" لبرهة:

- في الحقيقة، كلا. كما تعرفين، فأنا رجل ليس لديه ما يستحقُّ العجلة.

أخذت "ناتي" بذراعه.

- ما زلتَ أبله كعهدي بك دائمًا!

تضرَّج وجه "مارتين" قليلاً وحاول أن يتملَّص منها.

- سيرانا الناس.

ندَّت عن "ناتي" قهقهة، قهقهة دارت لها الأعناق. كان لـ "ناتي" صوت بديع الجمال، عالٍ، موسيقي، مفعم باللهو والبهجة، صوت وكأنه صادر عن جرس دقيق.

- معذرة يا فتي، لم أكُن أعرف أن لك خطيبة.

دفعته "ناتي" بكتفها ولم تفلت ذراعه، بل على العكس، تشبَّثت به بقوة أكبر.

- ما زلتَ كعهدي بك دائمًا.

- كلا، "ناتي" بل أسوأ، فيما أظنّ.

شرعت الفتاة في المسير.

- هيا، ولا تكُن سخيفًا! يبدو لي أنك في حاجة لمن يوقظك من سباتك. أما زلتَ تنظم الشعر؟

شعر "مارتين" بالحرج لكونه ما زال ينظم الشعر.

- أجل. أعتقد أن ذلك كالداء الذي لا علاج له.

- وأيّ داء!

عاودت "ناتي" الضحك:

- أنت مزيج من الصلف والخمول، من الخجل والاجتهاد.

- لا أفهم مقصدك.

- ولا أنا. هيا، فلنذهب إلى أي مكان، علينا أن نحتفل بلقائنا.

- حسنًا، كما شئتِ.

دلفا إلى مقهى "جران بيا" الزاخر بالمرايا. "ناتي" بالكعب العالي، بدَت أطول من "مارتين" قليلاً.

- هلا جلسنا هنا؟

- أجل، عظيم، حيثما شئتِ.

حدقت "ناتي" في عينيه.

- يا لك من فتى شهم! يبدو وكأنني آخر عشيقاتك.

تضوَّع عطر "ناتي" رائعًا...

- ١١٣ -

في شارع "سانتا إنجراثيا" جهة اليسار، على مقربة من ميدان "تشامبيري" يقوم بيت دونيا "ثيليا بيثينو" أرملة "كورتيس".

زوجها، دون "أوبدوليو كورتيس لوبيث" التاجر، كان قد توفِّي في أعقاب الحرب "من جراء المعاناة التي تجشَّمها تحت حكم الحُمر" طبقًا للنعي المنشور بجريدة .A.B.C

عاش دون "أوبدوليو" طيلة حياته رجلاً نموذجيًا، مستقيمًا، شريفًا، لا تشوب سيرته شائبة، ما يُطلَق عليه نموذج الرجل النبيل. كان الحمام الزاجل هوايته الأثيرة دائمًا، وعند وفاته كرَّمته مجلة مُتخصِّصة في تلك الهواية بنعي حار وصادق يتمثَّل في صورة له في شبابه، مرفق بها النص التالي:

"ننعى ببالغ الأسى والتقدير الفقيد دون "أوبدوليو كورتيس لوپيث" الرائد البارز في مجال تربية الحمام في إسبانيا، ومؤلِّف كلمات نشيد "حلِّقي حرَّة طليقة، يا حمامة السلام"، والرئيس السابق لجمعية تربية الحمام الملكية بـ "ألمريَّه"، ومؤسِّس ومدير المجلة المرموقة المُتوقِّفة عن الصدور "حمام وأبراج" (إصدار شهري يشتمل على معلومات من سائر أنحاء العالم)".

بدت الصورة محاطة تمامًا بشريط حداد عريض. وكَتَب التعقيب دون "ليوناردو كاسكاخو" المدرس الحكومي.

أما أرملته المسكينة فتستعين على عيشها المزري بأن تؤجِّر للأصدقاء المُقرَّبين حجرات صغيرة على الطراز التكعيبي، مغرقة في الابتذال، ومطلية باللونين البرتقالي والأزرق. تُزوِّدها بسبل الراحة غير الوفيرة بقدر المستطاع، في حسن نية وتكتُّم ورغبة كبيرة في الخدمة وإدخال السرور.

في الحجرة الأمامية، الحجرة المُميَّزة قليلاً والمُخصَّصة لخيرة الزبائن، يطلُّ دون "أوبدوليو" من إطار مُذهَّب برَّاق بشاربه المنتصب ونظرته العذبة، ذائدًا عن النشاط السري الذي يوفِّر أكل العيش لأرملته، كإله حب ماكر خبيث.

بيتُ دونيا "ثيليا"بيتٌ تتدفَّق عبر مسامه كافة رِقَّة جياشة، رِقَّة لاذعة بعض الشيء أحيانًا، وربما شابها قليل من السُّمِّ في بعض الأحيان. آوت دونيا "ثيليا"في بيتها طفلين صغيرين، وهما لابنة أختها التي أودى بحياتها الأسى والهم من ناحية، ونقص الفيتامين من ناحية أخرى، منذ أربعة أو خمسة أشهر مضت. كلما وصل رجل برفقة امرأة إلى البيت، علا صياح الطفلين عبر الردهة في جذل:

- يعيش! يعيش! جاء سنيور آخر!

يعلم الملاكان الصغيران أن دخول سنيور وسنيوريتا متشابكي الأذرع إلى البيت يعني تناول الطعام الساخن في اليوم التالي.

عند حضور "بينتورا" وحبيبته إلى البيت لأول مرة، قالت له دونيا "ثيليا":

ـ اسمع حضرتك، لا أطلب منك سوى الاحتشام، الكثير من الاحتشام، نظرًا لوجود الطفلين. برجاء عدم إثارة الجلبة، محبةً في الرب!

- اطمئني، سنيورا. ولا تقلقي، فالمرء يراعي الأصول.

كان من عادة "بينتورا" و"خوليتا" الدخول إلى الحجرة في الثالثة والنصف أو الرابعة، فلا يغادرانها حتى الثامنة. لم يكُن يُسمَع لهما صوت ولا حتى في أثناء الحديث. شيء يبعث على السرور حقًّا!

في اليوم الأول كانت "خوليتا" أقلّ اضطرابًا من العادي بكثير. راحت تدقِّق في كل شيء وتعلِّق على كل شيء:

- أي مصباح بشع! يبدو كالحقنة الشرجية.

لم يجِد "بينتورا" وجه شبه مُحدَّدًا.

- كلا يا امرأة، كيف يبدو كالحقنة الشرجية! هيا، لا تكوني ساذجة واجلسي بجواري.

- سأجلس.

ومن إطاره، أخذ دون "أوبدوليو" يحدق فيهما، بما يشبه الصرامة.

- أخبرني، من يكون هذا؟

- وما أدراني؟ له وجه شخص وافته المنية، لا بد أنه قد توفِّي بالفعل.

ظلَّت "خوليتا" تتجوَّل في أرجاء الحجرة. ربما كانت أعصابها المتوتِّرة هي التي حدَتْ بها إلى ذرع الحجرة جيئةً وذهابًا. أما فيما عدا ذلك، فلم يبدُ عليها التوتُّر على الإطلاق.

- مَنْ في هذا العالم قد يخطر له وضع أزهار صناعية! الأرجح أن الناس يضعونها في نشارة الخشب ظنًا منهم بأنها تبدو جميلة هكذا، أليس كذلك؟

- أجل، هذا جائز.

لم تتوقَّف "خوليتا" ولا حتى بمعجزة.

- انظر، انظر، ذلك الحَمَل أعور! مسكين!

وبالفعل كان الحَمَل المُطرَّز الذي يزيِّن إحدى وسائد الأريكة بعين واحدة.

اتَّخذ "بينتورا" أسلوبًا جديًا، فقد بدأ الأمر يبدو وكأنه حكاية بلا نهاية:

- هلا تحلَّيتِ بالهدوء؟

- يا رجل! يا لك من فظ!

وفي دخيلة نفسها فكَّرت "خوليتا":

- ... على الرغم من السحر الكامن في بلوغ الحب سيرًا على أطراف الأصابع!

كانت "خوليتا" فنانة جدًا، أكثر فنًا من حبيبها بكثير، بلا أدنى شك.

- ١١٤ -

ما إن غادرت "ماروخيتا رانيرو" المقهى حتى دلفت إلى مخبز لإجراء مكالمة هاتفية إلى والد التوأمين:

- هل أعجبتُك؟

- أجل. ولكن... "ماروخا" هل جُننتِ!

- كلا، كيف أكون مجنونة! ذهبتُ كي تراني، فلم أُرِد أن تُفاجأ الليلة وتصاب بخيبة أمل.

- أجل، أجل...

- قُلْ لي، أما زلتُ أعجبك حقّا؟

- أكثر من ذي قبل، أقسم لكِ. واعلمي أنني كنت أجدك أطيب من الشهد فيما مضى.

- وهل كنتَ تتزوَّجني، لو أمكن؟

- يا امرأة...

- لم أنجب منه أبناء.

- ولكن ماذا عنه؟

- إنه مصاب بورم سرطاني هائل الحجم، أخبرني الطبيب أنه لن يعيش طويلاً.

- فهمت، فهمت. أخبريني...

- ماذا؟

- أتفكِّرين بشراء المقهى حقّا؟

- لو شئت، لاشتريته. بمجرد أن توافيه المنية ويتسنَّى لنا الزواج... هل ترغب في المقهى كهدية الزفاف؟

- ولكن، يا امرأة!

- أجل يا فتى، لقد تعلَّمتُ الكثير. وفوق ذلك، فأنا ثرية وأفعل ما يحلو لي. سوف يترك لي زوجي كل شيء، فقد أطلعني على الوصية. سأكون صاحبة خمسة ملايين خلال بضعة أشهر.

- ها؟

- أقول لك إنني سأكون صاحبة خمسة ملايين خلال بضعة أشهر، أتسمعني؟

- أجل، أجل...

- أما زلتَ تحتفظ بصور الصغيرين في حافظتك؟

- أجل.

- وماذا عن صوري؟

- كلا، لا أحتفظ بصورك. أضرمتُ فيها النيران حين تزوَّجتِ، فقد بدا لي ذلك أفضل.

- أنت حر. الليلة سأعطيك بضع صور أخرى. في أية ساعة ستحضر، تقريبًا؟

- بعد أن نغلق المقهى، في الواحدة والنصف أو الثانية إلا الربع.

- لا تتأخَّر، اتفقنا؟ احضر مباشرةً!

- حسنًا.

- هل تذكر المكان؟

- أجل. "لا كويَّادينسي" بشارع "لا ماجدالينا".

- بالضبط، غرفة رقم ٣.

- حسنًا. اسمعي، سأضع سماعة الهاتف، فالبهيمة تقترب من هنا.

- وداعًا وإلى اللقاء. هل أرسل إليكَ قبلةً؟

- أجل.

- إليكَ قبلة، إليكَ كل قبلاتي، لا واحدة، بل ألف مليون...

شعرَتْ الخبازة المسكينة بشيء من الخوف. وحين ودَّعتها "ماروخيتا رانيرو" وأعربت لها عن شكرها، عجزت المرأة حتى عن الجواب.

ـ ١١٥ ـ

اعتبرت دونيا "مونسيرَّات" زيارتها منتهية.

- وداعًا يا صديقتي "بيسيتاثيون". لو كان الأمر بيدي لبقيتُ هنا طوال اليوم، أنصتُ إلى حديثك الباعث على السرور.

- شكرًا جزيلاً.

- ليس ذلك من المُداهنة في شيء، بل إنها عين الحقيقة. ولكني لا أريد أن أتغيَّب عن صلاة المذبح المُقدَّس اليوم.

- إذا كان الأمر كذلك...!

- فعلًا، فقد فاتَتني الصلاة بالأمس.

- أما أنا، فقد أوشكتُ أن أصبح علمانية! عسى ألا يوقع بي الرب عقابه!

وعند الباب، خطر لدونيا "بيسيتاثيون" أن تقول لدونيا "مونسيرَّات":

- هل تريدين أن نرفع الكلفة في حديثنا؟ أعتقد أنه يجب علينا رفع الكلفة، ألا ترين ذلك؟

دونيا "مونسيرَّات" امرأة ودود للغاية، وكانت ستقبل عن طيب خاطر.

علاوةً على ذلك، فقد خطر لدونيا "بيسيتاثيون" أن تقول لها:

- وإن رفعنا الكلفة، الأفضل أن أناديكِ باسم "مونسيه"وأن تناديني باسم "بيسي" أليس كذلك؟

كانت دونيا "مونسيرَّات" ستقبل بذلك أيضًا. فهي سلسة القياد جدًا. بالنظر في الأمر مليًّا، فقد كادتا تصبحان صديقتين قديمتين. ولكن، يا لصروف الدنيا! فبينما وقفتا عند الباب المفتوح، لم تجرؤ دونيا "بيسيتاثيون" على التفوُّه بأكثر مما يلي:

- وداعًا، صديقتي "مونسيرَّات". لا تبخلي علينا بزياراتك إلى هذا الحد.

- كلا، لن أفعل. من الآن فصاعدًا سوف أسعى للإكثار من زياراتي إلى هنا.

- عسى أن يكون ذلك صحيحًا!

- أجل. ولا تنسي، "بيسيتاثيون" أنكِ وعدتِني بقطعتي صابون "لاجارتو" بسعر معقول.

- كلا، لن أنسى، اطمئني.

خرجت دونيا "مونسيرَّات" من بيت دونيا »بيسي «على وقع الأنغام نفسها التي انطلقت وقتَ وصولها، إذ طفق ببغاء الطابق الثاني يتفوَّه بأقذع الألفاظ.

- يا للهول! ما هذا؟

- لا تحدِّثيني بشأنه يا امرأة، فذلك الببغاء هو الشيطان بعينه.

- أي شيء مُخزٍ! لا يُمكن السماح بأمورٍ كتلك!

- حقًا. لم أعُد أعرف ما العمل.

"رابيلايس" ببغاء يجدر الحذر في التعامل معه، ببغاء رقيع لا مبادئ له، ببغاء جاحد لا يسلم من أذاه أحد. ربما مرَّ بأوقات أهدأ قليلاً، يقول خلالها "شكولاتة" و"البرتغال" وكلمات أخرى تليق ببغاء راقٍ. ولكن نظرًا لأنه غير عاقل، فهو ينطلق متفوِّهًا بالبذاءات والألفاظ الآثمة بصوتٍ أجش يليق بعانس عجوز، في أوقات غير مُتوقَّعة إطلاقًا، ربما تكون صاحبة الببغاء خلالها تتلقَّى زيارة مجاملة.

سبق لـ "أنخِليتو" فتى كثير الورع يسكن في الجوار - أن سعى لهداية "رابيلايس" إلى الطريق القويم، إلا أنه لم يحقِّق شيئًا، فضاعت جهوده سدًى وذهبت هباء. ثم فترت همَّته وتخلَّى عن الفكرة شيئًا فشيئًا. أما "رابيلايس" فما إن أصبح بلا معلم، حتى أمضى قرابة خمسة عشر يومًا وهو يتفوَّه بكلمات مجرد الاستماع إليها يدفع بحمرة الخجل إلى الوجوه. لنا أن نتخيَّل الوضع، علمًا بأنه حتى دون "پيو ناباس پيريث"، مُفتِّش السكك الحديدية القاطن بالطابق الأول، قد لفت نظر صاحبة الببغاء:

- سنيورا، لقد تجاوزت مسألة الببغاء الحد. لم يكُن في نيَّتي أن أقول لكِ شيئًا، ولكن الحقيقة أنه لم يعُد الاحتمال ممكنًا. ضعي في اعتبارك أن لي ابنة شابة في عمر الزواج، ولا يصحُّ أن تسمع مثل هذه الأمور، فيما أرى!

- أجل، دون "بيو". أصبتَ في كل كلمة قلتَها. معذرة، سوف ألفت نظره. إن ذلك المدعو "رابيلايس" عصي على التقويم!

ـ ١١٦ ـ

"ألفريدو أنجولو إتشيباريّا" يقول لخالته "لوليتا إتشيباريّا كاثويلا":

ـ "بيسي" فتاة فاتنة، سترينها. إنها فتاة عصرية، لها مظهر فائق الحسن، ذكية، جميلة، باختصار تجمع السمات الحسنة كافة. أعتقد أنني أحبُّها كثيرًا.

خالته "لوليتا" تبدو كالشاردة. "ألفريدو" يشكُّ بأنها لا تعيره أدنى انتباه.

- خالتي، يبدو لي أنكِ لا تبالين إطلاقًا بما أطلعتكِ عليه بشأن علاقاتي.

- بلى، بلى، لا تكُن ساذجًا! وكيف لا أبالي؟

ثمَّ شرعت سنيورا "كاثويلا" تعتصر يديها وتأتي بإيماءات غريبة، ثم انتهى بها الحال وقد انخرطت في نحيب عنيف، درامي، تمثيلي. فزع "ألفريدو":

ـ ماذا بكِ؟

- لا شيء، لا شيء، اتركني وشأني!

حاول "ألفريدو" مواساتها:

- خالتي، ماذا بكِ يا امرأة؟ هل أخطأتُ في شيء؟

- كلا، كلا. دعني وشأني، دعني أبكِ.

أراد "ألفريدو" أن يلقي نكتة لعلّه يرفع من معنوياتها:

- حسنًا يا خالتي، دعي عنك الهستيرية، فلم تعودي في الثامنة عشرة من عمرك. من رآكِ يحسب أنكِ تمرين بمتاعب غرامية...

ما كان عليه أن يقول ذلك قط. امتقع وجه سنيورا "كاثويلا"وابيضّت عيناها و"بوووم!" انكفأت على وجهها. لم يكُن زوج خالته "فِرناندو"في البيت، بل كان في اجتماع مع الجيران بسبب من وقوع جريمة في البناية ليلة أمس، ولذا فقد اجتمعوا رغبةً منهم في تبادل الانطباعات والاتفاق بشأن بعض الأمور. أجلس "ألفريدو" خالتَه "لوليتا"على أريكة، ثم رشَّ وجهها بقليل من الماء. وحين أفاقت، طلب "ألفريدو" من الخادمات أن يعددِنَ لها قدحًا من التيليو.

عندما تمكّنَتْ "لوليتا"من الحديث، نظرت إلى "ألفريدو" وسألته بصوت جاء بطيئًا مبهمًا:

- أتعرف أحدًا قد يرغب في شراء سلة الثياب المُتَّسخة؟

عجب "ألفريدو" لسؤالها قليلاً.

- لا أدري، أي تاجر خردة.

- تكفَّلْ بإخراجها من البيت، وسأهديك إياها. لا أريد رؤيتها. أيًّا كان المقابل، احتفظ به لنفسك.

- حسنًا.

شعر "ألفريدو" بشيء من القلق. وبعودة زوج خالته، انتحى به جانبًا وقال:

- يا خال "فِرناندو" أعتقد أنه يجب عليك اصطحاب خالتي إلى الطبيب. يبدو لي أن أعصابها تالفة تمامًا. وفوق ذلك، تستحوذ عليها بعض الهواجس، فقد طلبَتْ مني أن أُخرِج سلة الثياب المُتَّسخة من البيت لأنها لا تريد رؤيتها.

أما دون "فِرناندو كاثويلا" فلم يطرف له جفن، بل احتفظ بهدوئه وكأن شيئًا لم يكُن. رآه "ألفريدو" هادئًا إلى هذا الحد، فقال لنفسه إنهما حران في شؤونهما، وإن خير الأمور ألا يزجَّ بنفسه في شيء.

قال لنفسه:

- اسمع، إن فقدَتْ عقلها، فلتفقده! لقد أخبرتُه بما كان بكل وضوح. وإن لم يعيراني اهتمامًا، فهما الخاسران. لاحقًا يكون الندم والحسرة.

ـ ١١٧ ـ

استقرَّت الرسالة فوق الطاولة. وعلى الورقة وردت الترويسة التالية: متجر "أجروسيل" للأدوية والعطور. ٢٠ شارع "مايور". مدريد.

الرسالة مكتوبة بخط جميل يليق بخطاط ماهر، زاخرة بالزخارف والزينة واللفتات. أما فحوى الرسالة التي انتهت بالفعل فقد جاء كما يلي:

أمي العزيزة،

أكتب السطور التالية لأزفَّ إليكِ خبرًا أعرف أنكِ سوف تُسرِّين به. ولكن قبل ذلك، أودُّ أن أعرب عن تمنياتي لكِ بتمام الصحة، كما آمل أن تنعمي بصحتكِ لسنوات طوال برفقة أختي الصالحة "پاكيتا"وزوجها وصغارها، كما ينعم بها ابنك الآن والحمد للرب.

أمي، في الواقع، الأمر الذي يتوجَّب عليَّ قوله إنني لم أعُد وحيدًا في هذا العالم. فبخلاف رفقتكم، وجدتُ المرأة القادرة على مساعدتي في تأسيس أسرة وتشييد بيت، القادرة على مشاركتي في العمل وإدخال السعادة إلى نفسي، بمشيئة الرب، بما لها من فضائل تليق بامرأة مسيحية صالحة. عسى أن تتحمَّسي في الصيف الجاري لزيارة ابنكِ الذي طالما افتقدكِ، وهكذا تسنح لكِ الفرصة للتعرُّف بها أيضًا. أمي، اسمحي لي بأن أطلب منك ألا تشغلي بالك بشأن نفقات السفر. فكما تعلمين، أنا على استعداد للتكفُّل بها وغيرها الكثير لمجرد رؤيتكِ. سترين أن حبيبتي

كالملائكة. فهي صالحة ومجتهدة وفاتنة بقدر ما هي شريفة. بل وحتى اسمها في المعمودية، وهو "إسبِرانثا" (*) يُعدُّ بمثابة بارقة "أمَل" في أن يسير كل شيء على ما يُرام. تضرَّعي إلى الرب كثيرًا من أجل سعادتنا المستقبلية، والتي ستكون سراجًا يُنير أيامك في الشيخوخة.

أمي العزيزة، أختم رسالتي اليوم بأن أرسل إليك قبلة حانية من ابنكِ الذي يحبُّكِ حبًا جمًا ولن ينساكِ أبدًا.

"تِن تِن"

انتهى صاحب الرسالة من كتابتها، فقام من جلسته، أشعل سيجارة وقرأ الرسالة بصوت مسموع.

- أعتقد أن الرسالة مُتقنة إلى حد كبير. تلك الخاتمة حيث ورد المقطع المُتعلِّق بالسراج جيدة للغاية.

ثم اقترب من الكومودينو وطبع قبلة، في نُبلٍ وإخلاص، كما لو كان فارسًا من فرسان المائدة المستديرة، على صورة موضوعة في إطار من الجلد تحمل الإهداء التالي: "إلى حبيبي وعمري أجوستين"، مع كل قبلاتي، حبيبتك "إسبِرانثا".

ـ حسنًا، إن جاءت أمي سأنحِّي هذه الصورة جانبًا.

ـ ١١٨ ـ

ذات مساء، قرابة الساعة السادسة، فتح "بينتورا" الباب ونادى سنيورا "ثيليا" بصوت خفيض:



- سنيورا!

تركت دونيا "ثيليا" الركوة حيث كانت تُعِدُّ فنجانًا من القهوة لوجبة مسائية خفيفة:

(*) "إسبِرانثا" تعني باللغة الإسبانية "أمل".

- سأحضر حالاً! هل ترغب في شيء؟

- أجل، من فضلكِ.

خفَّفَتْ دونيا "ثيليا" الغاز قليلاً لئلاّ تفور القهوة، ثم عجَّلت بالمثول أمامه وهي تضع المريلة على كتفها وتجفِّف يديها بالروب:

- هل ناديتني، سنيور "أجوادو"؟

ـ أجل، هلا أعرتِني لعبة "الليدو"؟

أخذَتْ دونيا "ثيليا" لعبة "الليدو" من خوان بحجرة السفرة، ناولتها للعاشقين، ثم جعلت تتفكَّر. كان يحزُّ في نفس دونيا "ثيليا" كما يبعث في جيبها رعدة خفيفة، التفكير بأن عاطفة طائري الحب قد تخبو شيئًا فشيئًا، وأن الأمور قد تبدأ في السيْر على غير ما يُرام. قالت دونيا "ثيليا" لنفسها، في محاولة لرؤية الجانب المشرق دومًا:

- كلا، ربما لم يكُن الأمر كذلك، فربما كانت الفتاة لا تشعر بأنها على ما يُرام...

بعيدًا عن نشاطها التجاري، دونيا "ثيليا" امرأة ما إن تتعرَّف على الناس حتى تشعر نحوهم بالعطف. دونيا "ثيليا"في منتهى العاطفية، إنها مالكة بيت للمواعيد الغرامية في منتهى العاطفية.

ـ ١١٩ ـ

يتجاذب "مارتين" وزميلته في الكلية أطرافَ الحديث منذ ساعة طويلة.

- وأنتِ، ألم تفكِّري في الزواج قط؟

- كلا، ليس الآن يا فتى. سأتزوَّج حين تسنح فرصة مواتية. كما تفهم، فالزواج لا يستحقُّ العناء ما لم يسمح للمرء بالخروج من دائرة الفقر. سأتزوَّج، في اعتقادي أن هناك وقتًا لكل شيء.

- ما أسعدك! فأنا أعتقد أنه ليس هناك وقت لأي شيء، بل وأعتقد أننا لا نجد فائضًا من الوقت سوى لأن مجمل الوقت المتاح لنا من القصر بحيث لا نعرف ماذا نفعل به.

قطَّبت "ناتي" أنفها على نحو طريف:

- آه، "ماركو!" يا فتى! لا تبدأ في التشدُّق بعبارات عميقة!

ضحك "مارتين":

ـ لا تسخري مني، "ناتي".

طالعَتْه الفتاة بلفتة تكاد تكون ماكرة، ثم فتحت حقيبتها وأخرجت علبة تبغ مطلية بالميناء:

- سيجارة؟

- أغدو مُمتنًا، فليس معي سجائر. ما أجملها من علبة!

- أجل، ليست قبيحة. إنها هدية.

"مارتين" يفتِّش في جيوبه.

- كانت معي علبة ثقاب...

- إليك، فقد أهدوني قداحة أيضًا.

- حقًّا!

"ناتي" تدخِّن بمظهر بالغ الأوروبيَّة، وهي تعبث بيديها بطلاقة وأناقة. ظلَّ "مارتين" شاخص البصر إليها:

- "ناتي" أعتقد أننا رفقة غاية في الغرابة. فأنتِ في أبهى حلة، لا تنقصكِ تفصيلة واحدة، أما أنا فرثُّ الهيئة، تنتشر على ثيابي بقع الشحم ويبرز مرفقاي من خلال القميص...

هزَّت الفتاة كتفيها.

- لا تلقِ بالاً! فذلك أفضل أيها الساذج! هكذا سيحتار الناس في أمرنا.

أخذ الحزن يتسلّل إلى "مارتين" شيئًا فشيئًا، على نحو يكاد يكون عصيًا على الإدراك، فيما ترنو إليه "ناتي" بحنان لا متناهٍ، في حنان ما كانت ترغب أن يظهر عليها مهما جرى:

- ماذا بك؟

- لا شيء. أتذكرين حين كنتُ والزملاء ندعوكِ "ناتاتشا"[1]؟

-أجل.

- أتذكرين حين طردكِ "جاسكون"[2] من صف القانون الإداري؟

حزنت "ناتي" قليلاً هي الأخرى:

- أجل.

- أتذكرين تلك الأمسية حين قبّلتُكِ في منتزه "إل أويستيه"؟

ـ كنتُ أعرف أنك ستسألني هذا السؤال. أجل، أذكر ذلك أيضًا. فكّرتُ في تلك الأمسية مرات كثيرة. كنتَ أول رجل يقبّل شفتيّ... كم مرَّ من الزمن! "ماركو"...

ـ ماذا؟

- أقسم لكَ بأنني لست بائعة هوى.

شعر "مارتين" برغبة طفيفة في النحيب.

---

(١) يُعتقَد أنها كانت تُلقَّب بهذا الاسم تيمُّنًا بالشخصية الرئيسية في مسرحية بنفس الاسم للمؤلِّف الإسباني "أليخاندرو كاسونا" (١٩٠٣ - ١٩٦٥). كانت "ناتاتشا" رمزًا للمرأة المتحرِّرة العصرية آنذاك. وتجدر الإشارة إلى النجاح الكبير الذي شهدته المسرحية قُبَيل الحرب الأهلية.

(٢) يُعتقَد أنها إشارة إلى "خوسيه جاسكون إي مارين" (١٨٧٥ - ١٩٦٢)، أستاذ القانون الإداري الذي تولّى منصب وزير التعليم عام ١٩٣١.

- ولكن، يا امرأة، لماذا تقولين ذلك؟

- أنا أعرف لماذا، "ماركو"، أنا مدينة لكَ بشيء من الوفاء دائمًا، على الأقل ما يكفي حتى أطلعكَ على ما يجري.

"مارتين" يراقب كيف تحوم ذبابة حول حافة كأس، واضعًا السيجارة في فمه، عاقدًا يديه فوق ساقيه. تابعت "ناتي" حديثها:

- فكَّرتُ كثيرًا في تلك الأمسية. كان يتراءى لي حينئذ أنني لن أحتاج إلى رجل بجواري قط، وأن الحياة يُمكن ملؤها بالسياسية وفلسفة القانون. أيّ غباء! ولكني لم أتعلَّم شيئًا في تلك الأمسية. قبَّلتُكَ، ولكني لم أتعلَّم شيئًا. على العكس، فقد حسبتُ أن الأمور تجري هكذا، كما كان بيني وبينك، ثم تبيَّنتُ أنني كنت مخطئة، فما هكذا تجري الأمور...

يرتجف صوت "ناتي" قليلاً:

- ... بل على نحو آخر، أسوأ كثيرًا...

بذل "مارتين" جهدًا:

- معذرة، "ناتي" فالوقت مُتأخِّر. عليَّ أن أذهب، ولكن ما معي نقود كي أدعوكِ. هلا أعطيتِني "دورو" واحدًا كي أدعوكِ على القهوة؟

نقَّبت "ناتي" في حقيبتها، ومن أسفل الطاولة فتَّشّتْ عن يد "مارتين":

- إليك عشرة "دورو" واشترِ لي بما يتبقى منها هدية.

الفصل الرابع

ـ ١٢٠ ـ

الحارس المدني "خوليو جارثيا موراَّثو" يجوب شارع "إيبيثا" منذ ساعة بالفعل. على أنوار مصابيح الشوارع، يُرَى الحارس المدني في أثناء مروره، رائحًا غاديًا، فلا يبتعد أكثر مما ينبغي أبدًا. الرجل يسير بخطًى وئيدة، كالمتأمِّل. يبدو أنه يعدُّ الخطى، أربعون جيئةً، أربعون ذهابًا، ثم يعاود البدء من جديد. أحيانًا يتجاوز ذلك بخطوات قلائل، فيبلغ الناصية.

الحارس المدني "خوليو جارثيا موراَّثو" من "جاليثيا"لم يكُن يفعل قبل الحرب شيئًا، بل كان يكرِّس وقته لاصطحاب أبيه الضرير من مهرجان ديني إلى آخر، حيث ينشد مدائح "سان سيبران" ويعزف على الجيتار الصغير. أحيانًا، تحت تأثير النبيذ، كان "خوليو"يعزف على مزمار القربة قليلاً. بَيْد أنه عادةً ما كان يؤثر الرقص، أما مزمار القربة فليعزف عليه الآخرون.

حين اندلعت الحرب واستُدعي إلى الخدمة العسكرية، كان الحارس المدني "خوليو جارثيا موراَّثو" بالفعل رجلاً يفيض حياةً، كثورٍ صغير، تهفو

نفسه إلى الوثب واللعب كمُهرٍ بَرِّي، يهوى سمكات السردين ضخمة الرؤوس، والفتيات بارزات النهود، ونبيذ "الريبيرو"، ذات يوم مشؤوم على جبهة "أستورياس" أُصيب بطلق ناري في أضلعه، ومن ذلك الحين بدأ "خوليو جارثيا موراَّثو" في الهزال، ولم يعُد لسابق عهده مرة أخرى. أسوأ ما في الأمر أن إصابته لم تكُن من الجسامة بحيث يُعتبَر غير لائق لأداء الخدمة العسكرية، فاضطرَّ الرجل للعودة إلى الحرب قبل أن يتمَّ له الشفاء من إصابته.

بانتهاء الحرب، سعى "خوليو جارثيا موراَّثو" للحصول على توصية ثم التحق بالحرس المدني.

قال له والده:

- لم تعُد تصلح للعمل في الحقل، أضفْ إلى ذلك أن العمل لا يروقك من الأساس. ولكن، حبذا لو التحقت بجهاز "الكارابينيروس" (*).

كان والد "خوليو جارثيا موراَّثو" يشعر بالتعب والشيخوخة بالفعل، فلم تكُن به رغبة للعودة إلى المهرجانات الدينية.

- سأبقى أنا بالبيت. يمكنني العيش على ما ادَّخرتُ من نقود، إلا أنها لن تكفي كلينا.

قضى "خوليو" بضعة أيام مستغرقًا في التفكير، يقلِّب الأمر في رأسه. وفي نهاية المطاف، حين لمس إصرار أبيه، اتَّخذ قراره:

- كلا، جهاز "الكارابينيروس" بالغ الصعوبة، فالعُرَفاء والرُّقَباء يتقدَّمون للالتحاق به، أما أنا فسأقنع بالانضمام للحرس المدني.

- حسنًا، لا بأس بذلك. كما قلت لك، ليس لديَّ ما يكفي كلينا. حبذا لو كان لديَّ ما يكفي!

(*) "الكارابينيروس": جهاز مُسلَّح معني بحراسة الحدود والمراقبة الجمركية، تولَّى نظام "فرانكو" حلَّه ودمجه في سلاح الحرس المدني عقب انتهاء الحرب الأهلية، الأمر الذي يُعتقَد أنه يُعزَى لانضمام معظم أفراد جهاز "الكارابينيروس" إلى الجبهة الجمهورية خلال الحرب.

- حسنًا، حسنًا.

تحسَّنت صحة الحارس المدني "خوليو جارثيا موراَّثو" بعض الشيء، ورويدًا رويدًا، زاد وزنه بمقدار ستة كيلو تقريبًا. صحيح أنه لم يعُد لسابق عهده، إلا أنه لم يكُن يشكو حاله، فهناك آخرون سقطوا على مقربة منه في ساحة القتال، حيث بقوا ممدَّدين على ظهورهم. ولا داعي للذهاب بعيدًا، فله ابن عم من "سانتياجو" تعرَّض لعيار ناري أصاب جعبته حيث كان يحتفظ بالقنابل اليدوية، فلم يُعثَر لجثمانه على نُتفة يزيد حجمها على أربعة إنشات.

الحارس المدني "خوليو جارثيا موراَّثو" سعيد في عمله. كان ركوب الترام مجانًا يبدو له لافتًا جدًا للانتباه في بادئ الأمر، فكان يفكِّر:

- طبعًا، فالمرء بمثابة سلطة.

وفي الثكنة أحبَّه رؤساؤه جميعًا لأنه مطيع ومنضبط، لا يتجاوز حدوده قط، على عكس حرس آخرين ممن يحسبون أنفسهم برتبة فريق. كان الرجل يؤدِّي ما يُكلَّف به، لا يتجهَّم لأي سبب كان، بل يرضى بكل شيء. كان يعرف أنه لم يعُد لديه شيء آخر للقيام به، وما كان يخطر له التفكير في شيء آخر.

كان يقول لنفسه:

- ما دمتُ أنفِّذ الأوامر، فلن يضطرَّ أحدٌ إلى تعنيفي أبدًا. وفوق ذلك، فأصحاب الأمر هم أصحاب الأمر؛ ولذا يتقلَّدون النياشين والنجوم، أما أنا فلا.

كان الرجل يتأقلم في يسر ويتلافى أية تعقيدات.

- ما داموا يوفِّرون لي الطعام الساخن كل يوم ولا أضطرُّ إلى عمل شيء بخلاف اقتفاء أثر بائعات السوق السوداء...

"بيكتوريتا" تشاجرت مع أمها على العشاء.

– متى تتركين ذلك المريض بالسل؟ ماذا ستجنين من ورائه؟

– سوف أجني ما يمليه عليَّ مزاجي.

– أجل، ميكروبات وانتفاخ في البطن ذات يوم.

– أنا أدرى بما أفعل، وكل ما يجري لي يخصُّني وحدي.

– أنتِ؟ وما أدراكِ؟ ما أنتِ بأكثر من طفلة ساذجة لا تعرف الألف من العصا.

– أعرف ما أحتاج معرفته.

– أجل. ولكن لا تنسي، إن حبلتِ منه فلن تطأ قدماك هذا المكان مرة أخرى.

امتقع وجه "بيكتوريتا"

ـ أهذا ما قالته لكِ جدتي؟

هبَّت أمها واقفة وصفعتها مرتين بكل ما أوتيت من قوة. أما "بيكتوريتا" فلم تتحرَّك من مكانها قيد أنملة.

– فاجرة! عديمة التربية! أنتِ فاجرة! ليس هذا بأسلوب يصلح لمخاطبة أم!

جففَّت "بيكتوريتا" قليلاً من الدماء التي سالت على أسنانها بالمنديل:

– ... ولا يصلح لمخاطبة ابنة. إذا كان حبيبي مريضًا، فلديه من البؤس ما يكفيه ولا داعي لنعته بـ "المريض بالسل" طوال اليوم.

هبَّت "بيكتوريتا" واقفةً بغتةً وخرجت من المطبخ. كان أبوها قد لزم الصمت طوال الوقت.

- اتركيها تأوِ إلى فراشها! ليس من المنصف أن تخاطبيها هكذا! إذا كانت تحبُّ ذلك الفتى، حسنًا، دعيها تحبّه، فكلما زاد إلحاحك ساء الأمر. وفوق ذلك، فالمسكين لن يعيش طويلاً!

وبصوت خافت، تناهى إلى المطبخ النحيب المُتهدِّج للفتاة التي كانت قد استلقت على الفراش.

- يا صغيرتي، أطفئي النور! فلستِ في حاجة إلى النور في أثناء النوم.

أخذت "بيكتوريتا" تتحسَّس بيدها بحثًا عن مفتاح النور ثم أطفأته.

ـ ١٢٢ ـ

دون "روبرتو" يقرع جرس بيته، فقد ترك مفاتيحه في السروال الآخر، الأمر الذي يحدث له دائمًا رغم أنه لم ينفكّ يردِّد بينه وبين نفسه: "ضَع المفاتيح في السروال الآخر، ضَع المفاتيح في السروال الآخر". تفتح له زوجته.

- أهلاً، "روبرتو".

ـ أهلاً.

تسعى زوجته لأن تكون ودودًا وأن تُحسِن معاملته، فالرجل يكدُّ في عمله للوفاء باحتياجاتهم بشقِّ الأنفس.

- لا بد أنك تشعر بالبرودة، انتعلْ خفيك، فقد وضعتُهما لك بجوار الموقد.

انتعل "روبرتو" خفَّيْه وارتدى السترة القديمة التي يرتديها في البيت، وهي عبارة عن چاكيت مهترئ كان بنّي اللون في سابق عهده، وله شريط دقيق أبيض يضفي عليه الكثير من الرقي، الكثير من الأناقة.

- ماذا عن الأطفال؟

- بخير، إنهم في الفراش. أتعبني الصغير قليلاً حتى ينام، لا أدري إن كانت به وعكة خفيفة.

اتَّجه الزوجان صوب المطبخ، والمطبخ هو المكان الوحيد في البيت حيث يُمكن الجلوس خلال فصل الشتاء.

- هل جاء ذلك المُغفَّل إلى هنا؟

تملَّصت زوجته من الإجابة، إذ ربما كانا قد التقيا عند المدخل بالفعل فتقع في خطأ لو أنها أنكرت. أحيانًا يقع المرء في أخطاء ويتسبَّب في ضائقات شيطانية تحديدًا لأنه يرغب في تسيير الأمور وتلافي التعقيدات.

- أعددتُ لكَ سمك الماكريل المقلي على العشاء.

سُرَّ دون "روبرتو" كثيرًا، فالماكريل المقلي من أحب الأطعمة إليه.

- عظيم.

ابتسمت له زوجته، في دلال.

- كما أحضرتُ لكَ قنينة نبيذ صغيرة بما تحايلتُ لتوفيره من نقود قليلة في السوق. فأنت تعمل بكدٍّ، والقليل من النبيذ من حين إلى آخر مفيد لبدنك.

كان "جونثاليث الحيوان" على حد وصف شقيق زوجته، رجلاً مسكينًا ورب أسرة شريف، رجلاً أتعس من التعاسة، سرعان ما يرقُّ قلبه.

- ما أطيبكِ يا امرأة! لطالما فكَّرت بيني وبين نفسي: ثمة أيام لا أعرف ماذا كنت سأفعل خلالها لولاكِ. على كلٍّ... ينبغي التحلِّي بالقليل من الصبر. تلك الأعوام الأولى هي الأصعب... حتى أستطيع أن أجد لنفسي موضعًا... تلك الأعوام العشرة الأولى. بعد ذلك سيكون كل شيء هيِّنًا يسيرًا، وسترين.

طبع دون "روبرتو" قبلة على وجنة زوجته.

- هل تحبينني جدًّا؟

- جدًا، "روبرتو" أنت أدرى بذلك.

تناول الزوجان عشاءهما المكوَّن من الحساء والماكريل المقلي وثمرة موز. وبعد التحلية، أنعم دون "روبرتو" النظر إلى زوجته:

- ماذا تريدين أن أهديكِ غدًا؟

ابتسمت المرأة وهي تفيض سرورًا وامتنانًا.

- آهٍ، "روبرتو"! كم أنا سعيدة! خلتُكَ لن تذكر هذا العام أيضًا.

- اسكتي، أيتها الساذجة! ولماذا لن أذكر؟ أيًّا كان ما جرى العام الماضي... ولكن هذا العام...

- كما ترى، فأنا أجد نفسي بلا شأن يُذكر!

لو تابعت زوجته التفكير في مدى ضآلتها لثانية واحدة فحسب، لاغرورقت عيناها بالدموع.

- أخبريني، ماذا تريدين أن أهديكِ؟

- ولكن يا رجل، كيف وحالنا مزرية إلى هذا الحد!

خفض دون "روبرتو" صوته قليلاً، شاخصًا إلى الطبق:

- طلبتُ مبلغًا تحت الحساب في المخبز.

رنَتْ إليه زوجته حانيةً، تكاد تكون محزونة.

- كم أنا بلهاء! أخذني الحديث ونسيتُ أن أقدِّم لكَ كوب الحليب.

اتَّجهت زوجته إلى النملية فيما استطرد دون "روبرتو":

- أعطوني عشرة "بيسيتا" أيضًا، لشراء شيء بسيط للأطفال.

- ما أطيبك، "روبرتو"!

ـ كلا يا امرأة، تلك أمور من وحي خيالك، فأنا كالجميع، لا أفضل ولا أسوأ.

شرب دون "روبرتو" كوب الحليب. دائمًا ما تقدِّم له زوجته كوبًا من الحليب بوصفه مُكمِّلاً غذائيًا.

- فكَّرتُ في شراء كرة للأطفال. وإن تبقَّى شيء من النقود فسأحتسي بها كأسًا من "الڤيرموت" لم أُرِد إطلاعكِ على أي شيء، ولكنني غير قادر على كتمان الأسرار كما ترين!

ـ ١٢٣ ـ

تلقَّتْ دونيا "رامونا براجادو" مكالمة هاتفية من دون "ماريو دي لا بيجا" مالك مطبعة. كان الرجل يرغب في الحصول على أخبار بخصوص أمر يسعى وراءه منذ أيام عدة.

- ... وفوق ذلك، فأنتما تعملان في نفس المهنة. الفتاة تعمل في مطبعة هي الأخرى، أعتقد أنها لم تتجاوز مرحلة التدريب.

- حقًا؟ في أية مطبعة؟

- في مطبعة تُدعَى "إل پروبينير"، بشارع "لا ماديرا".

ـ حسنًا، ذلك أفضل، فهكذا يبقى كل شيء ما بين أبناء المهنة الواحدة. أخبريني، هل تعتقدين أن...؟ ها؟

- أجل، اطمئن واترك لي الأمر. غدًا حين تغلق بابك، مُرّ بي في دكَّان الألبان، وبادرني بالتحية مُتعلِّلاً بأي عُذر.

- حسنًا، حسنًا.

- وهو كذلك. أما هي فسوف تكون معي... سنجد عذرًا مناسبًا لذلك. يبدو لي أن الثمرة قد نضجت وأوشكت على السقوط. لقد ضاقت

الصغيرة بالمصائب ولم تعُد تحتمل المزيد. وفوق ذلك، فحبيبها مريض وتريد أن تشتري له العلاج: أولئك العاشقات هن الأسهل منالاً، وسوف ترى. إنها لقمة سائغة.

- لعلَّ وعسى!

- سوف ترى بنفسك. دون "ماريو" اتفاقنا لن ينقص ريالاً واحدًا، أليس كذلك؟ لقد كنتُ معقولة معك بما فيه الكفاية.

- حسنًا يا امرأة، سوف نتحدَّث لاحقًا.

- كلا، لن نتحدَّث لاحقًا، فقد تحدَّثنا في كل شيء بالفعل... وإلا تراجعت عن اتفاقنا!

- حسنًا، حسنًا.

ضحك دون "ماريو" كمن يتظاهر بكونه رجلاً مُحنَّكًا. أما دونيا "رامونا" فلم تُرِد أن تترك ثغرة واحدة.

- اتفقنا؟

- أجل يا امرأة، اتفقنا.

وبعودة دون "ماريو" إلى الطاولة قال للآخر:

- سوف تبدأ العمل بأجر قيمته ستة عشر "بيسيتا" مفهوم؟

فأجابه الآخر قائلاً:

- أجل، سنيور. مفهوم.

والآخر شاب مسكين، نال قدرًا من الدراسة إلا أنه لم يجِد شيئًا يناسبه بعد. لم يكُن الرجل يحظى بصحة جيدة ولا حظّ سعيد، بل وكان مرض السل يجري في عائلته. كان له شقيق يُدعَى "پاكو" سُرِّح من الجيش وأُعيد من الثكنة العسكرية لأنه ما عاد يقوى على احتمال المزيد.

أُوصِدَتْ أبواب البيوت منذ بعض الوقت، بَيْد أن عالَمَ الكائنات الليلية ما زال يقطر، في بطءٍ متزايد، فتنساب قطراتُه صوب الأوتوبيس.

أما وقد أرخى الليل سدوله، فالشارع يتَّخذ هيئة تتراوح ما بين الجوع والغموض، فيما تهبُّ ريح خفيفة، كالذئب تعوي وسط البيوت.

من يمضي في طريقه إلى مدريد في مثل هذه الساعة من الرجال والنساء، أولئك هم الكائنات الليلية بحق، أولئك الذين يخرجون من أجل الخروج، أولئك المدفوعون بالقصور الذاتي للسهر: روَّاد الملاهي الليلية الموسرون، وروَّاد مقاهي "جران بِيا" العامرة بالمُعطَّرات والمثيرات من النساء، ممن يصبغن شعورهن باللون الأسود، وإن تخلَّلتها بضع شعيرات بيضاء من آن إلى آخر، ويضعن معاطف من الفراء جديرة بالإعجاب؛ أو الساهرون من أصحاب الجيوب الأقل امتلاءً، أولئك الذين يتجاذبون أطراف الحديث في جلسة سمر، أو يحتسون كؤوس الشراب مُتنقِّلين من حانة صغيرة إلى أخرى. كل شيء، إلا البقاء في البيت.

أما الآخرون، الساهرون على سبيل الصدفة، روَّاد السينما، أولئك الذين لا يخرجون ليلاً سوى من آنٍ إلى آخر، إلى هدف مُحدَّد دومًا، ولا يهيمون كيفما اتَّفق أبدًا، فقد مرُّوا منذ بعض الوقت، قبل أن توصَد أبواب البيوت. أولاً روَّاد دور السينما بوسط المدينة، وهم أكثر أناقة، في عجلة من أمرهم، يسعون لركوب سيارة أجرة: وأولئك هم روَّاد سينما "إل كايَّاو" "إل كابيتول" و"إل پالاثيو دي لا موسيكا" ممن ينطقون أسماء الممثلات نطقًا يكاد يكون صائبًا، بل ويتلقَّى بعضُهم من آنٍ إلى آخر دعوة لمشاهدة أفلام بالسفارة البريطانية في مقرها بشارع "أورفيلا" لهم معرفة واسعة بالسينما، ولا يقولون: "إنه فيلم رائع" لـ "چوان كراوفورد" كما يقول روَّاد سينما الأحياء، بل يقولون، وكأنما حديثهم موجه لمبتدئين دومًا: إنها كوميديا مُبهِجة لـ "رينيه كلير"، يغلب عليها الطابع الفرنسي "أو" إنها دراما عظيمة لـ "فرانك كاپرا". فلا يعرف أحد على وجه التحديد ما هو الشيء

الذي يغلب عليه الطابع الفرنسي؟ ولكن لا يهمّ... فنحن نعيش في زمن الجرأة، ذلك الاستعراض الذي يتأمّله بعض أصحاب الأفئدة النقية في ذهول، من خلف الحاجز، فلا يدركون ما يجري تمام الإدراك، رغم كونه واضحًا كل الوضوح.

أما روّاد سينما الأحياء، أولئك الذين لا يعرفون أسماء المخرجين أبدًا، فيمرُّون بُعَيْدَ ذلك، وأبواب البيوت مقفلة، في غير عجلة شديدة. يمرُّون بقدر أقل من الأناقة، ومن الانشغال أيضًا، في تلك الساعة على الأقل. يتجوَّلون وصولاً إلى "ناربايث" "ألكالاه" "تيبولي" "سالامانكا" حيث يشاهدون أفلامًا ذاعت شهرتها بالفعل، بَيْد أن تلك الشهرة ربما تكون قد خبَتْ قليلاً في دور سينما شارع "جران بِيا" بوسط المدينة منذ عدة أسابيع... أفلام بديعة، ذات أسماء شاعرية تتطرَّق إلى طلاسم بشرية لا يهتدون إلى كشفها في كل مرة.

ما زال على روّاد سينما الأحياء الانتظار زمنًا قبل مشاهدة أفلام "ارتياب" ومغامرات "ماركو پولو" و "قُلْ للفجر أن ينتظر".

ـ ١٢٥ ـ

ذات مرة وصل الحارس المدني "خوليو جارثيا مورَّاثو" إلى الناصية، فتذكَّر "ثيليستينو" صاحب الحانة.

- إن ذلك المدعو "ثيليستينو" هو الشيطان بعينه! أية أفكار تلك التي تخطر له! ومع ذلك، فهو أبعد ما يكون عن الحماقة، بل إنه رجل قرأ من الكتب آلافًا مُؤلَّفة.

أما "ثيليستينو أورتيث" فما إن تذكَّر تلك المقولة المتعلِّقة بالغضب الأعمى والحيوانية حتى أخذ كتابه، كتابه الوحيد، من فوق قوارير "الڤيرموت" الصغيرة ليضعه في الدُّرج. أية أمور تلك التي تجري! إذا كان "مارتين ماركو" قد غادر الحانة بوجه سليم، وليس مُهشَّمًا إلى

نتف صغيرة، فالفضل في ذلك يرجع إلى "نيتشه". لو عاد "نيتشه" إلى الحياة!

ـ ١٢٦ ـ

خلف أستار شقتها بالطابق الأوسط، دونيا "ماريا موراليس دي سييرًّا" (أخت دونيا "كلاريتا موراليس دي بيريث"، زوجة دون "كاميلو" اختصاصي العناية بالقدم القاطن في البيت نفسه حيث يسكن دون "إجناثيو جالداكانو" السنيور الذي عجز عن حضور الاجتماع المنعقد في بيت دون "إبرايم" لكونه مصابًا بالجنون)، تتحدَّث إلى زوجها دون "خوسيه سييرًّا"، المساعد في وزارة الأشغال العامة:

- هل لاحظت ذلك الحارس المدني؟ لا يفعل شيئًا بخلاف السير من جانب إلى الآخر، وكأنه في انتظار أحدهم.

أما زوجها فلا يجيب حتى على سؤالها. فهو يطالع الجريدة ذاهلاً عن كل شيء تمامًا، وكأنه يعيش في عالم صامت غريب، أبعد ما يكون عن زوجته. لو لم يكُن دون "خوسيه سييرًّا" قد بلغ تلك الدرجة المثالية من الشرود لما تسنَّى له أن يطالع الجريدة في بيته.

- ها هو يعود إلى هنا مرة أخرى. أدفع نصف عمري وأعرف ماذا يفعل! مع أن هذا الحي هادئ وسكانه أناس محافظون... أما لو جرى ذلك في المنطقة الخلفية، عند الأراضي الخلاء، حيث كانت ساحة مصارعة الثيران قديمًا، حيث كل شيء غارق في ظلام دامس...

تبعُد الأراضي الخلاء بضع خطوات عن شقة دونيا "ماريا" بالطابق الأوسط.

- ... لكان الوضع مختلفًا تمامًا، فالبعض هناك على استعداد للسطو على الواحدة منا، ولكن هنا...! يا إلهي، المكان هنا يخيِّم عليه الهدوء التام والسكينة! ليس ثمة من يتحرَّك قيد أنملة!

التفتَتْ دونيا "ماريا" باسمةً. إلا أن زوجها الذي ما فتئ يتابع الجريدة لم يتمكَّن من رؤية ابتسامتها.

ـ ١٢٧ ـ

مضى وقت طويل على "بيكتوريتا" وهي تبكي، فيما تتضارب المشروعات برأسها: ابتداءً من الرهبنة ووصولاً إلى بيع جسدها، أي شيء يبدو لها أفضل من البقاء في بيتها. لو كان حبيبها قادرًا على العمل، لاقترحَتْ عليه أن يهربا معًا. فلو تمكَّن كلاهما من العمل، لكان من الصعب ألاّ يتسنَّى لهما جمع ما يكفي للطعام. ولكن من الواضح تمامًا أن حبيبها ليس في حال تسمح له بأكثر من ملازمة الفراش طيلة اليوم، حيث لا يفعل شيئًا، بل ويكاد لا يتكلَّم. أي حظ عاثر! الكل يقول إن مرض حبيبها قابل للعلاج أحيانًا، بالكثير من الطعام وبالحقن. وفي تلك الحالة، حتى وإن لم يتحقَّق له الشفاء التام، فعلى الأقل يتحسَّن المريض إلى حد كبير وقد يظلُّ على قيد الحياة أعوامًا طوالاً، ويستطيع أن يتزوَّج ويعيش حياةً طبيعية. إلا أن "بيكتوريتا" لا تعرف كيف تحصل على النقود. أو بالأحرى تعرف، إلا أنها لم تتَّخذ قرارًا نهائيًا في هذا الشأن بعد. لو نما ذلك إلى علم "پاكو" لتركها في الحال، يا له من فتى! وفي حال قرَّرَتْ "بيكتوريتا" الإقدام على عمل همجي من هذا القبيل، لما كان ذلك من أجل شيء أو أحد في هذا العالم سوى "پاكو"، ثمة لحظات تُفكِّر خلالها أن "پاكو" سيقول لها:

- حسنًا، افعلي ما شئتِ، فأنا لا آبه.

ولكن سرعان ما تنتبه إلى أن ذلك غير صحيح، وأن "پاكو" لن يقول لها ذلك.

لم تعُد "بيكتوريتا" قادرة على الاستمرار في بيتها، وهي على قناعة تامة بذلك. فأمها تجعل حياتها مستحيلة، وتُلقي عليها العظة نفسها طيلة اليوم. ولكن الاندفاع على هذا النحو، كيفما اتَّفق، وهي بلا مُعين، أمرٌ محفوف بالمخاطر للغاية. أجرَتْ "بيكتوريتا" حساباتها ورأت أن الأمر له مميزاته وعيوبه: إذا سار كل شيء على ما يُرام، فسيكون الأمر أشبه

بركوب الزُّحْلُوقَة، بَيْد أن الأمور لا تسير على ما يُرام تمامًا إلا فيما ندر، بل وأحيانًا ما تتَّخذ منحًى بالغ السوء. المسألة برمتها تتوقَّف على أن يبتسم لها الحظ وأن يذكرها أحدهم، ولكن من سيذكر "بيكتوريتا" فهي لا تعرف شخصًا واحدًا يمتلك من المدخرات عشرة "دورو" أو شخصًا واحدًا لا يعيش على الأجر اليومي. لقد بلغ التعب من "بيكتوريتا" مبلغه، فهي تقضي نهارها كاملاً واقفة على قدميها في المطبعة، وحالة حبيبها من سيئ إلى أسوأ كل يوم، وأمها لا تفعل شيئًا بخلاف الصياح، وكأنها رقيب في سلاح الفرسان، أما أبوها فرجل رخو شبه سكِّير، لا يُمكن الاعتماد عليه في أي شيء كان.

أما التي حالفها الحظ فعلاً فهي "پيرولا" زميلة "بيكتوريتا" في المطبعة سابقًا، والتي كانت تعمل في التغليف هي الأخرى حتى انتشلها سنيور يشملها برعايته كالملكات ويلبِّي كل ما تهفو إليه نفسها من نزوات، وفوق ذلك يحبُّها ويبدي لها الاحترام. لو طلبَتْ من "پيرولا" نقودًا لما أبَتْ. ومع ذلك، فربما استطاعت "پيرولا" أن تعطيها عشرين "دورو" ولكنها ليست مُضطرَّة لأن تعطيها أكثر من ذلك بطبيعة الحال. "پيرولا" تعيش الآن كالدوقات، فترتدي الأنيق من الثياب وتعيش في شقة مُجهَّزة براديو ويناديها الجميع سنيوريتا. لمحتها "بيكتوريتا" ذات يوم في الشارع. وأي اختلاف ذلك الذي طرأ عليها خلال عام واحد قضته مع هذا السنيور فما عادت "پيرولا" تبدو المرأة ذاتها، بل إنها بدت أكثر نضجًا وما إلى ذلك لم تكُن "بيكتوريتا" تطلب كل ذلك...

ـ ١٢٨ ـ

الحارس المدني "خوليو جارثيا مورَّاثو" يتحدَّث إلى الخفير جومِرسيندو بيجا كالبو"، ابن بلدته.

- ليلة عصيبة!

- ثمة ليالٍ أقسى.

منذ عدة أشهر، يدور بين الحارس المدني والخفير حديث يروق لكليهما كثيرًا، حديث يعودان إليه ليلة إثر ليلة، في لذَّة متروِّية.

- إذن، فأنت تقول إنك من نواحي "بوررينيو".

ـ هذا صحيح، على مقربة من هناك. أنا من "موس".

ـ لي أخت متزوِّجة في "سالباتييرًا" تُدعَى "روساليا".

ـ زوجة "بوريلو" صانع المسامير؟

- هي بعينها.

- إنها في رغد من العيش، أليس كذلك؟

- صدقت القول، كانت زيجتها موفَّقة للغاية.

ـ١٢٩ـ

تواصل السنيورا القاطنة بالطابق الأوسط تكهناتها، فهي سنيورا نمَّامة بعض الشيء.

- والآن يلتقي الحارس المدني بالخفير، الأرجح أنه يطلب منه تقارير بشأن أحد الجيران، ألا تعتقد؟

تابع دون "خوسيه سييرًا" المطالعة بفلسفة رواقيَّة وإذعان نموذجيين.

- الخُفراء مُلمّون بكل شيء دومًا، أليس كذلك؟ فهناك أمور لا نعلم عنها شيئًا، أما هم فيعرفونها كما يعرف المرء ظاهر يده.

انتهى دون "خوسيه سييرًا" لتوِّه من قراءة افتتاحية حول الرعاية لاجتماعية وبدأ في مقال آخر يتطرَّق إلى عمل المجالس التقليدية لإسبانية وامتيازاتها.

- ربما كان هناك ماسوني مُتخَفٍّ في واحد من تلك البيوت، فلا يُمكن التعرُّف على الماسونيين من مظهرهم(*)!

ندَّ صوت غريب عن حلق دون "خوسيه سييرًّا"، صوت قد يعني "أجل" بقدر ما قد يعني "كلا" أو "ربما" أو "مَنْ يدري!" دون "خوسيه" رجل استطاع من خلال تحمُّل زوجته أن يبلغ حدًا يستطيع معه العيش ساعات كاملة، بل وأيامًا كاملة في بعض الأحيان، من دون أن ينبس بحرف واحد باستثناء "ممم!" من حين إلى آخر، متبوعة بـ "ممم" أخرى بعد برهة، وهكذا دائمًا. كانت تلك وسيلة مُتحفِّظة للغاية كي يُفهِم زوجته أنها مخبولة، وإن لم يقُلها صراحةً.

ـ ١٣٠ ـ

الخفير سعيد بزيجة أخته "روساليا"، فآل "بوريلو" يحظون بالتقدير في المنطقة بأكملها.

- لها تسعة أولاد بالفعل، والعاشر في الطريق.

- هل تزوَّجَتْ منذ زمن طويل؟

- أجل، إلى حد ما، منذ عشرة أعوام مضت.

يستغرق الحارس المدني بعض الوقت في الحساب. أما الخفير فلا يتيح له الوقت اللازم كي يفرغ من الحساب، بل يلتقط خيط الحديث مرة أخرى:

- نحن من منطقة أقرب إلى نواحي "كانييثا" من "كوبيلو" ألم تسمع بـ "عائلة القُرع"؟

-كلا.

- تلك هي عائلتنا.

(*) خضع الماسونيون لملاحقة ضارية على يد النظام الحاكم، الذي وضع نصب عينيه محاربة كلٍّ من الماسونية والشيوعية.

شعر الحارس المدني "خوليو جارثيا مورَّاثو" بضرورة أن يقابل ما بدر عن الخفير بمثله:

- أنا وأبي نُلقَّب بـ "الثعلبيْن".

ـ حسنًا.

- إلا أننا لا نأخذ الأمر على محمل الإساءة، فالكل يدعونا بهذا اللقب.

- حسنًا.

- كان لي أخ يُدعَى "تيلمو" تُوفِّي مريضًا بالتيفويد، وكان يستشيط غضبًا حين يلقبونه بـ "المزمار الأجرب".

ـ البعض لهم طباع حادة للغاية، حقًا؟

- أوه! هناك مَنْ تجري الشياطين في دمائهم! لم يكُن أخي "تيلمو" يطيق أن يدوس له أحد على طرف.

- أولئك يلقون نهاية مؤسفة دومًا.

- هذا رأيي أيضًا.

دائمًا ما يتحدث الحارس المدني والخفير بالإسبانية بدلاً من "الجاليثية" إذ يريد كل منهما أن يثبت للآخر أنه ليس فلاحًا(*).

في مثل هذه الساعة يتسلَّل إلى الحارس المدني "خوليو جارثيا مورَّاثو" شعور بالشجن.

- إن بلدنا طيب حقًا! أليس كذلك؟

أما الخفير "جومرِسيندو بيجا كالبو" فهو جاليثي من صنف آخر، جاليثي مرتاب قليلاً، يتضرَّج وجهه إزاء الاعتراف بسعة العيش.

(*) كان الحديث باللغة الجاليثية محل ازدراء وعلامة على نقص التحضُّر. أضف إلى ذلك الحظر الذي فرضه نظام "فرانكو" على استخدام اللغات المحلية (كالجاليثية والكاتالونية على سبيل المثال)، التي اعتبرها مناهضة للوطنية وللهوية الإسبانية.

- لا بأس به.

- بكل تأكيد! هناك يعيش المرء حياته! أليس كذلك؟

- فعلاً، فعلاً!

ومن حانة مفتوحة على الرصيف المقابل، تنساب خارجةً إلى برد الشارع دقات إيقاع رقصة "فوكستروت" بطيئة، وُضِعت لسماعها أو الرقص على أنغامها في حميمية.

يُقْبِل أحدهم مناديًا على الخفير:

- أيها الخفير!

الخفير مستغرق في ذكرياته.

- خير ثمار "جاليثيا" هي البطاطس والذرة. كما أن هناك نبيذًا في منطقتنا.

يناديه القادم مرة أخرى، بقدرٍ أكبر من الألفة:

- "سيندو"!

ـ ها أنا قادم!

ـ ١٣١ ـ

عند بلوغه فوَّهة مترو "ناربايث" على بعد خطوات قليلة من ناصية "ألكالاه" التقى "مارتين" بصديقته "الأوروجوانية" برفقة سنيور. تظاهر بأنه لم يرَها في بادئ الأمر.

- أهلاً، "مارتين". أيها الشارد.

التفت "مارتين" إليها، إذ لم يعُد ثمة مفر.

- أهلاً، "ترينيداد". لم أرَكِ.

- تعالَ، سأقدِّم كلاً منكما إلى الآخر.

اقترب "مارتين".

ـ هذا صديق مُقرَّب لي، أما هذا فـ "مارتين"، كاتب.

"الأوروجوانية" بائعة هوى رخيصة، تفتقر إلى الحُسن والأدب، والرغبة في إدخال السرور على النفوس. بائعة هوى من أردأ ما يكون، بائعة هوى لا ترقى حتى لكونها مُداهِنة، لأنها لا شيء على الإطلاق. امرأة مُنفِّرة تنتشر البثور والتقرحات في جسدها بقدر ما تنتشر في روحها على الأرجح. امرأة رقيعة بائسة لا ضمير لها، ولا ميل أو حب تجاه المهنة، ولا تحفُّظ، ولا حتى مسحة طفيفة من الجمال (وذلك أقل ما يُمكن أن يطلبه المرء منها). "الأوروجوانية" أنثى ضخمة ذات شارب، أو ما يمكن وصفه بالبغلة، على استعداد لبيع أبيها لقاء ستة ريالات. يُصرِّف أمورَها قوَّادٌ يعمل سائقًا لدى بعض النبلاء، ينتزع منها نقودها حتى آخر "سنت" ويكيل لها الضرب المبرح. "الأوروجوانية" لها لسان أفعى، وكيل الشتائم عندها يمرٌّ بأطوار. فتميل إلى ذمِّ المُخنَّثين حينًا، والتهكُّم على زميلاتها في المهنة حينًا، والتشنيع على زبائنها الذين كانت معهم لتوِّها حينًا، وهكذا مع الجميع. أما الآن فهي تخوض حملة شعواء شنَّتها على المثليات جنسيًا، رقيقات القلوب، المومسات عاشقات الروح، المعذبات، المحزونات، الحالمات، الصامتات كسنابل الناردين.

تُلَقَّب "الأوروجوانية" بهذا اللقب لأنها من "بوينوس آيرس".

تقول لصديقها:

– إن هذا الذي تراه أمامك ينظم الشعر. هيا! تبادلا التحية، فقد قدَّمتُ كلاً منكما إلى الآخر!

انصاع الرجلان وتصافحا.

– تشرَّفنا، ما أخبارك؟

– أخباري عاجلة جدًا، شكرًا على السؤال!

الرجل الذي يرافق "الأوروجوانية" من أولئك الذين يحسبون أنفسهم ظرفاء.

انفجر الرجل والمرأة ضاحكيْن بصوت عالٍ. بدت أسنان "الأوروجوانية" الأمامية وقد اسودَّت ونخر فيها السوس.

- "مارتين". تناول معنا فنجان قهوة.

ظلَّ "مارتين" متردِّدًا، ظنًّا منه أن الآخر قد يشعر بالاستياء.

- على كل حال... لا يبدو لي...

- بلى يا رجل! تعالَ معنا. لن أقبل بأعذار!

- حسنًا، شكرًا جزيلاً، ولكني لن أبقى سوى لحظات.

- فيمَ العجلة يا رجل، ابقَ معنا ما شئت! الليلة طويلة! ابقَ معنا، فأنا أستظرف الشعراء جداً.

جلسوا بمقهى على الناصية، حيث طلب زبون "الأوروجوانية" قهوة وكونياك للجميع.

- قُلْ لبائع التبغ أن يحضر.

- حسنًا، سنيور.

جلس "مارتين" أمامهما. كانت "الأوروجوانية" مخمورة قليلاً، تكفي نظرة واحدة لمعرفة ذلك.

- اسمع أيها العجوز العزيز، عليك أن تكون حذرًا مع حبيبتك.

- حبيبتي؟

- أجل. أنت تعرف من أقصد، "ماروخيتا".

-حقًّا؟

- أجل، يبدو لي أنها ليست بخير على الإطلاق، عرفتُ أنها أصيبت بعدوى منقولة جنسيًا.

- أتظنّين كذلك؟

- أظنّ؟ أنا أعلم تمام العلم!

حانت من "مارتين" لفتة تنمّ عن شيء من القلق.

- يا لها من فتاة مسكينة!

- بل إنها حرباء داهية! لا تريد أن تبوح بشيء، ولا أن تلزم بيتها أسبوعًا حتى تتماثل للشفاء. لو كشفَتْ دونيا "خيسوسا" أمرها...! يا لها من امرأة! "ماروخيتا" تقول إن أمها في حاجة إلى الطعام، وكأن الباقين يكسبون رزقهم من الهواء!

حضر بائع التبغ.

- مساء الخير، سنيور "فلوريس". لم نرَك منذ زمن... هل تودّ شيئًا؟

- أجل، أعطنا سيجارين، من صنف فاخر. يا "أوروجوانية" هل معكِ تبغ؟

- كلا، لم يعُد لديَّ سوى القليل، اشترِ لي علبة.

- وعلبة من التبغ الفاتح لها أيضًا.

ـ ١٣٢ ـ

خَلَتْ حانة "ثيليستينو أورتيث" من الزبائن. حانة "ثيليستينو أورتيث" صغيرة، لها واجهة خضراء داكنة، تُدعَى "فَجْر للنبيذ والأطعمة".

أما الأطعمة فلا وجود لها في الوقت الراهن. وإن كان من المزمع أن يتيح "ثيليستينو" خدمة تقديم الأطعمة حين تنصلح أموره قليلاً. ليس في الإمكان عمل كل شيء في يوم واحد.

وعند البار جلس الزبون الأخير، حارس مدني، يحتسي كأسًا بائسة من "الأنيس".

ـ كما قلتُ لكَ بالضبط، فليوفِّروا عليَّ حكاياتهم الخرافية.

بمغادرة الحارس المدني، يخطر لـ "ثيليستينو" أن يغلق الباب ويُخرِج المرتبة ثم يخلد إلى النوم. "ثيليستينو" رجل لا يروقه السهر، بل يؤثر أن يأوي إلى الفراش مُبكِّرًا ويعيش حياة صحية، صحية بقدر الإمكان على الأقل.

- لا آبه بذلك البتة!

"ثيليستينو" ينامِ في حانته لسببين: لأن النوم في حانته أرخص تكلفةً، وبذلك يتجنب التعرُّض للنهب في ليلة أبعد ما تكون عن المُتوقَّع.

- الشرُّ يأتي من مستويات أعلى من ذلك، وليس هنا بكل تأكيد.

سرعان ما تعلَّم "ثيليستينو" كيف يُعِدُّ فراشه الوثير، الذي يسقط من فوقه أحيانًا، واضعًا مرتبته الصغيرة المصنوعة من الوبر فوق ثمانية أو عشرة كراسٍ جنبًا إلى جنب.

- يبدو لي من المجحف أن يُلقَى القبض على بائعات السوق السوداء في المترو. فالناس في حاجة إلى الطعام. وإن لم يجدوا عملاً، ينبغي لهم تدبُّر أمورهم كيفما استطاعوا. تكلفة المعيشة تحلِّق عاليًا، أنت تعلم ذلك تمام العلم، كما أعلمه أنا أيضًا. وحصة التموين التي يحصل عليها الناس لا تكفي لشيء على الإطلاق، لا تكفي حتى كبداية. لا أقصد الإهانة، ولكني أعتقد أن إقدام بعض النساء على بيع السجائر أو أرغفة الخبز لا يستدعي أن يقتفي الحرس المدني أثرهم.

أما الحارس المدني، صاحب كأس "الأنيس" فلم يكُن خبيرًا في الجدال.

- أنا عبد المأمور.

- أعرف جيدًا. فأنا قادر على التمييز يا صديقي.

بمغادرة الحارس المدني، وبعد أن يُعِدَّ "ثيليستينو" المنصة التي يستلقي فوقها، يأوي إلى الفراش حيث يقرأ بعض الوقت. يروق له الترويح عِن نفسه قليلاً بالقراءة قبل أن يطفئ النور ويخلد إلى النوم. وفي الفراش.

من عادة "ثيليستينو" أن يقرأ السير الشعرية المعروفة باسم "رومانثيس"(*) أما "نيتشه" فيُبقيه للنهار. لديه أكداس مُكدَّسة من تلك المطبوعات، بل ويحفظ بعضها عن ظهر قلب، من الألف إلى الياء. كلها جميلة، إلا أنّ أحبها إلى نفسه هما: "التمرُّد في كوبا" و"وقائع جرائم العاشقيْن المخلصيْن" دون "خاثينتو دِل كاستيُّو" ودونيا "ليونور دي لا روسا" بدافع الوفاء بعهود الحب. والأخيرة من الكلاسيكيات، من تلك التي تبدأ كما يقول الكتاب:

"يا قدِّيستَنا مَرْيَمَ العَذْراء،

يا سِرَاج مَلَكُوتِ السَّمَاء،

يا ابْنَة الآبِ الأزَلِي،

يا أمّ الابْنِ الأسْمَى،

يا عَروس الرُّوحِ القُدُس،

يا مَنْ بالفَضِيلةِ والسُّلْطَان،

حَمَلتِ خَيْرَ من كان،

في رَحِمكِ البَتول،

وبعد تِسْعَةِ شُهور،

وُلِدَ أقْدَسُ المُبدعين،

لخلاصِ البَشَرِ أجمعين،

يَرْفُلُ في بَشْرَةِ الإنْسَان،

وبَقي رَحِمُكِ عفيفا،

بلا دَنَس، طَاهِرًا، شَرِيفا".

(*) "رومانثيس": من ألوان السِّيَر الشعرية الشفاهية التي ظهرت في إسبانيا وشبه الجزيرة الإيبيرية والعالم الناطق بالإسبانية بشكل عام. تتطرَّق "الرومانثيس" إلى مسائل ومواضيع شتى، تختلف باختلاف الذائقة والزمان والمكان.

كانت تلك السير العتيقة هي الأثيرة عنده. ولكي يُبرِّر إعجابه بها قليلاً، كان "ثيليستينو" أحيانًا يشرع في الحديث عن الحكمة الشعبية وأسطوانات مشروخة أخرى من هذا القبيل. فضلاً عن ذلك، كانت كلمات العريف "بيريث" في مواجهة فرقة الإعدام تروق لـ "ثيليستينو" كثيرًا:

"أيها الجُنْد،

أما وقد قَادَنِي حَظِّي

إلى هذه الشِّدَّةِ الجَسِيمة،

أُهديكُم أرْبَعة "دورو"

لِقَاء مِيتَةٍ كَرِيمَة،

"بيريث" يُنَبِّهُكُم، ليس إلاّ،

كي تُصَوِّبُوا بَنَادِقكُم بدقَّة

حتى وإن لم يقْتَرِفْ جُرْمًا

يستَحِقُّ عنه مَذْبَحَةً كهذي،

فليُسَدِّد اثنان إلى رأسِي

ومثلهما إلى صَدْري".

يقول "ثيليستينو" بصوت مسموع، قُبَيْل أن يطفئ النور:

- أي رجل! كان هناك رجال بحق فيما مضى!

- ١٣٣ -

في خلفية الصالون شبه المعتم، راح عازف كمان ذو شَعر مُرسَل، مفعم بالأدب، يعزف الرقصات المجرية للموسيقار "مونتي" (*) في شغف.

(*) "فيتُّوريو مونتي" (١٨٦٨ - ١٩٢٢): عازف كمان وموسيقار إيطالي اشتهر بتأليف الرقصات الشعبية.

جعل الزبائن يحتسون شرابهم... الرجال ويسكي، والنساء شامبانيا، أما أولئك اللائي لم يكُنَّ بأكثر من حارسات عقار حتى خمسة عشر يومًا مضت، فيحتسين "كريم دي منث". ثمة طاولات كثيرة خاوية في المكان حتى الآن، فالوقت ما زال مُبكِّرًا قليلاً.

- "پابلو" كم يروق لي هذا الشراب!

- إذن، فاشربي منه حتى الثمالة، "لاوريتا". ليس عليك أن تفعلي شيئًا بخلاف ذلك.

- أخبرني، أحقٌّ أنه يوقظ الرغبة الجنسية؟

- ١٣٤ -

ذهب الخفير إلى حيث استُدعي.

- مساء الخير، سنيوريتو.

- أهلاً.

أخرج الخفير المفتاح ودفع الباب. ثم مدَّ للآخر راحة يده، كمن لا يعير الأمر أهمية كبيرة.

- شكرًا جزيلاً.

أضاء الخفير نور الدَّرَج، أغلق مدخل البناية، وعاد يدقُّ الأرض بهراوته لاستئناف الحديث مع الحارس المدني.

- يجيء ذلك الرجل كل ليلة في مثل هذه الساعة، ولا يغادر حتى قرابة الرابعة. له عشيقة رائعة الجمال، تُدعَى سنيوريتا "پيرولا" في شقة بالعُلِّيَّة.

- يا له من محظوظ!

أما السنيورا القاطنة بالطابق الأوسط، فلم ترفع عينيها عنهما.

- إذا كانا لا يفترقان، فلا بد أنهما يتحدَّثان بشأن أمر ما. تصوَّرْ أن الحارس المدني يبقى في انتظاره حين يضطرُّ الخفير لفتح أحد الأبواب!

ترك زوجها الجريدة.

- فيمَ هذه الرغبة في الانشغال بما لا يعنيكِ! لعلَّه في انتظار إحدى الخادمات.

- طبعًا، طبعًا. هكذا أنت، لديك تفسير جاهز لكل شيء.

- ١٣٥ -

السنيور صاحب العشيقة القاطنة بالعُلِّيّة خلع معطفه وتركه على أريكة في الردهة. والردهة صغيرة للغاية، لا تحوي من الأثاث سوى أريكة لشخصين، أمامها رفٌّ خشبي تعلوه مرآة ذات إطار مُذهَّب.

- ما أخبارك، "پيرولا"؟

أما سنيوريتا "پيرولا" فما إن تناهى إلى سمعها صوت المفاتيح حتى اتَّجهت صوب الباب.

- لا أخبار، عزيزي "خابيير". فلا أخبار عندي أهم من وصولك.

سنيوريتا "پيرولا" فتاة شابة يوحي مظهرها بالرقي والأدب الجم، رغم أنها كانت تتفوَّه بألفاظ على شاكلة "سحقًا!" و"حين ترى شحمة أذنك!" أو تقول "كروتيك" بدلاً من "كروكيت" حتى زمن لا يزيد على عام بكثير.

ومن حجرة بالداخل، يضيئها نور خافت في نعومة، جاء صوت الراديو خفيضًا: رقصة "فوكستروت" بطيئة، ناعمة، واهنة، وثيرة، لا شك أنها قد وُضِعت لسماعها، أو الرقص على أنغامها في حميمية.

- سنيوريتا، هلاَّ رقصتِ معي؟

- شكرًا جزيلاً، سيدي النبيل. أنا منهكة بعض الشيء الآن، فلقد قضيت ليلتي وأنا أرقص.

انفجرا يقهقهان، وإن لم تكُن قهقهاتهما كتلك الصادرة عن "الأوروجوانية" وسنيور "فلوريس" بكل تأكيد. ثم تبادلا قبلة.

- "پيرولا" أنت فتاة صغيرة.

- "خابيير" وأنت تلميذ في المدرسة.

سارا وصولاً إلى الحجرة الصغيرة بالخلفية، وقد طوَّق كلٌّ منهما خصر الآخر بذراعه، وكأنهما يتنزَّهان عبر جادة تحفُّها أشجار السنط المزهرة.

- سيجارة؟

الطقوس هي ذاتها كل ليلة، والكلمات التي تُقال أيضًا، على وجه التقريب. تتَّسم سنيوريتا "پيرولا" بغريزة مُحافِظة حاذقة للغاية، وستكون لها مسيرة ناجحة على الأرجح. ليس لها أن تشكو أمرها في الوقت الراهن بكل تأكيد: إذ يشملها "خابيير" برعايته كالملكات، ويحبُّها، ويُبدي لها الاحترام...

- ١٣٦ -

لم تكُن "بيكتوريتا" تطلب كل ذلك. لم تكُن "بيكتوريتا" تطلب سوى المأكل والاستمرار في حب "پاكو" إذا تمَّ له الشفاء ذات يوم. لم تشعر "بيكتوريتا" بأدنى رغبة في بيع جسدها، ولكن المُضطرَّ يركب الصعب. لم يسبق للفتاة أن باعت جسدها قط، لم يسبق لها أن شاركت الفراش أحدًا باستثناء حبيبها قط. "بيكتوريتا" قوية الإرادة، فكانت تسعى لكبح رغبتها على الرغم من شبقها. كان مسلكها مع "پاكو" حسنًا دائمًا، فلم تخُنه ولا مرة واحدة.

قالت له ذات يوم، قبل أن يمرض:

- يروقني الرجال جميعًا؛ ولذا لا أشارك الفراش أحدًا سواك. فتلك حكاية لو بدأت لما انتهت أبدًا!

باحت الفتاة له باعترافها وقد أغرقت في الضحك وتضرَّجت وجنتاها، إلا أن النكتة لم ترُق لحبيبها على الإطلاق.

- لو أنني كغيري عندكِ، فافعلي ما شئتِ إذن، لكِ أن تفعلي ما يحلو لكِ.

ذات مرة، بعد أن مرض حبيبها بالفعل، اقتفى أثرها في الشارع سنيور بالغ الأناقة.

- سنيوريتا، إلى أين تعجّلين بالذهاب؟

أُعجِبَت الفتاة بأسلوب السنيور. كان راقيًا، يوحي مظهره بالأناقة، يعرف كيف يقدِّم نفسه.

- دعني وشأني، فأنا ذاهبة إلى العمل.

- ولكن لمَ أدعكِ وشأنكِ يا امرأة! يبدو لي أمرًا عظيمًا أن تذهبي إلى العمل. فإن دلّ ذلك على شيء إنما يدلّ على أنك شريفة، مع أنكِ شابة وجميلة. ولكن ما المانع في أن نتبادل بضع كلمات؟

- على ألا يتجاوز الأمر هذا الحد...!

- وماذا يُمكن أن يجري بخلاف ذلك؟

شعرت الفتاة بأن الكلمات تتملَّص منها.

- لن يكون سوى ما أرغب فيه أنا، أيًّا كان...

لم يُبدِ السنيور الأنيق تأثُّرًا.

- يا امرأة، بالطبع! سنيوريتا، تفهَّمي أن المرء ليس عاجزًا، ويفعل ما يقدر عليه.

- وما يُتاح له.

- بالطبع، وما يُتاح له.

سار السنيور برفقة "بيكتوريتا" لبرهة. وقُبَيل وصولهما إلى شارع "لا ماديرا" ودَّعته "بيكتوريتا".

ـ وداعًا. والآن دعني وشأني، فربما رآنا أحد العاملين في المطبعة.

قطَّب السنيور حاجبيه قليلاً.

- أتعملين بمطبعة في هذه الأنحاء؟

- أجل، هناك في شارع "لا ماديرا"؛ ولذا قلتُ لك أن تدعني وشأني، فلنتقابل يومًا آخر.

- تمهَّلي لحظة.

ابتسم السنيور فيما يأخذ بيد الفتاة:

- أترغبين في ذلك؟

فابتسمت "بيكتوريتا" هي الأخرى.

- وماذا عنك؟

فأنعم النظر إلى عينيها.

- في أية ساعة تغادرين مساء اليوم؟

خفضت "بيكتوريتا" بصرها.

- في السابعة. ولكن لا تأتِ من أجلي، فلي حبيب.

- وهل يأتي لاصطحابك؟

تسلَّل إلى صوت "بيكتوريتا" قليل من الحزن.

- كلا، لا يفعل. وداعًا.

- ماذا عن "إلى اللقاء"؟

-حسنًا، كما شئت، إلى اللقاء.

وفي السابعة، حين غادرت "بيكتوريتا" مطبعة "إل پروبينير" ألفَتْ السنيور الذي كان في انتظارها على ناصية شارع "إل إسكوريال".

ـ لحظة واحدة فحسب، سنيوريتا. أعرف أن عليك مقابلة حبيبك.

عجبَتْ "بيكتوريتا" لكونه قد عاد إلى مخاطبتها بكلفة مُجدَّدًا.

- لا أودُّ أن أكون بمثابة ظلٍّ في العلاقة القائمة بينكِ وبين حبيبك، تفهَّمي أن ليس لديَّ أدنى صالح في ذلك.

سارا معًا وصولاً إلى شارع "سان برناردو". كان السنيور بالغ التهذيب، فلم يأخذ بذراعها ولا حتى لعبور الشارع.

- سيكون من دواعي سروري أن تسعدي مع حبيبكِ سعادةً جارفة. لو كان الأمر بيدي، لتزوَّجتما غدًا بلا تأخير.

رمقته "بيكتوريتا" بطرف عينها. أما السنيور فراح يتحدَّث من دون أن ينظر إليها، وكأنما يكلِّم نفسه.

- وأي شيء أكثر من السعادة الجارفة قد يتمنَّاه المرء لشخص يكنُّ له التقدير؟

مضت "بيكتوريتا" وكأنها تحلِّق في عنان السماء. كانت سعيدة، سعادةً واهية، مبهمة، تكاد لا تشعر بها، سعادةً حزينة قليلاً في الوقت ذاته، سعادةً نائية ومستحيلة قليلاً.

- تعالي ندخل إلى هذا المكان، فالجو أشد برودة من أن نتنزَّه.

- حسنًا.

دخل كل من "بيكتوريتا" والسنيور إلى مقهى "سان برناردو" حيث جلسا إلى طاولة في الخلفية، أحدهما أمام الآخر.

- ماذا تريدين أن نطلب؟

- قهوة ساخنة.

وحين اقترب النادل قال له السنيور:

- أحضر إسبرسُّو بالحليب وكعكة "تورتيل" للسنيوريتا، وقهوة لي.

أبرز السنيور علبة من التبغ الفاتح.

- هل تدخِّنين؟

- كلا، لا أكاد أدخِّن أبدًا.

- وماذا تعني "لا أكاد أدخِّن أبدًا"؟

ـ حسنًا، أعني أنني لا أدخِّن سوى من آنٍ إلى آخر، في عشية عيد الميلاد...

لم يلحّ السنيور، بل أشعل سيجارة وأعاد العلبة إلى مكانها.

- كما قلتُ لكِ، سنيوريتا، لو كان الأمر بيدي لتزوَّجتِ حبيبكِ غدًا بلا تأخير.

تطلَّعت إليه "بيكتوريتا".

ـ ولماذا تريدنا أن نتزوَّج؟ ماذا تجني بذلك؟

- لن أجني شيئًا، سنيوريتا. كما تفهمين، تزوَّجتِ أو بقيتِ بلا زواج، فلا فارق عندي. إنما قلتُ لكِ ذلك اعتقادًا مني بأن زواجك بحبيبكِ سوف يسعدكِ.

- بالفعل، سوف يسعدني. ولمَ أكذبكَ القول؟

- أحسنتِ صنعًا، فبالحديث يتفاهم الناس. متزوِّجة كنتِ أو غير متزوِّجة، فذلك لن يغير شيئًا من الموضوع الذي أودُّ الحديث إليكِ بشأنه.

سعل السنيور قليلاً.

- نحن في مكان عام، يحيط بنا الناس وتفصل بيننا هذه الطاولة.

مسَّ السنيور ركبتي "بيكتوريتا" بساقيه مسًّا عابرًا.

- هل لي أن أتحدَّث إليكِ بحرية تامة؟

- حسنًا. ما لم تخرج عن حدود المسموح...

- سنيوريتا، ما دام الحديث واضحًا، فلا يُمكن الخروج عن حدود المسموح أبدًا. إن الموضوع الذي أودُّ الحديث إليكِ بشأنه كالصفقة التجارية، إما أن تُقبَل وإما أن تُرفَض، فلا أحد هنا ملزم بأي شيء.

حارت الفتاة قليلاً.

- هل لي أن أتحدَّث؟

- أجل.

بدَّل السنيور من وضعية الجلوس.

- سنيوريتا، دعينا ندخل في الموضوع. على الأقل، أنت مُتَّفقة معي في حقيقة أنني لا أرغب في خداعكِ، وأنني أعرض عليكِ الأمور كما هي.

كان المقهى خانقًا والجو حارًا، فأزاحت "بيكتوريتا" معطفها القطني الخفيف إلى الوراء قليلاً.

- كل ما هنالك أنني لا أعرف كيف أبدأ... سنيوريتا، لقد تركتِ في نفسي أثرًا عظيمًا.

- كنتُ أعرف ما تريد قوله بالفعل.

- يبدو لي أنكِ مخطئة. لا تقاطعيني، وسوف يحين دورك في النهاية.

- حسنًا، تابع حديثك.

- حسنًا. سنيوريتا، كنت أقول لكِ إنكِ قد تركتِ في نفسي أثرًا عظيمًا: مشيتكِ، وجهكِ، ساقاكِ، خصركِ، نهدكِ...

- لقد فهمت كل شيء بالفعل.

ابتسمت الفتاة لحظةً وحسب، بمظهر يشي بالتفوق.

- بالضبط، كل شيء. ولكن لا تبتسمي، فأنا أتحدَّث إليكِ بجدية.

عاود السنيور مسَّ ركبتيها وأخذ بيدها فتركتها له "بيكتوريتا" في رضا، بل وفيما يشبه الحكمة.

- أقسم لكِ بأنني جاد تمامًا فيما أقول. يعجبني كل ما فيكِ، أتخيَّل جسدكِ، المحكم، الدافئ، ناعم اللون...

ـ ضغط السنيور على يد "بيكتوريتا".

ـ لستُ ثريًا، ولا يمكنني أن أقدِّم لكِ سوى القليل...

عجب السنيور لأن "بيكتوريتا" لم تسحب يدها.

- ولكن ما أنا بصدد أن أطلبه منكِ ليس بالكثير أيضًا.

سعل مرة أخرى قليلاً.

- كنت أود أن أراكِ عارية، لا أكثر.

ضغطت "بيكتوريتا" على يد السنيور.

- عليَّ أن أنصرف، فالوقت متأخر.

- أنتِ على حق. ولكن قبل أن تذهبي، ردِّي على طلبي. كنت أودُّ أن أراكِ عارية، وأعدُكِ بألاَّ أمسَّ إصبعًا واحدة من أصابعكِ، ولا حتى طرف ثوبكِ. سأمرُّ غدًا لاصطحابك. أعرف أنكِ امرأة شريفة ولستِ بفتاة ليلٍ. اقبلي مني هذه، أرجوكِ. أيًا كان قراركِ، اقبلي مني هذه كي تشتري لنفسكِ شيئًا بسيطًا على سبيل التذكار.

ومن أسفل الطاولة تلقَّت الفتاة ورقة نقدية مدَّها لها السنيور. لم ترتجف يدا الفتاة وهي تتلقَّاها.

قامت "بيكتوريتا" ثم غادرت المقهى. وفيما هي منصرفة، حيَّاها رجل من مكانه على إحدى الطاولات المجاورة.

- أهلاً، "بيكتوريتا" أيتها الفتاة المختالة. ما عُدتِ تلقين التحية على المساكين منذ أن تعرّفتِ على النبلاء.

- أهلاً، "پيپيه".

كان "پيپيه" أحد موظفي مطبعة "إل پروبينير".

ـ ١٣٧ ـ

"بيكتوريتا" تنتحب منذ ردح طويل، وكما يتزاحم الناس عند مخرج المترو، تتزاحم في رأسها المشروعات: ابتداءً من الرهبنة ووصولاً إلى بيع جسدها، أي شيء يبدو لها أفضل من الاستمرار في تحمُّل أمها.

ـ ١٣٨ ـ

دون "روبرتو" يرفع صوته مناديًا:

- "پيتريتا"! أحضري لي التبغ من جيب السترة!

زوجته تتدخَّل:

- اسكت يا رجل وإلا أيقظت الأطفال!

- كلا، كيف يستيقظون وهم كالملائكة الصغار، ما إن يخلدون إلى النوم حتى لا يصبح إزعاجهم ممكنًا!

- سوف أحضر لك ما احتجت، ولكن لا تنادِ "پيتريتا" ثانيةً، لا بد أن المسكينة مجهدة تمامًا.

- لا تقلقي بشأنها، فأمثالها لا يلاحظن حتى الإجهاد. أما أنتِ فلديك دوافع أكبر كي تكوني مجهدة.

- وأعوام أكثر!

دون "روبرتو" يبتسم.

- "فيلو" كفاكِ زهوًا، فالأعوام لم تترك فيكِ أثرًا حتى الآن!

الخادمة تجيء بالتبغ إلى المطبخ.

- أحضري لي الجريدة، تجدينها في الردهة.

- حسنًا، سنيوريتو.

- "بيتريتا" ضعي لي كوبًا من الماء على الكومودينو.

- حسنًا، سنيوريتو.

تعاود "فيلو" التدخُّل:

- يا رجل، سوف أضع لكَ كل شيء بنفسي. دعها تأوِ إلى الفراش.

- أدعها تأوِ إلى الفراش؟ لو أذنْتِ لها الآن لغادَرَتْ على الفور وما عادت حتى الثانية أو الثالثة فجرًا، وسترين.

- أنت مُحقٌّ في ذلك أيضًا...

ـ ١٣٩ ـ

سنيوريتا "إلبيرا" تتقلَّب على الفراش، في نفاد صبر ولاطمأنينة. ما إن يزول عنها كابوس حتى يداهمها آخر. تفوح من مخدع سنيوريتا "إلبيرا" رائحة ثياب مُستعمَلة، ورائحة امرأة: فالنساء لا يفوح منهن شذى العطور، بل رائحة السمك العطن. تتلاحق أنفاس سنيوريتا "إلبيرا"شبه مُتقطِّعة، في حين يُصدِرُ فراشُها العتيق صريرًا نائحًا، على وقع سُبات عنيف، مضطرب، سُبات يليق بالنائم على معدة باردة ورأس ساخن.

قط أسود، شبه أقرع، يبتسم على نحو ملغز كما لو كان بشرًا، فيما يلوح في عينيه وميض يبثُّ الفزع في النفوس. يثب على سنيوريتا "إلبيرا" من على مسافة هائلة. تذود المرأة عن نفسها ركلاً وضربًا. يسقط القط على الأثاث ثم يرتدُّ وكأنه كرة مطاطية، حتى ينقضَّ على الفراش من جديد. بطن القط مشقوق، أحمر، كحبَّة رمان. في حين يبرز من فتحة مؤخرته ما يشبه زهرة سامة، كريهة الرائحة، بألف لون، زهرة تبدو كمِنفضة غُبار مصنوعة من الألعاب النارية. سنيوريتا "إلبيرا" تسحب الملاءة على رأسها. وفي الفراش، ثمة جمعٌ من الأقزام يَسْتَمْنُون في هوس وقد ابيضَّت عيونهم. يتسلَّل القط كالأشباح، يتشبَّث ببطن سنيوريتا

"إلبيرا" يلعقها مُطلقًا قهقهات مجلجلة، قهقهات تبثُّ الرهبة في النفوس. سنيوريتا "إلبيرا" تفزع وتلقي به خارج الحجرة: عليها أن تبذل جهدًا هائلاً، فالقط بالغ الثقل، حتى ليبدو وكأنه من حديد. سنيوريتا "إلبيرا" تتوخَّى حذرها لئلاّ تدهس الأقزام. يصيح بها قزمٌ:

- يا قديسة مريم! يا قديسة مريم!

القط يتسلَّل من أسفل الباب وقد بسط جسده تمامًا كشريحة من سمك القدّ. يحدِجها بنظرات مشؤومة، كمُنفِّذ حكم الإعدام. يتسلَّق الكومودينو ويحملق بعينيه في سنيوريتا "إلبيرا" بلفتة دامية. سنيوريتا "إلبيرا" لا تجرؤ حتى على التقاط أنفاسها. القط يهبط على الوسادة ثم يلعق فمها وأجفانها بنعومة، كمن يسيل لعابه على النساء. لسانه دافئ كمُلتقَى الفخذين، ناعم كالمخمل. يحلُّ أشرطة قميص نومها بأسنانه. القط يُبدي بطنه المشقوق الذي يدقُّ بانتظام كالوريد. أما الزهرة التي تبرز من مؤخرته فتبدو أنضر فأنضر، أزهى فأزهى.

للقط فراء بالغ النعومة. يغمر المخدع ضوء يغشِّي الأبصار. يتضخَّم القط حتى يصبح كنمر هزيل. ما زال الأقزام يَستمنُون في استماتة. يرتجف جسد سنيوريتا "إلبيرا" بعنف، من قمة رأسها إلى أخمص قدميها. تجاهد كي تلتقط أنفاسها فيما تحسُّ بلسان القط يلعق شفتيها. ما زال جسد القط يتمدَّد أكثر فأكثر. تنقطع أنفاس سنيوريتا "إلبيرا" شيئًا فشيئًا، ويجفُّ ريقها. يتباعد فخذاها، بحذر للحظة، ثم بوقاحة...

تستيقظ سنيوريتا "إلبيرا" بغتةً وتضيء النور. قميص النوم غارق في العرق. تشعر بالبرد. تقوم من الفراش وتغطِّي قدميها بالمعطف. تطنُّ أذناها قليلاً، في حين تتمرَّد حلمتاها بما يشبه التعالي، كما في الأيام الخوالي.

تنام والنور مضاء، سنيوريتا "إلبيرا".

ـ أجل! وما الخطب في ذلك! أعطيتُه ثلاثة "دورو" تحت الحساب، فغدًا عيد ميلاد زوجته.

سنيور "رامون" يعجز عن إبداء ما يكفي من الحزم، مهما بذل من جهد فهو يعجز عن إبداء ما يكفي من الحزم.

– تسألني ما الخطب! أنت أدرى بذلك! هل عميت؟ أنت حر! طالما قلتُ لكَ إننا لن نخرج من دائرة الفقر ما دمتَ هكذا. أمن آجل هذا ندخر النقود!

– ولكن يا امرأة، ما الفارق عندي ما دمتُ سأخصم تلك النقود من راتبه لاحقًا؟ لو أنني جدتُ بها عليه...!

– بالطبع، بالطبع، تخصمها من راتبه، ما لم تنسَ!

– لم أنسَ قط!

– فعلاً؟ وماذا عن السبعة "بيسيتا" التي تدين بها سنيورا "خوسيفا" أين السبعة "بيسيتا".

ـ يا امرأة، كانت في حاجة للدواء. وقد رأيتِ بنفسكِ الحال التي آلَتْ إليها.

– وفيمَ يهمُّنا إذا مرض الآخرون؟ هلا خبَّرتني؟

أطفأ سنيور "رامون" عقب السيجارة بقدمه.

– "باولينا"، تدرين...؟

– ماذا؟

– أنا الآمر الناهي فيما يتعلق بنقودي، أفهمتِ؟ أنا أدرى بما أفعل، ودعي الليلة تمرّ بسلام.

وبصوت خفيض، راحت سنيورا "باولينا" تهمهم بما تبقّى لها من أسباب.

"بيكتوريتا" تعجز عن النوم، إذ تداهمها ذكرى أمها، المرأة الفظة.

- متى تتركين ذلك المريض بالسل يا صغيرة؟

- لن أتركه ما حييت، مريض سل خير من سكِّير.

ما كانت "بيكتوريتا" لتجرؤ على قول شيء من هذا القبيل لأمها. لو كان شفاء حبيبها ممكنًا... لو كان شفاء حبيبها ممكنًا لفعلت "بيكتوريتا" أي شيء في سبيل ذلك، كل ما يُطلَب منها.

وفيما تتقلَّب على الفراش، تواصل "بيكتوريتا" النحيب. مرض حبيبها كان يمكن علاجه ببعض النقود. فكما هو معروف: مرضى السل الفقراء يموتون، أما مرضى السل الأثرياء، فحتى وإن لم يتمّ لهم الشفاء، يتسنَّى لهم الاعتناء بأنفسهم والذود عنها على الأقل. ليس الحصول على النقود يسيرًا، و"بيكتوريتا" تعلم ذلك جيدًا. فالأمر يستلزم حسن الحظ. كل ما خلا ذلك يمكن تدبيره، أما الحظ فلا. الحظ لا يبتسم إلا وفق مزاجه، ومزاجه لا يكاد يصفو أبدًا.

ضاعت الثلاثون ألف "پيسيتا" التي عرضها عليها ذلك السنيور، لأن حبيب "بيكتوريتا" شعر بتأنيب ضمير جارف.

- كلا، كلا، لا أريد شيئًا بهذا الثمن، لا بثلاثين ألف "پيسيتا" ولا ثلاثين ألف "دورو".

قالت له الفتاة:

- وما الفارق عندنا؟ فما يرغب فيه لا يترك أثرًا ولن يعلم أحد بذلك.

- أتجرئين على ذلك؟

- من أجلك، أجل. وأنت تعلم ما أقول تمام العلم.

أما السنيور صاحب الثلاثين ألف "پيسيتا" فهو مرابٍ كانت "بيكتوريتا" قد سمعت عنه من قبل.

- من السهل أن يقرضكِ ثلاثة آلاف "پيسيتا"سوف تقضين بقية حياتكِ وأنتِ تسددينها، ولكن من السهل أن يقرضها لكِ.

ذهبت "بيكتوريتا" للقائه. بثلاثة آلاف "پيسيتا" كانت تستطيع الزواج. لم يكُن حبيبها قد مرض بعد. كان يصاب بالبرد، يسعل، يشعر بالإنهاك، إلا أنه لم يكُن قد مرض بعد، لم يكُن مُضطراً لملازمة الفراش بعد.

- إذن يا ابنتي، فأنتِ تريدين ثلاثة آلاف "پيسيتا"؟

- أجل، سنيور.

- ولمَ تريدينها؟

- كما ترى، أريد أن أتزوَّج.

- آه، كم أنتِ عاشقة! أليس كذلك؟

- أجل...

- هل أنتِ مغرمة بحبيبكِ جدّاً؟

- أجل، سنيور.

- جدّاً، جدّاً؟

- أجل، سنيور. أحبُّه جدّاً.

- أكثر من أي شخص سواه؟

- أجل، سنيور. أكثر من أي شخص سواه.

أدار المرابي قلنسوته المخملية الخضراء مرتين. كان له رأسٌ مُدبَّب كحبَّة كمثرى، وشَعَرٌ باهت اللون، أملس، دبق.

- خبِّريني يا ابنتي، هل أنتِ عذراء؟

تعكَّر مزاج "بيكتوريتا".

- وما شأنك بذلك؟

- لا شيء يا ابنتي، لا شيء. كما ترين، مجرد فضول... أي أسلوب هذا! اسمعي، أتدرين أنكِ عديمة التهذيب؟

- يا رجل، أنت أدرى بذلك!

ابتسم المرابي.

- كلا يا ابنتي، ليس هناك ما يدعو لأن يتعكَّر مزاجك. ففي نهاية المطاف، عذراء كنتِ أم غير عذراء، ذلك شأن يخصُّكِ أنتِ وحبيبكِ وحدكما.

- أظنُّ ذلك.

- هذا ما عنيت.

برقت عينا المرابي الدقيقتان كعيني بومة.

- اسمعي...

- ماذا؟

- ماذا لو أعطيتكِ ثلاثين ألفًا بدلاً من ثلاثة آلاف؟ ماذا ستفعلين؟

شعرت "بيكتوريتا" بالاختناق.

- ما تأمر به.

- كل ما آمر به؟

- أجل، سنيور. كل ما تأمر به.

- كل شيء؟

- كل شيء. أجل، سنيور.

- وحبيبكِ، ماذا قد يفعل من أجلي؟

- لا أعرف. إن شئت سألته.

وعلى وجنتي المرابي الشاحبتين، نبتت حمرة قرمزية في غير موضع.

- وأنتِ يا حلوتي، أتعرفين فيما أرغب؟

- كلا، سنيور. أخبرني بنفسك.

شابت صوت المرابي رجفة خفيفة.

- اكشفي عن نهديك.

حسَرتْ الفتاة صدر الثوب كاشفةً عن نهديها.

- أتعرفين ماذا تعني ثلاثون ألف "پيسيتا"؟

ـ أجل، سنيور.

- هل رأيت هذا المبلغ مجتمعًا بعينيك ذات مرة؟

- كلا، سنيور. لم أرَه قط.

- سأريكِ إياه إذن. الأمر رهن برغبتكِ. رغبتكِ أنتِ وحبيبكِ.

هبَّ هواء مقيت عبر أرجاء الحجرة، على نحو أخرق، يرتدُّ من قطعة أثاث إلى أخرى، كفراشة تحتضر.

- اتَّفقنا؟

أحسَّتْ "بيكتوريتا" بدفقة من الوقاحة تتدفع إلى وجهها صعودًا.

- من جانبي فأنا موافقة. مقابل ثلاثين ألف "پيسيتا" أنا على استعداد لأن أمتثل لأوامرك طيلة الحياة وما تلاها، لو كان للمرء أكثر من حياة!

- وماذا عن حبيبكِ؟

- سوف أسأله، ولنرَ إن كان يرغب في ذلك.

ـ ١٤٢ ـ

ينفتح باب البيت حيث تسكن دونيا "ماريا" وتخرج منه فتاة صغيرة، تكاد تكون طفلة، تعبر الشارع.

- انظر، انظر! يبدو أنها خرجت من هذا البيت!

أما الحارس المدني، "خوليو جارثيا" فيسير مبتعدًا عن الخفير "جومِرسيندو بيجا".

ـ حظ سعيد!

- هذا ما أحتاج إليه.

الخفير يبقى وحده، فيشرع في التفكير بشأن الحارس المدني. وبعد ذلك يذكر سنيوريتا "پيرولا" ثم الضربة التي سدَّدها بهراوته إلى ظهر مُخنَّث كان قد تجاوز حدوده في الصيف الماضي. الخفير يضحك:

- كم هرول راكضًا ذلك التعيس!

فتحت دونيا ماريا خصاص النافذة.

- آهٍ، أي زمن نعيشه! ماذا جرى للعالم!

ثم صمتت بضع لحظات.

- كم الساعة الآن؟

- الثانية عشرة تقريبًا. هيا، دعينا نخلد إلى النوم، فذلك خير الأمور.

ـ ١٤٣ ـ

ـ هلا أوينا إلى الفراش؟

- أجل، ذلك خير الأمور.

"فيلو" تتفقَّد أسِرَّة أبنائها وهي تباركهم. إنه... كيف لنا أن نقولها؟ إنه إجراء احتياطي لا تَكفُّ عن اتخاذه كل ليلة.

دون "روبرتو" يغسل طاقم أسنانه ويحتفظ به في كوب ماء ثم يغطِّيه بورقة تواليت، إلا أنه يطوي حواف الورقة أولاً كما تُطوَى قراطيس اللوز.

ثم يدخِّن السيجارة الأخيرة. دون "روبرتو" يروق له أن يدخِّن سيجارة كل ليلة، بعد أن يستلقي على فراشه ويخلع طاقم أسنانه.

- لا تحرق الملاءات.

- لن أحرقها يا امرأة.

ـ ١٤٤ ـ

الحارس المدني يدنو من الفتاة ويأخذ بذراعها.

- خلتُكِ لن تنزلي.

- فعلاً!

- فيمَ كل هذا التأخير؟

- لم يكُن الأطفال يرغبون في النوم. وبعد ذلك أخذ السنيوريتو يناديني: "پيتريتا"، أحضري لي ماءً! "پيتريتا"، أحضري لي التبغ من جيب السترة! "پيتريتا"، أحضري لي الجريدة من الردهة!حتى خلتُه لن يكفَّ عن طلباته طوال الليل!

يتوارى الحارس المدني و"پيتريتا" عند فوّهة أحد الشوارع المفضية إلى الأراضي الخلاء، حيث كانت ساحة مصارعة الثيران قديمًا.

وريح خفيفة باردة تتسلَّق جسم الفتاة عبر ساقيها الدافئتين.

ـ ١٤٥ ـ

يتقاسم "خابيير" و"پيرولا" سيجارة واحدة. ثالث سيجارة يدخِّنانها الليلة.

كلاهما مُطرق. من آنٍ إلى آخر يتبادلان قبلة، في اشتهاء، في رويَّة.

استلقيا على الأريكة وقد ألصق كلاهما وجهه بوجه الآخر، وأعينهما مغمضة نصف إغماضة، فيما ينعمان بالتفكير في لا شيء، أو لا شيء تقريبًا، بشرود.

تحين اللحظة التي يتبادلان فيها قبلة أطول، أعمق، أكثر جيشانًا. الفتاة تتنفَّس بعمق، كالشاكية. "خابيير"يأخذها بين ذراعيه كما لو كانت طفلة، يحملها إلى المخدع.

السرير مُغطًى بمفرش من نسيج مموَّج، وتلقي بظلِّها فوقه نجفة من البورسلين ذات لون بنفسجي فاتح مُعلَّقة من السقف. وإلى جوار السرير تتوهَّج مدفأة كهربائية.

وهواء خفيف حار يتسلَّق جسم الفتاة عبر ساقيها الدافئتين.

- هل ذلك الشيء على الكومودينو؟

- أجل... لا تتكلمي...

ـ ١٤٦ ـ

في الأراضي الخلاء، حيث كانت ساحة مصارعة الثيران قديمًا (الملاذ غير الوثير للعشاق المساكين ممن يقنعون بأي شيء، كأولئك العشاق الضواري، بالغي الإخلاص، ممن ورد ذكرهم في العهد القديم)، يتردَّد ضجيج عربات الترام، عتيقة، مُترنِّحة، مُفكَّكة، ذات هياكل مُخلخلة ومكابح خشنة عنيفة، ريثما تمرُّ على مسافة غير بعيدة في طريقها إلى المرأب.

في الصباح تكون الأراضي الخلاء مرتعًا للأطفال مثيري الصخب والشغب، ممن يقضون نهارهم كاملاً في التراشق بالحجارة. أما ابتداءً من موعد إغلاق أبواب البيوت، فإذا بها جنة عدن يشوبها شيء من القذارة، حيث لا يُمكن الرقص بنعومة على أنغام جهاز راديو صغير محجوب عن الأنظار يكاد المرء يتجاهله، حيث لا يُمكن تدخين سيجارة التمهيد الفواحة الباعثة على البهجة، حيث لا يُمكن الهمس في الأسماع بطُرَفٍ سهلة، مضمونة الأثر، مضمونة تمامًا.

أما الأراضي الخلاء التي تؤول إلى الشيوخ والعجائز بعد موعد الغداء، إذ يرتادونها للتغذِّي على أشعة الشمس كالسحالي، فابتداءً من موعد

ذهاب الأطفال والأزواج الخمسينيين إلى الفراش واستغراقهم في الأحلام، تصير جنةً مباشِرةً لا مُتَّسَع فيها للحيل ولا المراوغة، حيث الكل يعرف مقصده، حيث يتطارح العشاقُ الغرامَ في نُبل، فيما يشبه الخشونة، على الأرض اللينة التي - ما زالت!- تحمل آثار خطوط رسمتها الطفلة التي مرَّت اليوم قفزًا على قدم واحدة، وآثار فجوات مثاليَّة مستديرة حفرها الطفل الذي قضى ساعات فراغه يلعب بالكريات الزجاجية في نهم.

- "بيتريتا"، هل تشعرين بالبرد؟

- كلا، "خوليو". أنا بخير حال قربك!

- هل تحبِّينني جدًا؟

- جدًا... وكأنك لا تعرف جيدًا!

ـ ١٤٧ ـ

"مارتين ماركو"يهيم عبر أرجاء المدينة، عازفًا عن الذهاب إلى الفراش. ليس معه "سنت"واحد، ويؤثر أن يترقَّب حتى تتوقَّف حركة المترو، حتى تتوارى آخر عربات ترام الليل، الصفراء السقيمة. وإذا بالمدينة قد صارت له أكثر مما هي لغيره، وإذا بها قد صارت للرجال الهائمين مثله على غير هدى أكثر مما هي لغيرهم، للرجال الهائمين وأيديهم في جيوبهم الخاوية ـ في جيوبهم التي تخلو حتى من الدفء أحيانًا - برؤوس خاوية، وعيون خاوية، وأفئدة بها خواء سحيق لا يلين، على نحو لا يملك أحد له تفسيرًا.

"مارتين ماركو"يسير صعودًا عبر "توريِّخوس"حتى يبلغ "دييجو دي ليون"على مهل، فيما يشبه النسيان، ثم يسير نزولاً عبر "پرينثيپيه دي بيرجارا"الذي تغير اسمه إلى "خينيرال مولا"حتى يبلغ ميدان "سالامانكا" الذي يتوسَّطه تمثال ماركيز "سالامانكا"مرتديًا سترة مشقوقة الذيل، تحيط به حديقة صغيرة خضراء تلقَى عناية حانية. تروق لـ "مارتين ماركو" الجولات الوحيدة، المسيرات الطويلة إلى حد الإنهاك، عبر شوارع المدينة

الفسيحة، عبر الشوارع نفسها التي تكتظُّ نهارًا بما يشبه المعجزة -وتُتْرَعُ كفنجان فطور مُخلِص- بنداءات الباعة، بالأدوار الساذجة الماجنة التي تتغنَّى بها الخادمات، بأبواق السيارات، ببكاء الأطفال الصغار: جراء ذئاب مُروَّضة حضرية، تتَّسم بالعنف واللين في آن.

"مارتين ماركو" يجلس على دكَّة خشبية، ثم يشعل عقب سيجارة كان يحتفظ به وعدة أعقاب أخرى في مظروف يحمل الترويسة التالية: "مجلس مدينة مدريد. قسم بطاقات تحقيق الشخصية".

إن دِكَك الشوارع مثلها كمثل مقتطفات أدبية مُنتخبة من بين سائر الغموم، وسائر المسرَّات تقريبًا: الشيخ الذي يأذَن للربو بقسط من الراحة، القِسّ الذي يطالع كتاب الصلوات اليومية، الشحاذ الذي يفلي رأسه، البَنَّاء الذي يتناول طعام الغداء مع زوجته يدًا بيد، مريض السل الذي ينال منه الإعياء، المجنون صاحب العينين الهائلتين الحالمتين، موسيقيٌّ الشوارع الذي يضع البوقَ على ركبتيه... كل امرئ ومُراده، كبُر أو صغُر، يمضي تاركًا فوق ألواح الدكَّة تلك الرائحة التَّعِبة، رائحة لحم أخفق في إدراك سرّ الدورة الدموية تمام الإدراك. والفتاة التي تلتمس الراحة من الآثار الناجمة عن أنَّاتها العميقة، والسنيورا التي تقرأ رواية غرامية طويلة، والضريرة التي تترقَّب ريثما تمرُّ الساعات، وعاملة الآلة الكاتبة الصغيرة التي تلتهم شطيرتها المُعَدَّة من مقانق "بوتيفارًا" وخبز درجة ثالثة، ومريضة السرطان التي تتجشَّم الألم، والبلهاء فاغرة الفم التي يتدلَّى لعابها العذب، وبائعة الحلي الرخيصة التي تضع الصينية على حجرها، والطفلة التي لا يروقها شيء بقدر مراقبة الرجال وهم يتبوَّلون...

أما المظروف حيث يحتفظ "مارتين ماركو" بأعقاب السجائر، فقد خرج من بيت أخته. والمظروف، بالتأمُّل مليًا، لم يعُد يصلح لشيء بخلاف الاحتفاظ بأعقاب السجائر، أو أعواد القرنفل، أو "الكربوناتو" منذ عدة أشهر سُحِبت بطاقات تحقيق الشخصية القديمة. ويدور الحديث الآن عن إصدار بطاقات هوية جديدة مرفقة بصور فوتوغرافية، بل وبصمات

أصابع أيضًا، ولكن الأرجح أن يستغرق ذلك ردحًا طويلاً من الزمن. هكذا هي الأمور المُتَّصلة بالدولة، تسير ببطء.

ـ ١٤٨ ـ

عندئذ يلتفت "ثيليستينو" إلى القوات قائلاً:

- تشجَّعوا أيها فتيان! تقدَّموا إلى النصر! من خاف منكم فليبقَ مكانه! لستُ أريد في معيتي سوى رجال مكتملي الرجولة، رجال قادرين على التضحية بحياتهم في سبيل الدفاع عن فكرة!

يُطرقُ رجال القوات في تأثُّر، بينما انصبَّ انتباههم على كلماته. وفي عيون الجند يلوح وميض الرغبة في القتال المحتدم.

- إننا نقاتل من أجل إنسانية أفضل! فيمَ تهمٌّ تضحيتنا إذا علمنا أنها لن تضيع سُدًى، إذا علمنا أن أبناءنا سوف يحصدون ثمار ما نغرسه اليوم؟

وفوق رؤوس القوات تحلِّق طائرات مُعادية، فلا يتحرَّك أيٌّ منهم قيد أنملة.

- سوف نتصدَّى لدبابات العدو ببسالة أفئدتنا!

القوات تخرج عن صمتها:

- أحسنت!

- الموت للضعفاء والجبناء والمرضى!

- أحسنت!

- والمستغلِّين والمضاربين والأثرياء!

- أحسنت!

- وكل من أجاع الطبقة العاملة!

- أحسنت!

- سوف نوزِّع الذهب المودع بخزائن "بنك إسبانيا"!

ـ أحسنت!

- ولكن من أجل بلوغ الهدف المنشود، ألا وهو النصر الحاسم، فلا بد لنا من التضحية في محراب الحرية!

- أحسنت!

أطنب "ثيليستينو"في الحديث أكثر من أي وقت مضى.

- إلى الأمام! لا تراجُع ولا توانٍ!

- إلى الأمام!

- إننا نقاتل من أجل الخبز والحرية!

- أحسنت!

- ولا شيء غير ذلك! فليؤدِّ كلٌّ واجبه! إلى الأمام!

وفجأةً، يشعر "ثيليستينو"برغبة مُلحَّة في قضاء حاجته.

- تمهَّلوا لحظةً!

عجبَتْ القواتُ قليلاً. دار "ثيليستينو"على عقبيه، كان حلقه جافًا. أما القوات فقد بدأت تبدو مشوَّشة، وجعل يكتنفها الضباب قليلاً...

قام "ثيليستينو أورتيث"من فراشه، أضاء أنوار الحانة، احتسى شربة من مضخة ماء، ثم دلف إلى دورة المياه.

ـ ١٤٩ ـ

احتست "لاوريتا" كأس الـ "كريم دي منث". كما احتسى "پابلو" كأس الويسكي. الأرجح أن عازف الكمان ذا الشعر المُرسَل ما زال يعزف بلفتات درامية على كمانه المُترَع برقصات مجرية عاطفية ورقصات ڤالس من "ڤيينا".

"پابلو" و"لاوريتا" وحدهما.

- "پابلو"، ألن تهجرني أبدًا؟

- أبدًا، "لاوريتا".

تشعر الفتاة بسعادة، بل تشعر بسعادة جارفة. على الرغم من ذلك، يتسلَّل إلى أعماق قلبها ما يُشبه ظلَّ شكٍّ غير مُحدَّد، طفيف.

تتعرَّى الفتاة، على مهل، فيما ترنو إلى الرجل بعينين حزينتين، كتلميذة بمدرسة داخلية.

- أبدًا؟ حقًّا؟

- أبدًا، سترين.

ترتدي الفتاة قميص نوم أبيض، مُطرَّزًا بأزهار دقيقة وردية اللون.

- هل تحبُّني جدًّا؟

- بشكل مرعب.

يتبادلان قبلة وهما واقفان أمام مرآة خزانة الثياب. يلتصق نهدا "لاوريتا" بسترة الرجل فينبسطان قليلاً.

- "پابلو" أشعر بالخجل.

"پابلو" يضحك.

- يا لصغيرتي المسكينة!

الفتاة ترتدي حمالة صدر بالغة الدقَّة.

- حلّها من أجلي.

"پابلو" يلثم ظهرها، من أعلى إلى أسفل.

- آه!

- ماذا بكِ؟

"لاوريتا" تبتسم فيما تحني رأسها قليلاً.

- يا لك من شقيّ!

الرجل يلثم فاها مرة أخرى.

- ولكن، ألا يروقك ذلك؟

الفتاة تحسُّ بشعور دفين بالامتنان نحو "پابلو".

ـ أجل، "پابلو". يروقني جدًا. يروقني جدًا، جدًا...

ـ ١٥٠ ـ

"مارتين" يشعر بالبرد ويفكّر في المرور بالبيوت الصغيرة في كلٍّ من شارع "ألكانتارا" و"مونتيسا" و"لاس ناثيونيس"(*) والأخير عبارة عن حارة قصيرة، مفعمة بالغموض، تحفُّ الأشجارُ أرصفتها المُهشَّمة، حيث يتسلّى المارة المساكين المستغرقون في التفكير بمراقبة الداخلين إلى بيوت المواعيد الغرامية والخارجين منها، وهم يتخيَّلون ما يدور بداخلها، خلف الجدران المصنوعة من الطوب الأحمر الكالح.

والاستعراض ليس مسلِّيًا للغاية، ولا حتى بالنسبة لـ "مارتين ماركو" الذي يشاهده من الداخل، غير أنه يقتل الوقت. وفوق ذلك، فالتنقُّل من بيت إلى بيت يبعث شيئًا من الدفء في جسد المرء دومًا... وشيئًا من الحنان أيضًا. فهنالك فتيات على قدر كبير من اللطف، أولئك اللائي تُكلِّف الواحدة منهن ثلاثة "دورو" لَسْنَ على قدرٍ كبير من الجمال، والحق يُقال، إلا أنهن في غاية البراعة والكياسة. قد يكون للواحدة منهن ابنٌ في مدرسة "الجزويت"أو مدرسة القديس "أغسطينوس" ابنٌ يبذلن جهودًا لا حد لها حتى لا يصير "ابن عاهرة" ابنٌ يذهبن لرؤيته من آن إلى آخر، في مساء بعض الآحاد، بغطاء رأس صغير ووجوه خالية من الزينة. أما الأخريات، بائعات الهوى ذوات المستوى الرفيع، فلا يُطَقْنَ بما لهن من غطرسة وزهو يليق بالدوقات. صحيح أنهن جميلات، ولكنهن مستبدات، مثيرات للمتاعب، وليس لهن أبناء في أي مكان. فالعاهرات الفاخرات يجهضن حملهن، وفي حال لم يتسنَّ لهن ذلك، فما يكاد يولد الطفل حتى يُقدِمن على خنقه بوضع وسادة فوق رأسه والجلوس عليها.

(*) في تلك الحقبة، انتشرت بيوت الدعارة أو"بيوت المواعيد الغرامية" في الشوارع المُشار إليها في الفقرة. ثم اختفت لاحقًا لتحلَّ محلَّها وحدات سكنية.

"مارتين" يمضي متفكِّرًا، يكلِّم نفسه أحيانًا بصوت خفيض. يقول:

- لا أفهم كيف يُعقَل أن تكون هناك خادمات في العشرين من العمر يجنين اثني عشر "دورو" شهريًا حتى الآن.

"مارتين" يذكر "پيتريتا" ببشرتها الفضَّة ووجهها المغسول، بساقيها المشوقتين ونهديها الناتئين تحت البلوزة أو الكنزة.

- إنها فتاة رائعة وستكون لها مسيرة ناجحة، بل وقد يتسنَّى لها أن تدخر بعض النقود. على كلٍّ، ما دامت شريفة فذلك خير لها. ستكون المشكلة حين تتعثَّر في أحد أولئك السمَّاكين أو حراس الأمن. ثم تنتبه لاحقًا إلى الوقت الذي أهدرته. هي حرة في شؤونها!

"مارتين"يمضي تاركًا خلفه شارع "ليستا" وعند بلوغه ناصية "خينيرال پاردينياس"يستوقفه رجل شرطة، ثم يباشر تفتيشه ويطلب منه تحقيق الشخصية.

كان "مارتين" في سيره يجرجر قدميه فوق أحجار الرصيف، مُحدِثًا جلبة: تِششش! تِششش! الأمر الذي يسليه كثيرًا...

ـ ١٥١ ـ

أوَى دون "ماريو دي لا بيجا" مُبكِّرًا إلى الفراش، رغبةً منه في أن يكون بكامل لياقته في اليوم التالي، تحسُّبًا لنجاح دونيا "رامونا" في مناورتها.

أما الرجل الذي سيبدأ العمل في اليوم التالي بأجر قيمته ستة عشر "پيسيتا" فهو لم يصبح صهرًا للفتاة التي تعمل في التغليف لدى مطبعة "إل پروبينير" بشارع "لا ماديرا" نظرًا لأن داء السل قد داهم أخاه "پاكو" بضراوة.

- حسنًا يا فتى، إلى اللقاء غدًا، أليس كذلك؟

- وداعًا، فلتصحبكَ السلامة. إلى اللقاء غدًا. فلينعم عليكَ الرب بحظ وفير، أنا مُمتنٌّ جدًا لأفضالك.

- العفو يا رجل، العفو. أهم ما في الأمر أن تتقن العمل.

- أجل، سنيور. سأبذل ما في وسعي.

ـ ١٥٢ ـ

"پيتريتا" تتأوَّه بلذَّة في الهواء الطلق ليلاً، بينما تتدفَّق الدماء إلى وجهها حتى آخر قطرة.

"پيتريتا" تحبُّ الحارس المدني كثيرًا، فهو حبيبها الأول، الرجل الذي قطف ثمارها الأولى. هناك في بلدتها، قُبَيْل مجيء الفتاة، تقدَّم أحدهم لخطبتها، غير أن الأمر لم يذهب إلى أبعد من ذلك.

- آه، "خوليو" آهٍ، آه! آهٍ، كم تؤلمني! بهيمة! شبق! آهٍ، آه!

يعضُّ الرجل جيدَها المتورِّد، حيث تبدو نبضات الحياة الدافئة.

يُطرِق العاشقان لحظات بلا حراك. "پيتريتا" تبدو كالمستغرقة في التفكير.

- "خوليو"!

ـ ماذا؟

- هل تحبُّني؟

ـ ١٥٣ ـ

الخفير المُكلَّف بحراسة شارع "إيبيثا" يتَّخذ لنفسه مأوى بمدخل أحد البيوت، يتركه مواربًا في حال ناداه أحدهم.

الخفير المُكلَّف بحراسة شارع "إيبيثا" يضيء أنوار الدَّرَج، ثم ينفخ في يديه حتى تلين أصابعه المُتيبِّسة التي خلع عنها القفاز المصنوع من الصوف. سرعان ما تنطفئ أنوار الدَّرَج. يفرك الرجل يديه ثم يعاود إضاءة الأنوار. بعد ذلك يُبرز علبة التبغ ويلفُّ سيجارة.

"مارتين" يتكلَّم في وجلِ واستجداء، في استعجال. "مارتين"يرتعد وكأنما قد أبصر شبحًا.

– ليس معي تحقيق الشخصية، فقد تركتُه في البيت. أنا كاتب، واسمي "مارتين ماركو".

"مارتين" يسعل، ثم يضحك.

– هاها! أستميح حضرتك عذرًا، فعندي نزلة برد خفيفة، فعلاً، نزلة برد خفيفة، هاها!

"مارتين" يتعجَّب لأن الشرطي لم يتعرَّف عليه.

– أتعاون مع صحف "الحركة القومية"[١] يُمكن لحضرتك السؤال في مقر الأمانة بشارع "خينوبا"منذ أيام نُشِر آخر مقال لي في عدة جرائد تصدر بمقاطعات "أوديل" و"أويلبا" و"بروا" و"ليون" و"أوفينسيبا" و"كوينكا". عنوان المقال "دوافع الثبات الروحي لدى الملكة "إيسابيل الكاثوليكية"[٢].

يسحب الشرطي نفسًا من سيجارته.

– هيا، امضِ في طريقك. اذهب إلى فراشك، فالجو بارد.

– أشكرك، أشكرك.

– لا شكر على واجب. اسمعْ!



شعر "مارتين" وكأن روحه تفارقه.

(١) "الحركة القومية": المُسمَّى الذي أُطلِق على مجموع الجهات والقوى السياسية والآليات الشمولية المؤلَّف منها نظام الجنرال "فرانكو" والمستوحاة من النُظُم الفاشية في الأساس.

(٢) الملكة "إيسابيل الأولى"، المعروفة باسم "إيسابيل الكاثوليكية" (١٤٥١ – ١٥٠٤): حكمَتْ مملكتيّ اكاستيَّاب (قشتالة) و"آراجون" مع زوجها الملك افرديناند الثانيب (١٤٧٥ ـ ١٥٠٤). ويُعتقَد أن حكمهما كان عظيم الأهمية للحفاظ على وحدة إسبانيا وبدء التوسعات الإمبراطورية في العالم الجديد. أما فيما يتعلَّق بعنوان المقال المذكور، فهو مُتَّسق إلى حد كبير مع الأفكار التاريخية التقليدية التي سعى نظام "فرانكو" إلى الارتكاز عليها.

- ماذا؟

- آملُ ألا تجفَّ قريحتك!

- أشكرك، أشكرك. وداعًا.

"مارتين" يحثُّ الخطى ولا يلتفت إلى الوراء، لا يجرؤ. يعتمل في جسده خوف مُروِّع لا تفسير له.

ـ ١٥٥ ـ

دون "روبرتو" يربت على زوجته التي اتَّكأت برأسها على كتفه، مدفوعًا بإحساسه بالواجب قليلاً، فيما يوشك على الانتهاء من مطالعة الجريدة. يغطِّيان أقدامهما بمعطف قديم، كدأبهما في مثل هذا الوقت من العام.

- "روبرتو"، بأية حالٍ يأتي الغد؟ أيكون يومًا بالغ التعاسة أم بالغ السعادة؟

- سيكون يومًا بالغ السعادة يا امرأة!

"فيلو" تبتسم. في إحدى أسنانها الأمامية تسوُّس عميق، مُسوَدٌّ، مستدير.

- بالنظر في الأمر مليًا، أنت مُحقٌّ!

حين تبتسم زوجته في صدق، في تأثُّر، تسهو عن التسوُّس، فتُبدي أسنانها.

- أجل، "روبرتو". حقًا. ما أسعد الغد!

- بالطبع، "فيلو!" كما أنكِ تعرفين رأيي، ما دُمنا في صحة جيدة جميعًا...!

- إننا في صحة جيدة بالفعل، "روبرتو" والشكر للرب.

- أجل. في الواقع، ليس لنا أن نشكو حالنا. فما أكثر من هم أسوأ منا حالاً! أما نحن فنمضي قُدمًا، ساءت حالنا أم تحسّنت. وأنا لا أطلب أكثر من ذلك.

- ولا أنا، "روبرتو" حقًا، علينا أن نشكر الرب ونحمده كثيرًا، ألا ترى ذلك؟

"فيلو" تتدلَّل على زوجها. إنها امرأة مُمتنَّة، يكفي أن يولِّيها المرء قليلاً من الاهتمام حتى تغمرها البهجة.

يتبدَّل صوت "فيلو" بعض الشيء:

- "روبرتو"!

- ماذا؟

- ضع الجريدة جانبًا يا رجل.

- كما شئتِ...

"فيلو" تأخذ بذراع دون "روبرتو".

- "روبرتو"!

- ماذا؟

تتكلَّم المرأة كفتاة عاشقة:

- هل تحبُّني جدًا؟

- بالطبع يا عزيزتي، أحبُّكِ جدًا بالطبع! من يخطر له أن يسأل سؤالاً كهذا!

- جدًا، جدًا؟

دون "روبرتو" يترك كلماته تتداعَى وكأنه يُلقي موعظة. عندما يتحدَّث بنبرة جوفاء ليقول أمرًا رزينًا، يبدو وكأنه واعظ ديني.

- أكثر مما تتخيلين بكثير!

"مارتين" يمضي، لا يلوي على شيء، بصدر لاهث، وصدغين متَّقدين، ولسان ملتصق بسقف الفم، وحلق منقبض، وساقين خائرتين، وبطن كصندوق موسيقى انقطعت أوتاره، وأذنين يدوِّي فيهما الطنين، وعينين حسيرتين أكثر من أي وقت مضى.

"مارتين" يحاول أن يفكِّر، فيما هو يركض. الأفكار تتدافع، تتضارب، تتصادم، تتداعَى، ثم تنهض داخل رأسه الذي أصبح الآن هائل الضخامة، عاجزًا عن فهم السبب وراء عدم عثوره على البيوت القائمة بهذا الشارع.

وفي خضمّ البرد، يحسُّ "مارتين" في أوصاله بحَرٍّ خانق، حَرّ يكاد لا يسمح له بأن يلتقط أنفاسه، حَرّ رطب، بل وربما كان حرًا ودودًا، مُتَّصلاً عبر ألف خيط رفيع خفيّ بموجات حرٍّ أخرى ملؤها العطف، تجيش بذكريات عذبة.

- أُمِّي، أُمِّي، إنها أبْخِرَةُ شَجَرَاتِ الكَافُور، أبْخِرَةُ شَجَراتِ الكَافُور، فلتَتَصَاعَد أبْخِرَةُ شَجَرَاتِ الكَافُور أكْثَر فأكْثَر، لا تَكُونِي هكذا...

"مارتين" يشعر بألم في جبينه، حيث يحسُّ بنبضات منتظمة على نحو صارم، جافة، محتومة.

- آهٍ!

خطوتان.

- آهٍ!

خطوتان.

- آهٍ!

خطوتان.

"مارتين" يضع يده على جبينه. يتصبَّب عرقه كثور صغير، كمصارع في المسرح الروماني، كخنزير ساعة نحره.

- آهٍ!

خطوتان أخريان.

"مارتين" يشرع في التفكير على عجل.

- ممَّ أخاف؟ هاها! ممَّ أخاف؟ ممَّ، ممَّ أخاف؟ كانت له سنٌّ ذهبية. هاها! ممَّ قد أخاف؟ ممَّ، ممَّ قد أخاف؟ كانت تليق بي سنٌّ ذهبية. أية فخامة! هاها! أنا لا أزجُّ بنفسي في أي شيء! في أي شيء! وما دمتُ لا أزجُّ بنفسي في أي شيء، فما عساهم أن يفعلوا بي؟ هاها! يا له من رجل! يا لها من سنٍّ ذهبية! لماذا أخاف؟ المخاوف لا تأتي فرادى! هاها! وبغتةً، "طاخ!" سنٌّ ذهبية! قِفْ مكانك! تحقيق الشخصية! ليس معي تحقيق شخصية. هاها! وليست لي سنٌّ ذهبية. أنا "مارتين ماركو". بسنٍّ ذهبية وبغير سنٍّ ذهبية. هاها! في هذا البلد، لا أحد يعرفنا نحن الكُتَّاب، ولا حتى الرب ذاته! "پاكو" آهٍ، لو كان لـ "پاكو"سنٌّ ذهبية...! هاها! تعاوَنْ، تعاوَنْ ولا تكُنْ ساذجًا، سوف تقدِّم تقريرًا عن ذلك... أي أمر مضحك! هاها! كفيل بأن يدفع المرء إلى الجنون! إنه عالم حافل بالمجانين! مجانين إلى درجة تدعو إلى شد وثاقهم بقمصان الأكتاف! مجانين خطرون! هاها! أختي في حاجة إلى سنٍّ ذهبية. لو كنتُ أمتلك نقودًا لأهديت أختي سنًّا ذهبية غدًا. هاها! لا الملكة "إيسابيل الكاثوليكية" ولا مقر الأمانة، ولا الثبات الروحي، ولا أيًّا من ذلك. هل هذا واضح؟ إنما أريد أن آكل! أن آكل! أو تراني أتحدث باللاتينية؟ هاها! أو بالصينية؟ اسمع، أحضر لي سنًّا ذهبية. الجميع يفهم ماذا أعني. هاها! الجميع. أن آكل! ها؟ أن آكل! وأريد أن أشتري علبة تبغ كاملة، وألاّ أدخِّن أعقاب السجائر المتبقية من البهيمة! ها؟ إنه عالم خراء! الكل يسعى وراء مصالحه هنا! ها؟ الجميع!

حتى أولئك الأعلى صياحًا، يلزمون الصمت بمجرد أن يُخصَّص لهم راتب بقيمة ألف "بيسيتا" شهريًا. أو سنّ ذهبية. هاها! أما نحن، المُشرَّدين وضحايا سوء التغذية، فنتجشَّم العواقب والفشل! عظيم! عظيم جدًا! إنما يجعلني ذلك أشعر برغبة في إرسال كل شيء إلى الجحيم، سحقًا!

"مارتين" يبصق بقوة ثم يتوقَّف مُتَّكِئًا بجسده على الجدار الرمادي لأحد البيوت. لا يبصر شيئًا بوضوح، وتمرُّ به لحظات لا يعرف خلالها إن كان حيًا أم ميتًا.

نال الإعياء من "مارتين".

ـ ١٥٧ ـ

يضمُّ مخدع الزوجين "جونثاليث" قطع أثاث مصنوعة من الخشب الرقائقي، ورغم أنها كانت تبرق بحدَّة ذات يوم، فقد باتت اليوم متهالكة كالحة: السرير، قطعتا كومودينو، التسريحة وخزانة الثياب. لم يتسنَّ للزوجين قط أن يضعا مرآة خزانة الثياب، وفي الموضع المُخصَّص لها يبدو لوح الخشب الرقائقي خشنًا، عاريًا، شاحبًا، وسافرًا.

تبدو النجفة ذات الكرات الخضراء المُعلَّقة من السقف مطفأة. تخلو النجفة ذات الكرات الخضراء من المصابيح، إنها للزينة. وتُضاء الحجرة بمصباح صغير لا غطاء له، يستريح فوق الكومودينو الخاص بدون "روبرتو".

على الحائط، فوق رأس السرير، ثمة أيقونة صارخة الألوان لـ "عذراء العون الأزلي"التي أشرفت بالفعل على خمس ولادات سعيدة، وهي هدية الزفاف التي قدَّمها لهما زملاء دون "روبرتو" في مجلس المدينة.

دون "روبرتو" ينحِّي الجريدة جانبًا.

يتبادل الزوجان قبلة بقدر من المهارة. بمرور الأعوام، اكتشف "روبرتو" و"فيلو"عالمًا يكاد يكون غير محدود.

- "فيلو" هل تحقَّقتِ من التاريخ في النتيجة؟

- وفيم تهمُّنا النتيجة(*) "روبرتو" لو أنك تعرف كم أحبُّك! وكم يزيد حبي لكَ يومًا بعد يوم!

- حسنًا، ولكن هل سنفعلها... هكذا؟

- أجل، "روبرتو" هكذا.

تورَّدت وجنتا "فيلو" وكادت تبدو عليهما حمرة.

أما دون "روبرتو" فقد ساق حُجَّته كفيلسوف:

- حسنًا. برغم كل شيء، حيث يأكل خمسة صغار قد يأكل ستة. ألا ترين ذلك؟

- بكل تأكيد يا عزيزي، بكل تأكيد. فلينعم علينا الرب بالصحة، أما فيما عدا ذلك... حتى وإن لم نكُن في سعة من العيش، فلنصبر على ضيق الحال والسلام!

دون "روبرتو"يخلع نظارته ويضعها في الجراب فوق الكومودينو، بجوار كوب الماء الذي يحوي بداخله طاقم الأسنان وكأنه سمكة غامضة.

- لا تخلعي قميص النوم، فربما أُصبتِ بالبرد.

- لا آبه بذلك، كل ما أريده أن أعجبك.

"فيلو"تبتسم بما يشبه المكر.

- كل ما أريده أن أعجب زوجي العزيز جدًا...

عاريةً، ما زالت "فيلو" تحتفظ بمسحة من الجمال.

(*) انتشرت في تلك الحقبة طرق منع الحمل بالاعتماد على التقويم، حيث تقتصر الخلوات الزوجية على أقل الأيام خصوبة عند المرأة. الأمر الذي يُعزَى إلى حظر وسائل منع الحمل الذي تفرضه الكنيسة الكاثوليكية، فضلاً عن سياسات الزيادة الديموجرافية التي انتهجتها الدولة آنذاك.

- أما زلت أعجبك؟

- جداً، كل يوم أكثر من سابقه.

ـ ١٥٨ ـ

-ماذا بكِ؟ لا تتوقَّفي.

- يُهيَّأ لي أن أحد الأطفال كان يبكي.

- كلا يا عزيزتي، الأطفال نيام. استمرِّي...

ـ ١٥٩ ـ

"مارتين" يُخرِج منديله ويمسح شفتيه. ينحني على فوَّهة صنبور ويشرب. ظنَّ أنه سوف يظلُّ يشرب ساعة كاملة، ولكن سرعان ما يرتوي عطشه. كان الماء بارداً، شبه مُثلَّج، والصقيع يحفُّ فوَّهة الصنبور.

يقترب منه أحد الخفراء وقد أحاط رأسه تماماً بوشاح.

- تشرب، أليس كذلك؟

- أجل! بالفعل... أشرب قليلاً...

- أية ليلة! ها؟

- صدقت القول، إنها ليلة عصيبة!

يسير الخفير مبتعداً، وعلى ضوء مصباح الشارع يفتِّش "مارتين"في المظروف عن عقب سيجارة آخر في حالة جيدة.

- كان الشرطي رجلاً ودوداً للغاية، والحق يُقال. فقد طلب مني تحقيق الشخصية قُربَ أحد مصابيح الشارع لئلاّ يفزعني، فيما يبدو. كما سمح لي بالذهاب فوراً. لعلَّه لاحظ أن مظهري لا يوحي بالتورُّط في أي شيء،

وأنني رجل لا أميل إلى التدخُّل فيما لا يعنيني، على الأرجح. إنهم معتادون للغاية على التمييز بين الناس. كان يضع معطفًا رائعًا وله سنٌّ ذهبية. أجل، لا شك أنه فتى عظيم، رجل ودود للغاية...

"مارتين" يشعر بما يشبه رجفة تسري عبر جسده كاملاً، ويلاحظ أن قلبه يدقُّ داخل صدره بقوة أكبر مُجدَّدًا.

- كان ذلك ليزول عني بثلاثة "دورو".

ـ ١٦٠ ـ

مالك المخبز ينادي زوجته.

- "پاولينا"!

ـ ماذا تريد!

- أحضري الطست!

- هل بدأت بالفعل؟

- هيا، اصمتي وتعالي.

- ها أنا قادمة! يا رجل، وكأنك في العشرين من عمرك!

المخدع الخاص بمالك المخبز وزوجته مُجهَّز بقطع أثاث متينة مصنوعة من خشب جوز يتَّسم بالقوة والصحة الجيدة والنشاط والصدق، شأن مالكيْه. وعلى الحائط تتألَّق - في ثلاثة إطارات مُذهَّبة ومتطابقة - نسخة من "العشاء الأخير" على معدن أبيض، ونسخة من "عذراء موريّيو البتول" مطبوعة طباعة حجرية، وبورتريه زفاف يصور "پاولينا" بطرحة بيضاء وثوب أسود وابتسامة، وسنيور "رامون" بقبعة قابلة للطي وشارب منتصب وسلسلة ذهبية تتدلَّى منها ساعة الجيب.

"مارتين"يسير نزولاً عبر شارع "ألكانتارا"حتى يبلغ الشاليهات، ثم ينعطف عند شارع "أيالا" وينادي الخفير.

– مساء الخير، سنيوريتو.

– أهلاً. كلا، ليس هذا هو البيت.

على ضوء أحد المصابيح تُرَى لافتة تقول "ڤيلا "فيلو" "مارتين"ما زال يُضمر مشاعر احترام مبهمة، غير مُحددَّة، ضبابية، نحو عائلته. ولكن ما كان من أمر أخته... على كل حالٍ... لا بُدّ مما ليس منه بُدّ! وكلمة يا ليت لا تُعمِّر البيت! أخته ليست بساقطة. والعاطفة شيء لا تُعرف له نهاية، ولا بداية. فمن الجائز أن يحبَّ المرء كلبه أكثر من أمه. ولكن ما كان من أمر أخته... ممم! في نهاية المطاف، ما إن تهيمن على قلب الرجل الحَمِيَّة حتى يعجز عن التمييز. وكما قال الحارس المدني بلسانه الجاليثي: "ساعة الهياج تعمى البصيرة!" إننا، نحن البشر، ما زلنا أشبه بالحيوانات في هذا الشأن.

الحروف التي كُتبت بها "ڤيلا "فيلو" سوداء، غليظة، باردة، مستقيمة أكثر مما ينبغي، تفتقر إلى أدنى قدر من الجمال.

– أستميحك عذرًا، سأقوم بجولة في شارع "مونتيسا".

-كما تحبّ، سنيوريتو.

"مارتين" يفكر:

– هذا الخفير بائس، فالخفراء جميعًا بؤساء للغاية، لا تحين منهم ابتسامة ولا غضبة أبدًا ما لم يحسبوا حساب ذلك أولاً. لو عرف أنني لا أملك "سنتًا" واحدًا لطردني ركلاً بالأقدام وأوسعني ضربًا بهراوته.

ـ ١٦٢ ـ

دونيا "ماريا" السنيورا القاطنة بالطابق الأوسط، تتحدَّث إلى زوجها وهما في الفراش بالفعل. دونيا "ماريا" امرأة في الأربعين أو الثانية والأربعين من العمر. يوحي مظهر زوجها بأنه يكبرها بستة أعوام.

- "بيبيه"!

ـ ماذا؟

- تبدو فاترًا معي قليلاً.

- كلا يا امرأة!

- بل يبدو لي ذلك.

- عجيبة هي أمورك!

دون "خوسيه سييرًا" لا يعامل زوجته لا بالحُسنى ولا بالسوء، بل يعاملها وكأنها قطعة أثاث يتحدَّث إليها من حين إلى آخر كما يتحدَّث إلى البشر، مدفوعًا بتلك الهواجس التي تستحوذ على المرء.

- "بيبيه"!

ـ ماذا؟

- من سينتصر في الحرب؟

- وفيمَ يهمُّك ذلك؟ هيا، دعي عنكِ تلك الأمور الآن واخلدي إلى النوم.

دونيا "ماريا" تحدق في السقف. وبعد وهلة تعاود مخاطبة زوجها.

- "بيبيه"!

ـ ماذا؟

- هل تريدني أن أحضر المنشفة الصغيرة؟

- حسنًا، أحضري ما شئتِ.

في شارع "مونتيسا" لا تقتضي الحاجة أكثر من أن يدفع المرء سياج الحديقة ثم يطرق الباب الداخلي بمفاصل أصابعه، إذ إن جرس الباب بلا أزرار، والجزء المعدني المكشوف المتبقّي منه يصيب بماس كهربائي أحيانًا. كان "مارتين" يعرف ذلك بالفعل، من واقع تجربته في مناسبات سابقة.

- أهلاً، دونيا "خيسوسا"! كيف حالكِ؟

- بخير، وماذا عنك يا بنيّ؟

- كما ترين! هل "ماروخيتا"موجودة؟

- كلا يا بنيّ. فهي لم تأتِ الليلة، يبدو لي ذلك أمرًا غريبًا. ربما جاءت في وقت لاحق. هل ترغب في انتظارها؟

- حسنًا، سأنتظرها. فليس لديَّ ما أفعله بخلاف ذلك!

دونيا "خيسوسا"امرأة مكتنزة، ودود، خدوم، يوحي مظهرها بأنها كانت بارعة الجمال فيما سبق، شعرها مصبوغ باللون الأشقر، ماهرة ومقدامة للغاية.

- هيا، انضمّ إلينا في المطبخ، فأنت من العائلة.

- حسنًا...

وحول الموقد الذي وُضِعَت فوقه عدة قدور يغلي ماؤها، جعلت خمس أو ست فتيات يهوِّمن في ضجر، بوجوه لا تنمُّ عن حزن ولا عن سرور.

- ما أشد البرد!

- فعلاً، فعلاً. ولكن الجو طيب هنا، أليس كذلك؟

- أجل، صدقتِ القول! فالجو هنا طيب جدًا.

دونيا "خيسوسا" تدنو من "مارتين"

- "مارتين"اقترِبْ من الموقد، تكاد تتجمَّد من البرد. أليس لديك معطف؟

- كلا.

- يا إلهي!

"مارتين" لا يجد الإحسان أمرًا مسليًا. في دخيلة نفسه، "مارتين"من أنصار نيتشه هو الآخر.

- دونيا "خيسوسا" وماذا عن "الأوروجوانية" أليست موجودة هي الأخرى؟

- موجودة، ولكنها مشغولة الآن، فقد جاءت برفقة سنيور ثم أغلقت عليهما الباب. سوف يقضيان الليلة معًا.

- فعلاً!

- "مارتين" أرجو ألا يكون ذلك تطفُّلاً من جانبي، لمَ كنت ترغب في لقاء "ماروخيتا" لقضاء بعض الوقت برفقتها؟

- كلا... كنت أرغب في إبلاغها برسالة.

- دعك من ذلك، لا تكن أبله! هل... هل تمرُّ بضائقة مالية؟

ابتسم "مارتين ماركو" كان الدفء قد بدأ يتسلَّل إلى بدنه بالفعل.

- ليست ضائقة، بل أسوأ من ذلك، دونيا "خيسوسا"!

ـ أنت أحمق يا بنيّ! كيف لا تضع فيَّ ثقتك بعد كل ما كان، وعلى الرغم من معزَّة أمك المسكينة عندي، فليسكنها الرب فسيح ملكوته!

دونيا "خيسوسا" تَطرُق على كتف واحدة من الفتيات اللائي ينشدن الدفء حول النار، فتاة صغيرة هزيلة تقرأ رواية.

- "بورا" اذهبي معه. كنتِ مصابة بوعكة طفيفة، أليس كذلك؟ احصلا على قسط من النوم. "بورا" لا تعاودي النزول اليوم. ولا تقلقي بشأن أي شيء، وغدًا سوف أرتِّب لكِ كل شيء.

أما "بورا" الفتاة المصابة بوعكة طفيفة، فتنظر إلى "مارتين" وتبتسم. "بورا" شابة، حلوة، نحيلة، شاحبة قليلاً، تحيط بعينيها الهالات السوداء، ولها مظهر يشي بكونها عذراء تميل إلى الرذيلة.

"مارتين" يأخذ بيد دونيا "خيسوسا".

ـ دونيا "خيسوسا" شكرًا جزيلاً، دائمًا ما ألقى منكِ حُسن المعاملة.

- اصمت أيها المُدلَّل، تعلم أنكَ عندي بمنزلة ابن.

ثلاثة طوابق صعودًا، وحجرة في العُلِّيَّة.

سرير، حوض لغسل الأيدي، مرآة ذات إطار أبيض، مِشجَب للثياب، وكرسي.

رجل وامرأة.

في غياب العاطفة، لا بد من البحث عن الدفء. ألقى "مارتين" و"پورا" بكل ثيابهما فوق السرير حتى يكون أكثر دفئًا. أطفآ النور، ثم (كلا، كلا... ابقَيْ هادئة، ابقَيْ هادئة تمامًا...) ناما متعانقين وكأنهما عروسان.

أما بالخارج، فمن آن إلى آخر راح يتردَّد نداء الخفراء: "ها أنا قادم!"

وعبر الجدران الفاصلة يُمكن تمييز صرير أحد الأسِرَّة، محمومًا وصادقًا كغناء الجداجد.

ـ ١٦٤ ـ

وفوق قلب المدينة الغريب، جَنَّ الليلُ في الواحدة والنصف أو الثانية بعد منتصف الليل.

الآلاف من الرجال وزوجاتهم ينامون متعانقين، من دون أن يفكِّروا في النهار الخشن، النهار القاسي الذي ربما كان في انتظارهم، مُتربِّصًا كالقطط الجبلية، خلال ساعات قلائل للغاية.

المئات والمئات من الخريجين يقعون في الرذيلة الحميمية، السامية، بالغة الرهافة، الانفرادية.

وبضع عشرات من الفتيات يترقَّبن - ماذا يترقَّبن؟ لماذا تركتهن مخدوعات إلى هذا الحد يا ربي؟- بأذهان تفيض أحلامًا ذهبية...

الفصل الخامس

ـ ١٦٥ ـ

قرابة الثامنة والنصف مساءً، وأحيانًا قبل ذلك، تكون "خوليتا"في بيتها بالفعل على جري العادة.

- أهلاً، عزيزتي "خوليتا"!

ـ أهلاً، ماما!

تتفحَّصها أمها من فوق إلى تحت، بلهاء، مكابرة.

- أين كنتِ؟

تترك الصغيرة قبعتها فوق البيانو وتملسُّ شعرها أمام المرآة. تتحدَّث في شرود، من دون أن تنظر إلى أمها.

- كما ترين، كنت في الجوار!

جاء صوت أمها رقيقًا، يبدو وكأنها ترغب في إرضائها.

- في الجوار! في الجوار! تقضين يومَكِ في الشارع ثم تعودين كي لا تخبريني بشيء، وأنا التي أحبُّ متابعة أحوالكِ! لا تخبرين أمكِ، التي تحبُّكِ كل هذا الحب...

تضع الفتاة أحمر شفاه فيما تطالع صورتها على ظاهر علبة الزينة.

- وماذا عن بابا؟

- لا أعرف. لماذا؟ لقد غادر منذ بعض الوقت وما زال الوقت مُبكِّرًا لعودته. لمَ تسألين؟

- لا شيء. ذكرته فجأةً لأنني لمحته في الشارع.

- رغم ضخامة مدريد!

تستطرد "خوليتا"في حديثها:

- إطلاقًا، بل إنها بحجم راحة اليد! لمحتُه في شارع "سانتا إنجراثيا" وأنا في طريقي نزولاً من أحد البيوت حيث ذهبتُ لاستخراج صورة فوتوغرافية.

- لَمْ تقولي شيئًا بهذا الشأن.

- أردتُ أن أفاجئكِ... كان بابا ذاهبًا إلى البيت نفسه، فله صديق مريض بالجوار فيما يبدو.

تطالع الصغيرة صورة أمها في المرآة الدقيقة. أحيانًا يدور بخلدها أن لأمها وجهًا ينمُّ عن البلاهة.

- لم ينبس بكلمة واحدة هو الآخر!

بدت دونيا "بيسي"بمظهر يوحي بالحزن.

- لا يخبرني أيٌّ منكم بشيء أبدًا.

"خوليتا" تبتسم وتقترب من أمها كي تقبِّلها.

- ما أجمل أمي العجوز!

دونيا "بيسي" تقبِّلها، ثم تعود برأسها إلى الوراء وتقطِّب حاجبيها.

- أوه! تفوح منكِ رائحة تبغ!

"خوليتا" تزمُّ شفتيها.

- أنا لم أدخِّن. تعلمين تمام العلم أنني لا أدخِّن، فالتدخين يبدو لي غير أنثوي.

تجرِّب أمها أن ترسم على وجهها تعبيرًا صارمًا.

- إذن... هل قبَّلكِ أحدهم؟

- ماما، يا إلهي، من تحسبينني؟

تأخذ المرأة، المرأة المسكينة، بيدي ابنتها.

- أستميحكِ عذرًا يا بنيتي، فأنتِ مُحقَّة! بأية حماقات أتفوَّه!

تبقى مستغرقة في التفكير بضع لحظات وتتحدَّث بهدوء، وكأنما إلى نفسها:

- إن كل ما يحيط بالابنة الكبرى يبدو خطيرًا في عيني الواحدة منا...

"خوليتا" تترك دمعتين تنسابان من عينيها.

- أية أشياء تقولين!

الأم تبتسم رغمًا عنها قليلاً، وتربت على شعر الفتاة.

- هيا، لا تكوني طفلة، ولا تلقي إليَّ بالاً. كنتُ أمازحكِ.

"خوليتا" شاردة، تبدو وكأنها لا تسمع شيئًا.

- ماما...

- ماذا؟

-١٦٦-

دون "پابلو" يفكِّر أن كلاً من ابنة شقيق زوجته وزوجها قد جاءا للتنغيص عليه وتكدير أمسيته.

في مثل هذه الساعة من كل يوم يكون في مقهى دونيا "روسا" حيث يحتسي فنجانه من الشكولاتة.

ابنة شقيق زوجته تُدعَى "أنيتا" أما زوجها فيدعى "فيديل" و"أنيتا"ابنة أحد أشقاء دونيا "پورا"موظف في المجلس المحلي بـ "ثاراجوثا" تقلَّد وسام "صليب الاستحقاق"عن إنقاذ سنيورا من الغرق في نهر "إبرو"ذات مرة، اتَّضح لاحقًا أنها إحدى بنات عمومة رئيس البلدية. أما زوجها "فيديل" فهو شاب يمتلك متجرًا للحلوى في "أويسكا"وهما يقضيان حاليًا بضعة أيام من شهر العسل في مدريد.

"فيديل" شاب له شارب دقيق، ويضع ربطة عنق بلون أخضر فاتح. أُصيبَ بعلَّة جسدية خلال فترة المراهقة، أو بالأحرى خاض حملات تطهيرية، لكونه قد سلك طريق المتعة من دون أن يتوخَّى الحذر أو يراعي النظافة. ومن ناحية أخرى، فالحقُّ أنه لم يكُن محظوظًا فيما جرى له. احتفظ "فيديل"بكل شيء لنفسه في صمت لئلاً يشعر زبائن متجر الحلويات بالاشمئزاز. تماثل للشفاء رويدًا رويدًا، باستخدام أملاح الزئبق التي كان يضعها في دورة المياه الخاصة بالكازينو. في تلك الفترة، كان كلما وقع بصره على رقائق الفطير المحشوة بالكريمة الدهنية الضاربة إلى الصفرة يشعر بغثيان يكاد يعجز عن كبحه. في "ثاراجوثا" منذ ستة أو سبعة أشهر مضت، فاز "فيديل"بمسابقة في التانجو. وفي الليلة ذاتها تعرَّف على الفتاة التي صارت اليوم زوجته.

كان والد "فيديل"صانع حلوى هو الآخر، كما كان رجلاً فظًا يتطهَّر بالرمال، ولا يتحدَّث عن شيء باستثناء رقصات "الخوتيكا"الفولكلورية و"عذراء العمود"كان يتباهى بثقافته وإقدامه ويستخدم بطاقتي أعمال، واحدة ورد فيها: "خواكين بوستامانتيه"، تاجر. أما الأخرى فجاء فيها بخط قوطي: "خواكين بوستامانتيه ڤايز"، صاحب مشروع "لا بد من مُضاعفة الإنتاج الزراعي في إسبانيا".

بوفاته ترك كمًا هائلاً من الأوراق تغصُّ بالأرقام والمخطَّطات. كان يريد مضاعفة المحاصيل الزراعية باستخدام نظام من اختراعه: أحواض هائلة

مُعبَّأة بالتربة الخصبة، يُفترَض أن تُروَى بمياه نابعة من آبار أرتوازية وتُزوَّد بأشعة الشمس عبر منظومة من المرايا.

عندما ورث والد "فيديل" متجر الحلوى عن شقيقه الأكبر، الذي لقي مصرعه في الفلبين[1] عام ١٨٩٨ غيَّر اسمه. كان المتجر يُدعَى "الحلوانية" فيما سبق، فرأى أنه اسم بلا معنى، عندئذ غيَّره إلى "على أرض الأسلاف". قضى أكثر من نصف عام يبحث عن اسم، وفي النهاية كان قد دوَّن ثلاثمائة اسم على أقل تقدير، يكاد يكون جميعها على الشاكلة نفسها.

في عهد الجمهورية، اغتنم "فيديل" فرصة وفاة أبيه وعاود تغيير اسم متجر الحلوى إلى "المُثلَّجات الذهبية".

كان يقول:

- لا يجب أن تكون لمتاجر الحلوى أسماء سياسية.

بحدس نادر، استطاع "فيديل" أن يربط بين العلامة التجارية "على أرض الأسلاف" واتجاهات فكرية بعينها.

- علينا أن نقدِّم الكعك السويسري وكعك "البيتيسوس" للزبون أيًّا كان. فالنقود نفسها يدفع الجمهوريون و"الكارلِيُّون"[2] على السواء.

جاء الشابان إلى مدريد لقضاء بضعة أيام من شهر العسل، كما تعرفون، ثم شعرا بضرورة تأدية الواجب وعمل زيارة مُطوَّلة لعمة "أنيتا" وزوج عمتها.

دون "پابلو" لا يعرف كيف يتخلص منهما:

- إذن، فمدريد تروق لكما، أليس كذلك؟

---

(١) خضعت الفلبين للاستعمار الإسباني لما يزيد على ثلاثة قرون، انتهت باندلاع "الثورة الفلبينية" في أواخر القرن التاسع عشر.

(٢) "الكارلِيَّة": حركة سياسية إسبانية تتَّسم بطابع محافظ وتقليدي.

- فعلاً...

دون "پابلو" ينتظر بضع لحظات قبل أن يقول:

- حسنًا!

تحار دونيا "پورا" أما الزوجان فلا يبدو أنهما يفهمان الكثير مما يجري.

- ١٦٧ -

ذهبت "بيكتوريتا" إلى شارع "فوينكارّال" إلى دكّان الألبان الخاص بدونيا "رامونا براجادو" العشيقة القديمة لذلك السنيور الذي شغل منصب وكيل وزارة المالية مرتين.

- أهلاً، "بيكتوريتا"! كم أنا سعيدة بحضورك!

- أهلاً، دونيا "رامونا".

دونيا "رامونا" تبتسم ابتسامة معسولة، خدوم.

- كنت أعرف جيدًا أن صغيرتي لن تتخلّف عن موعدها!

حاولت "بيكتوريتا" أن تبتسم هي الأخرى.

- فعلاً، من الواضح أنكِ معتادة على ذلك للغاية.

- ماذا تقولين؟

- كما ترين، لا شيء!

- آهٍ يا عزيزتي، كم أنتِ مرتابة!

خلعت "بيكتوريتا" معطفها. تركت أزرار البلوزة العلوية محلولة، فيما تجلّتْ في عينيها نظرة غريبة، لا يُعرف إن كانت نظرة مُتوسِّلة، ذليلة، أم قاسية.

- هل أبدو بمظهر حسن هكذا؟

- ولكن، ماذا بكِ يا عزيزتي؟

- لا شيء، ليس بي أي شيء.

دونيا "رامونا" تُحوِّل بصرها إلى الجانب الآخر فيما تحاول استدعاء مهاراتها القديمة في التوفيق بين الأطراف.

- هيا، هيا! لا تكوني كالأطفال. هلمّي إلى الداخل لتلعبي الكوتشينة مع بنات أختي.

تسمَّرت "بيكتوريتا" مكانها.

- كلا، دونيا "رامونا". ليس أمامي مُتَّسَع من الوقت، فحبيبي في انتظاري. تدرين؟ لقد طفح بي الكيل من اللفِّ والدوران حول الموضوع، كحمار مربوط إلى ساقية. اسمعي، يهمُّني كما يهمُّك أن ندخل في صلب الموضوع مباشرة، أتفهمينني؟

- كلا يا بنيتي، لا أفهمك.

كان شعر "بيكتوريتا" متناثرًا بعض الشيء.

- سأقولها لكِ بوضوح أكبر إذن: أين الزبون؟

فزعت دونيا "رامونا":

ـ ها؟

- أين الزبون؟ أتفهمينني؟ أين الرجل؟

- آهٍ يا بنيتي، إنك لعاهرة!

- حسنًا، أنا كل ما تريدين مني أن أكون، فلا يهمُّني. لا بد أن أنام مع رجل حتى أشتري العلاج لآخر! فليأتِ إذن!

- ولكن، يا بنيّتي، لماذا تكلِّمينني بهذا الأسلوب؟

رفعت "بيكتوريتا" صوتها:

- لأن مزاجي لا يملي عليَّ أن أكلِّمكِ بأسلوب آخر، أيتها القوَّادة! أفهمتِ؟ لأن مزاجي لا يملي عليَّ ذلك!

أطلَّتْ بنات دونيا أخت »رامونا «عند سماعهم الصياح. ومن ورائهن كشف دون "ماريو"عن وجهه:

- ماذا بكِ يا خالتي؟

- آهٍ! هذه الساقطة، ناكرة الجميل، حاولت الاعتداء عليَّ!

احتفظت "بيكتوريتا" بكامل هدوئها. فالكل يحتفظون بكامل هدوئهم قُبَيْل ارتكاب عمل وحشي. وقُبَيْل العدول عن ارتكابه أيضًا.

- سنيورا، اسمعي، سأعود يومًا آخر، عندما يكون لديك عدد أقل من الزبونات.

فتحت الفتاة الباب وخرجت. قبل أن تبلغ الناصية لَحِق بها دون "ماريو". رفع الرجل يده إلى حافة القبعة.

- سنيوريتا، أستميحك عذرًا. يبدو لي أن الذنب في كل ما جرى يقع على عاتقي. وفيمَ اللفّ والدوران! أنا...

قاطعته "بيكتوريتا":

ـ يا رجل، سعدتُ بمعرفتك! ها أنا! أما كنت تبحث عني؟ أقسم لكَ بأنني لم أنَمْ مع أحد سوى حبيبي. لم أقرب رجلاً واحدًا منذ ثلاثة أشهر، أو منذ حوالي أربعة أشهر. أعشيق حبيبي كثيرًا. أما أنت فلن أحبَّكَ أبدًا، ولكن ما دُمتَ تدفع لي فسأذهب معك إلى الفراش. لقد سئمتُ تمامًا. حبيبي في حاجة إلى القليل من النقود حتى ينجو بحياته. لا يهمُّني أن أخونه. بل يهمُّني أن أخرجه من تلك الضيقة. لو أنك قدَّمتَ له العلاج، فسأرافقك حتى تضيق بي.

جاء صوت الفتاة مرتجفًا. وفي نهاية المطاف، أجهشت بالبكاء.

- معذرةً...

أما دون "ماريو" ذو العِرق العاطفي، فقد شعر بغصَّة صغيرة في حلقه.

- سنيوريتا، هدِّئي من روعكِ! دعينا نتناول فنجانًا من القهوة، سيُشعرك ذلك بتحسُّن.

وفي المقهى، قال دون "ماريو" لـ "بيكتوريتا":

ـ سأعطيكِ النقود كي تأخذيها إلى حبيبكِ. ولكن مهما جرى بيني وبينكِ، فسوف يظنُّ بكِ الظنون. ألا تعتقدين؟

- بلى، دعه يظن ما يشاء. هيا، خذني إلى الفراش!

ـ ١٦٨ ـ

"خوليتا" شاردة، تبدو وكأنها لا تسمع شيئًا، تبدو وكأنها تحلِّق في عنان السماء.

- ماما...

- ماذا؟

- عليَّ أن أبوح لكِ باعتراف.

- أنتِ؟ آهٍ يا بنيتي، لا تُضحكيني!

- كلا يا ماما، أنا جادة فيما أقول، عليَّ أن أبوح لكِ باعتراف.

تختلج شفتا أمها هي الأخرى، اختلاجة خفيفة إلى حد يتعيَّن معه على المرء أن يمعن النظر كثيرًا لرؤيتها.

- أخبريني يا ابنتي، أخبريني.

- أنا... لا أعرف إن كنت سأجرؤ على البوح بذلك.

- أخبريني يا ابنتي، لا تكوني قاسية. ضعي في اعتبارك ما يُقال من كون الأم صديقة ابنتها وموضع أسرارها دائمًا.

- حسنًا، في تلك الحالة...

- هيا، أخبريني!

- ماما...

- ماذا؟

مرَّت "خوليتا" بلحظة اندفاع.

- تدرين لماذا تفوح مني رائحة التبغ؟

- لماذا؟

تلهث أمها حتى تكاد تفصل بينها وبين الاختناق شعرة واحدة.

- لأنني كنت على مقربة من رجل، وكان ذلك الرجل يدخِّن سيجارًا.

تنفَّست دونيا "بيسي" الصعداء. وعلى الرغم من ذلك، ما فتئ ضميرها يطالبها بالجدية.

- أنتِ؟

- أجل، أنا.

- ولكن...

- كلا يا ماما، لا تخشي شيئًا. فهو طيب جدًا.

تتبع الفتاة أسلوبًا حالمًا، تبدو وكأنها شاعرة.

- طيب جدًا، طيب جدًا!

- أهو شريف يا ابنتي؟ ذلك أهم ما في الأمر!

- أجل يا ماما، إنه شريف كذلك.

أما تلك الدودة الدقيقة، الأخيرة، الغافية، دودة الرغبة التي لا تزال كامنة في قلوب العجائز، فقد تحرَّكت في قلب دونيا "بيسي".

ـ حسنًا يا بنيّتي، لا أعرف ماذا أقول لكِ. فليباركِكِ الرب...

اختلجت أجفان "خوليتا" اختلاجة خفيفة، خفيفة إلى حد لا توجد معه ساعة قادرة على قياسها.

- أشكركِ يا ماما.

ـ ١٦٩ ـ

في اليوم التالي، كانت دونيا "بيسي" تخيط حين طرق أحدهم الباب قرابة الواحدة مساءً.

- "تيكا" افتحي الباب!

"إسكولاستيكا" الخادمة القذرة العجوز التي يدعوها الجميع "تيكا" اختصارًا للوقت، ذهبَتْ لفتح الباب المُطلّ على الشارع.

- سنيورا، خطاب مُسجَّل بعلم الوصول.

- خطاب مُسجَّل بعلم الوصول؟

- أجل.

- أوه، عجبًا!

وقَّعَتْ دونيا »بيسي «في كشف ساعي البريد.

- إليكِ، أعطيه بعض الفكة.

على مظروف الخطاب المُسجَّل ورد ما يلي: "سنيوريتا" خوليا مويسيس"، ٥٧ شارع "أرتثينبوتش، مدريد".

ـ تُرى، ماذا يكون ذلك؟ يبدو أنه ورق مُقوًّى.

دونيا "بيسي" تتفحَّصه مقابل الضوء، فلا يبدو من محتويات المظروف شيء.

- ما أقوى فضولي! خطاب مُسجَّل للصغيرة، أي أمر بالغ العجب!

دونيا "بيسي" ترى أنها سرعان ما تقطع الشك باليقين، فلا يمكن أن تتأخَّر "خوليا" كثيرًا. تتابع دونيا "بيسي" الخياطة.

- تُرى، ماذا يكون؟

دونيا "بيسي" تلتقط المظروف مرة أخرى. له لون القش وحجمه أكبر من المظاريف المألوفة بعض الشيء. تتفحَّصه مرة أخرى من الجوانب كافة، تتحسَّسه مرة أخرى.

- يا لي من بلهاء! إنها صورة! صورة الفتاة! ولكن، بأية سرعة أرسلها الاستوديو!

دونيا "بيسي" تفضُّ المظروف ليسقط في سلة أدوات الخياطة سنيور ذو شارب.

- يا إلهي! ما هذا الرجل!

لم تهتدِ إلى شيء، مهما أمعنَتْ النظر ومهما قلَّبتْ الأمر في رأسها...

كان السنيور ذو الشارب يُدعَى في حياته دون "أوبدوليو" دونيا "بيسي" جاهلة بأمره، دونيا "بيسي" تكاد تكون جاهلة بكل ما يجري في العالم.

- تُرى، من يكون هذا الرجل؟

تصل "خوليتا" فتخرج أمها للقائها.

- "خوليتا" انظري يا ابنتي، وصلكِ مظروف. رأيتُ أنه يحتوي على صورة ففضضتُه ظنًا مني أنها صورتكِ. كم أرغب في رؤيتها!

تجهَّمت "خوليتا" كانت "خوليتا" تعامل أمها بشيء من الاستبداد أحيانًا.

- وأين هي؟

- إليكِ، أعتقد أنها لا بد أن تكون مزحة.

"خوليتا" ترى الصورة فينعقد لسانها.

- أجل، مزحة تفتقر إلى أدنى قدر من الذوق.

ومع كل لحظة تمرّ، يقلُّ فهم أمها لما يجري.

- هل تعرفينه؟

- كلا، وكيف لي أن أعرفه؟

"خوليتا" تحتفظ بصورة دون "أوبدوليو" وورقة مرفقة بها حيث كُتِب بخط يد أخرق يليق بخادمة ما يلي:

- أتعرفين صاحب الصورة يا عزيزتي؟

ـ ١٧٠ ـ

تلتقي "خوليتا" بحبيبها فتقول له:

- انظر ماذا تلقَّيتُ عبر البريد.

- الميِّت!

- أجل، الميِّت.

"بينتورا" يُطرِق لوهلة، بينما ترتسم على وجهه نظرة متآمِر.

- أعطيني الصورة، أعرف جيداً ماذا سأفعل بها.

- إليك.

"بينتورا" يضغط على ذراع "خوليتا" قليلاً.

- "خوليتا" أتعرفين ما قولي في هذا الشأن؟

- ما قولك؟

- الأفضل أن نغيِّر عشَّنا ونبحث لنا عن مخبأ آخر. فالأمر برمته يبدو لي مثيرًا للريبة.

- أجل، ولي أيضًا. بالأمس التقيتُ بأبي على الدّرَج.

- وهل رآكِ؟

- بالطبع!

- وماذا قُلتِ له؟

- لا شيء، قلتُ له إنني قد ذهبت لاستخراج صورة فوتوغرافية.

"بينتورا" مستغرق في التفكير.

- هل لاحظتِ شيئًا في بيتكِ؟

- كلا، لا شيء، لم ألاحظ شيئًا في الوقت الحالي.

ـ ١٧١ ـ

قُبَيْل لقائه بـ "خوليتا" التقى "بينتورا"بدونيا "ثيليا "في شارع "لوتشانا".

ـ أهلاً، دونيا "ثيليا"!

ـ أهلاً، سنيور "أجوادو"! بالمناسبة يا رجل، وكأن الصدفة قد حملتك إلى طريقي في الوقت المناسب! يسعدني لقاؤك، فعندي أمر على قدرٍ كبير من الأهمية لأطلعك عليه.

- أنا؟

- أجل، أمر يهمُّك. سوف يترتَّب على ذلك أن أخسر زبونًا جيدًا، ولكن كما تعلم، المُضطرُّ يركب الصعب، ولا مفرّ من ذلك. عليَّ أن أطلعك على ما جرى، فأنا لا أرغب في المتاعب: ينبغي لكَ أنت وحبيبتك أن تتوخَّيا الحذر، فوالد الفتاة يتردَّد على بيتي.

- فعلاً؟

- كما سمعت.

- ولكن...

- من دون لكن... الأمر كما قلتُ لكَ، وكما سمعتَ مني!

- أجل، أجل، حسنًا... شكرًا جزيلاً!

ـ ١٧٢ ـ

تناول الناس العشاء بالفعل.

فرغ "بينتورا" لتوِّه من كتابة رسالته المقتضبة، ويكتب الآن البيانات التالية على المظروف: "سنيور دون "روكيه مويسيس"، ٥٧ شارع "أرتثينبوتش"، شقة داخلية.

أما الرسالة المكتوبة باستخدام الآلة، فقد جاءت فحواها كالتالي:

السنيور الموقَّر،

مرفق طيه صورة قد تشهد عليك في وادي "يَهوشافاط" [١] توخَّ الحذر وإيَّاك والعبث، فالأمر قد يكون محفوفًا بالمخاطر. مائة عين تراقبك وأكثر من يدٍ لن تتردَّد في الضغط على عنقك. حذار، نعرف جيدًا لمن ذهب صوتك في انتخابات عام ١٩٣٦[٢].

كانت الرسالة بلا توقيع.

---

(١) وادي "يَهوشافاط": حيث يُحاكم الربُّ الأمم يومَ الدينونة، طبقًا للعهد القديم من الكتاب المقدس.

(٢) جاءت نتيجة انتخابات ١٩٣٦ في إسبانيا بفوز ائتلاف الأحزاب اليسارية، الذي عُرِف باسم "الجبهة الشعبية". ويُعدُّ ذلك أحد الدوافع المؤدية إلى إشعال فتيل الحرب الأهلية بعد أشهر قلائل، الحرب التي أسفرت عن انتصار اليمين وقمع اليسار والمؤيدين له خلال فترة ما بعد الحرب.

ما إن يتسلَّمها دون "روكيه"حتى تنقطع أنفاسه. دون "روكيه"لن يتذكَّر دون "أوبدوليو" إلا أن الرسالة سوف تبثُّ الخوف في نفسه بلا شك. سوف يدور بخلده:

- لا بد أن تلك الفعلة من تدبير الماسونيين. تجتمع فيها كل السمات الدالة عليهم. ولا غرض من الصورة سوى التمويه. من يكون ذلك البائس الذي يبدو على وجهه أنه قد مات منذ ثلاثين عامًا.

ـ ١٧٣ ـ

دونيا "أسونثيون" أم "پاكيتا" تحكي عن الحظ الذي حالف صغيرتها لدونيا "خوانا إنترينا" أرملة "سيسيمون" المُحالة على المعاش، جارة دون "إبرايم" ودونيا "مارجوت" المسكينة.

وبقصد مجاراتها، تُطلعها دونيا "خوانا إنترينا" على أدق تفاصيل الميتة التراجيدية التي راحت ضحيتها أم سنيور "سواريث" الشهير بلقب "المصوِّرة" التحقيري.

تكاد دونيا "أسونثيون" ودونيا "خوانا" تكونان صديقتين قديمتين بالفعل، إذ التقت كل منهما بالأخرى لأول مرة خلال إجلائهما إلى »بالِنثيا «على متن الشاحنة نفسها إبان الحرب الأهلية (*).

- آهٍ يا عزيزتي! أشعر بسعادة جارفة! ما كدتُ أتلقَّى خبر وفاة زوجة حبيب ابنتي العزيزة "پاكيتا"حتى خِلت أن عقلي سيطير من فرط السعادة. ليسامحني الرب، فأنا لم أتمنَّ لأحد شرًا قط، ولكن تلك المرأة هي الظلّ الذي كان يخيِّم على سعادة ابنتي.

أما دونيا "خوانا" فبعينين شاخصتين إلى الأرض، استأنفت موضوعها: مقتل دونيا "مارجوت".

(*) في خريف عام ١٩٣٦، اضطرّت الحكومة الجمهورية للانتقال من مدريد إلى "بالنثيا" تحت وطأة الغارات الجوية المُكثَّفة والحصار الذي فرضته قوات الجنرال "فرانكو". كما تمّ إجلاء الأطفال والنساء والمسنين حفاظًا على أرواحهم من مخاطر الحرب.

ـ بمنشفة! هل ترين أن ذلك من العدل في شيء؟ بمنشفة! كيف يبلغ عدم الاحترام نحو امرأة عجوز ذلك الحد! قتلها المجرم خنقًا بمنشفة كما لو كانت دجاجة. ووضع في راحتها زهرة. ظلَّت المسكينة مفتوحة العينين، يُقال إنها كانت تبدو كالبومة. لم أجرؤ على النظر إليها، فأنا أتأثَّر بتلك الأمور كثيرًا. لا أريد الوقوع في الخطأ، ولكني أشتمُّ رائحة تورُّط صغيرها في كل ما يجري. تدرين؟ ابن دونيا "مارجوت" فليتغمدها الرب برحمته- مُخنَّث. وله رفقة غاية في السوء. طالما قال زوجي المسكين: "من سار على درب السوء، بلغ سوء الخاتمة!".

كان دون "جونثالو سيسيمون" زوج دونيا "خوانا" الراحل، قد ختم أيام حياته في بيت دعارة من الدرجة الثالثة، حيث توفِّي بالسكتة القلبية ذات مساء، فاضطُرَّ أصدقاؤه لحمله إلى البيت في سيارة أجرة ليلاً، لتلافي أية تعقيدات. وأخبروا دونيا "خوانا" أنه قد توفِّي خلال انتظاره في الطابور المصطفّ للصلاة أمام أيقونة يسوع المسيح بكنيسة "ميديناثيلي": فصدَّقَتْهم. وصل جثمان دون "جونثالو" من دون حمَّالات السروال، إلا أن دونيا "خوانا" لم تنتبه إلى تلك التفصيلة. كانت تقول:

- مسكين "جونثالو"! مسكين "جونثالو" عزائي الوحيد التفكير بأنه قد ذهب إلى السماء مباشرةً، وبأنه أفضل منا حالاً بكثير في هذه الساعة! مسكين "جونثالو"!

أما دونيا "أسونثيون" فتواصل حديثها عن ابنتها "پاكيتا"، ولا تُعير الأخرى أدنى انتباه.

- والآن أتمنَّى أن تحمل بطفل، بمشيئة الرب! سيكون ذلك من حسن حظها حقًا! فحبيبها سنيور يحظى بعظيم التقدير وليس بنكرة، بل أستاذ جامعي مرموق. لقد نذرتُ الذهاب إلى مزار "تلّ الملائكة" سيرًا على الأقدام إذا حملَتْ صغيرتي. ألا ترين أنني أحسنتُ صنعًا؟ أعتقد أن كل

تضحية تهون من أجل سعادة ابنتي، ألا توافقينني الرأي؟ كم كانت سعادة "پاكيتا" عظيمة حين عرفَتْ أن حبيبها قد بات حرًّا!

ـ ١٧٤ ـ

دون "فرانثيسكو" يصل إلى بيته ما بين الخامسة والربع والخامسة والنصف ليباشر الكشف على المرضى. وفي حجرة الانتظار، دائمًا ما يكون هناك بعض المرضى، يترقَّبون وصوله بوجوه واجمة، في صمت. يرافق دون "فرانثيسكو" زوجُ ابنته الذي يتقاسم معه العمل.

دون "فرانثيسكو" له عيادة شعبية تُدِرُّ عليه دخلاً مجزيًا كل شهر. تحتلُّ واجهات العيادة الأربع، المُطلَّة على الشارع، لافتة تجذب الأنظار كُتِب عليها: "معهد "پاستور-كوخ". الطبيب-المالك دكتور "فرانثيسكو روبليس". تخصُّص سُلّ، أمراض رئة، أمراض قلب، أشعة سينية، أمراض جلدية، أمراض تناسلية، زهري، علاج البواسير بالتخثير الكهربائي. قيمة الاستشارة: ٥ "پيسيتا".

المرضى الفقراء من ميدان "كيبيدو" و"برابو موريّو" و"سان برناردو" و"فوينكارّال" يؤمنون بدون "فرانثيسكو" إيمانًا عظيمًا. يقولون عنه:

- إنه حكيم، حكيم بحق. إنه طبيب ثاقب العينين، واسع الخبرة.

من عادة دون "فرانثيسكو" أن يقاطعهم قائلاً بحنان، بصوت يشي بقليل من الخصوصية:

- ليس بالإيمان وحده يتمُّ الشفاء يا صديقي. فالإيمان بلا أفعال، إيمان بلا حياة، إيمان بلا نفع. تقتضي الحاجة أن تساهموا بحصتكم أنتم أيضًا، تقتضي الحاجة طاعةً ومثابرةً، الكثير من المثابرة! فلا تهملوا أنفسكم ولا تتوقَّفوا عن الحضور إلى هنا لمجرد الشعور بتحسُّن طفيف... فشعور المرء بأنه على ما يُرام لا يعني أنه قد تماثل للشفاء، بأية حال من

الأحوال! للأسف الشديد، الفيروسات المفضية إلى المرض ماكرة بقدر ما هي خدَّاعة وغادرة!

دون "فرانثيسكو" يلجأ للغشِّ قليلاً، فالرجل يرزح تحت عبء عائلة ضخمة للغاية.

أما أولئك المرضى الذين يسألونه عن عقاقير "السلفوناميد" بتردُّد وعلى استحياء، فينصحهم دون "فرانثيسكو" بالعدول عن رأيهم فيما يشبه التهكُّم. دون "فرانثيسكو" يُراقب تطوُّر دستور الأدوية بقلب مُتوجِّس. يدور بخلده:

– سيجيء يومٌ نصبح فيه – نحن الأطباء – بلا نفع، يومَ تتيح الصيدليات قوائم بالعقاقير على نحو يتسنَّى معه للمرضى وصف الأدوية لأنفسهم.

يحدِّثونه عن عقاقير "السلفوناميد" على سبيل المثال، فيجيب دون "فرانثيسكو" كعادته:

– افعلْ ما شئت، ولكن لا تعُدْ إلى هنا مرة أخرى. فأنا لا أتعهَّد بالعناية بصحة رجل يصيب دماءه بالضعف طوْعًا.

عادةً ما يكون لكلمات دون "فرانثيسكو" بالغ الأثر.

– كلا، كلا، سأمتثل لأوامرك، لن أفعل سوى ما تأمر به.

في إحدى حجرات البيت الداخلية، دونيا "سوليداد"، زوجة دون "فرانثيسكو" ترتق الجوارب تاركةً لخيالها العنان. ودونيا "سوليداد" لها خيال أم، خيال أخرق، ضيِّق الأفق، يحلِّق كالدجاجة. دونيا "سوليداد" ليست سعيدة، فقد كرَّست حياتها كاملةً لأبنائها، في حين لم يستطع أبناؤها إسعادها، أو لم يريدوا. أنجبَتْ أحد عشر ابنًا، عاش منهم أحد عشر. يسكن معظمهم بعيدًا، ولم يعُد لبعضهم أثر. ترهبنت ابنتاها الأكبر

سنًا، "سوليداد" و"بييداد" منذ زمن طويل، بالتزامن مع سقوط "ميجيل بريمو دي ريبيرا". ومنذ بضعة أشهر استطاعتا جذب إحدى الأخوات الأصغر سنًا، وتُدعَى "ماريا آوكسيلياادورا" إلى دير الراهبات أيضًا. أما أكبر الذكرين الوحيدين وثالث الأبناء جميعًا، ويُدعَى "فرانثيسكو" فطالما كان حبَّة قلب سنيورا "سوليداد". يعمل في الوقت الراهن طبيبًا عسكريًا بمستشفى "كارابانتشيل" ويأتي إلى البيت كي يبيت ليلته أحيانًا. من بين الأخوات جميعًا، وحدهما "أمپارو" و"أسونثيون" متزوِّجتان. "أمپارو" متزوِّجة من مساعد أبيها، دون "إيميليو رودريجيث روندا"، أما "أسونثيون" فمتزوِّجة من دون "فاذريكيه مينديث" وهو مساعد طبي في "جوادالاخارا" ورجل مجتهد ماهر، له أصابع تُلفُّ في حرير، يستطيع إعطاء حقنة لطفل صغير أو حقنة شرجية لعجوز ذات شأن رفيع، بالمهارة نفسها التي يصلح بها جهاز راديو أو يرتق حقيبة من المطاط. ليس للمسكينة "أمپارو" أبناء، ولن تستطيع الإنجاب، فهي رقيقة الصحة دومًا، كثيرة العلل والأمراض دومًا. فقدَتْ جنينها في بادئ الأمر، ثم مرَّتْ بسلسلة من الاضطرابات، وفي النهاية أصبح عليها أن تخضع لجراحة لاستئصال المبيضين وكل ما يسبِّب لها متاعب صحية، ولا بد أن ذلك لم يكُن بالشيء اليسير. أما "أسونثيون" على عكس أختها، فهي أقوى بنية ولها ثلاثة أبناء وكأنهم ثلاث شموس: "پيلارين" و"فادريكيه" و"ساتورنينو" التحقَتْ أكبرهم سنًا بالمدرسة وأتمَّت عامها الخامس بالفعل.

وتلي "أسونثيون" في ترتيب أفراد الأسرة "تريني" و"تريني" عانس تفتقر إلى الجمال، سعَتْ من أجل الحصول على مبلغ من النقود وافتتحت دكَّان خردوات في شارع "أپوداكا".

المكان بالغ الصِّغر، بَيْد أنه نظيف ويلقى عناية فائقة. له واجهة دقيقة حيث تُعرَض بكراتُ الصوف وثياب الأطفال الجاهزة والجوارب الحريرية، فضلاً عن لافتة مطليَّة بالأزرق الفاتح كُتِب عليها "تريني" بحروف مُدبَّبة، وبالأسفل كلمة "خردوات" بخطٍ أصغر حجمًا.

في الجوار يعيش فتى شاعر يرنو إلى الفتاة بحنان جارف، وعبثًا يحاول أن يشرح لأسرته على الغداء:

- أنتم لا تنتبهون إلى ذلك، ولكن تلك الدكاكين الصغيرة المنعزلة المُسمَّاة "تريني" تُشعرني بالحنين!

فيجزم أبوه قائلاً:

- هذا الفتى أحمق، لا أعرف ماذا سيكون من أمره حين أرحل.

شاعر الجوار شابٌ صغير في السن، له شَعْرٌ مُرسَل وبشرة شاحبة، ذاهل دائمًا، لا يولِّي انتباهه إلى شيء لئلاّ يتملَّص منه الإلهام. والإلهام شيء مثله كمثل فراشة صغيرة، عمياء، صماء، ورغم ذلك تشعُّ نورًا ساطعًا، فراشة صغيرة تطير كيفما اتَّفق، فتتخبَّط بالجدران أحيانًا، وتحلِّق عاليًا فوق النجوم أحيانًا أخرى. شاعر الجوار تعلو وجنتيه حمرة.

في بعض الأحيان، عندما يأتيه الإلهام، يسقط شاعر الجوار مغشيًا عليه بالمقاهي، فيضطَرُّ الزبائن لحمله إلى دورة المياه حتى يستفيق قليلاً إذ يشتمُّ رائحة المطهرات النائمة كالجدجد في قفص دقيق مصنوع من السلك.

تلي "تريني" في الترتيب "ناتي" زميلة "مارتين" في الكلية، وهي فتاة في غاية الأناقة، بل ربما تكون أكثر أناقة مما ينبغي. وتليها "ماريا آوكسيليادورا" التي ترهبنت مع أختيها الأكبر سنًا منذ عهد قريب.

تختتم سلسلة الأبناء ثلاث مصائب: الثلاثة الأصغر سنًا. "سوكورِّيتو" ولَّت هاربةً مع أحد أصدقاء أخيها "پاكو" رسام يُدعَى "بارتولوميه أنجيرا" يعيشان معًا حياة بوهيمية في استوديو بشارع "لوس كانيوس"حيث لا بد أنهما يتجمَّدان من البرد، حيث سيطلع عليهما فجر يوم أبعد ما يكون عن المُتوقَّع ليجدهما وقد تيبَّسا كالمُثلَّجات. تؤكِّد الفتاة لصديقاتها أنها سعيدة، أن كل شيء يبدو لها على ما يُرام ما دامت إلى جوار "بارتولو". تساعده

على إنجاز "أعماله" تقول "أعماله" بتفخيم هائل وبأحرف مُشدَّدة، تفخيم جدير بمُحكِّمي المعارض القومية.

تقول "سوكورِّيتو":

ـ المعارض القومية تفتقر إلى المعايير، والقائمون عليها لا يعرفون ماذا يفعلون. ولكن لا يهم، فعاجلاً أم آجلاً لن يبقى أمامهم خيار سوى تكريم عزيزي "بارتولو".

تسبَّب رحيل "سوكورِّيتو" في كدر عظيم بالبيت. أما أخوها "پاكو" وهو صاحب مفهوم جغرافي عن الشرف، فكان يقول:

- لو أنها قد رحلت عن مدريد، على الأقل!

وبعد زمن يسير بدأت "ماريا أنجوستياس" أختها الأخرى، تعرب عن رغبتها في التوجُّه إلى الغناء، فخلعت على نفسها اسم الشهرة "كارمن دِل أورو"، فكَّرَتْ أولاً في اسمي "روساريو خيرالدا" و"إسپرانثا دي جرانادا" إلا أن صديقًا لها يعمل صحافيًّا صرَفها عن ذلك قائلاً إن "كارمن دِل أورو" أكثر الأسماء ملائمةً.

وفيما كنا على تلك الحال، قبل حتى أن يُتاح للأم الوقت اللازم لتجاوز ما كان من أمر "سوكورِّيتو" ضربَتْ "ماريا أنجوستياس" بكل شيء عرض الحائط، فولَّت هاربةً مع مصرفي من "مورثيا" يُدعَى دون "إستانيسلاو راميريث". بكَتْ الأم المسكينة بغزارة إلى حدٍّ لم يعُد لديها من الدموع ما تذرفه.

أما "خوان رامون" الأخ الأصغر سنًّا، فقد اتَّضح أنه من "الصنف الآخر". إذ كان يقضي يومَه وهو يطالع صورته في المرآة ويدهن وجهه بكريمات التجميل.

قرابة الساعة السابعة، في الفاصل بين استشارتين، توجَّه دون "فرانثيسكو" إلى الهاتف. وبصوت يكاد يكون غير مسموع قال:

- هل ستكونين في البيت؟

- ...

- حسنًا، سوف أحضر في التاسعة تقريبًا.

- ...

- كلا، لا تتّصلي بأحد.

ـ ١٧٥ ـ

تبدو الفتاة منتشية، حالمة اللفتات، شاردة النظرات، فيما افترَّ ثغرها عن ابتسامة السعادة.

- إنه طيب جدًا يا ماما، طيب جدًا، طيب جدًا. أخذ بيدي، نظر إلى عينيّ...

- لا أكثر؟

- بلى، فقد اقترب مني كثيرًا وقال: "خوليتا"، إن قلبي يتحرّق شغفًا، ولم تعُد حياتي مُمكنة من دونك. لو قلّلتِ من شأن حبي لأصبحَتْ حياتي بلا غاية، لأصبحتُ وكأنني جثمان طافٍ على غير هدى، تحت رحمة القدر.

دونيا "بيسي" تبتسم في تأثُّر.

- ما أشبهه بأبيكِ يا ابنتي، ما أشبهه بأبيكِ!

دونيا "بيسي" تغمض عينيها نصف إغماضة وتستغرق في التفكير بغبطة، وعذوبة، وربما بشيء من الراحة الحزينة.

- بالطبع... الزمن يمضي... جعلتِني عجوزًا يا "خوليتا"!

دونيا "بيسي" تُطرِق بضع ثوانٍ. ثم ترفع منديلها إلى عينيها وتجفِّف قطرتين من الدموع طفرتا على استحياء.

- ولكن، ماما!

- لا شيء يا بنيتي، أنا متأثِّرة وحسب. فمجرد التفكير بأنكِ سوف تصبحين لرجلٍ ما ذات يوم...! فلنبتهل إلى الرب يا بنيّتي كي يرزقكِ بالزوج الصالح ويجعلكِ زوجة للرجل الذي تستحقّينه.

- أجل يا ماما.

- "خوليتا" انتبهي لنفسك كثيرًا، محبةً في الرب! لا تثقي فيه بأية حالٍ من الأحوال، أرجوكِ! فالرجال مَكَرة، يسعون وراء ما يبتغون. لا تأمني للكلمات المعسولة أبدًا. ولا تنسي أن الرجال يتسلّون بالوقحات، غير أنهم في النهاية يتزوَّجون من الشريفات.

- أجل يا ماما.

- بالطبع يا بنيّتي. وصوني ما صُنتُه أنا طيلة ثلاثة وعشرين عامًا، حتى وهبته لأبيك. إنه الشيء الوحيد الذي نستطيع - نحن النساء الشريفات اللائي لا حظ لنا - أن نقدِّمه لأزواجنا!

تتهمر دموع دونيا "بيسي" بحارًا. "خوليتا" تحاول أن تواسيها.

- اطمئني يا ماما.

ـ ١٧٦ ـ

في المقهى، ما زالت دونيا "روسا" تخبر سنيوريتا "إلبيرا" بأمر الإسهال الذي تُعاني منه، والليلة التي قضَتْها رائحة غادية، من التواليت إلى المخدع ومن المخدع إلى التواليت.

- أعتقد أنني تناولت شيئًا سبَّب لي متاعب في المعدة. فالطعام أحيانًا ما يكون معطوبًا. وإلا، فلستُ أفهم ماذا جرى.

- بالطبع، الأرجح أن ذلك هو السبب.

سنيوريتا "إلبيرا"التي صارت بمثابة قطعة أثاث في مقهى دونيا "روسا"من عادتها أن تُعقِّب على كل شيء بقولها "آمين" سنيوريتا "إلبيرا" تعتَبِر صداقتها بدونيا "روسا" أمرًا في غاية الأهمية.

- هل كنتِ تشعرين بمغص؟

- آهٍ يا ابنتي! وأي مغص! كانت معدتي تبرق وترعد، وكأنها صندوق "باندورا!" أعتقد أنني أفرطت في طعام العشاء. كما يقول المثل السائر: "تزدحم القبور بسبب الإفراط في العشاء".

سنيوريتا "إلبيرا" ما زالت تومئ برأسها.

- أجل، يُقال إن الإفراط في العشاء ضار بالصحة، لأنه يسبِّب عسر هضم.

- وكيف يكون مفيدًا؟ إنه ضار جدًّا بالصحة!

دونيا "روسا" تخفض صوتها قليلاً:

- سنيوريتا، هل تنامين جيدًا؟

في حديثها مع سنيوريتا "إلبيرا" ترفع دونيا "روسا" الكلفة تارة ولا ترفعها تارة، وفق ما يُمليه عليها مزاجها.

- أجل، أنام جيدًا في العادة.

سرعان ما تخلص دونيا "روسا" إلى نتيجة مفادها كما يلي:

- لعلَّكِ تتناولين عشاءً خفيفًا!

سنيوريتا "إلبيرا" تحار قليلاً.

- أجل، لا أكثِرُ من الطعام على العشاء في حقيقة الأمر، بل أتناول عشاءً خفيفًا بالأحرى.

دونيا روسا تتَّكئ على مسند الكرسي.

- على سبيل المثال، ماذا تعشَّيتِ ليلة أمس؟

- ليلة أمس؟ القليل في واقع الأمر، تناولتُ شيئًا من السبانخ وشريحتين من سمك النازلي.

كانت سنيوريتا "إلبيرا" قد تعشَّت كستناءً بقيمة "بيسيتا"عشرين حبَّة كستناء، والحلو حبَّة برتقال.

- طبعًا، هذا هو السر. لا بد أن ملء المعدة بالطعام أمر غير صحي، وفق ما أرى.

سنيوريتا "إلبيرا" ترى عكس ذلك تمامًا، غير أنها تلزم الصمت.

- ١٧٧ -

دون "بيدرو بابلو تاوستيه"جار دون "إبرايم دي أوستولاثا" ومالك ورشة إصلاح الأحذية المسماة "عيادة الأحذية" لمح دون "ريكاردو سوربيدو"يدلف إلى دكَّانه الرثّ، وقد جاء المسكين في حالة مزرية.

- مساء الخير، دون "بيدرو". هلا أذنت لي بالدخول؟

- تفضل، دون "ريكاردو". ما الأخبار السارة التي جاءت بك إلى هنا؟

دون "ريكاردو سوربيدو"رجل غريب، بشَعْره المُرسَل المُلبَّد، ووشاحه الكالح الذي وضعه في غير عناية، وبدلته المُمزَّقة المُشوَّهة التي تغطِّيها بقع الشحم، وربطة عنقه الرقطاء البالية، وقبعته المُشحَّمة الخضراء ذات الحافة العريضة. دون "ريكاردو سوربيدو" نصف شحاذ ونصف فنان، يستعين على حياته المزرية بالاحتيال واستغلال إحسان الآخرين وسلامة نواياهم. دون "بيدرو بابلو" يشعر نحوه بشيء من الإعجاب ويعطيه "بيسيتا" من آن إلى آخر.

دون "ريكاردو سوربيدو" رجل ضئيل، له مشية تكاد تكون مفعمة بالحياة، ولفتات مُفخَّمة مهيبة، وحديث دقيق مُتمهِّل، يؤلِّف عباراته بالكثير من الإتقان، بالكثير من الرويَّة.

- ليست الأخبار السارة هي التي حدَتْ بي إلى المجيء يا صديقي دون "بيدرو" فقليلة هي المسرَّات في هذا العالم السفلي، بل أمثُلُ بين يديك مدفوعًا بقدر من البؤس غير يسير.

دون "بيدرو پابلو" يعرف تلك الافتتاحية بالفعل، فهي نفسها دائمًا لا تتغيَّر. دون "ريكاردو" يصوِّب عاليًا، شأن جنود المدفعية.

- هل تريد "پيسيتا"؟

- حتى وإن لم أكُن في حاجة إليها يا صديقي النبيل، لقبلتها منك دومًا، استجابةً لتلك اللفتة الكريمة.

- فعلاً!

أخرج دون "پيدرو پابلو تاوستيه" "پيسيتا" من الدُّرج وناولها لدون "ريكاردو سورِبيدو".

- مبلغ زهيد...

- أجل، دون "پيدرو". إنه حقًا مبلغ زهيد. ولكن سخاءك في الجود به عندي كحجر نفيس.

- حسنًا، في تلك الحالة...!

كان يجمع بين دون "ريكاردو سوربيدو" و"مارتين ماركو" شيء من الصداقة، وفي بعض الأحيان، كانا يجلسان معًا على دكَّة بأحد المنتزهات، حيث يتبادلان أطراف الحديث بشأن الفن والأدب خلال لقائهما.

كان لدون "ريكاردو سوربيدو" عشيقة فيما سبق، حتى زمن قريب، إلا أنه تركها عن تعب وسأم. كانت عشيقة دون "ريكاردو سوربيدو" عاهرة تتضوَّر جوعًا، عاطفية، ومتحذلقة قليلاً، تُدعَى "ماريبيل پيريث" كانت عشيقته "ماريبيل" تسعى إلى مواساته بفلسفة حين يشكو دون "ريكاردو سوربيدو" الحال المُتردِّية التي آل إليها كل شيء. فكانت تقول له:

- لا تقلق، فقد ظل عُمدة "كورك" مُضرِبًا عن الطعام أكثر من شهر قبل أن يقضي نحبه(*).

كانت "ماريبيل" تحبُّ الأزهار والأطفال والحيوانات. كانت فتاة مُهذَّبة إلى حد كبير وراقية السلوك. ذات يوم قالت لعشيقها فيما يتنزَّهان بميدان "إل پروجريسو"

ـ آهٍ من ذلك الطفل الأشقر! يا لجماله!

فأجابها دون "ريكاردو سوربيدو":

ـ كأي طفل... ما هو إلا طفل كأي طفل. حين يكبر، ما لم يقضِ نحبه أولاً، سوف يصبح تاجرًا أو موظفًا في وزارة الزراعة، بل وربما طبيب أسنان، من يدري! وربما وجد في نفسه ميلاً إلى الفن وأصبح رسامًا أو مصارع ثيران، له ما له من العقد الجنسية وخلافه.

لم تكُن "ماريبيل" تفهم حديث عشيقها تمام الفهم. كانت تقول لصديقاتها:

- عزيزي "ريكاردو" رجل مُثقَّف جدًا، بكل تأكيد! ويفقه في كل الأمور!

- وهل ستتزوَّجان؟

- أجل، حين يتسنَّى لنا ذلك. يقول إنه يريدني أن أتوقف عن العمل أولاً، لأن مسألة الزواج كالبطيخ، يحقُّ للمشتري أن يتذوَّقه قبل الشراء. أعتقد أنه مُحقٌّ في ذلك.

- ربما. وفيمَ يعمل حبيبك؟

(*) عُمدة كورك أو اتيرينس ماك سوينيب (١٨٧٩ - ١٩٢٠): كاتب وسياسي أيرلندي انتُخِب عمدة لمدينة "كورك" إبان حرب الاستقلال الأيرلندية. اعتُقِل واتُّهِم بالتحريض على العصيان من قبل البريطانيين، ثم توفِّي في محبسه لاحقًا بعد إضراب عن الطعام دام أربعة وسبعين يومًا.

- من ناحية العمل فهو لا يعمل شيئًا، يا امرأة. ولكنه لن يلبث أن يجد شيئًا، أليس كذلك؟

- بلى، دائمًا ما تُتاح للمرء فرصة ما.

منذ أعوام غير قليلة، كان أبو "ماريبيل" يمتلك دكّانًا متواضعًا لبيع الكورسيه في شارع "لا كولخياتا" ولكنه باعه لأن زوجته "إولوخيا" قد استحوذ عليها هاجس افتتاح حانة للنادلات في شارع "لا أدوانا" ظنًا منها بأن ذلك خير الأمور. سُمِّيت الحانة التي افتتحَتْها "إولوخيا" باسم "جنَّة الأرض" وسارت الأمور بها على ما يُرام إلى حدٍّ ما، حتى فقدت مالكة الحانة عقلها وولَّت هاربةً مع عازف جيتار فلامنكو في حالة سُكْر دائم.

كان دون "براوليو" أبو "ماريبيل" يقول:

- يا للخزي! زوجتي ترافق ذلك البائس الذي سيقتلها جوعًا!

بعد زمن يسير، قضى دون "براوليو" المسكين نحبه مريضًا بذات الرئة. وفي حداد صارم وندم عظيم، حضر جنازته "پاكو السردينة" الذي كان يعيش برفقة "إولوخيا" في "كارابانتشيل باخو" وفي الجنازة راح "السردينة" يقول لشقيق دون "براوليو" الذي جاء من "أستورجا" لحضور مراسم الدفن:

- الإنسان لا شيء! أليس كذلك؟

- فعلاً، فعلاً!

- هكذا هي الحياة، أليس كذلك؟

فكان يُجيبه دون "برونو" شقيق دون "براوليو" وهما على متن الأتوبيس المُتَّجه إلى المدافن الشرقية:

- صدقت، صدقت، هكذا هي الحياة.

- كان أخوك طيبًا، فليرقد في سلام.

- أجل يا رجل. لو كان شريرًا لهشَّم ضلوعك!

- أصبتَ في ذلك أيضًا!

- بالطبع! ولكن رأيي أنه ينبغي للمرء التسامح في هذه الحياة.

لم يحِر "السردينة" جوابًا. ولكن في دخيلة نفسه راح يفكِّر أن دون "برونو" رجل عصري جدًا.

- صحيح! هذا الرجل عصري للغاية! شئنا أم أبينا، تلك هي العصريَّة بحق!

لم يكُن دون "ريكاردو سوربيدو" يقتنع بحُجَج عشيقته تمام الاقتناع.

- أجل يا فتاة، ولكني لا أتغذَّى على إضراب عمدة "كورك" أقسم لكِ.

- لا تقلق يا رجل، ولا تغضب فالأمر لا يستحقّ. علاوةً على ذلك، فليس هناك شرٌّ يدوم مائة عام.

دارت تلك المحادثة بين "ريكاردو سوربيدو" و"ماريبيل" فيما جلسا أمام كأسيْن من النبيذ الأبيض في حانة رخيصة بشارع "مايور" قرب مقر الحكومة المدنية القائم على الرصيف المقابل. كانت بحوزة "ماريبيل" "بيسيتا" فقالت لدون "ريكاردو":

- تعالَ نحتسِ كأسيْن من النبيذ الأبيض في أي مكان، فالواحدة سئمت الهيام في الشوارع والإصابة بالبرد.

- حسنًا، فلنذهب حيثما شئتِ.

كانا في انتظار أحد أصدقاء دون "ريكاردو" شاعر يدعوهما على قهوة بالحليب، بل وكعك سويسري في بعض الأحيان. كان صديق دون "ريكاردو" شابًا يُدعَى "رامون مايو". ليس الأمر أنه يسبح في رغد من العيش، ولكنه لا يتضوَّر جوعًا في الوقت نفسه. كان الرجل، وهو سليل عائلة، يتدبَّر حاله دائمًا ليحمل بعض النقود في جيبه. كان يعيش بشارع "أبوداكا" فوق دكَّان

خردوات "تريني". وعلى الرغم من أن علاقته بأبيه لم تكُن طيبة، فلم يضطرّ إلى الرحيل عن البيت، إذ كان "رامون مايبُّو"رقيق الصحة بعض الشيء، ورحيله عن البيت كان سيودي بحياته.

- هل تعتقد أنه سيأتي؟

- أجل يا امرأة، "رامون" فتى جاد. صحيح أنه هائم في عنان السماء، ولكنه جاد وخدوم كذلك. سوف يأتي، وسترين.

رشف دون "ريكاردو سوربيدو"رشفة صغيرة وظلَّ مستغرقًا في التفكير.

- "ماريبيل" ما مذاق هذا الشرب؟

شربت "ماريبيل" هي الأخرى.

- لا أعرف يا فتى. له مذاق النبيذ فيما أرى.

شعر دون "ريكاردو" لبضع ثوانٍ بنفور هائل نحو عشيقته. فكر بينه وبين نفسه:

- تلك المرأة أشبه بالغراب!

"ماريبيل" لم تنتبه إلى ذلك. لم تكُن المسكينة تنتبه إلى أي شيء قط.

- انظر، ما أجمله من قط! إنه حقًا قط سعيد، حقًا؟

أما القط - وهو قط أسود، لامع، نال كفايته من النوم والطعام- فقد راح يتنزَّه في صبرٍ وحكمة كما لو كان رئيس دير، على حافة قاعدة تمثال حجرية، وهي حافة نبيلة عتيقة يبلغ عرضها أربعة إنشات على أقل تقدير.

- يبدو لي أن هذا النبيذ له مذاق الشاي، له مذاق الشاي بالضبط.

على البار جلس بعض سائقي سيارات الأجرة يحتسون أقداحهم.

- انظر، انظر! من المدهش أن القط لا يسقط!

وفي أحَد الأركان جلس عاشقان، وقد شخص كلٌّ منهما إلى عيني الآخر، يبوح له بعشقه في صمت، اليد فوق اليد.

- أعتقد أن المعدة إذا خَوَتْ، أصبح لكل شيء مذاق الشاي.

مرَّ كفيف من بين الطاولات ينادي على تذاكر اليانصيب.

- ما أجمل شَعْره الأسود! يكاد يبدو أزرق! أي قط!

انفتح الباب فتسلَّلت من الشارع ريح خفيفة باردة، ممزوجة بضجيج عربات الترام الأشد منها برودة.

- له مذاق الشاي بلا سكر، الشاي الذي يتناوله المصابون بمتاعب في المعدة.

بدأ جرس الهاتف يدقُّ مُحدِثًا جلبةً عارمة.

- إنه قط يسير على الحبل، قط يُمكنه العمل في السيرك.

جفَّف الساقي يديه بمريلته ذات الخطوط الخضراء والسوداء ثم رفع سماعة الهاتف.

- يبدو أن الشاي بلا سكر أنفع للاغتسال منه للهضم.

وضع الساقي سماعة الهاتف وصاح مناديًا:

- دون "ريكاردو سوربيدو"!

أشار له دون "ريكاردو" بيده.

- ماذا؟

- هل أنت دون "ريكاردو سوربيدو"؟

ـ أجل، هل وصلتني رسالة؟

- أجل، رسالة من قبل "رامون" يبلغك فيها بأنه لن يستطيع الحضور لأن أمه مصابة بوعكة.

في مخبز شارع "سان برناردو"، بالمكتب الضئيل حيث تُدار الحسابات، يتحدَّث سنيور "رامون" إلى زوجته "پاولينا" ودون "روبرتو جونثاليث" الذي عاد في اليوم التالي - ممتنًا لمالك المخبز على الخمسة "دورو" التي أعطاها له - بغرض الانتهاء من بعض الأمور وضبط بعض المدخلات.

يتجاذب كلٌّ من الزوجين ودون "روبرتو"أطراف الحديث حول موقد يعمل بنشارة الخشب، يبثُّ قدرًا لا بأس به من الدفء. وفوق الموقد جعلت تغلي المياه في علبة تونة مُستعمَلة تحوي بضع وريقات غار.

دون "روبرتو"يمرُّ بيوم مُبهِج، ويلقي على مالك المخبز وزوجته النكات.

- عندئذ يقول النحيل للبدين: "أنت قذر!" فيلتفت إليه البدين ويجيبه قائلاً: "اسمع، اسمع، إياك أن تفكر أن رائحتي هكذا دومًا!"

كادت زوجة سنيور "رامون"تموت من الضحك، انتابتها نوبة من الفواق وأخذت تصيح وهي تغطِّي عينيها بكلتا يديها:

- اسكت، اسكت محبةً في الرب!

أما دون "روبرتو" فيريد التأكيد على نجاحه.

- وكل ذلك جرى في مصعد!

وسط قهقهات المرأة المجلجلة، تطفر دموعها وتستلقي إلى الوراء في مقعدها.

- اسكت، اسكت!

دون "روبرتو" يضحك هو الآخر.

- يبدو على وجه النحيل أن أصدقاءه قليلون.

أما سنيور "رامون"فينقل بصره بين دون "روبرتو"و"پاولينا"عاقدًا يديه فوق بطنه، واضعًا عقب السيجارة بين شفتيه.

- أية أشياء يقول دون "روبرتو"حين يصفو مزاجه!

أما دون "روبرتو" فلا يكلّ.

- ما زالت عندي نكتة أخرى جاهزة، سنيورا "پاولينا!"

ـ اسكت، اسكت محبةً في الرب!

- حسنًا، سأنتظر ريثما تستردين أنفاسك قليلاً، فلستُ في عجلة من أمري.

سنيورا "پاولينا" تضرب على فخذيها الغليظتين براحتيها، وهي ما زالت تذكر رائحة السنيور البدين الكريهة للغاية.

ـ ١٧٩ ـ

كان مريضًا، لا يملك ريالاً واحدًا، ولكنه انتحر بسبب رائحة البصل.

- أشمُّ رائحة بصل نتنة، رائحة بصل مُروِّعة.

- اسكتْ يا رجل، فأنا لا أشمُّ أية رائحة. هل تريدني أن أفتح النافذة؟

- كلا، لا فارق عندي. الرائحة لن تزول، فالجدران تفوح منها رائحة البصل، ويداي تفوح منهما رائحة البصل.

كانت زوجته صورة مُجسَّدة للصبر.

- هل تريد أن تغسل يديك؟

- كلا، لا أريد. قلبي أيضًا تفوح منه رائحة البصل.

- هدِّئ من روعك.

- لا أستطيع، فأنا أشمُّ رائحة بصل.

- هيا، حاول أن تنام قليلاً.

- لن أستطيع، فكل شيء له رائحة بصل.

- هل تريد كوبًا من الحليب؟

- لا أريد كوبًا من الحليب. أودُّ أن أموت، أموت وحسب، أموت سريعًا جدًا، فرائحة البصل في ازدياد.

- لا تتفوَّه بترهات.

- بل أتفوَّه بما يحلو لي! أشمُّ رائحة بصل!

ثم أجهش الرجل بالبكاء.

- أشمُّ رائحة بصل!

- حسنًا يا رجل، حسنًا، هناك رائحة بصل.

- بالطبع هناك رائحة بصل! رائحة كريهة!

فتحَتْ زوجته النافذة. أما الرجل فراح يصرخ، بعينين مغرورقتين بالدموع.

- أغلقي النافذة! لا أريد لرائحة البصل أن تزول!

- كما شئت.

أغلقَتْ زوجته النافذة.

- أريد بعض الماء في فنجان، وليس في كوب.

ذهبت الزوجة إلى المطبخ كي تُعِدَّ فنجانًا من الماء لزوجها.

كانت الزوجة تغسل الفنجان حين دوَّتْ صرخة جحيمية، وكأنها صرخة رجل انفجرت رئتاه بغتة.

لم تسمع الزوجة صوت ارتطام الجسد ببلاط الباحة، بل شعرت بألم في صدغيها، ألم بارد حاد وكأنه وخز إبرة بالغة الطول.

- آه!

خرجت صيحة الزوجة عبر النافذة المفتوحة، فلم يُجِبها أحد. كان الفراش خاويًا.

أطلَّ بعض الجيران من نوافذ الباحة.

- ماذا يجري؟

لم تقوَ الزوجة على الحديث. لو كان بمقدورها لقالت:

- لا شيء، كانت هناك رائحة بصل طفيفة.

ـ ١٨٠ ـ

قبل ذهاب "سيوانيه" إلى مقهى دونيا "روسا" كي يعزف على الكمان، يمرُّ بأحد مراكز البصريات. يودُّ الرجل أن يسأل عن سعر النظارة ذات العدسات الملونة، فنظر زوجته في ضعف متزايد.

- انظر حضرتك، نظارة بعدسات "زايس" بمائتين وخمسين "پيسيتا".

يبتسم "سيوانيه" في مودَّة.

- كلا، كلا. أريد نظارة أكثر اقتصادية.

- حسنًا جدًا، سنيور. ربما راق لك هذا الطراز، بمائة وخمسة وسبعين "پيسيتا".

لم يكفّ "سيوانيه" عن الابتسام.

- كلا، لم أوضِّح كلامي جيدًا. أودُّ أن أرى نظارة بثلاثة أو أربعة "دورو".

يرمقه البائع بازدراء عميق. يرتدي بالطو أبيض ونظارة سخيفة تُثبَّت على الأنف، شعره مفروق ويهزُّ مؤخرته في سيره.

- ستجد طلبك في أحد متاجر الأدوية. آسف لعجزي عن مساعدتك، سنيور.

- حسنًا، وداعًا. أستميحك عذرًا.

"سيوانيه"يتوقَّف أمام واجهات متاجر الأدوية. بعضها أفضل إضاءة، ويقدِّم خدمة تحميض الأفلام أيضًا، ويعرض في الواجهة نظارات ذات عدسات ملونة بالفعل.

- هل لديكم نظارة بثلاثة "دورو"؟

الموظفة فتاة حلوة، سلسة القياد.

- أجل، سنيور. ولكني لا أرشِّحها لك، فهي سهلة الكسر للغاية. في وسعنا أن نقدِّم لك طرازًا جيدًا إلى حد كبير بفارق طفيف في السعر.

تفتِّش الفتاة في أدراج طاولة العرض، وتُخرج بضعة أرفف.

- انظر، بخمسة وعشرين "پيسيتا"اثنين وعشرين، ثلاثين، خمسين، ثمانية عشر (هذه أردأ قليلاً)، سبعة وعشرين...

"سيوانيه"يعرف أنه لا يحمل في جيبه أكثر من ثلاثة "دورو".

- ماذا عن تلك التي تبلغ تكلفتها ثمانية عشر "پيسيتا"تقولين إنها رديئة؟

- أجل، الفارق في السعر لا يستحقّ. فليس بينها وبين النظارة التي تبلغ تكلفتها اثنين وعشرين "پيسيتا" أدنى شبه.

"سيوانيه" يبتسم للفتاة.

- حسنًا، سنيوريتا. شكرًا جزيلاً. سأفكِّر في الأمر وأعود إلى هنا. آسف على الإزعاج.

- يا إلهي! سنيور، نحن هنا لمساعدتك.

في أعماق قلب "خوليتا" تشعر بوخزة ضمير طفيفة. وبغتةً، مثلَتْ لعينيها الأمسيات التي قضتها في بيت دونيا "ثيليا"محفوفة باللعنات الأبدية كافة.

إن هي إلا لحظة، لحظة مشؤومة. ولا تلبث أن تعود إلى ذاتها. أما العَبْرَة التي أوشكت أن تنساب على وجنتها، فيُمكن كبحها.

تدلف الفتاة إلى حجرتها وتُخرِج من دُرج الصوان مُفكِّرة مُجلَّدة بالمشمع الأسود حيث تحتفظ ببعض الحسابات الغريبة. تفتِّش عن قلم رصاص وتدوِّن بعض الأرقام ثم تبتسم لنفسها في المرآة: الشفتان مزمومتان، والعينان مغمضتان نصف إغماضة، واليدان على مؤخِّر العنق، وأزرار البلوزة محلولة.

"خوليتا" تبدو جميلة، بارعة الجمال، بينما تغمز للمرآة بعينها...

- اليوم ضرب "بينتورا"الرقم القياسي.

"خوليتا" تبتسم فيما تختلج شفتها السفلى، بل وحتى ذقنها يرتجف قليلاً.

تنفخ في غلاف المُفكِّرة قليلاً كي تزيل عنها الغبار، ثم تضعها مكانها.

- في حقيقة الأمر، أسير على وتيرة...

تغلق الدُّرج بالمفتاح المُزيَّن بشريط وردي دقيق، وفي تلك اللحظة تُفكِّر بما يشبه الندم:

- هذا المدعو "بينتورا"لا يشبع!

وعلى الرغم من ذلك - عجبًا لمجريات الأمور!- فبينما هي خارجة من مخدعها، يترقرق خيط من التفاؤل ليروي روحها.

- كم هو شبق ذلك الكتالوني الشقي!

"مارتين" يودِّع "ناتي روبليس"ثم يتَّجه صوب المقهى الذي طُرد منه في اليوم السابق لأنه لم يدفع الحساب. يفكِّر:

- ما زال معي ما يزيد على ثمانية "دورو"بقليل، لا أعتقد أن شراء بضع سجائر وتلقين مالكة المقهى المُقزِّزة درسًا يُعدُّ بمثابة سرقة. ويُمكنني أن أهدي "ناتي"بعض النقوش الصغيرة بخمسة أو ستة "دورو".

يستقلُّ "مارتين" الترام رقم ١٧ ويتَّجه صوب ميدان "بِلباو". في مرآة أحد صالونات الحلاقة، يملِّس شعره قليلاً ويصلح ربطة عنقه.

- أعتقد أنني أبدو بمظهر حسن إلى حد كبير...

"مارتين" يدلف إلى المقهى عبر الباب نفسه الذي خرج منه البارحة، يودُّ أن يلقى النادل نفسه، بل وأن يجلس على الطاولة نفسها لو أمكن.

يخيِّم على المقهى حرٌّ كثيف، دبق. يعزف الموسيقيون "لا كومپارسيتا" مقطوعة تانجو لـ "مارتين" معها ذكريات مبهمة، نائية، عذبة.

وحتى لا تنقطع عادتها، تصيح المالكة وسط لامبالاة الآخرين، فترفع ذراعيها نحو السماء ثم تتركهما تسقطان ثقيلتين فوق بطنها، على نحو مدروس. "مارتين" يجلس إلى طاولة على مقربة من المشهد. يقترب منه النادل.

- إنها غاضبة اليوم، لو رأتك لثارت ثائرتها.

- هي حرة! إليك "دورو"وأحضِر لي فنجانًا من القهوة. مائة وعشرون "سنتًا"عن حساب الأمس ومائة وعشرون "سنتًا"عن حساب اليوم. واحتفظ بالباقي لنفسك. فأنا لستُ من أولئك الذين يتضوَّرون جوعًا.

بهت النادل، بدا وجهه أكثر بلاهة من المعتاد. وقبل أن يبتعد أكثر مما ينبغي، يناديه "مارتين" ثانيةً.

- فليحضر ماسح الأحذية.

- حسنًا.

"مارتين" يلحُّ:

- وبائع التبغ.

- حسنًا.

اضطرَّ "مارتين" إلى بذل جهد هائل، فرأسه يؤلمه قليلاً، إلا أنه لا يجرؤ على طلب قرص "أسبرين".

دونيا "روسا" تتحدَّث إلى "پيپيه" النادل، فيما تتطلَّع إلى "مارتين"ذاهلةً. "مارتين"يتظاهر بأنه لا يراها.

تُقدَّم له القهوة، يرشف بضع رشفات ثم يقوم من مكانه مُتَّجهًا إلى دورة المياه. لاحقًا لن يعرف "مارتين" إذا كان قد أخرج المنديل من الجيب نفسه حيث يحتفظ بالنقود في دورة المياه أم في مكان آخر.

عاد إلى طاولته فمسح حذاءه واشترى علبة سجائر "نوبينتا" بـ"دورو".

ـ فلتشرب مالكة المقهى هذا القرف، أفهمت؟ إنها قهوة شعير مثيرة للغثيان(*).

قام من مكانه في خيلاء، فيما يشبه الوقار، ودفع الباب بلفتة ملؤها رويَّة.

وفي الشارع، يلاحظ "مارتين" أن كل جسده يرتجف. يرى أن الأمر برمته يستحقُّ العناء، وأنه قد سلك مسلك الرجال بحق.

ـ ١٨٣ ـ

"بينتورا أجوادو سانس" يتحدَّث مع نزيل البنسيون الآخر، دون "تيسيفونتيه أوبيخيرو" الطبيب البيطري برتبة كابتن. يقول له:

- أفِقْ من وهمك يا حضرة الكابتن، فليس هناك أكثر من الغراميات في مدريد. والآن، أي بعد الحرب، أكثر من أي وقت مضى. في هذه الأيام،

(*) شاع في تلك الحقبة استخدام الشعير المحمص كبديل عن القهوة نظرًا لندرتها وارتفاع أسعارها.

كل من هبَّتْ ودبَّتْ تفعل ما بدا لها. كل ما ينبغي للمرء فعله أن يكرِّس لهن بعض الوقت كل يوم. وإلا، فكيف السبيل إلى صيد الأسماك بسروال جاف!

- فعلاً، فعلاً، فهمت.

- بطبيعة الحال يا رجل، بطبيعة الحال. كيف تريد قضاء وقت طيب من دون أن تساهم بشيء من جانبك؟ تأكَّد أن النساء لن يجئن للبحث عنك. فالوضع هنا ليس كمثله في أنحاء أخرى.

- أجل، هذا صحيح.

- إذن، فلا بد من اليقظة يا حضرة الكابتن. لا بد من التحلِّي بالشجاعة والجرأة، الكثير من الجرأة. وأهم ما في الأمر ألا تدع الإخفاقات تثِّبط عزيمتك. إن أخفقت مع إحداهن، حسنًا، وماذا في ذلك؟ سرعان ما تأتي أخرى في إثرها.

ـ ١٨٤ ـ

دون "روكيه" يُرسل إلى "لولا" خادمة دونيا "ماتيلديه" المُحالة على المعاش، ليخطرها بما يلي:

- احضري إلى "سانتا إنجراثيا" في الثامنة. المُخلص لكِ "ر".

كانت "خوسيفا لوبيث" أخت "لولا" قد عملت خادمة في بيت دونيا "سوليداد كاسترو دي روبليس" لأعوام طوال إلى حد ما. ومن آن إلى آخر كانت تدَّعي أنها ذاهبة إلى بلدتها في حين كانت تذهب إلى مستشفى الولادة لقضاء بضعة أيام. بلغ بها الحد أن أنجبت خمسة أبناء تكفَّلت برعايتهم بضع راهبات من رهبنة "تشامارتين دي لا روسا" من باب الإحسان: الثلاثة الأكبر سنًا من دون "روكيه" والرابع من أكبر أبناء دون

"فرانثيسكو"أما الأخير فمن دون "فرانثيسكو"آخر مكتشفي ذلك المنجم. كان نسب كل واحد من أبنائها إلى أبيه أمرًا لا يرقى إليه الشك.

كان من عادة "خوسيفا"أن تقول:

- سمِّني ما شئت، ولكني لا أخون من يعجبني. إن ضقت ذرعًا بعشيقي أفترق عنه والسلام. ولكني ما دمت معه، فأنا كالحمام ليس لي سوى شريك واحد.

كانت "خوسيفا"فيما مضى امرأة بارعة الجمال، وضخمة الجسد قليلاً. والآن تمتلك بنسيون للطلاب بشارع "أتوتشا" وتعيش مع أبنائها الخمسة. تقول الألسن الخبيثة في الجوار إنها على علاقة بمُحصِّل الغاز، وإنها قد جعلت وجه صبي الكوَّاء ذي الأربعة عشر عامًا يحمَرُّ خجلاً ذات يوم. بَيْد أن الوقوف على وجه الحقيقة في كل ما يُقال أمر بالغ الصعوبة.

أختها "لولا" أصغر سنًا، غير أنها ضخمة الجسد بارزة الصدر هي الأخرى. دون "روكيه"يبتاع لها الأساور والإكسسوارات، ويدعوها إلى تناول الكعك، في حين تشعر هي بسعادة جارفة. "لولا" أقل أمانة من "خوسيفا" ويبدو أنها على علاقة بأكثر من شاب يافع. ذات يوم ضبطتها دونيا "ماتيلديه" وهي في الفراش مع "بينتورا" غير أنها آثرت ألا تقول شيئًا.

تلقَّت الفتاة الورقة التي أرسلها دون "روكيه"هيَّأت نفسها ثم ذهبت إلى بيت دونيا "ثيليا".

ـ ألم يأتِ؟

- كلا، ليس بعد. تفضَّلي إلى هنا.

تدلف "لولا"إلى المخدع، تتجرَّد من ثيابها وتجلس فوق الفراش. تريد مفاجأة دون "روكيه"بأن تفتح له الباب عارية تمامًا.

دونيا "ثيليا"تسترق النظر عبر ثقب المفتاح، يروقها أن ترى كيف تتعرّى الفتيات. في بعض الأحيان، عندما تلاحظ حرارة شديدة في وجهها، تنادي كلبها "اللولو".

ـ "بييرُوت"! "بييرُوت"! تعالَ إلى صاحبتك!

"بينتورا"يفتح باب الحجرة التي يشغلها قليلاً.

- سنيورا!

- أنا آتية.

"بينتورا"يضع ثلاثة "دورو" في راحة يد دونيا "ثيليا".

ـ دعي السنيوريتا تغادر أولاً.

دونيا "ثيليا" تعقّب على كل شيء بقولها "آمين".

ـ تحت أمرك.

"بينتورا"يذهب إلى حجرة تغيير ثياب لإضاعة بعض الوقت، فيشعل سيجارة فيما تبتعد الفتاة عن المكان. تخرج حبيبته وقد خفضت بصرها إلى الأرض، ثم تنزل الدّرَج.

- وداعًا يا ابنتي.

- وداعًا.

وبمفاصل أصابعها تقرع دونيا "ثيليا"باب الحجرة حيث تنتظر "لولا".

ـ أتريدين الذهاب إلى المخدع الكبير؟ لقد أصبح شاغرًا.

- حسنًا.

تبلغ "خوليتا" الطابق الأوسط، فتلتقي بدون "روكيه".

ـ أهلاً يا ابنتي! من أين أتيتِ!

تحار الفتاة.

- أنا آتية مِنْ... مِنْ استوديو التصوير. وماذا عنك؟ إلى أين أنت ذاهب؟

- أنا ذاهب... للقاء صديق مريض، المسكين في حالة حرجة للغاية.

يشقُّ على الفتاة التفكير بأن أباها ذاهب إلى بيت دونيا "ثيليا"وبالمثل يشعر أبوها.

دون "روكيه" يفكِّر:

- كلا، يا لي من أبله! من يخطر له أمر كهذا!

والصغيرة تفكِّر:

- لعلَّ ما قاله عن صديقه صحيح. قد تكون لأبي مسائله الخاصة به، ولكن تردُّده على بيت دونيا "ثيليا"سيكون شيئًا مؤسفًا للغاية!

يهمُّ "بينتورا"بالمغادرة فتستوقفه دونيا "ثيليا".

ـ انتظر لحظة، أحدهم يطرق الباب.

دون "روكيه"يصل بوجه ممتقع بعض الشيء.

- أهلاً! هل وصلَتْ "لولا"؟

ـ أجل، وهي في انتظارك بالمخدع الأمامي.

دون "روكيه" يطرق الباب طرقتين خفيفتين.

- من؟

- أنا.

- تفضَّل.

ـ ١٨٥ ـ

"بينتورا أجوادو"يتابع حديثه مع الكابتن، على نحو يكاد يكون فصيحًا.

- انظر يا حضرة الكابتن، أنا الآن في علاقة غرامية تسير على ما يُرام إلى حد كبير مع فتاة، اسمها لا يهمّ. رأيتها لأول مرة فخطر لي ما يلي:

ليس هناك ما يمكن فعله. بَيْد أنني ذهبت إليها لئلاّ يظل لديَّ شعور بالأسف لكوني قد رأيتها تمرُّ ولم أسعَ وراءها. قلتُ لها كلمتين ودعوتها على كأسين من "الڤيرموت" مع الجمبري. وكما ترى، أصبحَتْ الآن كخاتم في إصبعي. تفعل ما أريد ولا تجرؤ حتى على رفع صوتها. عرفتها في مسرح "إل بارسيلوه"في أواخر شهر أغسطس الماضي. ويوم عيد ميلادي، بعد مرور أسبوع بالكاد، "هوب!" كانت معي في الفراش. لو كنت قد بقيتُ مكاني كالمُغفَّلين، أشاهد كيف يغازلها الآخرون ويتحسَّسون جسدها وما إلى ذلك، لأصبحتُ الآن مثلك.

– أجل، ذلك شيء عظيم. ولكني أميل إلى التفكير بأنها مسألة حظ أكثر من كونها شيئًا آخر.

انتفض "بينتورا"في مقعده.

– حظ؟ هنا مكمن الخطأ! الحظ لا وجود له يا صديقي. الحظ كالنساء، يُذعِنَّ لمن يطاردهن وليس لمن يراقبهن في أثناء عبور الشارع من دون أن ينبس بكلمة واحدة. لا يُمكن للمرء أن يفعل مثلما تفعل أنت، بالطبع، فيقضي يومه كاملاً في مراقبة تلك المرابية أم الفتى المخنَّث، ودراسة أمراض الأبقار. في رأيي أنك لن تجني شيئًا هكذا.

ـ ١٨٦ ـ

"سيوانيه"يضع آلة الكمان فوق البيانو. انتهى من عزف مقطوعة "لا كومپارسيتا" لتوِّه. يقول لـ "ماكاريو":

ـ أنا ذاهب إلى التواليت لحظة.

"سيوانيه" يسير وسط الطاولات. ما زالت أسعار النظارات تتقلَّب في رأسه.

– حقًا، الأمر يستحقُّ عناء الانتظار قليلاً. يبدو لي أن تلك النظارة التي تساوي اثنين وعشرين "پيسيتا"جيدة إلى حد كبير.

يدفع بقدمه الباب الذي كُتب عليه "رجال": مبولتان مثبَّتتان إلى الحائط، ومصباح واهن بسعة خمسة عشر وات، محاط بسلك معدني. ومن قفصه يفرض قرصُ المُطهِّر هيمنته على المشهد كالجدجد.

"سيوانيه" بمفرده. يدنو من الحائط، ينظر إلى الأرض.

- ها؟

يجفُّ ريقه في حلقه، ويثب قلبه، وطنين بالغ الطول يجثم على أسماعه. "سيوانيه" يحملق في الأرض بإمعان كبير. الباب مقفل. "سيوانيه"ينحني على عجل. بالفعل، إنها خمسة "دورو" مُبتلَّة قليلاً، ولكن لا يهمّ. "سيوانيه" يُجفِّف الورقة المالية بمنديل.

في اليوم التالي عاد إلى متجر الأدوية.

- النظارة التي تساوي ثلاثين "بيسيتا "سنيوريتا، أعطيني النظارة التي تساوي ثلاثين "بيسيتا".

ـ ١٨٧ ـ

"لولا"تتحدَّث مع دون "روكيه"جالسيْن على الأريكة. دون "روكيه"ما زال يرتدي معطفه، ويضع قبعته فوق ركبتيه. أما "لولا"فعارية، عاقدة ساقيها. تتوهَّج مدفأة في الحجرة، المكان دافئ إلى حد كبير. على مرآة خزانة الثياب تنعكس صورتهما، فيبدوان على قدرٍ كبير من الغرابة حقًّا: دون "روكيه"قلِق اللفتات، ما زال يضع وشاحه، أما "لولا"فعارية، في مزاج عكر.

دون "روكيه"مُطرق.

- هذا كل شيء.

"لولا" تحكُّ سُرَّتها ثم تتشمَّم إصبعها.

- أتريد أن تعرف رأيي؟

- ما رأيك؟

- أنا وابنتك من العجين نفسه، ويُمكن لنا أن نرفع الكلفة فيما بيننا.

دون "روكيه"يصيح بها:

- اسكتي! قلت لكِ أن تسكتي!

- سوف أسكت.

كلاهما يدخِّن. "لولا" بدينة، عارية، تنفث الدخان، وتبدو كفقمة السيرك.

- ما قالته لك الصغيرة بشأن الصورة يشبه ما قلتَ لها أنت بشأن صديقك المريض، حذار وإلا اضطرَّتْ "خوليتا" لتحميض صورتها بمُطهِّر "البرمنجنات"(*).

ـ اسكتي!

- كفاك يا رجل، دعك من قول "اسكتي!" ومن تلك الأسطوانة المشروخة! يبدو وكأنكم عميتم!

ـ ١٨٨ ـ

سبق لنا أن قُلنا في موضع آخر ما يلي: "يطلُّ دون "أوبدوليو" من إطار مُذهَّب برَّاق بشاربه المنتصب ونظرته العذبة، ذائدًا عن النشاط السري الذي يوفِّر أكل العيش لأرملته، كإله حب ماكر خبيث".

دون "أوبدوليو"عن يمين خزانة الثياب، خلف أصيص الزهور. وعلى اليسار عُلِّق بورتريه لمالكة البيت في شبابها، وهي محاطة بكلاب "لولو".

ـ هيا، ارتدي ثيابكِ. فلستُ في مزاج يسمح لي بأي شيء.

- حسنًا.

"لولا" تفكِّر بينها وبين نفسها:

(*) "برمنجنات": مُركَّب كيميائي شاع استخدامه لعلاج الأمراض المنقولة جنسيًا.

- ستدفع تلك الصغيرة الثمن! أقسم بالرب أنها ستدفع ثمن ما جرى، وأي ثمن!



دون "روكيه" يسألها:

- هل ستخرجين أولاً؟

- كلا، اخرجْ أنت ريثما أرتدي ثيابي.

دون "روكيه" يغادر فتوصد "لولا" رتاج الباب. تُفكِّر:

- لن يلاحظ غيابه أحد.

ثم تُنزِل صورة دون "أوبدوليو" عن الحائط وتضعها في حقيبتها. تُهذِّب شعرها قليلاً في الحمام وتُشعل سيجارة "تريتون".

ثم تدقُّ الجرس.

- ١٨٩ -

يبدو أن كابتن "تيسيفونتيه" يتجاوب.

- حسنًا... سنجرِّب حظنا...

- لستَ جادًا فيما تقول.

- بلى يا رجل، وسترى بنفسك. أخبِرْني حين تخرج للهو يومًا ولنذهب معًا. اتَّفقنا؟

- اتَّفقنا، سنيور. سأنبِّهك في أول فرصة.

- ١٩٠ -

تاجر الخردة يُدعَى "خوسيه سانث مدريد". له متجرا خردة حيث يبيع ويشتري الثياب المستعملة و"القطع الفنية" كما يؤجِّر بِدَل "السموكينج" للطلاب والسترات للعرسان الفقراء.

- تعالَ إلى الداخل وجرِّب ما شئت، فلديك مُتَّسَع من الخيارات.

وبالفعل هناك مُتَّسَع من الخيارات: مئات البِدَل مُعلَّقة من مئات المشاجب في انتظار الزبون الذي سيأخذها كي تشمَّ الهواء.

أحد متجري الخردة يقع في شارع "لوس إستوديوس"والآخر، الأكثر أهمية، قُرب منتصف شارع "لا ماجدالينا".

بعد الوجبة المسائية الخفيفة، سنيور "خوسيه" يأخذ "پوريتا" إلى السينما، إذ تروق له مُداعبتها قبل الذهاب إلى الفراش. يذهبان إلى سينما "إيديال" أمام "كالديرون" حيث يُعرض فيلم "هو وأخوه"بطولة "أنطونيو بيكو" و"مسائل عائلية" بطولة "ميرثيديس بيثينو"؟ وكلاهما حظيَ بموافقة الرقابة. تتميَّز سينما "إيديال"بالعروض المُستمرَّة والمساحة الشاسعة، حيث توجد أماكن شاغرة دائمًا.

يضيء مرشد السينما طريقهما بكشاف.

- أين؟

- هنا. سنكون على ما يُرام هنا.

يجلس كلٌّ من "پوريتا"وسنيور "خوسيه" في الصف الأخير. سنيور "خوسيه" يتحسَّس عنق الفتاة بيده.

- ما الأخبار؟

- لا شيء، كما ترى!

"پوريتا" تتطلَّع إلى الشاشة. سنيور "خوسيه" يأخذ بكلتا يديها.

- يداكِ باردتان.

- أجل، الجو قارس البرودة.

يُطرقان لبضع لحظات. سنيور "خوسيه" لم يجد راحته في المقعد بعد، ويتململ في مكانه باستمرار.

- "بوريتا!"

ـ ماذا؟

- فيمَ تفكِّرين؟

- ممم...

- لا تقلِّبي الأمر في رأسك أكثر من ذلك. سأتولّى إصلاح مسألة "باكيتو" بنفسي، فلي صديق ذو نفوذ واسع للغاية في "الإعانة الاجتماعية" وهو ابن عم عمدة إحدى المدن، لا أعرف أية مدينة.

سنيور "خوسيه" يخفض يده إلى فتحة صدر الفتاة.

- آهٍ، يدكَ باردة للغاية!

- لا تقلقي، سأدفِّئها.

يضع الرجل يده تحت إبط "بوريتا" من فوق البلوزة.

- ما أدفأ إبطكِ!

- أجل.

"بوريتا" تشعر بسخونة شديدة أسفل ذراعها، تبدو كما لو كانت مريضة.

- هل تعتقد أن "باكيتو" سيتمكن من الالتحاق؟

- يا امرأة، أعتقد كذلك. حتى وإن لم يكُن صديقي ذا نفوذ واسع، سيتمكَّن "باكيتو" من الالتحاق.

- وهل سيرغب صديقك في القيام بذلك؟

سنيور "خوسيه" يضع يده الأخرى على مشدٍّ جوارب "پوريتا" خلال فصل الشتاء تضع مشداً، إذ تسقط جواربها لكون "پوريتا" نحيلة بعض الشيء. أما في الصيف فلا ترتدي جوارب. حتى وإن بدا غير ذلك، فالاستغناء عن الجوارب يوفِّر لها بعض النقود، بكل تأكيد!

- صديقي يفعل كل ما آمر به، فهو مدين لي بأفضال كثيرة.

- لعلَّ وعسى! فليسمع الرب صوتك!

- سترين صحة كلامي.

الفتاة تفكِّر، بنظرة حزينة، شاردة. سنيور "خوسيه" يباعد بين فخذيها قليلاً، ثم يقرصهما.

- إذا التحق "پاكيتو" بالحضانة، سيختلف الأمر تمامًا!

"پاكيتو" هو الشقيق الأصغر للفتاة. وهم خمسة من الإخوة والأخوات بخلاف "پوريتا"؟ أي ستة في المجمل: "رامون" الأخ الأكبر، في الثانية والعشرين من عمره ويؤدِّي الخدمة العسكرية في إفريقيا. "ماريانا" المسكينة مريضة، لا تقوى على مبارحة الفراش، وتبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا. "خوليو" يعمل متدرِّبًا في إحدى المطابع، وشارف الرابعة عشرة. "روسيتا" في الحادية عشرة. ثم "پاكيتو" أصغرهم سنًا، في التاسعة من العمر. أما "پوريتا" فهي ثانية الإخوة في الترتيب، تبلغ من العمر عشرين عامًا، وربما بدت أكبر سنًا.

يعيش الإخوة وحدهم، إذ أُعدم الأب رميًا بالبنادق، بسبب تلك الأمور التي تجري، أما الأم فقضت نحبها بالسل وسوء التغذية عام ١٩٤١.

"خوليو" يتقاضى أربعة "پيسيتا" في المطبعة. أما البقية فعلى "پوريتا" أن تجنيها بعرق جبينها، بقطع الشوارع جيئة وذهابًا طوال اليوم، ثم الرُّسُوِّ في بيت دونيا "خيسوسا" بعد العشاء.

يعيش الفتية في عُلّيّة بشارع "لا تيرنيرا" أما "پوريتا" فتنزل في بنسيون، حيث تحظى بقدرٍ أكبر من الحرية ويتسنَّى لها تلقِّي الرسائل عبر الهاتف. "پوريتا" تذهب لرؤيتهم كل صباح، قرابة الثانية عشرة أو الواحدة. كما تتناول معهم الغذاء أحيانًا، عندما لا تكون لديها التزامات أخرى. في البنسيون يحتفظون لها بطعام الغذاء حتى تتناوله على العشاء، إن شاءت.

ما زالت يد سنيور "خوسيه" في فتحة صدر الفتاة منذ بعض الوقت.

- هل تريدين الذهاب؟

- إن شئت!

سنيور "خوسيه" يساعد "پوريتا" على وضع المعطف القطني الخفيف.

- لن نقضي سوى بعض الوقت فحسب، اتَّفقنا؟ فالفأر يلعب في صدر زوجتي.

- كما شئت!

ـ ١٩١ ـ

-إليكِ، إنها لكِ.

سنيور "خوسيه" يضع خمسة "دورو" في حقيبة "پوريتا"وهي حقيبة مصبوغة بلون أزرق يترك أثرًا خفيفًا على الأيدي.

- جزاك الرب خيراً.

وعند باب الحجرة يودِّع أحدهما الآخر.

- أخبرني، ما اسمك؟

- اسمي "خوسيه سانث مدريد" وماذا عنكِ؟ هل تدعين "پوريتا"حقًا؟

- أجل، ولمَ سأكذبك القول؟ اسمي "پورا بارتولوميه ألونسو".

يطالعان مشجب المظلات لبرهة.

- حسنًا! أنا ذاهب!

- وداعًا "پيپيه" ألن تعطيني قبلة؟

- أجل يا امرأة.

- هلا اتَّصلتَ بي حين تعرف شيئًا بشأن مسألة "پاكيتو"؟

-أجل. اطمئني، سأتصل بكِ على هذا الهاتف.

ـ١٩٢ـ

دونيا "ماتيلديه" تنادي نزيليْها بصوت عالٍ:

- دون "تيسي!" دون "بينتورا!" العشاء!

وحين تلتقي بدون "تيسيفونتيه" تقول له:

- لقد طلبتُ كبدًا لإعداده على العشاء غدًا، لنرَ إن كان سينال إعجابك.

أما الكابتن فلا ينظر إليها حتى، بل يبقى مستغرقًا في التفكير بأمور أخرى.

- أجل، ربما كان هذا الفتى على حق. فالبقاء هنا كالمُغفَّلين يقلِّل من فرص المرء في التودُّد إلى الفتيات. تلك هي الحقيقة.

ـ١٩٣ـ

سُرقَت حقيبة دونيا "مونسيرَّات" خلال صلاة المذبح المُقدَّس، أية همجية! حتى الكنيسة أصبح فيها لصوص الآن! لم يكُن في حقيبتها أكثر من ثلاثة "پيسيتا" وبعض الفكة، إلا أن الحقيبة كانت صالحة للاستخدام وفي حالة جيدة لم تزل.

كانوا قد انتهوا بالفعل من إنشاد ترنيمة "عظيم هو السرُّ المُقدَّس" التي كان يتغنَّى بها ابن أخت دونيا "مونسيرَّات" "خوسيه ماريا" عديم التهذيب، على أنغام النشيد الوطني الألماني- ولم يبقَ على دكك الكنيسة سوى بضع سيِّدات مكثن لتلاوة صلواتهن الخاصة.

دونيا "مونسيرَّات" تتأمَّل فيما قرأته لتوِّها في ورقة منفصلة بين صفحات كتاب صلوات بعنوان "زيارات إلى قدس الأقداس" للأب مانخون"(*)إن الخميس الجاري، الموافق تذكار "سان لويس جونثاجا"، يبعث في النفس شذا السوسن، والمذاق العذب لدموع التوبة الخالصة. في براءته، كان "سان لويس" ملاكًا. وفي توبته، كان يضاهي تقشُّف "سانتا ماريا ماجدالينا دي باتسيس"، وهي في غمرة النشوة التي أراها الرب خلالها مجد "جونثاجا" في الملكوت...

تعود دونيا "مونسيرَّات" برأسها إلى الوراء قليلاً، فلا تجد الحقيبة.

ما كادت تنتبه إلى ما جرى في بادئ الأمر. إذ كان كل شيء في مخيلتها عبارة عن طفرات وظهورات واختفاءات.

ـ ١٩٤ ـ

في بيتها، تُعيد "خوليتا" المُفكِّرة إلى مكانها وتذهب لتناول العشاء هي الأخرى شأن نزيلي دونيا "ماتيلديه".

أمها تقرص وجنتها بحنان.

- هل كنتِ تبكين؟ تبدو في عينيكِ حُمرة.

فتجيبها "خوليتا" مُتجهِّمة:

(*)"أندريس مانخون" (١٨٤٦ ـ ١٩٢٣): أستاذ قانون وكاهن، عمل على تأسيس مدارس دينية لتعليم الأطفال الفقراء. كما وضع الكتاب الذي ورد ذكره في الفقرة، والذي يشتمل على عدد كبير من الصلوات والنصائح والإرشادات.

- كلا يا ماما، كنت أفكِّر.

دونيا "بيسي" تبتسم بمظهر يوحي بشيء من المكر:

- كنتِ تفكِّرين فيه؟

- أجل.

تأخذ كل منهما بذراع الأخرى.

- أخبريني، ما اسمه؟

- "بينتورا".

ـ يا لكِ من ماكرة! لهذا سميتِ الطفل الصيني "بينتورا!"

تغمض الفتاة عينيها نصف إغماضة.

- أجل.

- إذن فأنتِ تعرفينه منذ بعض الوقت؟

- أجل، نلتقي من آن إلى آخر، منذ شهر ونصف أو شهرين.

تتَّخذ الأم أسلوبًا يكاد يكون جادًّا.

- وكيف لم تخبريني بشيء من قبل؟

- ولمَ أخبرك بشيء قبل أن يبوح لي بحبه؟

- أنتِ مُحقَّة. أبدو كالساذجة! حسنًا فعلتِ يا ابنتي، لا ينبغي البوح بشيء أبدًا ما لم يكُن مؤكَّدًا. لا بد أن تكون الواحدة كتومة دائمًا.

تسري قشعريرة في ساقي "خوليتا" وتحسُّ بحرارة طفيفة في صدرها.

- أجل يا ماما، كتومة جدًّا!

دونيا "بيسي" تعاود الابتسام والسؤال:

- أخبريني، ماذا يفعل؟

- يدرس حتى يتقدَّم لاختبار القبول لدى الشهر العقاري.

- حبذا لو حصل على وظيفة هناك!

- سنرى إن كان سيحالفه الحظ يا ماما. نذرتُ شمعتين إن حصل على وظيفة في الشهر العقاري من الدرجة الأولى، وشمعة واحدة إن حصل على وظيفة من الدرجة الثانية.

- أحسنتِ صنعًا يا ابنتي، العمل والعبادة لا يفترقان. سأنذر أنا أيضًا مثلما نذرتِ. أخبريني... وما لقب عائلته؟

- "أجوادو".

-لا بأس. "بينتورا أجوادو".

دونيا "بيسي" تضحك في جذل.

- آهٍ يا ابنتي، رائع! "خوليتا مويسيس دي أجوادو" هل لاحظتِ؟

نظرات الفتاة شاردة.

- أجل، أجل.

وعلى عجل تسارع الأم بعدٍّ فراخها قبل أن تفقس، فيما تخشى أن يكون كل ذلك حلمًا فيتهشَّم إلى ألف شظية بغتةً كمصباح كهربائي.

- "خوليتا" إذا كان أول أبنائك ولدًا سوف يُدعَى "روكيه" على اسم جده. "روكيه أجوادو مويسيس" يا للسعادة! آهٍ، حين يعلم أبوكِ! يا للفرحة!

كانت "خوليتا" قد عبرت النهر وبلغت الضفة الأخرى، فصارت تتحدَّث عن نفسها وكأنها تتحدَّث عن أخرى، لم يعُد يهمُّها شيء بخلاف سلامة نية أمها.

- وإن كانت بنتًا سأدعوها باسمكِ يا ماما. "بيسيتاثيون أجوادو مويسيس" له وقع حسن أيضًا.

- شكرًا يا ابنتي، شكرًا جزيلاً، لقد أثَّرتِ في نفسي. ولكن دعينا نسأل الرب أن يكون ذكرًا، فالحاجة إلى الرجال شديدة دائمًا.

ترتجف ساقا الفتاة مرة أخرى.

- أجل يا ماما، جدًا.

تتحدَّث الأم عاقدة يديها فوق بطنها:

- تصوَّري لو دعاه الرب لرسالة الكهنوت!

- من يدري!

دونيا "بيسي" ترفع بصرها عاليًا. تبدو على سقف الحجرة المُعلَّق بعض البقع الناجمة عن الرطوبة.

- أمل حياتي كلها، ابن كاهن!

دونيا "بيسي" أسعد امرأة بمدريد في تلك اللحظات. تطوِّق خصر ابنتها بذراعها -على نحو شبيه جدًا بذلك الذي يطوِّق به خصرها "بينتورا" في بيت دونيا "ثيليا". وتهدهدها كطفل صغير.

- ربما أصبح حفيدي الصغير كاهنًا يا عزيزتي، ربما!

تضحك المرأتان وقد تعانقتا في دلال.

- آهٍ، كم أشتهي الحياة الآن!

"خوليتا" ترغب في إضفاء لمسة جمال على صنيعها.

- أجل يا ماما، في الحياة مباهج كثيرة.

"خوليتا" تخفض صوتها الذي جاء مكتومًا، إيقاعيًا.

- أعتقد أن التعرُّف على "بينتورا" تطنُّ أذنا الفتاة طنينًا خفيفًا - كان من عظيم حظي.

تؤثر الأم أن تبدي لابنتها بادرة تعقُّل.

- سنرى يا ابنتي، سنرى. فليستجب الرب! ولنتحلَّ بالإيمان! أجل، ولمَ لا؟ حفيد كاهن يُقوِّمنا جميعًا بما له من فضائل. خطيب ديني مُفوَّه! لا

يعدو كلامنا الآن كونه مزاحًا، ولكن تصوَّري أن تُنشر ذات يوم إعلانات التدريبات الروحية المُقامة تحت إشراف قداسة الأب "روكيه أجوادو مويسيس!" عندئذ سأكون طاعنة في السن يا ابنتي، ولكن الدنيا لن تسعني من الزهو.

- ولا أنا يا ماما.

ـ ١٩٥ ـ

سرعان ما يستردُّ "مارتين" هدوءه، ويمضي مزهوًا بنفسه.

- أي درس لقنتُها! هاها!

"مارتين" يحثُّ الخطى، يكاد يعدو، ومن آن إلى آخر يثب وثبة قصيرة.

- فلنرَ ماذا تقول أنثى الخنزير البري الآن!

"أنثى الخنزير البري" هي دونيا "روسا".

عند بلوغه ميدان "سان بِرناردو" يمضي "مارتين" وهو يفكِّر في هدية لـ "ناتي".

ـ ربما كان "رومولو" لا يزال في المتجر.

"رومولو" بائع كتب قديمة، أحيانًا ما تتوافر لديه في جُحرِهِ بعض النقوش الجديرة بالاهتمام.

"مارتين" يقترب من جُحر "رومولو" على اليمين نزولاً، بعد الجامعة.

على الباب لافتة صغيرة تقول: "مغلق. المخابرة في مدخل البناية" وبالداخل يلوح نور، يبدو أن "رومولو" يرتِّب أوراقه أو ينحِّي أحد الطلبات جانبًا. "مارتين" يطرُق الباب الصغير المُفضي إلى الباحة بمفاصل أصابعه.

- أهلاً، "رومولو"!

-أهلاً، "مارتين"/ سعدتُ برؤيتك!

"مارتين" يبرز علبة التبغ، يدخِّن الرجلان جالسيْن حول المجمر الذي أخرجه "رومولو" من أسفل الطاولة.

- كنت أكتب إلى أختي المقيمة في "خايين". أعيش هنا في الوقت الحالي، ولا أغادر المكان سوى لتناول الطعام. أحيانًا لا أشعر برغبة في ذلك ولا أتحرَّك من مكاني طوال اليوم، فيحضرون لي القهوة من الجانب المقابل من الشارع والسلام.

"مارتين" يتفحَّص بضعة كتب فوق كرسي من الخوص ذي مسند مُهشَّم، لم تعُد له فائدة بخلاف كونه رفًّا للكتب.

- كتب قليلة.

- فعلاً، ليس ذلك بالشيء الكثير. هذا الكتاب جدير بالاهتمام فعلاً ونادر: "مذكرات حياة" لكونت "رومانونيس".

ـ أجل.

"مارتين" يترك الكتب على الأرض.

- كنت أريد نقشًا، على أن يكون جيدًا.

- كم تريد أن تدفع؟

- أربعة أو خمسة "دورو".

ـ بخمسة "دورو" يمكنني أن أبيعك نقشًا جميلاً. ليس كبيرًا في حقيقة الأمر، إلا أنه أصلي. علاوةً على ذلك، فله إطار ولوازمه. هكذا اشتريتُه. إذا كنت تبحث عن هدية فتلك هي ضالتك المنشودة.

- أجل، إنها هدية لفتاة.

- فتاة؟ ستجد تلك الهدية وكأنها قد صُنِعَت لها خصيصًا، ما لم تكُن راهبة "أورسيلينية"(*) سترى الآن. دعنا ندخِّن سيجارة بهدوء، فلا أحد يحملنا على العجلة.

(*) الرهبنة "الأورسيلينية": رهبنة سُمِّيَت بهذا الاسم تيمُّنًا بالقديسة "أورسولا" وتعنى بتعليم البنات والعناية بالمرضى على وجه الأخصّ.

- كيف يبدو النقش؟

- ستراه الآن، إنه نقش لـ "فينوس" يضمُّ بعض الرسوم الصغيرة بالأسفل، فضلاً عن أبيات من الشعر باللغة التوسكانية أو البروفنسالية، لا أدري.

"رومولو" يترك السيجارة على الطاولة ثم يضيء مصباح الردهة. وعلى الفور يعود بإطار يمسحه بكمٍّ المئزر.

- انظر.

النقش جميل، مزخرف.

- الألوان تعود إلى الحقبة التي صُنع خلالها.

- يبدو كذلك.

- أجل، أجل، كُن مُتأكِّدًا من ذلك.

يصوِّر النقش "فينوس" شقراء، عاريةً تمامًا، مُكلَّلةً بالأزهار، واقفةً على قدميها، ومحاطةً بهالة مُذهَّبة. ومن الخلف يصل شعرها إلى ركبتيها. على بطنها وردة الريح، وكل شيء رمزيّ للغاية. بيمينها زهرة وبشمالها كتاب. يبرز جسم "فينوس" وخلفه السماء الزرقاء المُرصَّعة عن آخرها بالنجوم.

وبداخل الهالة، بالأسفل، ثمة دائرتان دقيقتان، واحدة تحت الكتاب تضمُّ رمز برج الثور، وأخرى تحت الزهرة وتضمُّ رمز برج الميزان. أما القسم السفلي من النقش فيصوِّر مرجًا تحفُّه الأشجار. ثمة عازفان، أولهما يضرب العود، بينما يعزف ثانيهما على القيثارة. وثلاثة أزواج من العشاق يتجاذبون أطراف الحديث فيما بينهم، زوجان جالسان وزوج يتنزَّه. وفي الركنين العلويين ملاكان، كلاهما ينفخ بوقًا بخدَّين منتفخَين. وبالأسفل أربعة أبيات من الشعر غير مفهومة.

- ماذا يعني هذا؟

- المعنى مكتوب بالخلف، فقد ترجمه لي "رودريجيث إنترينا" الأستاذ بمعهد "كاردينال ثيسنيروس".

بالخلف كُتب بالقلم الرصاص:

"فينوس"، شُعْلَة مُتَّقِدَة،

تُلْهِبُ الأفْئِدَةَ الوَدِيعَةَ حيثُ تَتَرَدَّدُ تَرْنِيمَة.

وبرَقَصَاتٍ وحَفَلاتِ عِشْقٍ شَارِدَة،

تُشِيعُ الحُبَّ في هيَامٍ رَقِيق".

- هل تروق لك؟

- أجل، تروق لي كثيرًا كل هذه الأشياء. إن الغموض مبعث السحر الأعظم لكل هذه الأشعار، ألا توافقني الرأي؟

- بلى، يبدو لي كذلك.

يبرز "مارتين" علبة التبغ مرة أخرى.

- لديك من التبغ الكثير!

- اليوم. هناك أيام لا أملك خلالها نتفة تبغ واحدة، بل أجمع أعقاب السجائر التي يدخِّنها زوج أختي، وأنت تعلم ذلك.

"رومولو" لا يحير جوابًا، يبدو له ذلك أكثر حكمة، فهو يعرف أن الحديث عن زوج أخته يفقده عقله.

- بكم ستبيعني النقش؟

- حسنًا... بعشرين "پيسيتا". سبق أن قلتُ بخمسة وعشرين، ولكن إن دفعت لي عشرين فهو لك. لقد كلَّفني خمسة عشر "پيسيتا" وظلّ فوق الرفِّ قرابة عام. هل يناسبك بعشرين؟

- إليك، وأعطني "الدورو" المُتبقِّي.

"مارتين" يدسُّ يده في جيبه. يبقى لحظةً بلا حراك، عاقدًا حاجبيه، كالمُتفكِّر. يُخرِجِ المنديل ويضعه فوق ركبتيه.

- أكاد أقسم أن النقود كانت هنا.

"مارتين" يهبُّ واقفًا على قدميه.

- لا أفهم...

يفتِّش جيوب السروال، ويُخرِجِ جوفها خاويًا.

- أية مصيبة ارتكبت! هذا ما كان ينقصني!

- ماذا بك؟

- لا شيء، أفضِّل ألا أفكِّر حتى في الأمر.

"مارتين" يفتِّش جيوب السترة، ويبرز حافظة نقوده العتيقة المهترئة المحشوة ببطاقات الأصدقاء وقصاصات الصحف.

- أخطأتُ خطأ فادحًا!

- هل فقدتَ شيئًا؟

- الخمسة "دورو"...

ـ ١٩٦ ـ

يراود "خوليتا" إحساس غريب. تلاحظ ما يشبه الأسى أحيانًا، فيما تحاول جاهدةً أن تكبح ابتسامتها في أحيان أخرى. تفكِّر:

- الرأس البشري جهاز بعيد عن الكمال. لو تسنَّى للمرء قراءة ما يدور في الرؤوس كما تُقرأ الكتب! كلا، كلا، الأفضل أن يظلَّ كل شيء كما هو، الأفضل ألَّا نستطيع قراءة أية أفكار، وأن نتفاهم مع بعضنا البعض من خلال ما نريد قوله ليس إلا - سحقًا! - حتى وإن كان ما نريد قوله كذبة!

من آن إلى آخر، يروق لـ "خوليتا" أن تتفوّه ببعض الشتائم حين تخلو إلى ذاتها.

ـ ١٩٧ ـ

يسيران عبر الشارع، يدًا بيد. يبدو وكأنه خال برفقة ابنة أخته التي اصطحبها في نزهة.

عند مرورهما بحجرة حارس العقار، تشيح الصغيرة برأسها. تمضي مُتفكِّرة، فلا ترى أولى درجات السلم.

- حذار وإلا أذَيْتِ نفسك!

- حسنًا.

دونيا "ثيليا" تخرج لفتح الباب.

- أهلاً، دون "فرانثيسكو"!

ـ أهلاً يا صديقتي! دعي الفتاة تدخل، فأنا أريد التحدُّث إليكِ.

- عظيم! ادخلي من هنا يا ابنتي، واجلسي حيثما شئتِ.

الصغيرة تجلس على حافة أريكة مفروشة بالأخضر. تبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا ويبرز نهدها قليلاً كوردة دقيقة على وشك التفتُّح. تُدعَى "ميرثيديتاس أوليبار بايبخو" في حين تدعوها صديقاتها "ميرتشيه" اختفت عائلتها إبان الحرب. لقي البعض حتفه، في حين هاجر البعض الآخر. "ميرتشيه" تعيش مع إحدى نسيبات جدتها، وهي سنيورا عجوز تلتحف بالدانتيلا تمامًا، تلطِّخ وجهها بمساحيق التجميل كالدُّمي، تضع شعرًا مستعارًا وتُدعَى دونيا "كارمن". في الجوار يطلقون على دونيا "كارمن" لقب "شعر الجثة" التحقيري. أما الأطفال في الشارع فيؤثرون تسميتها بـ "الجرادة".

دونيا "كارمن" باعت "ميرثيديتاس" مقابل مائة "دورو" فاشتراها منها دون "فرانثيسكو" صاحب العيادة الشعبية. قالت للرجل:

- الثمار الأولى يا دون "فرانثيسكو" الثمار الأولى! إنها قرنفلة لم تتفتَّح بعد!

وقالت للصغيرة:

- اسمعي يا ابنتي، دون "فرانثيكو" لا يرغب سوى في اللعب، وهو ما ينبغي أن يكون عاجلاً أم آجلاً! ألا تفهمين؟

- ١٩٨ -

كان عشاء آل "مويسيس" ليلتها باعثًا على البهجة. فدونيا "بيسي" تبدو مشرقة و"خوليتا" تبتسم بوجنتين شبه مُتورِّدتين. وبالداخل يمضي الموكب قُدمًا.

تنتقل عدوى البهجة إلى دون "روكيه" وابنتيه الأخريين وإن لم يعلموا لذلك سببًا بعد. ثمة لحظات يفكِّر خلالها دون "روكيه" فيما قالت له "خوليتا" على الدّرَج: "أنا آتية من... من استوديو التصوير" فترتعش الشوكة في يده قليلاً، ولا يجرؤ على النظر إلى ابنته حتى يتجاوز تلك الأفكار.

- ١٩٩ -

مستلقيةً على الفراش، تتأخَّر دونيا "بيسي" في النوم، ورأسها لا يكفُّ عن الدوران حول الأمر ذاته.

- هل تعرف أن الصغيرة قد أصبح لها حبيب؟

- "خوليتا"؟

- أجل، وهو يدرس حتى يتقدَّم لاختبار القبول لدى الشهر العقاري.

يتقلَّب دون "روكيه" بين الملاءات.

- حسنًا، لا تقرعي أجراس الفرح بعد، فأنتِ مولعة بإذاعة الأسرار على الفور. سنرى كيف يسير كل شيء.

- آه يا رجل! دائمًا ما تكسر مجاديفي!

دونيا "بيسي" تخلد إلى النوم، تغمرها أحلام سعيدة. وبعد ساعات يوقظها جرس دير راهبات فقيرات، يقرع لصلاة باكر.

كانت معنويات دونيا "بيسي" مرتفعة إلى حد ترى معه في كل شيء فأل خير وبشائر سارة ودلائل أكيدة على النعمة والسعادة.

الفصل السادس

ـ ٢٠٠ ـ

الصباح.

بين حلم وحلم، تتناهى إلى سمع "مارتين"حياة المدينة المستيقظة. من أسفل الملاءات، وبرفقة امرأة حية إلى جواره، امرأة حية وعارية، يستأنس "مارتين"بالإنصات إلى صخب المدينة، إلى خفقاتها المهتاجة: عربات جامعي القمامة التي تقطع "فوينكارّال" و"تشامارتين" نزولاً، و"بينتاس" و"لاس إنخورياس" صعوداً، الآتية من مشهد المقابر الموحش الحزين، العربات التي مرَّتْ - إثر ساعات عدة قضتها سيراً في البرد- يجرُّها حصان هزيل، أو حمار رمادي يبدو عليه ما يشبه القلق، بخطًى وئيدة محزونة؛ ونداءات البائعات ممن يستيقظن فجراً وينصبن فرشات الفاكهة الصغيرة بشارع "إل خينيرال پورليير" وأبواق السيارات النائية، المبهمة، الأولى، وصيحات الأطفال الذاهبين إلى المدرسة، يحملون الحقائب على أكتافهم والأطعمة الخفيفة الليِّنة ذات الروائح النفَّاذة في جيوبهم...

وفي البيت، تتردَّد الجلبة الأقرب في عذوبة داخل رأس "مارتين" أما دونيا "خيسوسا" دونيا "خيسوسا" التي تصحو فجرًا ثم تأخذ قيلولتها بعد طعام الغداء تعويضًا عن ذلك، فتشرع في ترتيب أعمال مساعداتها: بعضهن بائعات هوى عجائز انحدر بهن الحال، والبعض الآخر أمهات وربات أسرة يتَّسمن بالودِّ والعذوبة البالغة. في الصباح تعمل لدى دونيا "خيسوسا"سبع مساعدات. بينما تنام الخادمتان حتى موعد الغداء، حتى الثانية عصرًا، في الفراش المتاح، على السرير الغامض الذي خلا من شاغليه قُبَيْل ذلك، (وكأنه قبر خاوٍ، من يدري!)، تاركًا بحرًا عميقًا من التعاسة حبيسًا بين أعمدة السرير الحديدية، مُحتفظًا بين وبر الفراش بأنَّات الزوج الشاب الذي خان زوجته لأول مرة من دون أن يدرك ما هو فاعل... خان زوجته الشابة الفاتنة مع ساقطة نكرة لها جسم مُغطًّى بالقرح والبثور كالبغال... زوجته التي ترقَّبَتْ عودته مستيقظة شأنها كل ليلة، تمارس أشغال التريكو على نيران المجمر شبه الخابية، تؤرجح مهد الطفل بقدمها، تقرأ رواية غرامية طويلة لا تنتهي، تفكِّر في إستراتيجيات اقتصادية عويصة مُعقَّدة سوف تتيح لها شراء زوج من الجوارب، بقليل من الحظ.

دونيا "خيسوسا" وهي صورة مُجسَّدة للنظام، تباشر توزيع المهام على مساعداتها. في بيت دونيا "خيسوسا" تُغسَل أغطية الأسرَّة كل يوم. لكل سرير طاقمان كاملان، يُرتَق كل طاقم بعناية بالغة حين يُحدِث فيه أحد الزبائن خرقًا، عن عمد أحيانًا (فللناس فيما يفعلون مذاهب). في الوقت الراهن، لا توجد أغطية أسِرَّة مُتاحة للشراء: يُمكن العثور على ملاءات وأكياس وسائد في سوق الثياب المستعملة، إلا أن أسعارها غير معقولة.

دونيا "خيسوسا" لديها خمس عاملات غسيل وعاملتا كيٍّ، يعملن من الثامنة صباحًا حتى الواحدة ظهرًا. تتقاضى الواحدة منهن ثلاثة "پيسيتا" إلا أن العمل لا يقتل. تتميَّز عاملتا الكيِّ بأيدٍ هي الأكثر نعومةً، وتضعان مُلمِّع شعر، وتأبيان الاستسلام للشيخوخة. كلاهما رقيقة الصحة، طعنت

في السن قبل الأوان. كلاهما باعت جسدها وهي لا تزال في عمر الطفولة تقريبًا. لم يتسنَّ لهما الادخار. والآن، حان الوقت كي تدفعا ثمن العواقب. تغنِّيان في أثناء العمل شأن الجداجد، وتشربان بغير حساب شأن رُقَباء سلاح الفرسان.

إحداهما تُدعَى "مارجاريتا" وهي ابنة رجل عمل في حياته حمالاً بمحطة "لاس ديليثياس" في الخامسة عشرة من العمر حظيتْ بعشيق يُدعَى "خوسيه" لم تعرف عنه أكثر من ذلك. كان مولعًا بالرقص في المطاعم المفتوحة بـ "لا بومبِيًا"(١) أخذها يومًا إلى جبل "إل پرادو"ثم هجرها. بدأت "مارجاريتا" في العمل بالدعارة، وبلغت بها الحال أن راحت تجرجر حقيبتها عبر حانات"أنطون مارتين"(٢) أما ما تلا ذلك فهو بالغ البذاءة، أكثر وأشد بذاءة مما تقدَّم.

والأخرى تُدعَى "دوريتا" ضلَّلها طالبٌ إكليريكي من بلدتها خلال إجازة له. كان الطالب الإكليريكي، الذي توفي بالفعل، يُدعَى "خصية ألبا"ويُعدُّ اسمه دعابة ثقيلة أطلقها أبوه الذي كان رجلاً بالغ الفظاظة. إذ راهن أصدقاءه على وجبة عشاء إن هو دعا ابنه "خصية" وكسب الرهان. يومَ معمودية الطفل سكر أبوه، دون "إستانيسلاو ألبا" وأصدقاؤه سُكرًا شديدًا. فراحوا يهتفون بموت الملك وحياة الجمهورية الفدرالية. أما والدة الطفل المسكينة، دونيا "كونتشيتا إيبانييث" التي كانت أشبه بالقديسات، فأجهشت بالبكاء، وما كان منها إلا أن جعلت تقول:

- آهٍ، أي عار، أي عار! زوجي مخمور في يوم سعيد كهذا!

مرَّت السنون، ومع ذلك كانت تتحسَّر كلما حانت ذكرى معمودية ابنها قائلةً:

---

(١) "لا بومبِيًا": منطقة قريبة من نهر "مانثاناريس" في مدريد، حيث كانت تنتشر المطاعم الشعبية وتُقام الحفلات الراقصة والمهرجانات.

(٢) شارع "أنطون مارتين": في تلك الحقبة، انتشر بمحيط الشارع المُشار إليه عدد ضخم من المقاهي حيث راج نشاط الدعارة إلى حد كبير.

- آهٍ، أي عار، أي عار! زوجي مخمور في يوم سعيد كهذا!

أما الطالب الإكليريكي، الذي أصبح كاهنًا بكاتدرائية "ليون" في وقت لاحق، فبينما هو يُطلِع "دوريتا" على بضعة رسوم ذات ألوان صارخة تُصوِّر معجزات "سان خوسيه كالاسانث" أخذها إلى ضفاف نهر "كوروينيو" وهناك، في أحد المروج، جرى كل ما كان مُقدَّرًا له أن يجري. "دوريتا" والطالب الإكليريكي كانا من "بالديتيخا" من أنحاء مقاطعة "ليون"سارَتْ الفتاة برفقته، فيما يحدِّثها هاجس بأنها على دربٍ نهايته أبعد ما تكون عن الخير. وعلى الرغم من ذلك فقد تركت نفسها تنقاد، ومضت شبه غافلة.

أنجبت "دوريتا" ابنًا، فأحجم الطالب الإكليريكي عن لقائها عند عودته إلى البلدة في إجازة أخرى. كان يقول:

- إنها امرأة شريرة من ذرية الشيطان، قادرة على تضليل أعظم الرجال اعتدالاً بما لها من حيل ماكرة. فلنغضّ عنها البصر!

طُردَت "دوريتا"من بيتها فقضَتْ زمنًا هائمةً، من بلدة إلى بلدة، وطفلها على صدرها. قضى الصغير نحبه ذات ليلة بكهف على نهر "بوريخو" في مقاطعة "پالينثيا" لم تبُح الأم بشيء لأحد. علَّقَتْ بضعة أحجار على رقبته وألقت به إلى النهر ليلتهمه السلمون المُرقَّط. وفي وقت لاحق، حين لم يعُد ثمة ما يُمكن فعله، أجهشت بالبكاء وقضت خمسة أيام بداخل الكهف، لا ترى أحدًا ولا تذوق الطعام.

كانت "دوريتا" في السادسة عشرة من العمر، وتبدو بمظهر حالم حزين يليق بكلب لا صاحب له، بحيوان ضال.

قضَتْ زمنًا في بيوت دعارة "بايَّادوليد" و"سالامانكا" رخيصةً كقطعة أثاث مُهشَّمة - إلى أن ادَّخرت ما يكفي لتكاليف الرحلة وجاءت إلى العاصمة. وهنا عملت في بيت دعارة بشارع "لا ماديرا"على اليسار نزولاً،

كان يُلقَّب بـ "عُصبة الأمم" نظرًا لوجود عدد كبير من الأجنبيات به: فرنسيات، بولنديات، إيطاليات، روسية واحدة، بضع برتغاليات سمراوات ولهن شوارب، ولا سيما فرنسيات، عدد كبير من الفرنسيات: ألزاسيات قويات لهن مظهر راعيات البقر، نورمانديات صادقات يبعن أجسادهن لتوفير ما يكفي لفستان العرس، باريسيات رقيقات الصحة - بعضهن له ماضٍ مبهر- يضمرن شعورًا دفينًا بالاحتقار للسائق، وللتاجر الذي يُبرز السبعة "پيسيتا" من جيبه.

أخرجها من ذلك البيت دون "نيكولاس دي پابلوس" ثري من "بالديپينياس" تزوَّجها زواجًا مدنيًا.

كان دون "نيكولاس" يقول لابن أخيه "پيدريتو" (الذي كان يكتب أشعارًا راقية للغاية ويدرس الفلسفة والآداب):

- إن ما أرغب فيه امرأة شبقة لها جسم مكتنز بالأرطال، امرأة تُمتعني، هل تفهم مقصدي؟ امرأة ممتلئة لها ما يُمكن للواحد أن يتحسَّسه بيديه. أما فيما عدا ذلك فمجرد أسطوانات مشروخة وكلام إنشاء.

أنجبَتْ "دوريتا" ثلاثة أبناء لزوجها، غير أن ثلاثتهم وُلدوا موتى. كانت المسكينة تلد بالعكس: فيخرج الأبناء من رحمها بأقدامهم، ويختنقون في طريقهم للخروج، بالطبع.

غادر دون "نيكولاس" إسبانيا عام ١٩٣٩ نظرًا لما أشيع عنه من كونه ماسونيًا، ثم لم يُعرف عنه أكثر من ذلك قط. لم تكُن "دوريتا" تجرؤ على الاقتراب من عائلة الزوج، فما إن نفدت النقود القليلة المُتوفِّرة في البيت حتى عادت إلى بيع جسدها، وإن لم يحالفها النجاح تلك المرة. فمهما سعت ومهما حاولت أن تُبدي من الودّ، لم تنجح في أن يكون لها زبائن دائمون. كان ذلك في مطلع الأربعينيات، و"دوريتا" لم تعُد طفلة بأية حال، أضف إلى ذلك كثرة المنافسات: فتيات كثيرات في مقتبل العمر وفي

أحسن حال، وشابات كثيرات يُقبلن على ذلك بلا أجر، على سبيل التسلية، فيحرمن أخريات من لقمة العيش.

مضت "دوريتا" تتعثَّر في أنحاء مدريد حتى تعرَّفت على دونيا "خيسوسا".

ـ أبحث عن عاملة كيٍّ أخرى جديرة بالثقة، تعالي معي. ليس عليكِ سوى تجفيف الملاءات وفردها قليلاً. سأدفع لكِ ثلاثة "بيسيتا" يوميًا، ولكنه عمل مضمون كل يوم. كما أنكِ لن تكوني مشغولة في المساء ولا في الليل.

في المساء، كانت "دوريتا" تصحب سنيورا مقعدة في جولة عبر منتزه "ريكوليتوس" أو لسماع الموسيقى قليلاً بمقهى "ماريا كريستينا". كانت السنيورا تعطي "دوريتا" اثنين "بيسيتا" وتطلب لها قهوة بالحليب، في حين كانت هي تحتسي الشكولاتة الساخنة. كانت السنيورا تُدعَى دونيا "سالبادورا" سبق لها العمل بوصفها قابلة. كانت عكرة المزاج، تتذمَّر وتتأفَّف دومًا. كانت تسبُّ وتلعن باستمرار وتقول إنه لا بد من إضرام النيران في هذا العالم، فلا نفع يرجى منه. كانت "دوريتا" تتحمَّلها وتُعقِّب على كل شيء بقولها "آمين" إذ ينبغي لها أن تحافظ على أجرها وقهوتها المسائية.

وفي الليل، كانت المرأة المسكينة تُقدِّم بعض خدماتها أحيانًا للجنود وطلبة الجامعات خلف سياج منتزه "إل ريتيرو" ـ بأصابع مُثلَّجة وذهن شارد ورِقَّة لامتناهية في الفؤاد- فتجمع بذلك مبلغًا قد يصل إلى ثلاثة أو أربعة "بيسيتا" وبعد ذلك تتمشَّى وصولاً إلى شارع "ماركيس دي ثافرا" على الجانب الآخر من منتزه "روندا" أو تستقلُّ المترو إلى "مانويل بيثيرًا" إذا كان الجو قارس البرودة، في طريقها إلى الفراش.

تغنِّي عاملتا الكيِّ في أثناء العمل وتضربان الملاءات المرفوَّة بالمكواة، كلٌّ منهما على منضدة. وتتجاذبان أطراف الحديث أحيانًا.

- بالأمس بعتُ حصة التموين، فأنا لا أريدها. بعتُ ربع كيلو السكر بأربعة "پيسيتا" وخمسين "سنتًا" وربع لتر الزيت بثلاثة "پيسيتا"والمائتي جرام من الفاصوليا باثنين... كانت تغصٌ بالديدان. أما القهوة فأحتفظ بها لنفسي.

- أما أنا فقد أعطيتُ حصة التموين كاملةً لابنتي. أنا أعطي كل شيء لابنتي، التي تدعوني على الغداء مرة كل أسبوع.

ومن مكانه في العُلّيَّة، ينصت "مارتين" إلى صوتهما. لا يميِّز ما تقولان، بل يسمع غناءهما النشاز، وضرباتهما فوق المنضدة. استيقظ "مارتين" منذ وقت طويل بالفعل، غير أنه لم يفتح عينيه. يؤثر الإحساس بـ "پورا" التي تقبِّله بعناية من آن إلى آخر، متظاهرًا بالنوم لئلاّ يضطرّ للحركة. ينتبه إلى شعر الفتاة على وجهه، ينتبه إلى جسمها العاري أسفل الملاءات، ينتبه إلى الأنفاس الخارجة مصحوبة بغطيط خافت أحيانًا، على نحو لا يُدرَك تقريبًا.

وهكذا يمرٌ وقت أطول: تلك هي الليلة السارة الوحيدة التي قضاها منذ أشهر طوال. والآن يشعر وكأنه قد وُلد من جديد، وكأنه قد صغُر عشرة أعوام، وكأنه فتى صغير. يبتسم ويفتح إحدى عينيه، رويدًا رويدًا.

"پورا" تحدق فيه مُتَّكِئة بمرفقيها على الوسادة. تراه يستيقظ فتبتسم هي الأخرى.

- هل نمتَ جيِّدًا؟

- جيدًا جدًا، "پوريتا". وماذا عنكِ؟

- وأنا أيضًا. يروق لي النوم مع رجال مثلك، فأنتم لا تزعجون الواحدة إطلاقًا.

- اسكتي. تحدَّثي في شأن آخر.

- كما شئت.

أطرقا بضع لحظات. قبَّلته "پورا" مُجدَّدًا.

- أنت رومانسي.

"مارتين" يبتسم فيما يشبه الحزن.

- كلا. بل مجرد عاطفي.

"مارتين" يربت على وجهها.

- أنتِ شاحبة، تبدين كعروس.

- لا تكُن ساذجًا.

- بالفعل، كعروس جديدة...

فقالت "پورا" بلهجة جادة:

- لستُ كذلك!

"مارتين" يلثم عينيها في رهافة، كشاعر في السادسة عشرة.

- في رأيي أنكِ كذلك "پورا!" بكل تأكيد!

أما الفتاة فتبتسم بشجن مُستكين، يغمرها شعور بالامتنان.

- إذا كان هذا رأيك! لا بأس بذلك!

استقام "مارتين" في جلسته على السرير.

- هل تعرفين سوناتا لـ "خوان رامون خيمينيث" مطلعها: "صورة سامية رقيقة للسلوان"؟

ـ كلا. من هو "خوان رامون خيمينيث"؟

ـ شاعر.

- هل كان ينظم أشعارًا؟

- بالطبع.

"مارتين" ينظر إلى "پورا" فيما يشبه الحنق، للحظة واحدة فحسب.

- سترين:

"صُورةٌ سامية رقيقةٌ للسُّلوان،

فَجْرٌ طلعَ على بحار أحزاني،

زَنْبقةُ سلامٍ تنشرُ أريجَ النَّقاء،

ثَمَنٌ سماويٌّ عن طُولِ آلامي! (*)"

ـ ما أحزنه، وما أجمله!

- هل يعجبك؟

- بالطبع يعجبني!

- سأتلو عليكِ البقية يومًا.

ـ ٢٠١ ـ

سنيور "رامون" يغتسل عاري الجذع، بطست مُقعَّر من المياه الباردة.

سنيور "رامون" رجل قوي، شديد، رجل ذو شهية مفتوحة، لا يصاب بنزلات البرد، يحتسي كؤوس من الشراب، يلعب الدومينو، يقرص مؤخرات الخادمات، يصحو فجرًا، رجل عمل طيلة حياته.

سنيور "رامون" ليس بطفل صغير. الآن وقد أصبح ثريًا، لم يعُد يُطلُّ على الفرن ذي الرائحة الفواحة المُضرّ بالصحة حيث يُطهَى الخبز. منذ الحرب لم يعُد يغادر المتجر، حيث يستقبل زبائنه بأناةٍ فائقة ويسعى لإرضاء سائر الزبونات، واضعًا نظامًا دقيقًا ومفعمًا بالحيوية لتقديم

(*) المقطع الأول من سوناتا للشاعر "خوان رامون خيمينيث" (١٨٨١ - ١٩٥٨)، من كتاب "اسوناتات روحية". تجدُر الإشارة إلى وجود اختلاف طفيف، إذ ينتهي المقطع الأصلي بعبارة: "هبة سماوية عن طول آلامي". ولا يُعرف على وجه التحديد إن كان ذلك التغيير مُتعمَّدًا أم غير مقصود.

خدماته وفقًا للفئة العمرية، المكانة، الوضع، بل وحتى المظهر.

سنيور "رامون" له شعر صدر أشيب.

ـ٢٠٢ـ

ـ قومي يا صغيرة! كيف تبقين في الفراش حتى هذه الساعة، كما لو كنتِ سنيوريتا!

تنهض الفتاة من دون أن تنبس بكلمة واحدة، وتغتسل في المطبخ قليلاً.

في الصباح، تسعل الفتاة سعالاً خفيفًا، يكاد يكون غير ملحوظ. أحيانًا تصاب بنزلة برد فيصبح سعالها أكثر خشونة، وكأنه أكثر جفافًا.

- متى تتركين ذلك المريض بالسل؟

هكذا تبادرها أمها بالسؤال صبيحة بعض الأيام.

أما الفتاة -العذبة كالأزهار، التي تترك بتلاتها تتفتَّح من دون أن تندَّ عنها صرخة واحدة- فتحتدم بداخلها رغبة في قتل أمها.

تهمس بصوت خفيض:

- لن أفعل حتى وإن تمزَّقتِ إربًا أيتها الحية الشريرة!

"بيكتوريتا" بمعطفها القطني الخفيف، تهرول إلى مطبعة "إل پروبينير" بشارع "لا ماديرا" حيث تعمل في التغليف واقفةً على قدميْها طوال اليوم.

في بعض الأحيان، تحسُّ "بيكتوريتا" بالبرد أكثر من المعتاد، وبرغبة في البكاء، رغبة جارفة في البكاء.

ـ٢٠٣ـ

دونيا "روسا" تصحو في وقت مُبكِّر إلى حد كبير، فتحضر قداس السابعة كل يوم.

دونيا "روسا" تنام في هذا الوقت من العام بقميص نوم يقيها من البرد، قميص نوم مصنوع من قماش الفانلة ابتكرته بنفسها.

دونيا "روسا" في طريق عودتها من الكنيسة، تشتري بضع أصابع "تشورُّو" مقلية، وعبر الباب القائم في مدخل البناية تدلف إلى مقهاها مقهاها الذي يشبه مقبرة مهجورة، حيث رُصَّت الكراسي رأسًا على عقب فوق الطاولات وغُطِّيَ كلٌّ من البيانو وماكينة القهوة - ثم تصُبُّ لنفسها كأسًا ضخمة من شراب "الأوخين" وتتناول فطورها.

دونيا "روسا" فيما تتناول فطورها، تفكِّر في الأيام غير المأمونة، في الحرب التي أوشك أن يخسرها الألمان (لا سمح الرب!)، في النُّدُل والمدير وساقي القهوة والعازفين، بل وحتى صبي المشاوير، الذين تزيد مطالبهم ومطامحهم وغطرستهم يومًا بعد يوم.

دونيا "روسا" بين رشفة وأخرى من شراب "الأوخين" تتحدَّث إلى نفسها بصوت خفيض، بكلام يكاد يكون بلا معنى، بلا داع، كيفما اتَّفق.

- ولكني أنا الآمر الناهي هنا، شئتم أم أبيتم! إن شئت صببت لنفسي كأسًا أخرى، ولست مُضطرَّة لتقديم حساب عن أفعالي لأحد. إن شعرت برغبة في ذلك، قذفت المرآة بقنينة. وإن لم أفعل فلأنني لا أشعر برغبة في ذلك. إن شئت أغلقت المقهى إلى الأبد، فلا يُقدَّم فنجان قهوة واحد في هذا المكان، ولا حتى للرب ذاته. كل هذا ملكي، وكلَّفني بناؤه من الجهد الكثير.

في الصباح الباكر، تشعر دونيا "روسا" بأن المقهى ملك لها أكثر من أي وقت آخر.

- المقهى عندي كالقط، الفارق الوحيد أنه أكبر حجمًا. ولأن القط ملكي، فإن شئت أطعمته نقانق "المورتِيًّا" وإن شئت قتلته ضربًا بالعصا.

ـ ٢٠٤ ـ

ينبغي لدون "روبرتو جونثاليث" الأخذ في الحسبان أن المدة التي يقطع خلالها المسافة من بيته إلى مجلس المدينة سيرًا على الأقدام تُقدَّر بما يزيد على نصف ساعة.

دون "روبرتو جونثاليث" يذهب إلى الأنحاء كافة سيرًا على الأقدام، ما لم يكُن منهكًا للغاية. فبالسير يفرد ساقيه ويوفِّر على الأقل عشرين "سنتًا" في اليوم الواحد، أي ستة وثلاثين "پيسيتا" شهريًا، أي نحو تسعين "دورو" سنويًا.

دون "روبرتو جونثاليث" يتناول فنجانًا من قهوة الشعير بالحليب الساخن ونصف رغيف من الخبز على الفطور. أما النصف الآخر فيضيف إليه قليلاً من الجبن "المانتشيجو" ويأخذه لتناوله عند منتصف النهار.

دون "روبرتو جونثاليث" لا يتذمَّر، فهناك من هم أسوأ حالاً. وعلى الرغم من كل شيء، فهو بكامل صحته، والصحة تأتي في المقام الأول.

ـ ٢٠٥ ـ

الطفل مُغنِّي الفلامنكو ينام أسفل جسر بالطريق المؤدية إلى المقابر. الطفل مُغنِّي الفلامنكو يعيش مع ما يشبه أسرة غجرية، حيث يتدبَّر كل فرد من أفرادها حاله بأفضل السبل المتاحة أمامه، بمطلق الحرية والاستقلالية.

الطفل مُغنِّي الفلامنكو يتعرَّض للبلل حين تهطل الأمطار، ويتجمَّد إن اشتدَّ البرد، وتلفحه حرارة شهر أغسطس في ملاذه الهزيل تحت ظلال الجسر: إنه ناموس رب سيناء القديم.

الطفل مُغنِّي الفلامنكو له قدم ملتوية بعض الشيء، إذ سقط وتدحرج على رقعة أرض اجتُثَّت أشجارها، فشعر بألم حاد، وظل يعرج على قدمه زمنًا...

ربتَتْ "پوريتا" على وجه "مارتين".

ـ في جيبي ما يزيد على "دورو" بقليل، هل تريدني أن أطلب شيئًا للفطور؟

مع إحساسه بالسعادة فَقدَ "مارتين" خجله، كما يجري للجميع عادةً.

- حسنًا.

- ماذا تريد، قهوة وبضع أصابع "تشورّو" مقلية؟

ضحك "مارتين" قليلاً، كان منفعلاً للغاية.

- كلا، بل قهوة وقطعتين من الكعك السويسري، أتوافقين؟

- أوافق على أي شيء تريد.

قبّلته "پوريتا"؟ أما "مارتين" فقفز من فوق السرير، دار في الحجرة مرتين، ثم استلقى مرة أخرى على السرير.

- أعطيني قبلة أخرى.

- لك كل ما تشاء من القُبَل.

وبمطلق الوقاحة أخرج "مارتين" المظروف حيث يحتفظ بأعقاب السجائر ولفَّ سيجارة. لم تجرؤ "پوريتا" على التفوُّه بكلمة واحدة. لاح في نظرات "مارتين" ما يشبه بريق النصر.

- هيا، اطلبي الفطور.

وضعت "پوريتا" ثوبها على اللحم وخرجت إلى الردهة. أما "مارتين" فما كاد يخلو إلى نفسه حتى قام من مكانه وأخذ يطالع صورته في المرآة.

ـ ٢٠٧ ـ

نامت دونيا "مارجوت" نومتها الأخيرة، مفتوحة العينين، فوق الرخام البارد، رخام إحدى مناضد المشرحة. موتى المشرحة لا يبدون بشرًا موتى، بل دمًى صرعَى، أقنعة توقُّف الزنبرك الذي يحرِّكها.

إن دمية نُحِر عنقها أدعَى للحزن من إنسان لقي حتفه.

ـ ٢٠٨ ـ

سنيوريتا "إلبيرا" تصحو مُبكِّرًا، وإنْ ليس عند مطلع الفجر. سنيوريتا "إلبيرا" يروقها أن تبقى في الفراش، ملتحفة بأغطيتها جيدًا، تفكِّر في أمورها أو تقرأ رواية "ألغاز باريس" فلا تُخرِج يدها من تحت الأغطية سوى قليل لتمسك بالمجلد المهترئ، المُشحَّم، السميك.

ـ ٢٠٩ ـ

يطلع الصباح رويدًا رويدًا، مُتسلِّقًا كالدودة أفئدةَ رجال المدينة ونسائها، وبما يشبه التدليل يدقُّ على العيون المستيقظة لتوِّها. تلك العيون التي لا تتبيَّن أبدًا آفاقًا جديدة، ولا مناظر جديدة، ولا مشاهد جديدة.

الصباح، ذلك الصباح الذي يتكرَّر أبدًا، ورغم ذلك يلهو قليلاً بتغيير وجه المدينة، تلك المقبرة، ذلك العمود المُشحَّم(*) أو خلية النحل تلك...

فليتغمدنا الرب برحمته قاطبةً!

(*) العمود المُشحَّم، أو ما عُرِف باسم "كوكانيا": لعبة تاريخية ظهرت في القرن السادس عشر وانتشرت في إسبانيا وبلدان أمريكا اللاتينية، حيث يتبارى المتسابقون في تسلُّق عمود مُشحَّم يبلغ طوله قرابة خمسة أمتار. ويفوز من يبلغ القمة بمبلغ من النقود أو نبيذ أو طعام... إلخ.

الخاتمة

ـ ٢١٠ ـ

مـرَّتْ ثلاثة أو أربعة أيام. الهواء يكتسي بشيء من ألوان عيد الميلاد. وفوق مدريد، التي تشبه نبتة عجوز ذات جذوع غضة خضراء، يُسمَع أحيانًا، بين غليان الشارع، رنين الأجراس العذب، رنين الأجراس الحاني، آتيًا من إحدى الكنائس الصغيرة. تتقاطع طرق الناس وهم في عجلة من أمرهم. لا أحد يفكر فيمن بجواره، في ذلك الرجل الذي ربما يمضي خافضًا بصره، مقروح المعدة، أو مصابًا بكيس مائي في الرئة، أو يعاني من تلفٍ في صواميل رأسه...

ـ ٢١١ ـ

دون "روبرتو" يطالع الجريدة فيما يتناول فطوره، ثم يذهب ليودِّع زوجته "فيلو" التي لم تبرح فراشها، تكاد تكون مريضة.

- لقد قرأتُ الخبر، الأمر واضح تمامًا. ينبغي عمل شيء من أجل هذا الفتى، فكِّري في شيء. إنه لا يستحقّ، ولكن، على الرغم من كل شيء...!

"فيلو" تبكي بينما يقف اثنان من أبنائها إلى جوار الفراش، يراقبان في غير فهم: اغرورقت عيناها بالدموع، بينما ارتسم على وجهها تعبير حزين مبهم، يكاد يكون تائهًا، كذلك الذي يبدو على نعجة صغيرة ما زالت تتنفس -فيما تتصاعد الأبخرة من دمائها المسفوكة فوق البلاط - بينما تلعق بلسانها الأخرق، لسان اللحظات الأخيرة، الوَسَخَ العالق بمئزر الجزَّار الذي ينحرها في غير اكتراث، شأنه شأن القضاة: واضعًا عقب السيجارة بين شفتيه، وفِكْرُه مُعلَّق بخادمة، وصوته العكِر يهمهم بأغنية من أوبريت "تارثويلا".

-٢١٢-

إن أحدًا لا يذكر الراحلين ممن مضى عليهم عام تحت التراب.

في محيط العائلة، يسمع المرء قائلاً يقول:

- لا تنسوا، غدًا ذكرى وفاة ماما المسكينة.

ودائمًا ما تكون إحدى أخوات الراحلة، وأعظمهن حزنًا، هي التي تذكر تاريخ رحيلها...

-٢١٣-

دونيا "روسا" تذهب كل يوم إلى "لا كورِّيديرا" للتسوُّق، تسير خلفها الخادمة. دونيا "روسا" تذهب إلى السوق بعد الانهماك في شؤونها بالمقهى، حيث تذرع المكان جيئة وذهابًا، فيما تباشر أعمالها. دونيا "روسا" تؤثر الانقضاض على فرشات الباعة حين يخفُّ إقبال الناس على السوق، آخر النهار.

في السوق تلتقي أحيانًا بأختها. دونيا "روسا" تسأل دائمًا عن بنات أختها. ذات يوم قالت لدونيا "بيسي":

ـ وماذا عن "خوليتا"؟

ـ لا جديد.

- تلك الفتاة ينقصها حبيب!

وذات يوم آخر - منذ بضعة أيام مضَتْ- رأت دونيا "بيسي" أختها، دونيا "روسا" فاقتربت منها مشرقةً من البهجة.

- هل تعرفين أن الصغيرة أصبح لها حبيب؟

- فعلاً؟

- فعلاً.

- وكيف الحال؟

- رائع يا عزيزتي، أشعر بسعادة جارفة.

- حسنًا، حسنًا، أتمنَّى أن يبقى الوضع على ما هو عليه وألاّ تسوء الحال...

- ولماذا تسوء الحال يا امرأة؟

- وما أدراني! هكذا هم أبناء اليوم!

- آهٍ، "روسا"! هكذا أنتِ دائمًا، ترين كل شيء بمنظار أسود!

- كلا يا امرأة، كل ما هنالك أنني أحبُّ التحقُّق من الأمور أولاً. وإن سارت على ما يُرام، فذلك أفضل وأفضل!

- فعلاً.

- وإن لم يكُن...

- وإن لم يكُن ذلك، سوف يأتي غيره... وفق ما أرى.

- أجل، ما لم يتسبَّب ذلك في مصيبة لها!

ما زالت هناك عربات ترام حيث يجلس الناس وجهًا لوجه، في صفين طويلين يتأمَّل كل منهما الآخر بأناة، بل وبفضول.

- إن لذلك المسكين وجه زوج مخدوع، أغلب الظن أن زوجته ولَّتْ هاربة مع أحدهم، ربما هربَتْ مع متسابق دراجات، أو من يدري، ربما هربَتْ مع موظف بقسم التموين.

وإذا كان المشوار طويلاً، تبلغ الحال بالناس إلى أن يشعروا بالعطف نحو بعضهم البعض.

حتى وإن بدا غير ذلك، فإننا نشعر بالأسف قليلاً لأن تلك المرأة التي بدت في منتهى البؤس قد ترجَّلتْ عن الترام في شارع ما، ولأننا لن نعود لرؤيتها أبدًا... من يدري إن كنا لن نعود لرؤيتها مدى الحياة!

- لا بد أنها تمرُّ بظروف عصيبة، ربما كان زوجها عاطلاً عن العمل، وربما كان لديهما من الأبناء ما يفيض عن حاجتهما.

دائمًا ما تكون هناك سنيورا شابة، مكتنزة، مُزيَّنة، تختال في ثيابها، تحمل حقيبة ضخمة من الجلد الأخضر، وحذاء من جلد الثعبان، وترسم شامة على خدها.

- يوحي مظهرها بأنها زوجة مُستَرهِن ثري، أو بأنها عشيقة طبيب، فالأطباء يختارون عشيقات لافتات للأنظار دومًا، يبدو وكأنهم يريدون أن يقولوا للجميع: "ما رأيكم! ها! هل أمعنتم النظر؟ صنف من الدرجة الأولى!"

"مارتين" قادم من "أتوتشا" عند بلوغه "بينتاس" يترجَّل عن الترام ويمضي عبر الطريق الشرقية سيرًا على الأقدام. يذهب إلى المقابر لزيارة أمه، دونيا "فيلومينا لوبيث دي ماركو" التي توفيت منذ زمن، قُبَيْل عشية عيد الميلاد بأيام.

ـ ٢١٥ ـ

"پابلو ألونسو" يطوي الجريدة ويدقُّ الجرس. "لاوريتا" تسحب الغطاء على جسمها، ما زالت تشعر بالخجل قليلاً حيال رؤية الخادمة لها في الفراش. فعلى الرغم من كل شيء، ينبغي الأخذ في الاعتبار أنه لم يمضِ على سكناها في البيت أكثر من يومين. أما البنسيون القائم بشارع "پريثيادوس" الذي انتقلت إليه بعد أن غادرت مسكن حارس العقار بشارع "لاجاسكا" فكان أسوأ مما ينبغي!

– هل لي أن أدخل؟

– تفضلي. سنيور "ماركو" موجود؟

– كلا، سنيور. لقد غادر منذ بعض الوقت. طلب مني ربطة عنق سوداء للحداد من ربطاتك القديمة، سنيور.

– هل أعطيتِها له؟

– أجل، سنيور.

– حسنًا. أعِدِّي لي الحمام.

الخادمة تغادر الحجرة.

– "لاوريتا" عليَّ أن أخرج. يا للبائس المسكين! هذا ما كان ينقصه!

– فتى مسكين! هل تعتقد أنك ستعثر عليه؟

– لا أدري، سألقي نظرة في مقر البريد أو "بنك إسبانيا" فمن عادته أن يقضي نهاره هناك.

ـ ٢١٦ ـ

من الطريق الشرقية تُرَى أكواخ بائسة، مصنوعة من صفائح قديمة وقطع من ألواح خشبية. يلهو بضعة أطفال بقذف الحجارة على البِرَك

التي خلَّفتها الأمطار. في فصل الصيف، قبل أن تجفَّ ترعة "أبرونييجال" تمامًا، يصطادون الضفادع بالعصي ويبلِّلون أقدامهم بمياه الترعة القذرة ذات الرائحة الكريهة. ثمة نساء يُنَقِّبْن في أكوام القمامة. وعند باب عشَّة، يجلس رجل طاعن في السن، وربما كان مُقعدًا، فوق دلو مقلوب، ناشرًا جريدة مُغطَّاة بأعقاب السجائر تحت أشعة الشمس الدافئة.

- إنهم غَافِلُون، إنهم غَافِلُون...

مضى "مارتين" يفتِّش عن كلمة على وزن "الغار" لتأليف سوناتا مهداة إلى أمه كان قد بدأ في نظمها بالفعل. يفكِّر فيما قيل مرارًا وتكرارًا من أن المشكلة لا تكمن في الإنتاج، بل في التوزيع.

- حقيقةً، إن أولئك أسوأ مني حالاً. يا للهمجية! أية أمور تلك التي تجري!

ـ ٢١٧ ـ

"پاكو" يصل إلى حانة شارع "ناربايث" مختنق الأنفاس وقد تدلَّى لسانه خارج فمه، في حين يقدِّم مالك الحانة، "ثيليستينو أورتيث" كأسًا صغيرة من شراب "الكاثايًّا" للحارس المدني "جارثيا".

ـ الإفراط في شراب الكحول مُضِرٌّ بجزيئات جسم الإنسان، وهي كما أخبرتك ذات مرة مُقسَّمة إلى ثلاثة أنواع: جزيئات دموية، جزيئات عضلية، وجزيئات عصبية. إذ يحرقها الكحول ويؤدِّي إلى فقدان الجسم لها، ومع ذلك فكأس صغيرة من آن إلى آخر مفيدة لتدفئة المعدة...

- أوافقك الرأي.

- ... ولإنارة المناطق الغامضة من المخ البشري.

الحارس المدني "خوليو جارثيا" منبهر.

- يُحكَى أن الفلاسفة القدامى، فلاسفة اليونان وروما وقرطاج، كانوا إذا رغبوا في امتلاك قوى خارقة...

انفتح الباب بعنف فهبَّت دفقة من الهواء المُثلَّج على البار.

- ذلك الباب!

- أهلا، سنيور "ثيليستينو"!

قاطعه مالك الحانة. كان "أورتيث" يراعي مسألة الألقاب بعناية، وكأنه مشروع رئيس قسم التشريفات والمراسم.

- تقصد: "صديقي "ثيليستينو".

-حسنًا، دعك من هذا الآن. هل جاء "مارتين" إلى هنا؟

- كلا، لم يعُد منذ يومها. يبدو أنه قد غضب. أنا مستاء مما جرى، لك أن تصدِّقني.

ولَّى "پاكو" ظهره للحارس المدني.

- انظر. اقرأ ما جاء هنا.

ناوله "پاكو" جريدة مطوية.

- بالأسفل.

"ثيليستينو" يقرأ على مهل، مُقطِّب الجبين.

- خبر شؤم!

- صدقت.

- ماذا تفكِّر أن تفعل؟

- لا أدري. ما رأيك؟ أعتقد أن الحديث إلى أخته خير الأمور، ألا ترى ذلك؟ حبذا لو استطعنا إرساله إلى برشلونة غدًا بلا تأخير!

ـ ٢١٨ ـ

في شارع "تورِّيخوس" يلفظ كلبٌ أنفاسه الأخيرة بحوض شجرة. صدمته سيارة أجرة في منتصف بطنه. عيناه مُتوسِّلتان ولسانه متدلٍّ

خارج فمه. ينكزه بضعه أطفال بأقدامهم، فيما يراقب الاستعراض ما ينيف على العشرين أو الثلاثين شخصاً.

دونيا "خيسوسا" تلتقي بـ "پوريتا بارتولوميه".

ـ ماذا يجري هناك؟

- لا شيء، كلب هجين انقصم ظهره.

- مسكين!

دونيا "خيسوسا" تأخذ بذراع "پوريتا".

ـ أتدرين بأمر "مارتين"

ـ كلا، ماذا به؟

- اسمعي...

دونيا "خيسوسا" تقرأ على "پوريتا"بضعة أسطر من الجريدة.

- وماذا الآن؟

- لا أدري يا ابنتي، أخشى أنه لا خير يرجى من وراء ذلك. هل رأيتِه؟

- كلا، لم أعُد لرؤيته.

يقترب بعض جامعي القمامة من الحشد الذي يراقب الكلب المحتضر، يأخذون بساقيه الخلفيتين ويلقون به إلى جوف العربة. وفيما يحلِّق في الهواء، يعوي الحيوان عواء ألم يائس عميق. ينظر الناس إلى جامعي القمامة هنيهةً ثم ينفضُّ الحشد ويذهب كلٌّ إلى حال سبيله.

ربما كان ثمة طفل شاحب وسط الناس، يتلذَّذ برؤية كيف لم يقضِ الكلب نحبه بعد، فيما يبتسم ابتسامة خبيثة، تكاد تكون لا تُدرك...

"بينتورا أجوادو" يتحدَّث عبر الهاتف إلى حبيبته، إلى "خوليتا".

ـ ولكن، فورًا؟

- أجل يا امرأة، فورًا. بعد نصف ساعة سأكون في محطة مترو "بِلباو" لا تتغيَّبي.

- لن أتغيَّب، اطمئن. وداعًا.



- وداعًا، أرسلي إليَّ بقبلة.

- إليك قبلة أيها المُدلَّل.

بعد مرور نصف ساعة، عند بلوغه فوَّهة محطة مترو "بِلباو" يلتقي "بينتورا" بـ "خوليتا" التي كانت في انتظاره بالفعل.

كانت الفتاة تشعر بفضول هائل، بل وبقليل من القلق أيضًا. ماذا سيجري؟

- هل وصلتِ منذ وقت طويل؟

- كلا، منذ أقل من خمس دقائق. ماذا جرى؟

- سأخبرك الآن، تعالي ندخل إلى هنا.

يدلف العاشقان إلى حانة بيرة ويجلسان في الخلفية، إلى طاولة تكاد تكون غارقة في الظلام.

- اقرئي.

"بينتورا" يشعل عود ثقاب حتى يتسنَّى للفتاة أن تقرأ.

- فعلاً، لقد زجَّ صديقك بنفسه في ورطة عويصة!

- هذا كل ما هنالك، ولذا اتصلتُ بكِ.

"خوليتا" مستغرقة في التفكير.

- وماذا سيفعل؟

- لا أدري، لم أرَه.

تجذب الفتاة يد حبيبها وتسحب نفسًا من سيجارته.

- يا إلهي!

- أجل، المصائب لا تأتي فرادى! خطر لي أنه يجدر بكِ الذهاب لمقابلة أخته التي تسكن بشارع "إيبيثا".

- ولكني لا أعرفها!

- لا يهمّ، قولي لها إنكِ من طرفي. الأفضل أن تذهبي على الفور. هل معكِ نقود؟

- كلا.

- إليك اثنان "دورو". اذهبي وعودي بسيارة أجرة، كلما عجَّلنا بذلك كان أفضل. ينبغي إخفاؤه عن الأنظار، فليس هناك حل آخر.

- أجل، ولكن... ألن نورِّط أنفسنا في المتاعب بذلك؟

- لا أدري، ولكن ليس هناك حل آخر. لو بقي »مارتين« وحده فهو على استعداد أن يرتكب أية حماقة.

- حسنًا، حسنًا، الأمر لك!

- هيا، اذهبي في الحال.

- ما رقم البيت؟

- لا أدري، البيت على ناصية ثاني شارع إلى اليسار، عبر شارع "ناربايث" صعودًا، لا أعرف اسمه... على الرصيف المقابل بعد عبور

الطريق، حيث البيوت ذات الأرقام الزوجية. زوجها يُدعَى "جونثاليث"، "روبرتو جونثاليث".

ـ هل ستنتظرني هنا؟

- أجل. سوف ألتقي بصديق واسع النفوذ، ثم أعود إلى هنا مرة أخرى بعد نصف ساعة.

ـ ٢٢٠ ـ

سنيور "رامون" يتحدَّث إلى دون "روبرتو"، الذي لم يحضر إلى المكتب وطلب إذنًا من رئيسه في العمل عبر الهاتف.

- الأمر عاجل للغاية، دون "خوسيه"، أؤكِّد لك. عاجل للغاية ومؤسف للغاية. كما تعلم فأنا لا أحبُّ التخلُّف عن العمل بلا داعي. إنها مسألة عائلية.

- حسنًا يا رجل، حسنًا. لا تحضر. سوف أطلب من "دياث" أن يلقي نظرة على الدفاتر بدلاً منك.

- شكرًا جزيلاً، دون "خوسيه" جزاك الرب عن ذلك خيرًا. سوف أردُّ جميلك بمثله.

- لا شكر على واجب يا رجل، فنحن هنا جميعًا حتى يساعد بعضنا بعضًا كما يجدر بالأصدقاء المُقرَّبين. أهم ما في الأمر أن تحلَّ مشكلتك.

- شكرًا جزيلاً، دون "خوسيه". آمل ذلك...

سنيور "رامون" يبدو قلِقًا.

ـ "جونثاليث"، إن طلبت مني ذلك سأخفيه عن الأنظار هنا لبضعة أيام، ولكن عليه أن يبحث عن مكان آخر بعد ذلك. لا تُسِئْ فهمي، فأنا الآمر الناهي هنا، ولكن ما إن تكتشف "پاولينا" حقيقة الأمر حتى يجنّ جنونها.

ـ ٢٢١ ـ

"مارتين" يمضي عبر دروب المقابر الطويلة. جالسًا على باب الكنيسة الصغيرة، يقرأ القِسُّ رواية رعاة بقر من الغرب الأمريكي. تحت أشعة شمس ديسمبر الدافئة تزقزق العصافير فيما تثب من صليب إلى صليب، وتتأرجح فوق أغصان الأشجار العارية. تمرُّ طفلة بدراجتها عبر الدرب، تمضي وهي تغنِّي بصوتها الرقيق، أغنية خفيفة، آخر صيحة في الأغاني. والبقية صمتٌ ناعم، صمتٌ باعث على السرور. "مارتين" يشعر بغبطة تفوق الوصف.

ـ ٢٢٢ ـ

"پيتريتا" تتحدَّث إلى مُستخدمتها، إلى سنيوريتا "فيلو".

ـ ماذا بكِ، سنيوريتا؟

– لا شيء، الطفل مريض كما تعلمين.

"پيتريتا" تبتسم ابتسامة حانية.

– كلا، الطفل ليس به شيء. لقد ألمَّ بكِ أمر أسوأ من ذلك، سنيوريتا.

"فيلو" تضع منديلها على عينيها.

– هذه الحياة لا تجلب سوى الغموم يا ابنتي، ما زلتِ صغيرة جدًا على أن تفهمي!

ـ ٢٢٣ ـ

"رومولو" يطالع الجريدة في مكتبة الكتب المستعملة الخاصة به.

"لندن: يعلن راديو موسكو عن انعقاد مؤتمر يجمع بين "تشرشل" و"روزفلت" و"ستالين" في طهران منذ بضعة أيام".

ـ ذلك المدعو "تشرشل" هو الشيطان بعينه! على الرغم من سنوات عمره تجده يقفز من جانب إلى آخر كالديوك!

"مقر "الفوهرر" الرئيسي: في منطقة "جوميل" الواقعة بالقطاع المركزي للجبهة الشرقية، استطاعت قواتنا إجلاء نقاط...".

ـ أوه، أوه! أشتمُّ رائحة مريبة للغاية!

"لندن: الرئيس "روزڤلت" يصل إلى جزيرة مالطة على متن طائرته العملاقة من طراز "دوجلاس".

ـ يا له من رجل! أقطع يدي إن لم يكُن في تلك الطائرة حمام!

"رومولو" يقلب الصفحة ويمرُّ بعينيه على الأعمدة، فيما يشبه التعب. يتوقَّف عند سطور موجزة، متراصَّة في حيِّز ضيق. يجفُّ حلقه وتبدأ أذناه في الطنين.

- هذا ما كان ينقصه! البعض منحوس فعلاً!

ـ ٢٢٤ ـ

"مارتين" يصل إلى مدفن أمه. الحروف ما زالت بحالة جيدة إلى حد كبير: "فلترقد روحها بسلام. دونيا "فيلومينا لوپيث مورينو"، أرملة دون "سِباستيان ماركو فِرنانديث". توفِّيت بمدريد في العشرين من ديسمبر عام ١٩٣٤" "مارتين" لا يذهب لزيارة رفات أمه في ذكراها كل عام. بل يذهب حين يتذكَّر.

يخلع "مارتين" قبعته. يراوده إحساس طفيف بالطمأنينة، يشعر بأنه يبعث في جسده السكينة. ومن فوق سياج المقابر، بعيداً، تتبدَّى أرض منبسطة بُنيَّة اللون حيث ترقد الشمس وكأنها مستلقية على الفراش. الهواء بارد، وإن ليس مُثلَّجًا. أما "مارتين"، فبينما هو ممسك بالقبعة، يحسُّ بربتة خفيفة على جبينه، ربتة تكاد تكون منسية، قديمة، من زمن الطفولة...

يدور بخلده:

- من اللطيف أن يكون المرء هنا، سوف أُكثِرُ من التردُّد على هذا المكان.

أوشك "مارتين" أن يشرع في الصفير، إلا أنه انتبه لنفسه في الوقت المناسب.

"مارتين" يلتفت يمنةً ويسرةً.

"الطفلة "خوسيفينا دي لا بينيا رويث"، انتقلت إلى الأمجاد السماوية في الثالث من مايو عام ١٩٤١ في الحادية عشرة من العمر.»

ـ كالطفلة التي مرَّتْ بالدراجة. ربما كانت صديقة لها. ربما قالت لها قُبَيْل وفاتها بأيام، كما تقول الصغيرات أحيانًا وهن في الحادية عشرة من العمر: "عندما أكبر وأتزوَّج...".

"السنيور الموقَّر دون "راؤول صوريا بوينو". توفِّي بمدريد..."

ـ رجل موقَّر يتعفَّن في جوف صندوق!

"مارتين" ينتبه إلى كون كلامه بلا أساس.

- كلا، كلا. "مارتين" اهدأ!

يرفع بصره من جديد، أما ذاكرته فتنشغل بذكرى أمه. لا يفكِّر في أيامها الأخيرة، بل يراها وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها...

ـ "أبَانَا الذي في السَّماوَات، لِيَتَقَدَّس اسمُك، ليَأتِ ملكوتُك، كما نَغْفِرِ نحن أيضًا للمُذْنِبِين إلينا..." كلا، يبدو لي أن تلك الصلاة ليست هكذا.

"مارتين" يبدأ من جديد فيخطئ مرة أخرى. في تلك اللحظة، كان على استعداد أن يدفع عشر سنوات من عمره حتى يتذكَّر الصلاة الربانية.

يغمض عينيه بقوة. وفجأة يشرع في التلاوة بصوت خافت:

ـ "أمّي التي في القَبْر، أحملُك في أعْمَاقِ قَلْبي، وأسْألُ الربَّ أن يُسْكِنَكِ فسيحَ ملكوتِه الأبَديّ الذي تستحقّين. آمين«

"مارتين" يبتسم. يسعَدُ بالصلاة التي ألَّفها لتوِّه سعادةً جارفة.

ـ "أمّي التي في القَبْر، أسْألُ الربّ..." كلا لم تكُن هكذا.

"مارتين" يقطِّب جبينه.

- كيف كانت الصلاة؟

ـ ٢٢٥ ـ

"فيلو" ما زالت تبكي.

- لا أدري ما العمل. خرج زوجي لمقابلة صديق له. أخي لم يفعل شيئًا، أؤكِّد لكِ ذلك. لا بد أنه مجرد خطأ، لا أحد معصوم من الخطأ. أوضاعه كلها سليمة...

"خوليتا" لا تعرف ماذا تقول.

- أوافقك الرأي، الأرجح أنهم مخطئون. وعلى كل حال، أعتقد أنه يجدر بنا عمل شيء ما، مقابلة شخص ما... في رأيي!

- أجل، دعينا نرَ ماذا يقول "روبرتو" حين يأتي.

يشتدُّ بكاء "فيلو" فجأة، فيبكي الطفل الصغير على ذراعها هو الآخر.

- أما أنا فلا يخطر لي شيء سوى الابتهال لـ "عذراء العون الأزلي"، التي تنجّيني من الضائقات دومًا.

ـ ٢٢٦ ـ

توصَّل "روبرتو" وسنيور "رامون" إلى اتفاق. فبالأخذ في الاعتبار أن مسألة "مارتين" قد لا تكون خطيرة بأية حال، الأفضل له أن يسلِّم نفسه

بلا أدنى تأخير. ما الداعي للهرب ما دام لا يخفي أمرًا ذا أهمية؟ سوف ينتظرون بضعة أيام - يُمكن لـ "مارتين" قضاؤها في بيت سنيور "رامون" بأحسن حال - وبعد ذلك يسلِّم نفسه (ولمَ لا؟) برفقة كابتن "أوبيخيرو"، دون "تيسيفونتيه أوبيخيرو" الذي لن يأبى طلبًا كهذا أبدًا، وهو بمثابة ضمان دائمًا.

- يبدو لي شيئًا عظيمًا، سنيور "رامون". شكرًا جزيلاً. أنت رجل شهم بحق.

- كلا يا رجل، يبدو لي أن ذلك خير الأمور.

- أجل، أوافقك الرأي. صدِّقني، فلقد أزحتَ عن صدري حملًا ثقيلاً...

ـ ٢٢٧ ـ

كتب "ثيليستينو" ثلاث رسائل بالفعل حتى الآن، ويفكِّر في كتابة ثلاث أخرى. تشغله قضية "مارتين".

ـ إن لم يدفع فهو حر، أما أنا فليس بمقدوري أن أتركه هكذا.

ـ ٢٢٨ ـ

"مارتين" يمضي نزولاً عبر الطرق المنحدرة بالمقابر، واضعًا يديه في جيبيه.

- أجل، سوف أرتِّب أموري. وخير وسيلة أن أعمل كل يوم قليلاً. إذا تلقَّيت عرضًا بالعمل في أي مكتب، فسأقبل به. قد أتمكَّن لاحقًا من الكتابة خلال أوقات الفراغ، ولا سيما إذا كانت التدفئة بالمكتب جيدة، حتى وإن لم يكُن ذلك ممكنًا في بادئ الأمر. سأتحدَّث إلى "پابلو" الأرجح أنه يعرف بشأن فرصة ما. لا بد أن العمل لدى النقابات جيد إلى حد كبير، كما أن العاملين هناك يتقاضون رواتب إضافية.

انطمست أم "مارتين" من رأسه وكأنما بممحاة.

- لا بد أن العمل بالمؤسسة القومية للرعاية الاجتماعية جيد جداً بدوره، ولكن، لا بد أن الالتحاق به أكثر صعوبة. إن العمل بتلك الجهات أفضل من البنوك. فالبنوك تستغلُّ موظفيها، من يتأخَّر يومًا يُخصَم من راتبه. ولكن، لا بد أن النجاح في بعض المكاتب الخاصة ليس عسيرًا. كان يناسبني جدًا أن يُعهَد إليَّ بالحملات الدعائية في الصحف: "هل تعاني من الأرق؟ ذلك شأن يخصُّك وحدك! أنت بائس لأنك تريد أن تكون بائسًا! أقراص كذا... (أقراص "ماركو" على سبيل المثال) ستجعلك سعيدًا، ولن تسبِّب لك أية أزمات قلبية!".

يمضي "مارتين" مُتحمِّسًا للفكرة. عند مروره بالبوابة يوجِّه حديثه إلى موظف:

- هل معك جريدة؟ إذا فرغت من مطالعتها سأشتريها منك، أودُّ مطالعة أمر يهمُّني...

- أجل، لقد فرغت منها بالفعل. إليك الجريدة.

- شكرًا جزيلاً.

اندفع "مارتين" خارجًا. جلس على دكَّة بالحديقة الصغيرة عند بوابة المقابر ثم بسط الجريدة.

- أحيانًا تردُ في الصحف تنويهات نافعة جدًا لمن يبحثون عن وظائف.

انتبه "مارتين" إلى كونه مستعجلاً أكثر مما ينبغي وأراد كبح جماح نفسه قليلاً.

- سأطالع الأخبار. وما هو كائن سيكون. كما يقول المثل السائر: بكِّرْ ما شئت أن تبكِّر، فالشمس ليست بمُشرقةٍ قُبَيْل أوانها!

"مارتين" مفتون بذاته.

- اليوم أشعر بالانتعاش وصفاء الذهن! لا بد أنه هواء الأرياف.

"مارتين" يلفُّ سيجارة ويشرع في مطالعة الجريدة.

- الحرب أمر بالغ الهمجية: الكل خاسر ولا أحد يساهم في تقدُّم الثقافة خطوة واحدة إلى الأمام.

أما في دخيلة نفسه، فترتسم ابتسامة، ويمضي من نجاح إلى نجاح.

من حين إلى آخر يفكِّر فيما يطالعه، رانيًا إلى الأفق.

- على كلٍّ... دعونا نتابع!

"مارتين" يقرأ كل شيء، كل شيء يهمُّه، الوقائع الدولية، المقالات المستفيضة، مقتطفات الخطابات، المعلومات الواردة بشأن المسرح، عروض السينما الأولى، الدوري...

بذهابه إلى مشارف المدينة لتنسُّم الهواء النقي، يلاحظ "مارتين" أن الحياة فيها من دقائق الأمور ما هو أرقُّ وأكثر رهافة من العيش غارقًا في المدينة بصفة مستمرة.

"مارتين" يطوي الجريدة اليومية، يحتفظ بها في جيب السترة ثم يشرع في المسير. اليوم يعرف من الأمور أكثر من أي وقت مضى، اليوم يستطيع متابعة أية محادثة بشأن الأحداث الراهنة. قرأ "مارتين" الجريدة من أولها إلى آخرها، تاركًا باب الإعلانات المبوبة لمطالعته بهدوء في أحد المقاهي، إذ ربما اقتضت الحاجة أن يدوِّن عنوانًا أو يتَّصل بأحد أرقام الهاتف. طالع "مارتين" كل ما ورد بالجريدة فيما عدا باب الإعلانات المبوبة والأحكام القضائية وقائمة حصص التموين المُخصَّصة لقُرَى الحزام المحيطة بالمدينة.

عند بلوغه ساحة مصارعة الثيران يلمح جمعًا من الفتيات ينظرن إليه.

- أهلاً بالحسناوات!

- أهلاً بالسائح!

يثب قلب "مارتين" داخل صدره. إنه سعيد. يمضي عبر شارع "ألكالاه" صعوداً بخطًى خفيفة، فيما يصفر لحن "لا ماديلون"(*).

ـ اليوم سيرى أهلي ومعارفي أنني أصبحت رجلاً آخر.

كان أهله ومعارفه بدورهم يفكِّرون في شيء من هذا القبيل.

بعد مسيرة طويلة، يقف "مارتين" أمام واجهات متجر لبيع الإكسسوارات.

- عندما أحصل على عمل وأجني نقوداً، سأبتاع قرطًا لـ "فيلو" وآخر لـ "بوريتا".

يتحسَّس الجريدة ويبتسم.

- ربما وردت هنا إشارة!

يحدِّثه هاجس مبهم، فيحجم "مارتين" عن الاستعجال... يحتفظ في جيبه بالجريدة حيث لم يطالع بعد قسم الإعلانات المبوبة ولا الأحكام القضائية. ولا قائمة حصص التموين المُخصَّصة لقُرَى الحزام المحيطة بالمدينة.

- هاها! قُرَى الحزام! أية نكتة هذه! قُرَى الحزام!

كاميلو خوسيه ثيلا

مدريد، ١٩٤٥ ـ ١٩٥٠

(*) "لا ماديلون": مارش عسكري فرنسي صدر إبان الحرب العالمية الأولى.

فهرس الشخصيات

من الجدير بالذكر أن الكاتب يقدِّر عدد شخصيات الرواية، في مُقدِّمة الطبعة الأولى، بمائة وستين. وعلى الرغم من ذلك، فبالرجوع إلى متن الرواية، وطبقًا لإحصاء الشخصيات الذي أعدَّه سكرتير المؤلِّف، "خوسيه مانويل كابايِّيرو" نجد قرابة ثلاثمائة شخصية روائية، بخلاف الشخصيات التاريخية والواقعية التي جاء ذكرها في "خلية النحل" وبناء على ما تقدَّم، فربما يكون المؤلِّف قد اكتفى بإحصاء البعض دون سواهم، على اعتبارهم أكثر حضورًا. بَيْد أن ذلك لا يعدو كونه اجتهادًا من جانب المترجم. على كل حال، فالغالبية العظمى من شخوص الرواية لا يتجاوز ظهورهم المشهد الواحد أو المشهدين، وقليلون هم الذين يتكرَّر ظهورهم في أكثر من موضع.

وأخيرًا، فقد استندنا في هذا الفهرس على الإحصاء المُشار إليه، بالإضافة إلى متن الرواية، كما وردا في الطبعة المذكورة في كلمة المترجم، بوصفهما مرجعين رئيسيين. كما راعينا كتابة الأسماء في الفهرس من دون علامات تنصيص، لعدم الخلط بينها وبين الاقتباسات المأخوذة من متن الرواية.

المترجم

اختصارات

(ش.و.) شخصية واقعية أو تاريخية

م: # المقطع/المقاطع التي تظهر فيها الشخصية. مثال م: ٨٤ ، ٩٠، ٩١

م:# (...) شخصية مُتعدِّدة الظهور. مثال م: ١ (...)

(ب.ا.) شخصية بلا اسم.

(أ)

ابن (ب. ا.): ابن دوريتا، عاملة الكي لدى دونيا خيسوسا. م: ٢٠٠

ابن (ب. ا.): ابن سنيورا ليوكاديا، بائعة الكستناء. م: ٧٢

ابن عم (ب. ا.): ابن عم الحارس المدني خوليو جارثيا موراًثو. م: ١٢٠

ابنة (ب. ا.): ابنة دونيا أسونثيون. "مُتزوِّجة من موظف غير ذي شأن بوزارة الأشغال العامة يُدعَى ميجيل كونتريراس..." م: ٣٠

ابنة (ب. ا.): ابنة ماراًكا وصديقة إلبيرا. م: ٢٢

ابنة (ب. ا.): ابنة مارجاريتا، عاملة الكي لدى دونيا خيسوسا. م: ٢٠٠

الأخوان ألبارِث كينتيرو (ش. و.): سيرافين ألبارِث كينتيرو (١٨٧١ ـ ١٩٣٨) وخواكين ألبارِث كينتيرو(١٨٧٣ ـ ١٩٤٤) مؤلفًا مسرحيات زجلية من مواليد إشبيلية، نالا حظًا وافرًا من الشهرة. م: ٥٥

الأوروجوانية: بائعة هوى وصديقة مارتين ماركو. م: ١٣١ (٠٠٠)

البابا (ش. و.): إشارة إلى البابا بيوس الثاني عشر (١٨٧٦ ـ ١٩٥٨) رأس الكنيسة الكاثوليكية ما بين عامي ١٩٣٩و١٩٥٨ .عُرِف بتسامحه مع ألمانيا النازية وتأييده لنظام فرانكو في إسبانيا. م: ٤٥

الثعلبيْن: لقب يُعرَف به الحارس المدني خوليو جارثيا موراّثو ووالده. م: ١٣٠

العريف پيريث: بطل إحدى السير الشعرية الأثيرة لدى ثيليستينو أورتيث، مالك حانة فَجْر. م: ١٣٢

القُرع: لقب يعرف به أفراد عائلة الخفير جومرسيندو بيجا كالبو. م: ١٣٠

المصوِّرة: انظر خوليان سواريث سوبرون.

امرأة (ب. ا.): امرأة تتحدَّث بشأن مقتل دونيا مارجوت في الشارع. م: ٩٠

امرأة (ب. ا.): امرأة تستجدي الصدقات في شارع جويا. م: ٥٣

إبرايم دي أوستولاثا إي بوفارول: من جيران دونيا مارجوت، يتمرَّن على إلقاء خطابه أمام الأكاديمية الملكية للتشريع، كما يتولَّى تنظيم الجيران بعد مقتل دونيا مارجوت. م: ٨١ (...)

إجناثيو: اسم أحد الأطفال الصينيين في المعمودية، وقد اختارته دونيا بيسيتاثيون ليكليرك دي مويسيس. م: ١٠٣

إجناثيو جالداكانو: من جيران دونيا مارجوت. م: ١٠٤، ١٢٦

إدموندو پايث پاتشيكو: نائب تقدُّمي قتل جدَّ باكو في مبارزة بالمسدسات. م:٥٣

إرمينيخيلدو سيجوبيا: شقيق ماوريثيو سيجوبيا. "ذهب ماوريثيو سيجوبيا لتناول العشاء مع أخيه إرمينيخيلدو الذي جاء إلى مدريد سعيًا وراء منصب أمين المركز القومي النقابي في بلدته". م: ٩٠، ٨٤، ٩١

إسبِرانثا دي جرانادا: انظر ماريا أنجوستياس. اسم شهرة فكَّرت في استخدامه ماريا أنجوستياس، ابنة دونيا سوليداد ودون فرانثيسكو روبليس، إلا أنها لم تفعل.

إسبِرانثا رِدوندو: يظهر اسمها على أحد ألواح الرخام الموضوعة على الطاولات في مقهى دونيا روسا، التي سبق استخدامها كشواهد قبور فيما مضى. م: ٢

إسبِرانثا مويسيس ليكليرك: ابنة دون روكيه مويسيس باثكيث ودونيا بيسيتاثيون ليكليرك. "أما الصغرى فتُدعَى إسبِرانثا. لها خطيب بصفة رسميةٍ، يزور البيت ويتجاذب أطراف الحديث مع الوالد بشأن السياسة. إسبِرانثا أتمَّتْ التاسعة عشرة لتوِّها، وبدأت في إعداد جهاز العروس بالفعل." م: ١٠٣، ١٠٨، ١١٧

إستانيسلاو ألبا: والد خصية ألبا، وهو رجل بالغ الفظاظة. م: ٢٠٠

إستانيسلاو راميريث: مصرفي من مورثيا هربت معه ماريا أنجوستياس. م: ١٧٤

إسترِيًا: صديقة لاوريتا. م: ٥٦

إسكولاستيكا: خادمة دونيا بيسي. م: ١٦٩

إكسوبيريو إستريميرا: من جيران دونيا مارجوت. وهو كاهن. م: ١٠٤

إلبيرا إرنانديث: »سنيوريتا إلبيرا تعيش حياة الكلاب، حياة لا تستحقُّ حتى عناء عيشها، بالتأمُّل في الأمر مليًا. صحيح أنها لا تفعل شيئًا، ولكن نظرًا لأنها لا تفعل شيئًا، فهي لا تذوق حتى الطعام. تقرأ الروايات، تتردَّد على المقهى، تدخِّن بضع سجائر تريتون، وتتلقَّف ما يقع بين يديها. السيئ في الأمر أنه لا يقع بين يديها شيء إلا كل حين ومين، وإن حدث فغالبًا ما يكون ذلك الشيء منبوذًا ومعيبًا (...)

المسكينة عاطفية إلى الحد الذي باعت معه جسدها لئلاّ تتضوَّر جوعًا حتى الموت (قبل الأوان على الأقل). لم يحدث يومًا أن عرفت كيف تفعل أي شيء، ثم إنها تفتقر إلى الجمال واللياقة. في بيتها، لم تلقَ خلال مرحلة الطفولة سوى الازدراء والمصائب. إلبيرا من بورجوس، وهي ابنة مُحتال يجدر توخِّي الحذر في التعامل معه (...) م: ٦ (...)

إلبيريتا: انظر إلبيرا إرنانديث.

إميليتا: ابنة عمة پاكيتو، أحد طفلين يلعبان لعبة القطار في مقهى دونيا روسا. م: ٣٩

إوْلوخيا: زوجة دون براوليو پيريث. م: ١٧٧

إودوسيا: أم سنيوريتا إلبيرا وزوجة سنيور فيديل إرنانديث. م: ٢٢

إيسابيل الكاثوليكية (ش. و.): الملكة إيسابيل الأولى، المعروفة باسم إيسابيل الكاثوليكية (١٤٥١ ـ ١٥٠٤) حكمَتْ مملكتيّ كاستيًا (قشتالة) وآراجون مع زوجها الملك فرديناند الثاني (١٤٧٥ ـ ١٥٠٤) ويُعتقَد أن حكمهما كان عظيم الأهمية للحفاظ على وحدة إسبانيا وبدء التوسعات الإمبراطورية في العالم الجديد. م: ١٥٣

إيسابيل مونتيس: "سنيورا ما زالت محتفظة بقدر من حسن المظهر، ترتدي رداء باليًا بعض الشيء، ويوحي مظهرها بكونها سليلة أسرة طيبة. من عادتهم بالمقهى أن يحترموا صمته" م : ٥، ٤٢،٢٣

إيساك پيرال (ش. و.): (١٨٥١ ـ ١٨٩٥) عالم بحري ذو خلفية عسكرية، ومخترع الغواصة المعروفة باسم غواصة پيرال. م: ٢٤

إيلوي روبيو أنتوفاجاستا: رجل يتلقى عرضًا من دون ماريو دي لا بيجا ليعمل لديه في المطبعة مصححًا. وهو شقيق پاكو، حبيب بيكتوريتا. م :١٢ (٠٠٠)

أرملة (ب. ا.): أرملة عظيمة الورع والإيمان جاء ذكرها في مجلة ملاك الكاروبيم المبشر. م: ١٠٢

أرملة سانث: انظر إيسابيل مونتيس.

أرملة سيسيمون: انظر خوانا إنترينا.

أرملة كورتيس: انظر ثيليا بيثينو.

أستاذ علم نفس ومنطق وأخلاق: انظر خوسيه ماريا دي ساماس.

أسونثيون: ابنة دونيا سوليداد دي كاسترو ودون فرانثيسكو روبليس وزوجة دو فادريكيه مينديث م: ١٧٤

أسونثيون: امرأة على المعاش. من زبائن مقهى دونيا روسا الدائمين. م: ٣٠

أطفال (ب. ا.): بضعة أطفال يلعبون في الطريق الشرقية. م: ٢١٦

أفراد الحرس المدني (ب. ا.): أفراد الحرس المدني الملحقون بمرأب الشرطة، والذين يتردَّدون على حانة ثيليستينو أورتيث. م: ٧١

أفراد شرطة (ب. ا.): أفراد شرطة ألقوا القبض على سنيور سواريث وبيبيه الشظية. م: ١٠١

ألفريدو أنجولو إتشيباريّا: حبيب بيسيتاثيون مويسيس وهو طالب في كلية الطب. م : ١٠٨ (٠٠٠)

ألفونسو: صديق پابلو ألونسو. م : ٩٦، ١٠٠

ألفونسو سيوانيه: عازف كمان بمقهى دونيا روسا وزوج سونسوليس. م: ٢٤ (٠٠٠)

ألفونسيتو: صبي المشاوير بمقهى دونيا روسا. "طفل ضئيل الجسم، يبلغ من العمر اثني عشر أو ثلاثة عشر عامًا، له شعر أشقر ويسعل بلا

توقف. توفِّي أبوه، الذي كان يعمل صحافيًا، منذ عامين في مستشفى إل راي، في حين أصبحت أمه تنظِّف بعض المكاتب بجران بِيا وتأكل في جمعية الإعانة الاجتماعية، بعد أن كانت سنيوريتا كثيرة التأنُّق قبل الزواج." م: ٤٥

ألكالاه ثامورا (ش. و.): (١٨٧٧ ـ ١٩٤٩) سياسي إسباني ذو توجه ليبرالي. تولَّى الرئاسة بين عامي ١٩٣١و١٩٣٦ .م: ٥٨

أليخاندرو ليرّوكس (ش. و.): (١٨٦٤ ـ ١٩٤٩) سياسي إسباني مثير للجدل ذو توجهات جمهورية، رأس الحكومة في أكثر من مناسبة، كما أسَّس الحزب الجمهوري الراديكالي. م: ١١

أم (ب. ا.): والدة أجوستين رودريجيث سيلبا. م: ١٠٨

أم (ب. ا.): والدة ألفونسيتو، صبي المشاوير بمقهى دونيا روسا. م: ٤٥

أم (ب. ا.): والدة ثيليستينو أورتيث، مالك حانة فجر. م: ٥٤

أم (ب. ا.): والدة ماتيلديتا، حبيبة ماكاريو. م: ١٠٧

أم (ب. ا.): والدة پاكو، صديق مارتين ماركو. م: ٥٣

أم (ب. ا.): والدة پوريتا. م: ١٩٠

أم (ب. ا.): والدة الطبيب جار دون إبرايم. م: ٨١

أم (ب. ا.): أم بيكتوريتا، الفتاة العاملة بالمطبعة. م: ١٢٧

أمپارو روبليس: ابنة دونيا سوليداد دي كاسترو ودون فرانثيسكو روبليس وزوجة دون إيميليو رودريجيث روندا. م: ٩٤، ١٧٤

أنخِليتو: فتى كثير الورع يسكن في البناية نفسها حيث تسكن دونيا بيسي. "سعى لهداية الببغاء رابيلايس إلى الطريق القويم، إلا أنه لم يحقِّق شيئًا، فضاعت جهوده سدًى وذهبت هباء"م: ١١٥

أنطونيو بيكو (ش. و.): (١٩٠٢ ـ ١٩٧٢) ممثل إسباني. م: ١٩٠

أنطونيو پيريث پالينثويلا: من جيران دونيا مارجوت. يعمل موظفًا بالنقابة، ويشغل منصب رئيس البناية. م: ١٠٤

أنطونيو خارينيو: من جيران دونيا مارجوت، موظف لدى شركة ڤاجون – لي. م: ١٠٢

أنيتا: ابنة شقيق دونيا پورا، زوجة دون پابلو. م: ١٦٦

أوبدوليو كورتيس لوپيث: زوج دونيا ثيليا بيثينو الراحل. "عاش دون أوبدوليو طيلة حياته رجلاً نموذجيًا، مستقيمًا، شريفًا، لا تشوب سيرته شائبة، ما يُطلَق عليه نموذج الرجل النبيل. كان الحمام الزاجل هوايته الأثيرة دائمًا." م: ١١٢(...)

(ب)

بِرنابيه: أحد طفلين يلعبان لعبة القطار بمقهى دونيا روسا. م: ١٥، ٣٨

بارتولوميه أنجيرا: رسام تعيش معه سوكورّيتو ابنة دون فرانثيسكو روبليس."سوكورّيتو ولّت هاربةً مع أحد أصدقاء أخيها پاكو، رسام يُدعَى بارتولوميه أنجيرا. يعيشان معًا حياة بوهيمية في استوديو بشارع لوس كانيوس (...)" م: ١٧٤

بايرون (ش. و.): لورد چورج جوردون بايرون (١٧٩٨ ـ ١٨٢٤) سياسي وشاعر إنجليزي من رموز الحركة الرومانسية. م: ٧٥

بائع (ب. ا.): بائع التبغ في المقهى حيث يذهب مارتين ماركو مع سنيور فلوريس والأرجوانية. م: ١٣١

بائع (ب. ا.): بائع بمركز البصريات حيث يذهب سيوانيه للسؤال عن أسعار النظارات. م: ١٧٩

براوليو پيريث: والد ماريبيل پيريث، عشيقة دون ريكاردو سوربيدو سابقًا. م: ١٧٧

برونو پيريث: شقيق دون براوليو پيريث. م: ١٧٧

بنات أخت (ب. ا.): بنات أخت دونيا رامونا براجادو. م: ١١٠

بوريلو: الاسم الذي يلقَّب به زوج أخت الخفير جومِرسيندو بيجا كالبو. م: ١٢٩

بيسي: أخت دونيا روسا وزوجة دون روكيه مويسيس باثكيث. م: ١٠٤

بيسيتاثيون ليكليرك دي مويسيس: انظر بيسي.

بيسيتاثيون مويسيس ليكليرك: ابنة دون روكيه مويسيس باثكيث ودونيا بيسيتاثيون ليكليرك. "والوسطى تُدعَى بيسيتاثيون على اسم أمها، في العشرين من عمرها، ولها شعر كستنائي وعينان عميقتان حالمتان" م : ٦٦ (...)

بيسيتاثيون، انظر: بيسي.

بيكتوريتا: "بيكتوريتا تبلغ من العمر نحو ثمانية عشر عامًا، إلا أنها ناضجة جدًا وتبدو امرأة في العشرين أو الثانية والعشرين. الفتاة لها حبيب سُرِّح من الجيش وأُعيد من الثكنة العسكرية نظرًا لإصابته بمرض السل."م : ١١٠ (...)

بينتورا أجوادو ديسپوچولس: والد بينتورا، حبيب خوليتا. "وهو مُزارِع لوز من ريوديكولس في تارَّاجونا" . م: ١٠٨

بينتورا أجوادو سانس: حبيب خوليتا، ويدرس حتى يتقدَّم لاختبار القبول لدى الشهر العقاري. م: ١٠٠ (...)

(پ)

پابلو: زوج دونيا پورا وعشيق سنيوريتا إلبيرا فيما مضى. "تعلو وجه دون پابلو ابتسامة غبطة. لو أمكن شقٌ صدره، لوجد المرء في صدره قلبًا داكنًا لزجًا كالقطران." م: ١٢ (...)

بابلو ألونسو: "فتى في مقتبل العمر، له مظهر رياضي يليق برجل أعمال عصري، وله عشيقة تُدعَى لاوريتا منذ خمسة عشر يومًا" م: ٥٦ (...)

بادِيّا: بائع التبغ بمقهى دونيا روسا. م: ٦ (...)

باكو: صديق مارتين ماركو. "باكو، سنيوريتو باكو، يرى سائر النساء جميلات، ولا يُعرَف إن كان شَبِقًا أم عاطفيًا. الفتاة التي ألقت عليه التحية لتوِّها جميلة حقًّا، حتى لو لم تكُن جميلة لما بدَّل ذلك شيئًا: فكلهن ملكات جمال إسبانيا في نظر باكو" م: ٩٣ (...)

باكو: ابن دونيا إيسابيل مونتيس. "كان الشاب يُدعَى باكو، وكان يستعد لاختبار قبول لشغل وظيفة لدى البريد. قيل في بادئ الأمر إنه قد أصيب بالشلل، ثم اتضح أن ما قيل عارٍ من الصحة، وأنه مصاب بالتهاب السحايا. لم يبقَ على قيد الحياة طويلًا، بل وسرعان ما غاب عن الوعي."م: ٥

باكو: حبيب بيكتوريتا. "سُرِّح من الجيش وأُعيد من الثكنة العسكرية نظرًا لإصابته بمرض السل. كان المسكين عاجزًا عن العمل، مما يضطرهُّ لقضاء يومه كاملاً في الفراش، لا يقوى على شيء، في انتظار أن تذهب بيكتوريتا لرؤيته عند خروجها من العمل"م: ١١٠ (...)

باكو السردينة: عازف جيتار فلامنكو في حالة سُكْر دائم، هربت معه إوْلوخيا، زوجة براوليو بيريث. م: ١٧٧

باكو روبيو أنتوفاجاستا: انظر باكو.

باكيتا: ابنة دونيا أسونثيون. "شبَّتْ مُتهوِّرة وتعيش في بِلباو برفقة أستاذ جامعيّ" م: ٣٩ (...)

باكيتو: شقيق پوريتا. م: ١٩٠

باكيتو: أحد طفلين يلعبان لعبة القطار بمقهى دونيا روسا. م: ١٥، ٣٨

باولينا: زوجة سنيور رامون، مالك المخبز. م: ٤٩ (...)

بريم (ش. و): چنرال بريم إي برات(١٨١٤ ـ ١٨٧٠) چنرال إسباني لعب دورًا بارزًا في الحرب الإسبانية المغربية. م: ٩٥

بورا: زوجة دون بابلو. م: ١٦ (...)

بورا بارتولوميه ألونسو: انظر بوريتا.

بورا: انظر بوريتا.

بوريتا: بائعة هوى تعمل في بيت دونيا خيسوسا. "بورا شابة، حلوة، نحيلة، شاحبة قليلاً، تحيط بعينيها الهالات السوداء، ولها مظهر يشي بكونها عذراء تميل إلى الرذيلة." م: ١٠٠ (...)

بول ڤاليري (ش. و.): (١٨٧١ ـ ١٩٤٥) شاعر فرنسي. م: ٥٢

بيبيه: نادل بمقهى دونيا روسا. "النادل العجوز الذي جاء من موندونييدو منذ أربعين أو خمسة وأربعين عامًا مضت" م: ١٠ (...)

بيبيه: زميل بيكتوريتا في مطبعة إل بروبينير. م: ١٣٦

بيبيه الشظية: انظر: خوسيه خيمينيث فيجيراس.

بيتريتا: خادمة تعمل لدى فيلو وزوجها دون روبرتو جونثاليث. م: ٥٨ (...)

بيدرو بابلو تاوستيه: من جيران دونيا مارجوت. مالك ورشة إصلاح الأحذية المسماة عيادة الأحذية. م: ١٠٤، ١٧٧

بيدرو جونثاليث بلانكو: (١٨٧٩ ـ ١٩٦١) كاتب وصحافي ومترجم من أستورياس. م: ٧١

بيدريتو: ابن شقيق دون نيكولا دي پابلوس."كان يكتب أشعارًا راقية للغاية ويدرس الفلسفة والآداب"م: ٢٠٠

بيرولا: زميلة بيكتوريتا في العمل سابقًا وعشيقة خابيير. "پيرولا تعيش الآن كالدوقات، فترتدي الأنيق من الثياب وتعيش في شقة مُجهَّزة براديو، ويناديها الجميع سنيوريتا. لمحتها بيكتوريتا ذات يوم في الشارع. وأي اختلاف ذلك الذي طرأ عليها خلال عام واحد قضته مع هذا السنيور!" م: ١٢٨ (...)

بيلارين: ابنة دونيا أسونثيون روبليس وفادريكيه مينديث. م: ١٧٤

بيلونا: صاحبة بيت للمواعيد الغرامية، عملت فيه إلبيرا. م: ٢٢

بيمينتون (ش. و): مدام بيمينتون، امرأة غريبة الأطوار عاشت في مدريد في مطلع القرن، كانت مثار إعجاب الكتاب في تلك الحقبة. م: ٨، ١٤

پيو ناباس پيريث: من جيران دونيا مارجوت، ويعمل مُفتِّشًا في السكك الحديدية. م: ١١٥

پييداد: ابنة دونيا سوليداد دي كاسترو ودون فرانثيسكو روبليس. م: ١٧٤

(ت)

تِن تِن: انظر أجوستين رودريجيث سيلبا.

تريني: ابنة دونيا سوليداد دي كاسترو ودون فرانثيسكو روبليس. "تريني عانس تفتقر إلى الجمال، سعَتْ من أجل الحصول على مبلغ من النقود وافتتحت دكَّان خردوات في شارع أبوداكا"م: ١٧٤

ترينيداد جارثيا سوبرينو: يعمل بالربا. "دون ترينيداد عاش فترة شباب مضطربة، ثم اشتغل بالتجارة بعد وفاة والده واتَّبع نظامًا صارمًا حتى تحقَّق له الثراء في نهاية المطاف" م: ١١، ٣١

ترينيدادا: انظر الأوروجوانية.

تشرشل (ش. و.) ونستون تشرشل (١٨٧٤ ـ ١٩٦٥) ضابط وسياسي ومؤرخ وكاتب إنجليزي شغل منصب رئيس الوزراء في الفترة التي تدور خلالها أحداث الرواية. م: ٢٢٣

تشوس: جار برنابيه، أحد طفلين يلعبان لعبة القطار بمقهى دونيا روسا. م: ٣٨

توريسموندو (ش. و.): من ملوك القوط م: ٤٢

تيريسا كورّاليس: من جيران دونيا مارجوت. م: ١٠٤

تيسي: انظر تيسيفونتيه أوبيخيرو إي سولانا.

تيسيفونتيه أوبيخيرو إي سولانا: "طبيب بيطري برتبة كابتن، وسنيوريتو البلدة المتأنِّق، على قدر يسير من الخجل، ويضع خاتمًا يتوسَّطه فصٌّ من الزمرد." م: ٩٤ (...)

تيكا: انظر إسكولاستيكا.

تيلمو جارثيا مورّاثو: شقيق الحارس المدني خوليو جارثيا مورّاثو. م: ١٣٠

تيودوريدو (ش. و.): من ملوك القوط م: ٤٢

(ث)

ثربانتس (ش. و.): ميجيل دي ثربانتس (١٥٤٧ ـ ١٦١٦) روائي وكاتب من رواد الأدب الإسباني. أشهر أعماله دون كيخوته، الذي يُعدُّ واحدًا من أشهر وأعظم الأعمال الروائية في التاريخ. م: ٢٤

ثيبريانو ميرا (ش. و.): (١٩٧٥ ـ ١٨٩٧) قائد أناركي، تولَّى قيادة وحدة في الجيش الشعبي الجمهوري إبان الحرب الأهلية. م: ٧١

ثيليا بيثينو: أرملة دون أوبدوليو كورتيس. "أما أرملته المسكينة فتستعين على عيشها المزري بأن تؤجِّر للأصدقاء المُقرَّبين حجرات صغيرة على الطراز التكعيبي، مغرقة في الابتذال، ومطلية باللونين البرتقالي والأزرق. تُزوِّدها بسبل الراحة غير الوفيرة بقدر المستطاع، في حسن نية وتكتُّم ورغبة كبيرة في الخدمة وإدخال السرور. في الحجرة الأمامية، الحجرة المُميَّزة قليلاً والمُخصَّصة لخيرة الزبائن، يطلُّ دون أوبدوليو من إطار مُذهَّب برَّاق بشاربه المنتصب ونظرته العذبة، ذائدًا عن النشاط السري الذي يوفِّر أكل العيش لأرملته، كإله حب ماكر خبيث." م: ١٦٤ (...)

ثيليستينو أورتيث: مالك حانة فَجْر للنبيذ والأطعمة. "سبق له أن حمل رتبة رائد تحت إمرة ثيپريانو ميرا إبان الحرب. ثيليستينو أورتيث رجل يميل إلى طول القامة والنحول، يلتقي طرفا حاجبيه، وتبدو عليه بعض آثار الجدري" م: ٥٤ (...)

(ج)

جابرييل: نادل في مقهى دونيا روسا م: ١٦

جاسكون (ش. و.): خوسيه جاسكون إي مارين (١٨٧٥ ـ ١٩٦٢) أستاذ قانون إداري، تولَّى منصب وزير التعليم عام ١٩٢١. م: ١٣١

جامعو قمامة (ب. ا.): جامعو قمامة يلقون بالكلب المحتضر إلى عربة القمامة. م: ٢١٨

جد (ب. ا.): جد پاكو. "كان جد پاكو يحمل لقبي چنرال وماركيز، إلا أنه لقي حتفه خلال مبارزة بالمسدسات في بورجوس". م: ٥٣

جد (ب. ا.): جد خوليتا وبيسيتاثيون وإسپرانثا. م: ١٩٤

جدة (ب. ا.): جدة إلبيريتا. "كانت مسؤولة عن جمع التبرعات من المصلين في الأبرشية لصندوق عطاء سان أنطونيو" م: ٢٢

جرادة: انظر كارمن. لقب تحقيري يُطلقه الأطفال على دونيا كارمن. م: ١٩٧

جريجوريو مايورال (ش. و.): (١٨٦١ ـ ١٩٢٨) مُنفِّذ إعدام من بورجوس في إسبانيا. يُعتقَد أنه أدخل بعض التعديلات على أداة الإعدام. وقد تولَّى تنفيذ أحكام الإعدام في المتورطين بجريمة قطار الأندلس السريع سالفة الذكر. م: ٢٢

جوادالوپيه جوتييريّث: يظهر اسمها في مجلة ملاك الكاروبيم المبشِّر. م: ١٠٢

جوتييريّث: سنيور جوتييريّث. زوج ماروخيتا رانيرو المصاب بالسرطان. م: ٢٨، ١١١

جوتييريّث: سنيورا جوتييريّث. انظر ماروخيتا رانيرو.

جومِرسيندو بيجا كالبو: خفير تجمعه صداقة بالحارس المدني خوليو جارثيا مورّاثو. م: ١٢٨، ١٣٠، ١٤٢.

جومِرسيندو لوپيث: من جيران دونيا مارجوت ويعمل موظفًا شركة البترول. م: ١٠٤

جونثالو سيسيمون: زوج دونيا خوانا إنترينا الراحل. م: ١٧٣

(ح)

حبيب (ب. ا.): حبيب لاوريتا، كان يعمل ساعيًا للبريد. م: ٥٥

(چ)

چوان كراوفورد (ش. و.): (١٩٠٤ ـ ١٩٧٧) ممثلة أمريكية. م: ١٢٤

چون كيتس (ش. و.): (١٧٩٦ ـ ١٨٢١) شاعر إنجليزي. م: ٥٢

چين هارلو (ش. و.): (١٩١١ ـ ١٩٣٧) ممثلة أمريكية ورمز من رموز الإغراء في السينما. م: ١٠٨

(ح)

حراس (ب. ا.): حراس دار سكِّ النقود. م: ٥٨

حفيد (ب. ا.): حفيد دون ترينيداد جارثيا سوبرينو. "يبدو حفيده وكأنه غجريٌّ صغير، نحيل، أكرش. يعتمر قلنسوة مُطرَّزة وجورب مُطرَّز أيضًا. إنه طفل يرتدي ثيابًا ثقيلة جدًا."م: ١١

(خ)

خابيير: عشيق پيرولا، زميلة بيكتوريتا في المطبعة سابقًا. م: ١٣٤، ١٣٥، ١٤٥

خابييرتشو: انظر خابيير.

خابييرين: أحد أبناء فيلو ودون روبرتو جونثاليث. م: ٥٨، ٩٨.

خاثينتو دِل كاستِيُّو: بطل إحدى السير الشعرية الأثيرة لدى ثيليستينو أورتيث، مالك حانة فجر. م: ١٣٢

خادمة (ب. ا.): خادمة پابلو ألونسو. م: ٢١٥

خايميه أرثيه: من زبائن مقهى دونيا روسا. "دون خايميه أرثيه رجل شريف ذو حظ عاثر، يلازمه النحس في مسألة النقود. أما من حيث الاجتهاد فليس له منه نصيب كبير، والحق يُقال"م: ٤

خريج جامعي: انظر إيلوي روبيو أنتوفاجاستا.

خصية ألبا: طالب إكليريكي ضلَّل دوريتا ورفض أن يقابلها بعد ذلك. م: ٢٠٠

خفير (ب. ا.): خفير يتبادل الحديث مع مارتين ماركو. م: ١٥٩

خواكين بوستامانتيه ڤايز: والد فيديل، زوج أنيتا. "كان والد فيديل صانع حلوى هو الآخر، كما كان رجلاً فظًا يتطهَّر بالرمال، ولا يتحدَّث عن شيء باستثناء رقصات الخوتيكا الفولكلورية وعذراء العمود. كان يتباهى بثقافته وإقدامه (...)"م: ١٦٦

خوان باثكيث مِيًّا (ش. و.): (١٨٦١ ـ ١٩٢٨)، حد كُتَّاب الحركة التقليدية في إسبانيا، فضلاً عن كونه سياسيًا ومُنظِّرًا بارزًا من مُنظِّري نظام فرانكو. م: ٤٤

خوان رامون: أصغر أبناء دونيا سوليداد دي كاسترو ودون فرانثيسكو روبليس. م: ١٧٤

خوان رامون خيمينيث (ش. و.): شاعر إسباني فاز بجائزة نوبل عام ١٩٥٦من أهم أعماله پلاتيرو وأنا (١٨٨١ ـ ١٩٥٨). م: ٢٠٠

خوانا إنترينا: من جيران دونيا مارجوت. وهي أرملة سيسيمون. م: ١٠٤

خوانيتا: أخت ماتيلديتا، حبيبة ماكاريو. م: ١٠٧

خوسيفا: سنيورا أقرضها سنيور رامون، مالك المخبز، مبلغًا وقدره سبعة پيسيتا. م: ١٤٠

خوسيفا لوپيث: خادمة عملَتْ فيما سبق لدى آل روبليس، جمعت بينها وبين دون روكيه علاقة ما. م: ١٠٣، ١٨٤

خوسيفينا دي لا پينيا رويث: اسم طفلة يظهر على شاهد في المقابر الشرقية. م: ٢٢٤

خوسيه: عشيق مارجاريتا، عاملة الكي في بيت دونيا خيسوسا، فيما مضى. م: ٢٠٠

خوسيه خيمينيث فيجيراس: صديق سنيور سواريث. "كان جريئًا، يشي مظهره بكونه قوَّادًا، يرتدي ربطة عنق خضراء وجوربًا مُقلَّمًا، وينتعل حذاءً

قرمزيًا. يُدعَى خوسيه خيمينيث فيجيراس، وعلى الرغم من مظهره المخيف، بلحيته الخشنة ونظراته العربية، كان يُلقَّب باسم پيپيتو الشظية" م: ٨٣، ١٠١

خوسيه رودريجيث دي مدريد: "دون خوسيه يعمل كاتبًا لدى إحدى المحاكم، ويبدو أن لديه بعض المدخرات. يُقال إنه قد تزوج من امرأة ثرية، شابة من قرية لا مانتشا، سرعان ما توفِّيت تاركةً كل شيء لدون خوسيه" م: ٧،٢٦

خوسيه سانث مدريد: تاجر خردة وعشيق پوريتا. "له متجرا خردة حيث يبيع ويشتري الثياب المستعملة والقطع الفنية، كما يؤجِّر بِدَل السموكينج للطلاب والسترات للعرسان الفقراء"م: ١٩٠.

خوسيه سييرًّا: زوج دونيا ماريا موراليس ومساعد في وزارة الأشغال العامة. م: ١٢٦ (...)

خوسيه ليثينينا: من جيران دونيا مارجوت. م: ١٠٤

خوسيه ماريا: ابن أخت دونيا مونسيرَّات. م: ١٩٣

خوسيه ماريا: من السكرتارية الخاصة بدون روسيندو، ويتحدَّث عنه كل من ماوريثيو وأخيه إرمينيخيلدو سيجوبيا. م: ٨٥

خوسيه ماريا أولبيرا: من جيران دونيا مارجوت. وهو كابتن في سلاح الإمداد والتموين. م: ١٠٤

خوسيه ماريا دي ساماس: أستاذ علم نفس ومنطق وأخلاق في الجامعة، وحبيب پاكيتا، ابنة دونيا أسونثيون. م: ٩٥

خوسيه: انظر رامون.

خوليان سواريث سوبرون: ابن دونيا مارجوت الذي يشير إليه آخرون بالمخنَّث في أكثر من موضع. "سنيور سواريث ليس من زبائن المقهى

الدائمين هو الآخر. يقوم من مكانه ثم يتَّجه إلى الهاتف. يعرج في سيره، يعرج بالجزء العلوي من جسده وليس بقدمه. يرتدي بدلة فاتحة اللون على آخر صيحة، ونظارة تُثبَّت على الأنف. يوحي مظهره بأنه في الخمسين من عمره تقريبًا، ويبدو طبيب أسنان أو مُصفِّف شعر. وبالنظر مليًا، يبدو مندوب مبيعات منتجات كيميائية. كل ما يتعلَّق بمظهره يوحي بأنه رجل كثير المشاغل (...)" م: ١٠٠ (...)

خوليتا مويسيس ليكليرك: ابنة دون روكيه مويسيس باثكيث ودونيا بيسيتاثيون ليكليرك. "الكبرى تُدعَى خوليتا، في الثانية والعشرين من العمر. خوليتا تصبغ شعرها باللون الأشقر فتبدو كالممثلة چين هارلو حين ينسدل شعرها متموِّجًا طليقًا." م: ١٠٣ (...)

خوليو: شقيق پوريتا. م: ١٩٠

خوليو جارثيا مورَّاثو: زبون يتردَّد على حانة ثيليستينو أورتيث وصديق له. "الحارس المدني خوليو جارثيا مورَّاثو من جاليثيا. لم يكُن يفعل قبل الحرب شيئًا، بل كان يكرِّس وقته لاصطحاب أبيه الضرير من مهرجان ديني إلى آخر (...) حين اندلعت الحرب واستُدعي إلى الخدمة العسكرية، كان الحارس المدني خوليو جارثيا مورَّاثو بالفعل رجلًا يفيض حياةً (...) أُصيب بطلق ناري في أضلعه، ومن ذلك الحين بدأ خوليو جارثيا مورَّاثو، في الهزال (...) بانتهاء الحرب، سعى خوليو جارثيا مورَّاثو للحصول على توصية ثم التحق بالحرس المدني" م: ١٢٠ (...)

خوليو مالويندا: من جيران دونيا مارجوت وهو بَحَّار تجاري متقاعد. م: ١٠٤

خيسوسا: صاحبة بيت للمواعيد الغرامية. "دونيا خيسوسا امرأة مكتنزة، ودود، خدوم، يوحي مظهرها بأنها كانت بارعة الجمال فيما سبق، شعرها مصبوغ باللون الأشقر، ماهرة ومقدامة للغاية." م: ١٣١ (...)

خِيل روبليس (ش. و.): خوسيه ماريا خِيل روبليس(١٨٩٨ ـ ١٩٨٠) سياسي إسباني بارز تولَّى منصب وزير الحربية ورئيس الوزراء، كما أسَّس حزب العمل الشعبي وائتلاف الأحزاب الكاثوليكية واليمينية المُسمَّى اتحاد اليمين المستقل الإسباني. م: ١١

خينوبيبا كوادرادو دي أوستالاثا: زوجة دون إبرايم دي أوستولاثا. م: ٨٦، ٨٩

(د)

دوريتا: عاملة كيّ في بيت دونيا خيسوسا. ضلَّلها طالبٌ إكليريكي من بلدتها خلال إجازة له (...) أخذها إلى ضفاف نهر كوروينيو. وهناك، في أحد المروج، جرى كل ما كان مُقدَّرًا له أن يجري (...) أنجبت دوريتا ابنًا، فأحجم الطالب الإكليريكي عن لقائها عند عودته إلى البلدة في إجازة أخرى (...) طُردَت دوريتا من بيتها فقضَتْ زمنًا هائمةً، من بلدة إلى بلدة، وطفلها على صدرها (...) قضَتْ زمنًا في بيوت دعارة بايَّادوليد وسالامانكا - رخيصةً كقطعة أثاث مُهشَّمة - إلى أن ادَّخرت ما يكفي لتكاليف الرحلة وجاءت إلى العاصمة"م: ٢٠٠

دوق ألبا (ش. و.): خاكوبو فيتث(١٨٧٨ ـ ١٩٥٣) نبيل وسياسي إسباني. م: ١٤

دياث: زميل دون روبرتو جونثاليث. م: ٢٢٠

(ر)

رافاييل سايث: من جيران دونيا مارجوت وهو فني مساحة شاب. م: ١٠٤

رافاييل ماساسانا: من جيران دونيا مارجوت، ويعمل طبيبًا. م: ١٠٤

رامون: زوج دونيا ماتيلديه الراحل. م: ٣٠

رامون: شقيق بوريتا. "رامون، الأخ الأكبر، في الثانية والعشرين من عمره ويؤدِّي الخدمة العسكرية في إفريقيا: م: ١٦٠

رامون: مالك المخبز حيث يعمل دون روبرتو جونثاليث. "سنيور رامون يبلغ من العمر خمسين أو اثنين وخمسين عامًا تقريبًا، وهو رجل متين البنية، له شارب وبشرة مُتورِّدة، رجل صحيح معافى، قلبًا وقالبًا، يعيش حياةً أمينة، حياة حِرَفيّ عجوز، يصحو عند مطلع الفجر، ويحتسي النبيذ الأحمر، ويقرصُ الخادمات في مؤخراتهن. عندما جاء إلى مدريد في مطلع القرن، أتى حاملاً حذاءه الجلدي على عاتقه لئلَّا يتلفه. سيرته الذاتية لا تزيد على خمسة أسطر." م: ٤٩ (...)

رامون إرميدا: يظهر اسمه في مجلة ملاك الكاروبيم المبشِّر. م: ١٠٣

رامون مايُّو: شاعر شاب. "شاعر الجوار شابٌ صغير في السن، له شَعْرٌ مُرسَل وبشرة شاحبة، ذاهل دائمًا، لا يولِّي انتباهه إلى شيء لئلاَّ يتملَّص منه الإلهام. والإلهام شيء مثله كمثل فراشة صغيرة، عمياء، صماء، ورغم ذلك تشعُّ نورًا ساطعًا، فراشة صغيرة تطير كيفما اتَّفق، فتتخبَّط بالجدران أحيانًا، وتحلِّق عاليًا فوق النجوم أحيانًا أخرى. شاعر الجوار تعلو وجنتيه حمرة." م: ٩٠ (...)

رامونا براجادو: صاحبة دكَّان الألبان. "عجوز ذات شعر مصبوغ، وإن كانت على قدر كبير من خفة الظل. كانت فنانة فيما مضى (...)" م: ٩٥ (...)

راميرو لوبيث بوينتي: يظهر اسمه على أحد ألواح الرخام الموضوعة على الطاولات في مقهى دونيا روسا وسبق استخدامها كشواهد قبور فيما مضى. م: ٣

راؤول صوريا بوينو: يظهر اسمه على شاهد قبر يطالعه مارتين ماركو. م: ٢٢٤

رجل (ب. ا.): رجل يعقِّب على موت أم سنيور سواريث في الشارع. م: ٩٠

رجل (ب. ا.): رجل انتحر بسبب رائحة البصل. م: ١٧٩

رجل (ب. ا.): رجل من أستورياس جاء يبيع اللوز المُغطّى بالسكر في مهرجان البلدة، فهربت معه إلبيرا. م: ٢٢

رجلان (ب. ا.): رجلان يتحدَّثان بشأن مسابقة أدبية في مقهى بميدان ألونسو مارتينيث. م: ٦٠

رجلان (ب. ا.): رجلان يمرَّان عبر الأراضي الخلاء في طريق العودة إلى البيت. م: ٦٣

روبِن داريو (ش. و.): (١٨٦٧ ـ ١٩١٦) شاعر من نيكاراجوا. م: ٥٢

روبرتو جونثاليث: زوج فيلو، أخت مارتين ماركو. "يعمل كل الساعات الإضافية الممكنة، وحيثما تسنَّى له أن يعمل. يحالفه الحظ في الفترة الحالية، إذ عُهِد إليه بحسابات متجر عطور (...) فضلاً عن حسابات مخبز على قدر من الأهمية بشارع سان بِرناردو (...) وفي أحيان أخرى، حين يوليه الحظ ظهره ولا يجد عملاً إضافيًا يؤدِّيه في ساعات الفراغ، يحزن دون روبرتو وينطوي على ذاته، كما يتعكَّر مزاجه." م: ٤٩ (...)

رودريجيث إنترينا: أستاذ بمعهد كاردينال ثيسنيروس. م: ١٩٥

روزفلت (ش. و.): فرانكلين روزفلت (١٨٨٢ ـ ١٩٤٥) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في الحقبة التي تدور خلالها أحداث الرواية. م: ٢٢٣

روسا: دونيا روسا ليكليرك، مالكة مقهى لا ديليثيا. "عند دونيا روسا، العالم هو مقهاها، وكل ما عدا ذلك يدور حول مقهاها. ثمة من يقول إن عيني دونيا روسا الدقيقتيْن تبرقان عند مجيء الربيع، حين تبدأ الفتيات في ارتداء الثياب ذات الأكمام القصيرة. أما أنا فأعتقد أن كل ذلك لا

يعدو كونه لغوًا، فما كانت دونيا روسا تفرِّط في قطعة نقود قط من أجل شيء في هذا العالم. لا في الربيع ولا في غيره. إن ما يروق لدونيا روسا جرّ أرطالها المُكدَّسة من بين الطاولات، هكذا، في غير داعي. تدخِّن سجائر نوبينتا حين تخلو إلى نفسها، وتحتسي شراب الأوخين، كؤوسًا مُترَعَة من الأوخين، منذ أن تستيقظ حتى تأوي إلى الفراش. ثم تسعل وتبتسم. أما حين يصفو مزاجها، فتجلس في المطبخ، على مقعد واطئ بلا مسند، حيث تقرأ الروايات والأعمال المنشورة في الصحف على حلقات، وكلما كانت أكثر دمويَّة كان أفضل: فكل ذلك غذاء لها." م: ١ (...)

روساريو خيرالدا: انظر ماريا أنجوستياس. اسم شهرة فكَّرت في استخدامه ماريا أنجوستياس، ابنة دونيا سوليداد ودون فرانثيسكو روبليس، إلا أنها لم تفعل. م: ١٧٤

روساريو كيسادا: يظهر اسمها في مجلة ملاك الكاروبيم المبشِّر. م: ١٠٣

روساليا: أخت الخفير جومرسيندو بيجا كالبو م: ١٢٨، ١٣٠

روسيتا: أخت بوريتا. م: ١٩٠

روسيندو: يرِد ذكره في حديث بين ماوريثيو وأخيه إرمينخيلدو سيجوبيا. م: ٨٥

روكيه مويسيس باثكيث: زوج دونيا بيسيتاثيون ليكليرك وصهر دونيا روسا. رافق خوسيفا لوبيث أولًا، ثم أختها لولا. م: ٩٤ (...)

رومانونيس (ش. و.): "ألبارو فيجيروا إي تورِّيس" أو كونت رومانونيس (١٨٦٣ ـ ١٩٥٠) نبيل وسياسي إسباني تولَّى رئاسة مجلس الوزراء أكثر من مرة وغيرها من المناصب رفيعة المستوى. م: ١٢، ١٩٥

رومولو: صاحب مكتبة لبيع الكتب المستعملة وصديق مارتين ماركو. م: ١٩٥، ٢٢٣

سانتياجو: انظر ماركيز شاب.

سائقو سيارات (ل. ا.): سائقو سيارات أجرة في الحانة التي يذهب إليها ريكاردو سوربيدو وماريبيل پيريث. م: ١٧٧

ستالين (ش. و.): جوزيف ستالين، (١٨٧٨ ـ ١٩٥٣) ديكتاتور حكم روسيا في الحقبة التي جرت خلالها أحداث الرواية. م: ٢٢٣

ستيفان مالارميه: شاعر فرنسي (١٨٤٢ ـ ١٨٩٨). م: ٥٢

سنيور (ب. ا.): يطلب من ألفونسيتو صبي المشاوير توصيل رسالة. م: ٩٧

سنيور (ب. ا.): يلفت نظر طفلين يلعبان لعبة القطار في مقهى دونيا روسا ويطلب منهما التحلي بالهدوء. م: ٣٨

سنيور (ب. ا.): يتقرَّب من بيكتوريتا في أثناء سيرها بالشارع. م: ١٣٦

سنيور (ب. ا.): تاجر زيوت، أسكن إستريًّا بشقة في شارع مينينديث پيلايو. م: ٥٦

سنيوريتو (ب. ا.): تسأله عن الساعة سنيورا ليوكاديا بائعة الكستناء. م: ٧٢

سواريث: انظر خوليان سواريث سوبرون.

سوكورِّيتو: ابنة دونيا سوليداد دي كاسترو ودون فرانثيسكو روبليس. "سوكورِّيتو ولَّت هاربةً مع أحد أصدقاء أخيها پاكو، رسام يُدعَى بارتولوميه أنجيرا. يعيشان معًا حياة بوهيمية في استوديو بشارع لوس كانيوس" م: ١٧٤

سوليداد: راهبة. وهي ابنة دونيا سوليداد دي كاسترو ودون فرانثيسكو روبليس. م: ١٧٤

سوليداد كاسترو دي روبليس: زوجة دون فرانثيسكو روبليس وأم كل من سوليداد وپيپداد وفرانثيسكو وأمپارو وأسونثيون وتريني وناتي وماريا آوكسيليادورا و سوكورِّيتو وماريا أنجوستياس وخوان رامون. م: ٩٤ (...)

سونسوليس: زوجة سيوانيه، عازف الكمان بمقهى دونيا روسا. "سونسوليس تعاني من ضعف النظر، وفي أجفانها حمرة. دائمًا ما تبدو وكأنها قد فرغت من النحيب لتوِّها. المسكينة لا تلائمها مدريد. بعد الزواج مباشرةً، كانت بديعة الجمال، بضَّة الجسد، مشرقة، كان مرآها باعثًا على السرور، أما الآن فقد صارت حطامًا، رغم أنها لم تطعن في السن بعد." م: ٤٥ (...)

سيجوندو سيجورا: ماسح الأحذية بمقهى دونيا روسا. "أما ماسح الأحذية، وهو رجل جِلْف، جِلْف هزيل ومُتخشِّب، فقد ظلَّ يدَّخر أعوامًا طوالاً، ثم أقرض كل شيء لدون ليوناردو. يستحقُّ ما يجرى له. فدون ليوناردو محتال يعيش على مال غيره" م: ٢(...)

سيخيريكو: من ملوك القوط م: ٤٢



سيوانيه: انظر ألفونسو سيوانيه.

(ش)

شاب يافع (ب. ا): شاب يافع يجلس برفقة دون پابلو بمقهى دونيا روسا. م: ٣٦

شاعر شاب: انظر رامون ماييُّو.

شرطي: (ب. ا.) شرطي يطلب من مارتين ماركو تحقيق الشخصية م: ١٥٠

شعر الجثة: انظر: كارمن. لقب تحقيري يُطلق على دونيا كارمن في الجوار.

شقيق (ب. ا.): شقيق ماروخيتا. م: ٢٨

شقيق (ب. ا.): شقيق والد فيديل بوستامانتيه. م: ١٦٦

(ص)

صاحبة مخبز: صاحبة المخبز الذي تذهب إليه ماروخيتا رانيرو لإجراء مكالمة هاتفية. م: ١١٤

صحافي: صديق ماريا أنجوستياس، ابنة دونيا سوليداد دي كاسترو ودون فرانثيسكو روبليس. م: ١٧٤

صديق (ب. ا.): صديق خوسيه سانث مدريد. م: ١٩٠

صديقان (ب. ا.): صديقا خوسيه رودريجيث دي مدريد. يلعبان الداما في مقهى دونيا روسا م: ٦، ٢٦.

صديقات (ب. ا.): صديقات ماريبيل پيريث. م: ١٧٧

(ط)

طفل (ب. ا.): الطفل مغنِّي الفلامنكو. "الطفل مفعم بالحياة كما لو كان حشرة (...) ضئيل الجسد، تميل بشرته إلى السمرة. يسير حافيًا، عاري الصدر، ويوحي مظهره بأنه في السادسة من العمر تقريبًا. يغنِّي وحيدًا، فيما يصفِّق بكفيه تشجيعًا لنفسه، ويهزُّ مؤخرته الضئيلة على إيقاع الأغنية." م: ٨٨ (...)

طفلان (ب. ا.): طفلان آوتهما دونيا ثيليا بيثينو في بيتها. م: ١١٣

طفلة (ب. ا.): طفلة تمرُّ بدراجتها عبر درب المقابر. م: ٢٢١

(ع)

عُمدة كورك (ش. و.): تيرينس ماك سويني (١٨٧٩ ـ ١٩٢٠) كاتب وسياسي أيرلندي انتُخِب عمدة لمدينة كورك إبان حرب الاستقلال

الأيرلندية. اعتُقِل واتُّهِم بالتحريض على العصيان من قبل البريطانيين، ثم توفِّي في محبسه لاحقًا بعد إضراب عن الطعام دام أربعة وسبعين يومًا. م: ١٧٧

عازف كمان (ب. ا.): عازف كمان طُرِد من مقهى دونيا روسا بعد مشادة نشبت بينه وبين خوسيه رودريجيث دي مدريد. م: ٧، ٢٦

عازف كمان (ب. ا.): عازف كمان بصالون يجلس فيه پابلو ولاوريتا. م: ١٢٢

عاشقان: "وفي أحد الأركان جلس عاشقان، وقد شخص كلٌّ منهما إلى عينيّ الآخر، يبوح له بعشقه في صمت، اليد فوق اليد (...)" م: ١٧٧

عشاق: "عشاق يتحابون في خضم البرد، في وجه الريح والعقبات، وقد تشابكت أذرعهم بإحكام، ينشدون الدفء يدًا بيد (...)" م: ٥٣

(غ)

غادة الكاميليا: لقب يلجأ إلى استخدامه ماوريثيو سيجوبيا في تلميح إلى سنيور سواريث، إشارةً إلى زهرة الكاميليا التي يضعها الأخير في ياقة المعطف. م: ٩١

غجرية (ب. ا.): غجرية بدينة تبيع تذاكر اليانصيب في شارع جويا. م: ٥٣

(ف)

فِرناندو كاثويلا: من جيران دونيا مارجوت، ويعمل مندوبًا لدى المحكمة. م: ٩٢

فادريكيه: ابن أسونثيون وفادريكيه مينديث. م: ١٧٤

فادريكيه مينديث: زوج أسونثيون روبليس "وهو مساعد طبي في جوادا لاخارا ورجل مجتهد ماهر، له أصابع تُلفُّ في حرير، يستطيع إعطاء حقنة

لطفل صغير أو حقنة شرجية لعجوز ذات شأن رفيع، بالمهارة نفسها التي يصلح بها جهاز راديو أو يرتق حقيبة من المطاط." م: ١٧٤

فتاة (ب. ا.): فتاة تمرُّ بجوار مارتين ماركو بعد طرده من مقهى دونيا روسا. م: ٤٨

فتاة (ب. ا.): فتاة طلبت من دون ليونثيو مايستري أن يشعل سيجارتها. م: ٣٢

فتاة (ب. ا.): فتاة تعقِّب على مقتل دونيا مارجوت في الشارع. م: ٩٠

فتى الحانة (ب. ا.): فتى الحانة التي يذهب إليها ريكاردو سوربيدو وماريبيل بيريث. م: ١٧٧

فتيات (ب. ا.): فتيات ينظرن إلى مارتين ماركو. م: ١٤٧

فرانثيسكو: ابن دونيا سوليداد دي كاسترو ودون فرانثيسكو روبليس. "أما أكبر الذكرين الوحيدين وثالث الأبناء جميعًا، ويُدعَى فرانثيسكو، فطالما كان حبَّة قلب سنيورا سوليداد. يعمل في الوقت الراهن طبيبًا عسكريًا بمستشفى كارابانتشيل، ويأتي إلى البيت كي يبيت ليلته أحيانًا" م: ١٧٤، ١٨٤.

فرانثيسكو خابيير: اسم أحد الأطفال الصينيين في المعمودية، وقد اختارته دونيا بيسيتاثيون ليكليرك دي مويسيس. م: ١٠٢

فرانثيسكو روبليس إي لوبيث-پاتون: زوج دونيا سوليداد. »طبيب أمراض سريَّة (...) دون فرانثيسكو له عيادة شعبية تُدِرُّ عليه دخلًا مجزيًا كل شهر. تحتلُّ واجهات العيادة الأربع، المُطلَّة على الشارع، لافتة تجذب الأنظار كُتِب عليها: معهد پاستور- كوخ. الطبيب - المالك دكتور فرانثيسكو روبليس. تخصُّص سُلّ، أمراض رئة، أمراض قلب، أشعة سينية، أمراض جلدية، أمراض تناسلية، زهري، علاج البواسير بالتخثير الكهربائي. قيمة

الاستشارة: ٥ بيسيتا. المرضى الفقراء من ميدان كيبيدو، وبرابو موريّو، وسان برناردو، وفوينكارّال، يؤمنون بدون فرانثيسكو إيمانًا عظيمًا" م: ٩٤ (...)

فرانثيسكو لوبيث: من جيران دونيا مارجوت. وهو مالك كوافير السيدات كريستي آند كيكو. م: ١٠٤

فرانك كاپرا (ش. و.): (١٨٧٩ ـ ١٩٩١) مخرج سينمائي أمريكي. م: ١٢٤

فروكتووسا: عمة ماتيلديتا وحارسة العقار بشارع فِرناندو السادس. م: ١٠٦

فريدرش هولدرلين (ش. و.): (١٧٧٠ ـ ١٨٤٣) شاعر ألماني. م: ٥٢

فلوريس: صديق بائعة الهوى الشهيرة بالأوروجوانية. م: ١٣٥

فلورينتينو دِل ماري نوستروم:الاسم الفني لابن دونيا ماتيلديه المونولوجست. م: ٣٠، ٩٥

فوهرر: انظر هتلر.

فيدي: زوج أنيتا، ابنة شقيق دونيا پورا. "شاب يمتلك متجرًا للحلوى في أويسكا (...) فيديل شاب له شارب دقيق، ويضع ربطة عنق بلون أخضر فاتح. أُصيبَ بعلَّة جسدية خلال فترة المراهقة، أو بالأحرى خاض حملات تطهيرية، لكونه قد سلك طريق المتعة من دون أن يتوخَّى الحذر أو يراعي النظافة (...)" م: ١٦٦

فيديل إرنانديث: والد إلبيرا. "مُحتال يجدر توخِّي الحذر في التعامل معه، كان يُدعَى في حياته فيديل إرنانديث. قَتَل فيديل إرنانديث زوجتَه إودوسيا بمِخْرَزٍ يُستخدم في صناعة الأحذية، فحُكِم عليه بالإعدام شنقًا (...) م: ٢٢

فيديل أوتريرا: من جيران دونيا مارجوت ويعمل مساعداً طبياً. م: ١٠٤

فيديل بوستامانتيه: انظر فيديل.

فيلو: (فيلو ماركو جونثاليث) أخت مارتين ماركو وزوجة دون روبرتو جونثاليث. «تعمل إلى أن تسقط أرضًا من الإعياء، ولها خمسة أطفال صغار وخادمة في الثامنة عشرة من العمر للعناية بهم (...)"م: ٥١ (...)

فيلومينا لوپيث دي ماركو: والدة فيلو ومارتين ماركو الراحلة. م: ٢١٤، ٢٢٤

(ق)

قاضٍ (ب. ا.): قاضٍ يستجوب جيران دونيا مارجوت إثر مقتلها. م: ٩٢

قائد الدراجة (ب. ا.): قائد دراجة كان على وشك الاصطدام بمارتين ماركو في أثناء سيره بشارع مانويل سيلبيلا م: ٥٢

قِسٌّ بيلباو (ب. ا.): قِسٌّ صاحب معجزات بحسب ما ورد في مجلة ملاك الكاروبيم المُبشِّر. م: ١٠٢

(ك)

كارلوس لوكيه: من جيران دونيا مارجوت. م: ١٠٤

كارمن: "سنيورا عجوز تلتحف بالدانتيلا تمامًا، تلطِّخ وجهها بمساحيق التجميل كالدُّمي، تضع شعرًا مستعارًا وتُدعَى دونيا كارمن. في الجوار يطلقون على دونيا كارمن لقب شعر الجثة التحقيري. أما الأطفال في الشارع فيؤثرون تسميتها بالجرادة." ١٩٧

كارمن ديل أورو: انظر ماريا أنجوستياس. اسم شهرة خلعته على نفسها ماريا أنجوستياس، ابنة دونيا سوليداد ودون فرانثيسكو روبليس.

كاسيميرو پونس: يمتلك أبناؤه وزوجته شركة منسوجات باسمه. م: ١٠٤

كاميلو پيريث: من جيران دونيا مارجوت. اختصاصي العناية بالقدم. م: ١٠٤

كفيف (ب. ا.): كفيف يمرُّ من بين الطاولات ينادي على تذاكر اليانصيب في الحانة التي يذهب إليها ريكاردو سوربيدو وماريبيل پيريث. م: ١٧٧

كلاريتا موراليس دي پيريث: زوجة دون كاميلو پيريث. م: ١٢٦

كليمينتيه دي دييجو (ش. و.): فيليپيه كليمينتيه دي دييجو (١٨٦٦ ـ ١٩٤٥) سياسي وأستاذ قانون مدني إسباني، تولَّى رئاسة القضاء العالي فضلاً عن مناصب أخرى. م:٨١

كونتشيتا إيبانييث: زوجة إستانيسلاو ألبا وأم خصية ألبا. م: ٢٠٠

كونسورثيو لوپيث: مدير مقهى دونيا روسا. "والمدير يُدعَى لوپيث، كونسورثيو لوپيث، من مواليد توميِّوسو بمقاطعة ثيوداد ريال، وهي بلدة ضخمة، رائعة الجمال، وواسعة الثراء. لوپيث شاب، وسيم، بل وأنيق، له يدان ضخمتان وجبين ضيِّق. لوپيث كسول قليلاً، ولا يعير مزاج دونيا روسا العكر أدنى اهتمام." م : ٢٧ (...)

(ل)

لاوريتا: عشيقة پابلو ألونسو، صديق مارتين ماركو. لاوريتا جميلة. هي ابنة حارسة عقار في شارع لاجاسكا، وتبلغ من العمر تسعة عشر عامًا. قبل ذلك لم تكُن تملك دورو واحدًا لتنفقه على التسلية، ناهيك عن خمسين دورو كي تشتري لنفسها حقيبة يد. مع حبيبها، ساعي البريد، لم تكُن تذهب إلى أي مكان. لاوريتا سئمت من الإصابة بالبرد في روساليس، إذ راح الشَّرَثُ ينتشر على أصابعها وأذنيها بكثافة. م: ٥٥

لورينثو سوجيرو: من جيران دونيا مارجوت ومالك حانة إل فونساجرادينو. م: ١٠٤

لولا لوبيث: عشيقة دون روكيه مويسيس باثكيث. "لولا هي أخت خوسيفا لوبيث، خادمة عملَتْ فيما سبق لدى آل روبليس، جمعت بينها وبين دون روكيه علاقة ما. أما الآن وقد اكتنزَتْ لحمًا وبلغت من العمر شتاءه، فقد خلعتها أختها الصغرى وحلَّت محلَّها. في الوقت الراهن، تتولَّى لولا كل شؤون بيت دونيا ماتيلديه" م : ١٠٢ (...)

لوليتا إتشيباريا دي كاثويلا: زوجة دون فرناندو كاثويلا وعمة ألفريدو أنجولو إتشيباريا. م: ١١٦

لويس: ساقي القهوة بمقهى دونيا روسا. م: ٢٠ (...)

لويس نواليخو: من جيران دونيا مارجوت، مُمثِّل شركة أرملة كاسيميرو پونس وأولادها للمنسوجات. م: ١٠٤

ليو تولستوي (ش. و.): (١٩٢٨ ـ ١٩١٠) أديب روسي. م: ٧١

ليوكاديا: بائعة الكستناء. م: ٦٠، ٧٢

ليوناردو كاسكاخو: مدرس حكومي، كتب نعي دون أوبدوليو كورتيس لوبيث، زوج دونيا ثيليا بيثينو. م: ١١٣

ليوناردو ميلينديث: "دون ليوناردو محتال يعيش على مال غيره وعلى وضع مخططات لمشاريع تجارية لا ترى النور أبدًا. ليس الأمر أنها تفشل، كلا، بل أنها وببساطة لا ترى النور، فلا تلقى نجاحًا ولا فشلاً. دون ليوناردو يرتدي ربطات عنق زاهية للغاية ويضع مُثبِّت شعر، مُثبِّت شعر ذا عطر نفَّاذ تفوح رائحته عن بعد. يبدو بمظهر سنيور موقَّر، على قدر عظيم من الرصانة، رصانة رجل له من الحنكة الشيء الكثير. أما أنا فلا يبدو لي أنه على هذا القدر من الحنكة، ولكن الحقيقة أن له لفتات رجل لم تخلُ حافظته من النقود يومًا. يقابل الدائنين ركلاً بالأقدام، في حين يبتسم له الدائنون ويتطلَّعون إليه في إجلال، في ظاهر الأمر على الأقل. لم يخلُ الأمر ممن فكَّر في مقاضاته وتحرير محضر ضده، بَيْد أن أحدًا لم يفتح النيران حتى الآن."م : ٢، ٢١، ٤٤

ليونثيو مايستري: من جيران دونيا مارجوت. يتودَّد إلى سنيوريتا إلبيرا في المقهى. م: ٢٧

ليونور دي لا روسا: بطل إحدى السير الشعرية الأثيرة لدى ثيليستينو أورتيث، مالك حانة فجر. م: ١٣٢

(م)

ماتيلديتا: حبيبة ماكاريو، عازف البيانو بمقهى دونيا روسا. "ماتيلديتا لها شعر يبدو كالسنبلة، وبصر حسير بعض الشيء. ضئيلة الجسد وطريفة، وإن كانت تفتقر إلى الجمال قليلًا. تعطي بعض دروس البيانو كلما استطاعت. كما تُعلِّم البنات الصغيرات رقصات تانجو من الذاكرة، وذلك أمر له كبير الأثر." ١٠٧

ماتيلديه: امرأة على المعاش. من زبائن مقهى دونيا روسا الدائمين. "دونيا ماتيلديه بدينة، قذرة وكثيرة الادِّعاء. تفوح منها رائحة كريهة ولها بطن هائل الضخامة، ملآن بالماء عن آخره." م: ٣٠ (...)

مارَّاكا: جامعة الحطب بمرج فرانثيلوس في ريبادابيا، والتي أنجبت اثنتي عشرة بنتًا، جميعهن بائعات هوى. م: ٢٢

مارتين ماركو: "رجل هزيل، شاحب، سقيم، على عينيه نظارة مصنوعة من سلك رخيص. يرتدي سترة بالية وسروالاً مهترئًا، ويعتمر قبعةً قابلة للطي ذات لون رمادي داكن، يحيط بها شريط قذر، ويتأبط كتابًا مُغلَّفًا بورق الجرائد (...) ليس ذلك الزبون بنكرة، ليس مجرد واحد من بين الكثيرين، ليس مجرد رجل من العامة، ليس مجرد رجل من بين الجموع، أو مجرد كائن عادي. له وشم على ذراعه اليسرى وندبة عند ملتقى الفخذين. نال حظه من الدراسة ويُترجم عن الفرنسية قليلاً. تابَع بعناية المتغيرات التي مرَّتْ بها الحركة الفكرية والأدبية. يكاد يستطيع تلاوة بعض مقالات

المنشورة في جريدة إل سول من الذاكرة. حظي في شبابه بحبيبة سويسرية ونظم الأشعار الأولترايبستا." م: ٤٨ (...)

مارجاريتا: عاملة كيّ في بيت دونيا خيسوسا. "وهي ابنة رجل عمل في حياته حمالاً بمحطة لاس ديليثياس. في الخامسة عشرة من العمر حظيتْ بعشيق يُدعَى خوسيه، لم تعرف عنه أكثر من ذلك. كان مولعًا بالرقص في المطاعم المفتوحة بلا بومبِيًّا. أخذها يومًا إلى جبل إل پرادو ثم هجرها. بدأت مارجاريتا في العمل بالدعارة، وبلغت بها الحال أن راحت تجرجر حقيبتها عبر حانات أنطون مارتين. أما ما تلا ذلك فهو بالغ البذاءة، أكثر وأشد بذاءة مما تقدَّم." م: ٢٠٠

مارجوت سوبرون دي سواريث: والدة سنيور سواريث التي يُعثر عليها قتيلة في شقتها. م: ٨٦ (...)

ماركيز شاب: "الماركيز الشاب، الذي كان من نبلاء إسبانيا ويُدعَى سانتياجو، توفِّي بداء السل في إسكوريال وهو في أوج شبابه لم يزَل" م: ٤٦

ماركيز كاسا پينيا ثورانا: عشيق دونا رامونا براجادو القديم. "سبق له أن شغل مقعدًا في المجلس، كما شغل منصب وكيل وزارة المالية مرتين" م: ٩٥.

ماروخا: انظر ماروخيتا رانيرو:

ماروخيتا: بائعة هوى تعمل في بيت دونيا خيسوسا. م: ١٣١، ١٦٣

ماروخيتا رانيرو: حبيبة كونسورثيو لوپيث فيما مضى. أصبح اسمها ماريا رانيرو دي جوتييريِّث بعد زواجها من أحد الأثرياء. "كانت ماروخيتا، بعد أن تقدَّم بها العمر عشرة أعوام، قد صارت امرأة رائعة، متألِّقة، مشرقة، تفيض صحةً ونضارةً. في الشارع يستطيع الناظر إليها، أيًّا كان،

أن يشخِّص حالتها: كانت من أثرياء البلدة، موفَّقة في زواجها، تتناول الطيِّب من الطعام وترتدي الأنيق من الثياب، دَرَجَتْ على الأمر والنهي، وعلى أن تُنفَّذ رغباتها المُقدَّسة دائمًا." م: ٢٨ (...)

ماري تيري: امرأة تجلس برفقة زوجها في المطعم نفسه حيث يتناول پابلو ولاوريتا الطعام. م: ٦٨

ماري تيري: صديقة لپابلو، يلقاها في مقهى بجادة جران بيا. م: ٩٦

ماريا: صديقة دونيا پورا. دونيا پورا (...) تتحدَّث إلى صديقة لها مكتنزة، مُحمَّلة بالإكسسوارات، تُخلِّل أسنانها الذهبية بعود أسنان" م: ٣٦

ماريا أنجوستياس: إحدى بنات دونيا سوليداد دي كاسترو ودون فرانثيسكو روبليس. "وبعد زمن يسير بدأت ماريا أنجوستياس، أختها الأخرى، تعرب عن رغبتها في التوجُّه إلى الغناء، فخلعت على نفسها اسم الشهرة كارمن دِل أورو. فكَّرَتْ أولاً في اسمي روساريو خيرالدا وإسپِرانثا دي جرانادا، إلا أن صديقًا لها يعمل صحافيًا صرَفها عن ذلك قائلاً إن كارمن دِل أورو أكثر الأسماء ملائمةً." م: ١٧٤

ماريا آوكسيلیادورا: إحدى بنات دونيا سوليداد دي كاسترو ودون فرانثيسكو روبليس، وقد ترهبنت مع أختيها الأكبر سنًا. م: ١٧٤

ماريا لويسا دِل باييه: يظهر اسمها في مجلة ملاك الكاروبيم المبشر. م: ١٠٣

ماريا موراليس دي سييرًا: زوجة دون خوسيه سييرًا. م: ١٢٦

ماريانا: أخت پوريتا. م: ١٩٠

ماريبيل پيريث: عشيقة دون ريكاردو سوربيدو فيما سبق. "كانت عشيقة دون ريكاردو سوربيدو عاهرة تتضوَّر جوعًا، عاطفية، ومتحذلقة قليلًا، تُدعَى ماريبيل پيريث." ١٧٧

مارينا لوبيث أورتيجا: يظهر اسمها في مجلة ملاك الكاروبيم المبشر. م: ١٠٢

ماريو دي لا بيجا: مالك مطبعة يتّفق مع شاب جالس بالمقهى على أن يعمل لديه. م: ١٢ (...)

ماسح الأحذية: انظر سيجوندو سيجورا.

ماكاريو: عازف البيانو بمقهى دونيا روسا. "ماكاريو عاطفي يعاني من سوء تغذية، أتمَّ عامه الثالث والأربعين تلك الأيام" م: ٥٩ (...)

مالك المخبز: انظر رامون.

مانويل خوركيرا: من جيران دونيا مارجوت، وهو الطبيب استدعاه دون إبرايم بعد وقوع جريمة القتل. م: ١٠٤

مانويل كورديل إستيبان: حبيب بيسيتاثيون مويسيس السابق، وهو طالب في كلية الطب. م: ١٠٨

ماوريثيو سيجوبيا: يعمل موظفًا لدى شركة التليفونات. "يبلغ من العمر ثمانية وثلاثين أو أربعين عامًا. له شعر أحمر ووجه ينتشر فيه النمش بكثافة. يعيش بعيدًا، في أتوتشا". م: ١٧، ٨٠ ، ٥٨ ، ٩٠

مدير مقهى دونيا روسا: انظر كونسورثيو لوبيث.

مراب (ب. ا.): مرابٍ عرض على بيكتوريتا مبلغًا من النقود. م: ١٤١

مزمار أجرب: انظر تيلمو جارثيا موراّثو. لقب تحقيري كان يُطلق على تيلمو جارثيا موراّثو، شقيق الحارس المدني. م: ١٣٠

موريـّو (ش. و.): بارتولوميه موريّو، (١٦١٨ ـ ١٦٨٢)، رسام إسباني. م: ١٦٠

موظف (ب. ا.): موظف بالمقابر، يطلب منه مارتين ماركو الجريدة. م: ٢٢٨

موظفة (ب. ا.): موظفة في متجر الأدوية حيث يشتري سيوانيه النظارة لزوجته. م: ١٨٠

مومس (ب. ا.): مومس مخمورة تركل الطفل مُغنِّي الفلامنكو. م: ٥٧

مونسيرَّات: صديقة دونيا بيسي. "وهي امرأة طويلة القوام، مسترجلة، ذات شارب وعظام بارزة، تفتقر إلى اللباقة، متثاقلة في حديثها بعض الشيء، وحسيرة البصر." م: ١٠٢ (...)

ميجيل پريمو دي ريبيرا (ش. و.): (١٨٧٠ ـ ١٩٣٠) جنرال إسباني نجح في قيادة انقلاب عسكري وفرض الحُكم الديكتاتوري الذي استمرَّ من ١٩٢٣ حتى ١٩٣٠. م: ١، ١٧٤

ميجيل كونتريراس: زوج ابنة دونيا أسونثيون. "موظف غير ذي شأن بوزارة الأشغال العامة، وهو رجل سكير بعض الشيء." م: ٣٠

ميرتشيه: انظر ميرثيديتاس أوليبار بابيخو.

ميرثيديتاس أوليبار بابيخو: "تبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا ويبرز نهدها قليلاً كوردة دقيقة على وشك التفتُّح. تُدعَى ميرثيديتاس أوليبار بابيخو، في حين تدعوها صديقاتها ميرتشيه. اختفت عائلتها إبان الحرب. لقي البعض حتفه، في حين هاجر البعض الآخر. ميرتشيه تعيش مع إحدى نسيبات جدتها، وهي سنيورا عجوز تلتحف بالدانتيلا تمامًا، تلطِّخ وجهها بمساحيق التجميل كالدُّمي، تضع شعرًا مستعارًا وتُدعَى دونيا كارمن". م: ١٩٧

ميرثيديس بيثينو (ش. و.): (١٩١٦ ـ ٢٠٠٤) ممثلة سينمائية إسبانية. م: ١٩٠

(ن)

نابارّيتي (ش. و.): أحد المتورطين في جريمة قطار الأندلس السريع الشهيرة عام ١٩٢٤ وقد حُكِم عليه بالإعدام. م: ١

ناتاتشا: انظر ناتي روبليس: الاسم الذي كانت تُلقَّب به ناتي روبليس في الكلية، تيمُّنًا بالشخصية الرئيسية في مسرحية بنفس الاسم للمؤلِّف

الإسباني أليخاندرو كاسونا (١٩٠٣ ـ ١٩٦٥) وجدير بالذكر أن ناتاتشا كانت رمزًا للمرأة المتحرِّرة العصرية آنذاك. م: ١١٩

ناتي روبليس: زميلة مارتين ماركو في الكلية سابقًا، وهي ابنة دونيا سوليداد ودون فرانثيسكو روبليس. "تبدو ناتي وكأنها امرأة لا يعرفها، امرأة أخرى. تلك الفتاة التي كانت في عهد الكلية تميل إلى الهزال، وتفتقر إلى الأناقة، وتبدو بمظهر الناديات بحقِّ المرأة في التصويت، وتنتعل الأحذية الخفيضة، ولا تضع الزينة، أصبحت الآن سنيوريتا هيفاء القوام، حسنة المظهر، ترتدي الأنيق من الثياب والأحذية، تتزيَّن بدلال، بل وتتفنَّن في ذلك م: ١١٢ (...)

نادل (ب. ا.): نادل الحانة حيث يتناول الغجري الصغير عشاءه. م: ٧٠

نادل (ب. ا.): نادل الحانة حيث يذهب بابلو ألونسو ولاوريتا. م: ٥٦

نادل (ب. ا.): نادل المطعم حيث يتناول بابلو ألونسو ولاوريتا الطعام. م: ٦٨

نادل (ب. ا.): نادل مقهى سان برناردو. م: ١٠٠

نادل (ب. ا.): نادل مقهى دونيا روسا الذي يطرد مارتين ماركو. م: ٢٠(...)

نساء (ب. ا.): نساء يُنَقِّبْن في أكوام القمامة. م: ٢١٦

نيتشه (ش. و.): فريدريك نيتشه، (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) فيلسوف ألماني له عظيم الأثر على الفكر الغربي. م: ٧١، ٧٣، ١٢٥، ١٣٢

نيكولاس دي بابلوس: ثري من بالديبينياس، تزوَّج دوريتا زواجًا مدنيًّا. م: ٢٠٠

(هـ)

هتلر (ش. و.): أدولف هتلر، زعيم الحزب النازي (١٨٨٩ ـ ١٩٥٤). م: ٤٥

(و)

واليا (ش. و.): من ملوك القوط. م: ٤٢



المترجم:

- **مارك جمال**

من إصداراته:

"النسيان"، للكاتب الكولومبي "إكتور آباد فاسيولينسي"، من الإسبانية إلى العربية، دار العربي للنشر والتوزيع، القاهرة.

القائمة القصيرة لجائزة شباب المترجمين ٢٠١٥.

(طبعة أولى: يناير ٢٠١٤ ـ طبعة ثانية: يوليو ٢٠١٤ ـ طبعة ثالثة صادرة عن مكتبة الأسرة: يوليو ٢٠١٥).

"روح الدنيا"، للكاتبة الإسبانية "نوريا تيسون"، من الإسبانية إلى العربية، دار نشر "پلانيتا"، مدريد (فبراير ٢٠١٢).

خبرات مهنية:

مترجم من وإلى اللغة البرتغالية بسفارة البرازيل بالقاهرة. ابتداءً من مايو ٢٠١٢، وحتى تاريخه.

ترجمة العرض المسرحي "البرازيل، ليلة في القاهرة"، من اللغتين البرتغالية والإسبانية إلى العربية.

عُرضت المسرحية على مسرح الفلكي بالجامعة الأمريكية برعاية سفارة البرازيل بالقاهرة في ١٩ و٢٠ و٢٢ من فبراير ٢٠١٤.

ترجمة مختارات شعرية وعدد من المقالات لـ "أخبار الأدب"، من الإسبانية إلى العربية خلال عامي ٢٠١٤ ـ ٢٠١٥.

ترجمة مقالات سينمائية لمجلة "الفيلم" من البرتغالية إلى العربية والمشاركة في تحرير المجلة خلال عامي ٢٠١٤ ـ ٢٠١٥.

ترجمة مختارات للشاعرين المعاصرين "خوسيه إيرّو" و"أنخيل جونثاليث"، من الإسبانية إلى العربية كجزء من نص العرض المسرحي "الآخر" الذي عُرض على مسرح الفلكي بالجامعة الأمريكية برعاية سفارة إسبانيا بالقاهرة في ٢ و٣ من نوفمبر ٢٠١٢.

ترجمة تتابعية من اللغة الإسبانية خلال سلسلة ندوات بعنوان "الفلامنكو: ملتقى الثقافات" (Flamenco: Crossing of Cultures)

برعاية السفارة الإسبانية. أكتوبر ٢٠١١.

ترجمة تتابعية من اللغة الإسبانية خلال ورشة عمل "مهرج الطوارئ" (Emergency Clown) برعاية السفارة الإسبانية. أكتوبر ٢٠١١.

ترجمة فيلم "الخدعة" (El Truco del Manco) عن الإسبانية برعاية السفارة الإسبانية. أكتوبر ٢٠١١.

ترجمة تتابعية مع فريق عمل قناة TVE الإسبانية

لتغطية أحداث الثورة المصرية. يناير ـ فبراير ٢٠١١.

ترجمة تتابعية مع فريق عمل قناة La Sexta الإسبانية

لتغطية أحداث الثورة المصرية. يناير – فبراير ٢٠١١.

ترجمة تتابعية من اللغة الإسبانية خلال دورة تدريبية للطهاة بعنوان (Spain Bite by Bite) برعاية السفارة الإسبانية. أكتوبر ٢٠١٠.

ترجمة تتابعية من اللغة الإسبانية خلال ورشة عمل أزياء وأدوات تجميل بعنوان (Uncoverd) برعاية السفارة الإسبانية. يونيو ٢٠١٠.

مشاركة في ترجمة الفيلم الوثائقي "كلنا مصر" (We are all Egypt) من الإنجليزية إلى العربية ٢٠١٠ ـ ٢٠١١.

ترجمة تتابعية مع فريق عمل جريدة El País الإسبانية ٢٠١٠-٢٠١١.

ترجمة تتابعية مع فريق عمل جريدة La Razón الإسبانية. ٢٠١٠ - ٢٠١١.

مترجم حر. منذ ٢٠٠٩ وإلى تاريخه، من وإلى اللغات العربية والإسبانية والإنجليزية والبرتغالية.

مدرس لغة عربية كلغة أجنبية. منذ ٢٠٠٨ وإلى ٢٠١٢، لغة عربية فصحى وعامية قاهرية.

المؤهلات الدراسية:

دبلومة اللغة البرتغالية كلغة أجنبية (CAPLE) مستوى متقدم (C1)، مايو ٢٠١٥.

الشهادة الوظيفية في الترجمة الصحفية من الإنجليزية إلى العربية ومن العربية إلى الإنجليزية. الجامعة الأمريكية بالقاهرة (AUC)، سبتمبر ٢٠٠٩ - يونيو ٢٠١١.

دبلومة اللغة الإسبانية كلغة أجنبية (DELE) مستوى رفيع (C2)، نوفمبر ٢٠١١.

ليسانس حقوق. جامعة عين شمس. القاهرة، يونيو ٢٠١٠.

ورش العمل والدورات التأهيلية:

الشهادة الوظيفية في تدريس اللغة العربية بوصفها لغة أجنبية.

الجامعة الأمريكية بالقاهرة (AUC)، مارس ٢٠١١.

ورشة عمل ترجمة الأفلام الثالثة برعاية السفارة الإسبانية بالقاهرة، فبراير - مايو ٢٠١٢.

ترجمة الفيلم الإسباني "سبعة أيام في يناير" ضمن فعاليات الورشة، وعرض الفيلم في مركز الإبداع بدار الأوبرا في يونيو ٢٠١٢.

ورشة عمل ترجمة الأفلام الثانية برعاية السفارة الإسبانية بالقاهرة، فبراير - أبريل ٢٠١١.

ترجمة الفيلم الإسباني "زنزانة ٢١١" ضمن فعاليات الورشة، وعرض الفيلم في مركز الإبداع بدار الأوبرا في يونيو ٢٠١١.

ورشة عمل ترجمة الأفلام الأولى برعاية السفارة الإسبانية بالقاهرة، مارس - مايو ٢٠١٠.

ترجمة عدد من الأفلام القصيرة ضمن فعاليات الورشة، وعرضت الأفلام في مركز الإبداع بدار الأوبرا في مايو ٢٠١٠.

اللغات:

العربية: اللغة الأم

الإسبانية: ممتاز - حاصل على دبلومة اللغة الإسبانية كلغة أجنبية - DELE مستوى رفيع C2.

البرتغالية: ممتاز - حاصل على دبلومة اللغة البرتغالية كلغة أجنبية Caple ـ مستوى متقدمC1.

الإنجليزية: ممتاز - IELTS - score band 7.0



تُعدُّ رواية "خلية النحل"، واحدة من أبرز أعمال "ثيلا"، ومن أهم روايات حقبة ما بعد الحرب الأهلية في إسبانيا، إن لم تكُن أهمها على الإطلاق. تُرجمَت "خلية النحل" إلى عشرات اللغات الأجنبية، وأدرجتها جريدة "إل موندو" ضمن قائمة "أفضل مئة رواية مكتوبة باللغة الإسبانية في القرن العشرين".

ومن الجدير بالذكر أن الرواية قد مُنعت من النشر في إسبانيا بأمر من الرقيب، ممّا حدا بالكاتب إلى نشرها أولاً في "بوينوس أيرس" عام ١٩٥١، ولم يُصرّح بصدورها في إسبانيا حتى عام ١٩٥٥.

تدور الأحداث المُكثّفة في مدريد على مدار أيام قلائل، ما بعد الحرب، حيث يتطرّق الكاتب إلى الأوضاع العصيبة والمفارقات التي يعاني منها المجتمع، من خلال شذرات ومشاهد عابرة في حيوات شخوص الرواية الذين يُقدّر عددها بالمئات. وفي حين يغلب على أسلوب الرواية الطابع التلقائي في ظاهر الأمر، تنطوي "خلية النحل" على جهد شاق وبحث دؤوب عن الكمال.

إذ يصفها "ثيلا" في مقدمة الطبعة الأولى بأنها: "لا تعدو كونها انعكاساً شاحباً، ظلاً متواضعاً للواقع اليومي، القاسي، الحميمي، الأليم. لا تطمح إلى كونها أكثر – أو أقل، بطبيعة الحال- من شذرة حياةٍ تُروى خطوة بخطوة، في غير تحفُّظات، في غير تراجيديا غريبة، في غير شفقة، كما تجري الحياة، تحديداً. شئنا أم أبينا. والحياة هي ما يعيش في سرائرنا أو خارجنا. أما نحن فلسنا بأكثر من مَركَبة لها.

أما فيما يتعلّق بأحداث الرواية، فتدور في مدريد -خلال عام ١٩٤٣ - وسط سيل جارف، أو خلية نحل. مؤلّفة من أناس يسعدون حيناً، ولا يسعدون حيناً. وقد وضعني شخوصها على طريق الأسى خلال خمسة أعوام طوال، شخوصها الذين يتدفّقون أسراباً عبر صفحاتها (لا يركضون). وسواء أكنتُ مصيباً بشأنهم أم مخطئاً، فذلك أمر ينبغي للقارئ البتُّ فيه".

◆◆◆


ISBN# 9789779118925



٥٠ جنيهًا



تصميم الغلاف: د. هند سمير